



تدبر القرآن الكريم

دراسة تأصيلية

المجلد الثاني

د/ محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي







دراسة موضوعية تحليلية حول تدبُّر القرآن الكريم، تبيِّن أهمية تدبُّر القرآن الكريم، وعناية العلماء به، وتبرز أسباب التدبُّر والأمور المعِينة عليه، والقواعد والضوابط التي من شأنها أن تعِين المسلم على تدبُّر القرآن الكريم، والمنهج الأمثل لتدبُّر القرآن الكريم.

ولما كان خير الحديث كتاب الله؛ فإنَّ فهمه وتدبُّره والعمل به تصديقاً للأخبار، وعملاً بالأحكام، أنفس ما يبذل المرء فيه أنفاسه، وأنفع ما يمضى فيه أوقاته، وأشرف العلوم هي تلك التي تدور حول القرآن؛ فتشرح غامضه، وتوضِّح مبهمه، وتبيِّن جوانب العظمة في آياته، وشرف العلم من شرف المعلوم.

والله عزوجل هو الذي خلق الإنسان من طين، فسوَّاه وفهَّمه وعلَّمه، وأنزل إليه هذا الكتاب المبارك ليتدبَّر آياته، ويسِير عليه دستوراً عظيماً، ومنهجاً قويماً؛ حتى تستقيم أموره، وتهنأ حياته.

لذا كانت هذه الدراسة، ومن أجل إحياء عبادة التدبُّر في النفوس، جاء هذا العمل، أسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن نجد نفعه وأثره يوم نلقاه.



تدبّر
الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم



22762 Doha,Qatar
+974 44181826
tadabborq@gmail.com



isbn 978-625-645-184-1
9 786256 451841




مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة
طباعة ونشر وتوزيع
إصدارات مختارة للأسرة العربية
UFUK neşriyat
BASIN-YAYIN-DAĞITIM




تدبر القرآن الكريم
دِراسة تأصِيليّة
المجلد الثاني

تصنيف المملكة العربية السعودية

ⓗ **محمد عبد الجواد محمد الصاوي ، 1445هـ**

الصاوي، محمد عبد الجواد محمد
تدبر القرآن الكريم دراسة تأصيلية.
محمد عبد الجواد محمد الصاوي - ط1 - جدة ، 1445هـ
2مج.

رقم الإيداع: 1445/17786
ردمك: 978-603-04-9922-9 (مجموعة)
ردمك: 978-603-04-9924-3 (ج2)



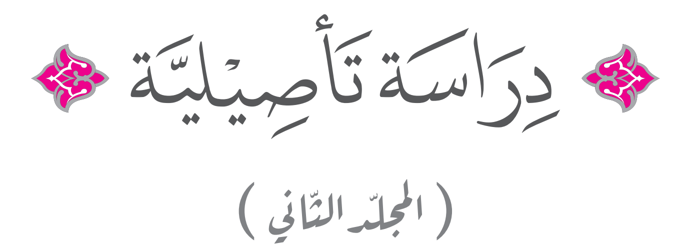
Tedebur elkuran 2

Muhammed Alsawi

1. Baskı: İstanbul
2024 - 1445







دِرَاسَة تَأْصِيلِيَّة

(المجلّد الثّاني)



أصل هذا الكتاب: (رسالة علمية قدمت لنيل درجة الدكتوراه من كلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية عام ١٤٣٦ وأجيزت بدرجة ٩٨ وتقدير ممتاز)





دراسة تأصيلية

المجلد الثاني

د/ محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي

القياس: 17 X 24 سم

عدد الصفحات: 584 ص

ISBN: 978-625-645-184-1

رقم الإيداع في المملكة العربية السعودية

1445/17786

ردمك : 978-603-04-9922-9

الطبعة الأولى

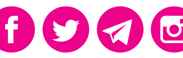
1445هـ - 2024م



خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية



www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 531 935 71 31

info@arabfamilybs.com



BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul




الباب الثاني

وسائل التدبُّر وشروطه وموانع حصوله

وفيه فصلان:

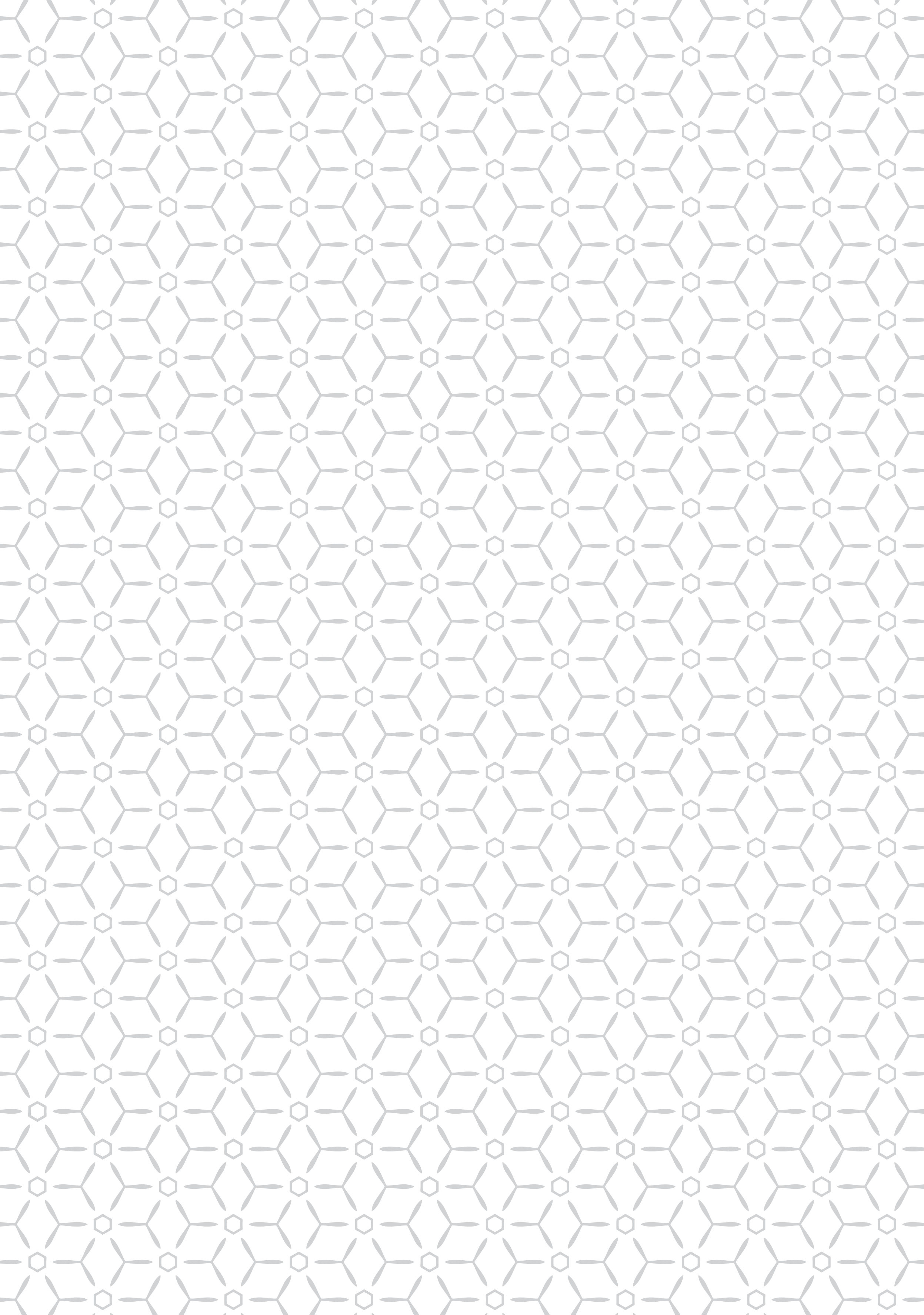
الفصل الأول

وسائل التدبُّر وشروطه

الفصل الثاني

موانع حصول التدبُّر وخطورتها



الفصل الأول

وسائل التدبُّر وشروطه

وفيه خمسة مباحث:

- **المبحث الأول** : أسباب تعين على تدبُّر القرآن الكريم.
- **المبحث الثاني:** أثر فهم اللغة في تحقيق التدبُّر الصحيح.
- **المبحث الثالث:** أثر فهم التفسير في تحقيق التدبُّر الصحيح.
- **المبحث الرابع:** أثر علوم القرآن في تحقيق التدبُّر الصحيح.
- **المبحث الخامس:** شروط التدبُّر.

المبحث الأول: أسباب تعين على تدبُّر القرآن الكريم

من المعلوم أنه إذا عظم المطلوب وجلَّ؛ فإنَّ عقلاء الناس يجتهدون في الوصول إليه وإلى تحصيله بكل وسيلة وسبيل.

وثمَّة جملة من الأسباب التي تعين وتيسِّر تدبُّر كلام الله تعالى، يمكن تقسيم الكلام عنها إلى ثلاث مطالب:

الأول: أسباب تعين على تدبُّر القرآن قبل تلاوته.

الثاني: أسباب تعين على تدبُّر القرآن أثناء تلاوته.

الثالث: أسباب عامة تعين على تدبُّر القرآن الكريم[(١)].

واعتبرت هذا التقسيم لتسهيل عملية التدبُّر على متدبِّر كتاب الله.

وتفصيل ذلك فيما يلي:

- المطلب الأول: أسباب تعين على تدبُّر القرآن قبل تلاوته:

وهذه الأسباب بمثابة تمهيد للتدبُّر، وتتلخَّص فيما يلي:

١) **وجود الدافع الذاتي والاستعداد النفسي للتدبُّر**، ويحصل ذلك بإدراك قيمة التدبُّر وأهميته وعظيم فوائده، والإخلاص لله بالتدبُّر، وأنَّ يوقن أنَّ القرآن لم ينزَّل إلا ليتدبَّره الناس، ومتى أدرك ذلك أحسن الاستعداد بها وجهه الله إليه في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:١-٤]،

---

(١) استفدت في هذا المبحث من بحث الدكتور/ عبد الله أبو المجد، بعنوان: تدبُّر القرآن الكريم المصطلح والوسائل، وكذلك بحث بعنوان: تدبر القرآن مفهومه وأهميته ووسائله وثماره، للدكتور/ عبد الواسع الغشمي، - من أبحاث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ-.

الجواب: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[المزمل:٥]، فلا بد من الاستعداد لهذا القول الثقيل، لأنه كلما عظُم المطلوب، كان الاستعداد النفسي له أهمُّ وأعظم.

ومن الاستعداد لذلك: التفرغ القلبي، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح:٧-٨]، أي: إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء[1]، ومنه السعي في تطهير القلب من الملوثات الفكرية والعواصف الشهوانية.

إنَّ هذه الدوافع مع الإخلاص في الطلب، تيسِّر على صاحبها المشقات والعقبات التي قد تعترضه في طريقه، وتصبّره بإذن الله تعالى في طريق المواصلة، "ومن تدبَّر القرآن طالباً للهدى منه؛ تبيَّن له طريق الحق"[2].

٢) **تهيئة القلب قبل البدء في التلاوة والتدبُّر**. وذلك بأمور منها:

أ- **استحضار عظمة الله تعالى**، واستشعار عظمته وقدرته وهيمنته، وعلّوه وكبريائه، وأسمائه وصفاته، قبل التلاوة؛ فإذا امتلأ القلب مهابة وتعظيماً لربه عَزَّوَجَلَّ عظَّم كلامه، وأقبل عليه مُصغِياً متأمّلاً متدبِّراً، ولم يكن عنده شيء "أرفع وَلَا أشرف وَلَا أَنْفَع وَلَا ألذَّ وَلَا أحلى من اسْتِمَاع كَلَام الله عَزَّوَجَلَّ، وَفهم مَعَاني قَوْله تَعْظِيمًا وحباً لَهُ وإجلالاً، إِذْ كَانَ تَعَالَى قَائِله؛ فحبُّ القَوْل على قدر حبِّ قَائِله"[3].

وعن سِلْم الخواص رَحِمَهُٱللَّهُ (١١١هـ)[4] قال: (كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة،

---

[1] تيسير الكريم الرحمن (٩٢٩).

[2] العقيدة الواسطية (٧٤).

[3] فهم القرآن ومعانيه للمحاسبي (٣٠٢).

[4] **سلْم بن ميمون الخواص**= الزاهد الرازي، سكن الرملة، اختلف في اسمه، فقيل: سِلْم، وقيل سالم، وقيل: =

فقلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعته من رسول الله ﷺ. قال: فجاءت حلاوة قليلة، ثم قلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من جبريل حين يخبر به النبي ﷺ، فازدادت الحلاوة. قال: ثم قلت لها: اقرئيه كأنك سمعتيه منه، يعني من الله حين كلَّم به. فجاءت الحلاوة كلُّها)[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (القرآن كلام الله وقد تجلَّى الله فيه لعباده وصفاته؛ فتارة يتجلَّى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال؛ فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكِبر كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلَّى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات، فيستنفد حبَّه من قلب العبد قوة الحبِّ كلها بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله فيصبح فؤاد عبده فارغاً إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلِّق تلك المحبة به أبى قلبه وأحشاؤه ذلك كل الإباء)[2].

ب- محبة القرآن، واستشعار عظمته، والانشغال به فالقلب إذا أحبَّ شيئاً تعلَّق به، وانقطع عما سواه، فإذا أحبَّ القرآن تلذَّذ بقراءته، واجتمع على فهمه ووعيه، وحصل التدبُّر المقصود، والعمل المنشود.

ولا بدَّ لهذه المحبة من علامات، أهمها: الفرح بلقاء القرآن، والجلوس معه أوقاتاً طويلة دون ملل، والشوق إليه متى بعد العهد عنه، وكثرة مشاورته في كل الأمور، والثقة بتوجيهاته، وطاعته أمراً ونهياً[3].

مسلْم، قال أبو حاتم: أدركت سلم بن ميمون ولم أكتب عنه، توفي في حدود العشرين والمائتين، ومات بطبرية، انظر ترجمته: حلية الأولياء (٨/ ٢٧٧)، تاريخ دمشق (٤٥/ ٤٠٥)، سير أعلام النبلاء (٨/ ١٧٩).

(١) ذكره عنه الأصبهاني في سير السلف الصالحين (١٠٠٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧١/ ٤٨)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٤١٥).

(٢) الفوائد (٦٩).

(٣) انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (٢٧-٢٨).

عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (من أحبَّ أن يعلم أنه يحب الله؛ فلينظر إلى القرآن، فإن كان يحبُّ القرآن فإنه يحب الله ورسوله)[1].

فتحصيل حبِّ القرآن من أنفع الأسباب لحصول أقوى وأعلى مستويات التدبُّر، ومن أنفع أسباب محبَّة القرآن: معرفة ما جاء عن عظمة القرآن، مما جاء في القرآن والسنة وأقوال السلف في حبِّهم للقرآن وتعظيمهم له.

ج- **الدعاء بالتوفيق للتدبُّر وانشراح الصدر له:** وهو من أهمِّ أسباب التدبُّر، فمهما بذل الإنسان من وسائل وطرق، ومهما اجتهد في ذلك؛ فلن يظفَر بمراده إذا لم يُعنه مولاه عَزَّوَجَلَّ، فهو بحاجة إلى دعاء الله تعالى أن يرزقه العيش في رحاب القرآن، وأن ييسِّر له فهم آياته وألفاظه، وأن يجعله ربيعاً لقلبه وفؤاده، ويلحَّ على الله في ذلك، ويصبر حتى يستجيب الله له، ويحقق مراده[2].

ولقد كان سؤال الله الفهم والعلم من طريق الراسخين في العلم.

قال ابن عبد الهادي رَحِمَهُٱللَّهُ (٧٤٤هـ) عن شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ): (وكان رَحِمَهُٱللَّهُ يَقُول: رُبمَا طالعت على الْآيَة الْوَاحِدَة نَحْو مائَة تَفْسِير، ثمَّ أسأَل الله الْفَهم، وَأَقُول: يَا معلم آدم وَإِبْرَاهِيم عَلمنِي، وَكنت أذهب إِلَى الْمَسَاجِد المهجورة وَنَحْوهَا، وأمرغ وَجْهي فِي التُّرَاب، وأسأل الله تَعَالَى وَأَقُول: يَا معلم إِبْرَاهِيم فهمني)[3].

د- اليقين التام أن خطاب القرآن جاء في الأصل موجهاً إلى القلب: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، فالقلب سيد الجوارح وبصلاحه

---

[1] سبق تخريجه في المجلد الأول ص(٢٢٨).

[2] انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (٣٠-٣١).

[3] العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (٤٢)، وانظر كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) د/ ناصر العمر (١٥١).

صلاحها، وبفساده فسادها، وأعظم أثر للقرآن وتدبُّره إنما هو في القلب، والمقصود الأعظم للتدبُّر؛ تدبُّر القلب له، فاستشعاره لذلك يُصلِح أمره، ويقوّم اعوجاجه، وهو من الدوافع للتدبُّر لمن يريد لقلبه أن يحيى حياة حقيقية بالقرآن.

واليقين كذلك بأنَّ القلب حيٌّ بتدبُّر القرآن، ميت بدونه، مصداق قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام:١٢٢]، فإذا كان الذي أوتي القرآن معه نور يمشي به، ففاقده يتخبط في الظلمات.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]. فإذا كان القرآن روحاً وحياة، ففقده حرمان وموت.

وأيضاً: التسليم والثقة المطلقة بالنص القرآني، وإخضاع الواقع له.

"إنَّ العكوف على هذا القرآن - في وعي وتدبُّر، لا مجرَّد التلاوة والترنم- لينشىء في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة، ومن الحرارة والحيوية والانطلاق، ومن الإيجابية والعزم والتصميم؛ ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب، وإنَّ رؤية حقائق الوجود[١]- من خلال التصوير القرآني- وحقائق الحياة،

---

(١) المراد بذلك: معرفة العبد أصل وجوده، وسبب ذلك، وهو تحقيق العبودية لله وحده لا شريك له، فالله سبحانه هو الذي خلق الإنسان وأوجده من العدم، ودليل أن الله خلق الإنسان، دليل سمعي وعقلي؛ أما السمعي فكثير ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ [الأنعام:٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر:٢٦]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ [الروم:٢٠]، وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٤﴾ =

ورؤية الحياة البشرية وطبيعتها وحاجاتها من خلال التقريرات القرآنية، لهي رؤية باهرة واضحة دقيقة عميقة، تهدي إلى معالجتها وإلى مزاولتها بروح أخرى، غير ما توجه إليه سائر التصويرات والتقريرات البشرية.."[1].

هـ- التواضع واللين لتدبُّر القرآن وفهم معانيه:

فقد وصف الله اليهود والنصارى بقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[المائدة:٨٢-٨٣]، وبيَّن أنَّ النصارى منهم قسيسين ورهباناً، وأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق، وإذا سمعوا القرآن فاضت أعينهم بالدمع.

فتضمَّن وصفهم بأنَّ فيهم العلم والعبادة والتواضع، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

[الرحمن:١٤]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

أما الدليل العقلي: فقد جاءت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥]، فإنَّ الإنسان لم يخلق نفسه لأنه قبل وجوده عدم والعدم ليس بشيء وما ليس بشيء لا يوجد شيئاً، ولم يخلقه أبوه ولا أمه ولا أحد من الخلق، ولم يكن ليأتي صدفة بدون موجد؛ لأنَّ كلَّ حادث لا بد له من محدث؛ ولأنَّ وجود هذه المخلوقات على هذا النظام والتناسق المتآلف يمنع منعاً باتاً أن يكون صدفة، إذا الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره، فتعيَّن بهذا أن يكون الخالق هو الله وحده فلا خالق ولا آمر إلا الله، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[الأعراف:٥٤].

انظر: شرح ثلاثة الأصول، لشيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٩).

[1] في ظلال القرآن (٣/ ١٤٢٦).

ثمَّ وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، وأنه ليس فيهم تكبُّر ولا عتوٍ عن الانقياد للحق؛ وذلك موجب لقُربهم من المسلمين ومن محبَّتهم، فإنَّ المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر[1].

فالتواضع والإقرار بالحق عند ظهوره من الأشياء المعينة على تهيئة القلب لتدبُّر القرآن، والمؤمن يرجع إلى الحق إذا ظهر له، وإذا ذكِّر بالقرآن تذكَّر، وقد أمر الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[ق:٤٥]؛ لأنَّ من الناس مَن تأخذه العزة بالإثم إذا ذُكِّرَ بالقرآن، فيحول بينه وبين فهمه، قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾[الأعراف:١٤٦]، فالمتكبِّر يحرَم بركة القرآن.

و- تهيئة الزمان والمكان المناسب للتدبُّر.

وهذا من أهمِّ العوامل المساعدة على تهيئة القلب للتدبُّر.

ويتأكد دور تهيئة الأجواء الإيمانية قبل البدء في التلاوة، فهي من الأمور المعينة على صفاء القلب والذهن للتدبُّر، "أما الذي لا يعطي القرآن إلا فضول الأوقات، ولحظات الترقُّب والانتظار، فجدير أن لا تخلص إلى قلبه كثير من معانيه"[2].

فيكون المكان هادئاً بعيداً عن الضوضاء، نظيفاً مهيئاً للتركيز، وأحسنها المساجد.

وتهيئة الزمان تكون ببذل المتدبِّر نفيس وقته، الذي ينْشَط فيه عقله، وتفارقه الصوارف، وتتوفَّر فيه راحته ونشاطه وتركيزه، بعيداً عن الضوضاء والضجيج، ويداوم على ذلك.

وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه أحسن الأوقات للعيش مع القرآن، ومنها:

---

[1] انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٦٨)، تيسير الكريم الرحمن (٢٤١).

[2] كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) د/ ناصر العمر (١٥٣).

[3] كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) د/ ناصر العمر (١٥٣).

* في الصلاة، وهذا أفضل الأوقات، قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء:٧٨].

* في صلاة الليل، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩]، وقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩]، وقوله: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل:٦]، فصلاة الليل "أوفق بالمصلي بين اللسان والقلب، أي بين النطق بالألفاظ وتفهُّم معانيها للهدوء الذي يحصل في الليل وانقطاع الشواغل...وصلاة الليل أعون على تذكُّر القرآن، والسلامة من نسيان بعض الآيات، وأعون على المزيد من التدبُّر "[1].

وأفضل أوقات الليل: وقت السحر في الثلث الأخير من الليل، حين يتجلَّى ربنا سبحانه، وينزل إلى السماء الدنيا نزولاً يليق بجلاله وعظمته.

وعن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ**»[2].

ففيه دليل على أنَّ الأصل في قراءة القرآن أن تكون في الليل، لأنه أجمع للقلب، وأصفى للذهن، وأبعد عن الانشغال بسائر الملهيات، ولأنَّ "الليل أخص بالنفحات الإلهية، وبتجليَّات الربِّ سبحانه لعباده، وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل وسكون الليل، ورهبته أقوى على استحضار القلب وصفائه"[3]، وأدعى للتدبُّر.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٩/ ٢٦٣).

(٢) سبق تخريجه في المجلد الأول ص(١٩١).

(٣) أضواء البيان (٩/ ٣٨).

* بعد صلاة الصبح إلى أن تشرق الشمس: وهذا وقت الذكر، ولا ذِكْر أعظم من تلاوة القرآن وتدبُّره، مع حُسن الأجر والمثوبة في مثل هذه الأوقات[1].

ز- **الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم**، واستحضار طلب عون الله تعالى من كيد الشيطان، الذي يسعى جاهداً للصدِّ عن تلاوة كلام الله وتدبُّره، والإحالة بين القارئ وبين الانتفاع بالقرآن، والله تعالى يقول: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨]، أي أردت أن تقرأ، مع تهيؤه واستعداده بالطهارة والوضوء، فإنَّ الشيطان من النار، وإنما يطفئ الماء النار.

وليس المراد بالاستعاذة مجرَّد التلفُّظ بالتعوُّذ فحسب، بل استعاذة حقيقية فيها استحضار واعتقاد جازم،"لئلا يلبِّس على القارئ قراءته ويخلط عليه، ويمنعه من التدبُّر والتفكُّر"[2]، فهي تمهيد لقارئ كتاب الله، وتطهير له من الوسوسة، واتجاه بالمشاعر إلى الله خالصة، لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشرِّ الذي يمثِّله الشيطان.

وكما أنَّ التعوُّذ من الشيطان مأمورٌ في بداية التلاوة والتدبُّر، فإنه كذلك مأمور به في نهايتها، في قول مَنْ أخذ بظاهر قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل:٩٨]؛ وذلك أنَّ القارئ حصّل بقراءته ثواباً، فحتى لا يأتيه الشيطان بالعُجب، ويفوّت عليه ثواب التلاوة ينبغي أن يستعيذ بالله تعالى منه.

وقد"دلَّت هذه الآية على أنَّ قراءة القرآن شرط، وذِكْر الاستعاذة جزاء، والجزاء متأخر عن الشرط، فوجب أن تكون الاستعاذة متأخرة عن قراءة القرآن، ثم قالوا: وهذا موافق لما في العقل؛ لأنَّ من قرأ القرآن فقد استوجب الثواب العظيم، فلو دخله العجب في أداء تلك

---

(١) كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) د/ أسماء الرويشد (١٨-٢٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ٦٠٢).

الطاعة سقط ذلك الثواب، لقوله ﷺ: «**ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ**».. وذكر منها: «**وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ**»[1]، فلهذا السبب أمره الله سبحانه وتعالى بأن يستعيذ من الشيطان، لئلا يحمله الشيطان بعد قراءة القرآن على عمل يحبط ثواب تلك الطاعة"[2].

٣) تفعيل أدوات التدبُّر الإدراكية[3]، ومنها:

أ- إعمال السمع في الإنصات للقرآن:

قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٩٨هـ): (أول العلم الاستماع، ثمَّ الإنصات، ثمَّ الحفظ، ثمَّ العمل، ثمَّ النشر)[4].

"فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنيَّة صادقة على ما يحبُّ الله؛ أفهمه كما يحبُّ، وجعل له في قلبه نوراً"[5].

---

(١) حسن. وتمام الحديث: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: الِاقْتِصَادُ فِي الْغِنَى وَالْفَاقَةِ، وَمَخَافَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَى وَالْغَضَبِ**»، والحديث أخرجه الدولابي في الكنى والأسماء (٢/ ٤٦٩) برقم: (٨٤٧)، والدينوري في المجالسة (٣/ ٢٥٦) برقم: (٨٩٩)، والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٨) برقم: (٥٤٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠٣) برقم: (٧٣١). والحديث حسَّنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٤٥)، وفي صحيح الترغيب (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي (١/ ٦٦).

(٣) سيأتي الكلام عن أدوات التدبُّر في المبحث الأول من الفصل الثاني في الباب الثالث.

(٤) أخرجه عنه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٨٤) برقم: (١٦٥٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٧٧).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٧٦).

ولذلك حثَّ الله عَزَّوَجَلَّ على إعمال السمع فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف:٢٠٤]، أي: "أصغوا له سمعكم، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه ﴿وَأَنصِتُوا۟﴾ إليه لتعقلوه وتتدبَّروه، ولا تلغوا فيه فلا تعقلوه"[1].

ب- إعمال البَصَر والبصيرة في تدبُّر القرآن:

والقرآن الكريم وضع أسساً وأطواراً مختلفة للإدراك البصري الصحيح، في سياق حديثه عن تفعيل وسيلة الإبصار وأهميتها؛ يبدأ بنظرة كلية إجمالية، ثم يبدأ بتحليل الموقف، وإدراك العناصر المكونة له، وقد تضمَّنت آيات سورة الملك تلك الأسس العلمية في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[الملك:٣][2].

ج – اقتران القلب بحاستي السمع والبصر:

وسرُّ الاقتران: أنَّ هذه الثلاثة: هي طرق العلم وهي: السمع، والبصر، والعقل.

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ): (ثم إنه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل:٧٨]، خصَّ هذه الأعضاء الثلاثة، لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينميها فيهم شيئا فشيئا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه وقابل النعمة بأقبح المقابلة)[3].

---

(١) جامع البيان (١٣/ ٣٤٤-٣٤٥).

(٢) انظر: تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق- د/ رقية العلواني (٤٨-٥٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٤٤٥).

٤) الوقوف على قواعد النظم القرآني وأسلوب القرآن.

مما يعين على تدبُّر القرآن؛ أن يقف المتدبِّر على شيء من قواعد النظم القرآني، وأساليبه في التعبير؛ وذلك يجعل القارئ على بيِّنة من الأسلوب القرآني، فتندفع عنه الدهشة التي قد تعتريه أثناء تلاوته، كالوقوف على أسرار التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والإطناب والإيجاز، والتوكيد، ونحو ذلك مما يعين على التدبُّر.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٤هـ): (اعلم أنَّ هذا علم شريف المحلِّ، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا ذوو بصيرة تستقصيه، وهو أرقُّ من الشعر، وأهول من البحر، وأعجب من السحر، وكيف لا يكون وهو المطلع على أسرار القرآن العظيم، الكافل بإبراز إعجاز النظم المبين؛ ما أودع من حسن التأليف، وبراعة التركيب،... مع سهولة كلمه، وجزالتها وعذوبتها وسلاستها، ولا فرق بين ما يرجع الحسن إلى اللفظ أو المعنى)[1].

ولا يُطالَب المتدبِّر هنا بالإلمام بالخصائص الأسلوبية للقرآن الكريم، والوقوف عليها وقوف المتخصصين، وإنما يُطلب منه أن يعلم ما يحتاجه من هذه العلوم، ويطَّلع على الضروري منها للتعامل مع القرآن، ويأخذ مجمل الموضوع بإيجاز واختصار يحقق الغاية، ويمكنه أن يكتفي بدراسة كتاب واحد من علوم القرآن، التي تعرِض هذه العلوم والمعارف والموضوعات بإيجاز قاصد مجمل مفيد..[2].

وأساليب القرآن وقواعد النَّظم كثيرة، منها على سبيل المثال:

- ختم الآيات بأسماء الله الحسنى، للدلالة "على أنَّ الحُكم المذكور له تعلُّق بذلك الاسم الكريم، وهذه القاعدة لطيفة نافعة، عليك بتتبعها في جميع الآيات المختومة بها، تجدها في غاية المناسبة، وتدلُّك على أنَّ الشرع والأمر والخلق كله صادر عن أسمائه وصفاته ومرتبط

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٨٢).

(٢) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن للخالدي (١٤٢).

بها. وهذا باب عظيم في معرفة الله ومعرفة أحكامه، وهو من أجلِّ المعارف وأشرف العلوم؛ فتجد آية الرحمة مختومةً بصفات الرحمة، وآيات العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر"[1].

ومن أمثلة ذلك ما قاله الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١٦هـ): (قرأت هذه الآية: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨]، وإلى جنبي أعرابيٌّ، فقلت: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، سهواً، فقال الأعرابي: كلام مَن هذا؟ قلت: كلام الله. قال: أعد فأعدت: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فقال: ليس هذا كلام الله، فتنبهت، فقلت: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨]. فقال: أصبت، هذا كلام الله. فقلت له: أتقرأ القرآن؟ قال: لا. قلت: فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال: يا هذا عزَّ فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع[2].

- ومن أساليب القرآن: الوصف الحي بالصورة المحسوسة المتخيَّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية، فتصير وكأنَّ فيها حياة شاخصة، وحركة متجددة، حتى كأنها الحياة الحقيقية وليست حكاية حياة.

والتصوير هو الأداة الغالبة في أسلوب القرآن، فكثيراً ا تتحوَّل المعاني الذهنية إلى صور حسِّية، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

* في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾[الحج:٣١]، هكذا في ومضة.. يخرُّ من السماء من حيث لا يدري أحد، فلا يستقرُّ على الأرض لحظة، إذ ستخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق حيث لا يدري أحد.

---

[1] القواعد الحسان في تفسير القرآن (٥٣)، وانظر الفصل الأول من الباب الثالث ففيه مزيد تفصيل.

[2] ذكر القصة ابن الجوزي في زاد المسير (١/ ٥٤٦)، وأبو حيان في البحر المحيط (٤/ ٢٥٥)، وابن القيم في جلاء الأفهام (١٧٢)، والسمين الحلبي في الدر المصون (٣/ ٨٧)، ولم أقف عليها مسندة.

* وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣]، يصوِّر سبحانه أنَّ أعمال الذين كفروا كأن لم تكن قبل شيئاً، وستضيع إلى غير عودة، فلا يملكون لها رداً[(١)].

- ومن أساليب القرآن الكريم وقواعد نظمه: اختلاف مساق إيراد القصص، "فحيث ذكر قصص الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ كنوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، وهارون، فإنما ذلك تسلية لمحمد ﷺ، وتثبيت لفؤاده؛ لما كان يلقى من عناد الكفار وتكذيبهم له على أنواع مختلفة، فتُذكر القصة على النحو الذي يقع له مثله، وبذلك اختلف مساق القصة الواحدة بحسب اختلاف الأحوال، والجميع حق واقع لا إشكال في صحته"[(٢)].

٥) الوقوف على معاني الآيات، وأحوال النزول.

من الأمور التي تعين على تدبُّر القرآن الكريم: معرفة معاني الآيات، وموضوعات السور إجمالاً، وأسباب النزول الصحيحة التي تعين معرفتها على التدبُّر والتأمُّل في الآيات وسياقاتها.

ومن أعظم أسباب تدبر القرآن الكريم: فهم لوازم النص ومقاصده، فإنَّ القرآن كثيراً ما يذكر في القصص مواطن العبرة، ويترك للفؤاد والعقل مطلق التأمل والتدبر في ما لم يذكر، وقد تختم الآية بلفظ عام، ليتأمَّل العقل ويتدبَّر، كما قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر:١ - ٢].

---

(١) انظر: القواعد الحسان للسعدي (٦٤)، التصوير الفني في القرآن (٣٦-٥٠).

(٢) الموافقات للشاطبي (٤/ ٢٧٤).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٥٠هـ): (ولم يقل عن كذا، بل أطلقه لأن الإطلاق أبلغ في الذم، لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم، كما تقرر في علم البيان)[1].

ويدخل في هذا السبب معرفة مقاصد سور القرآن وآياته، وهو باب عظيم لتدبُّر القرآن الكريم، وتطبيقاته في كتب التفسير كثيرة. وهذا السبب مؤثر جداً في التدبر، خاصة في القصص القرآني، والأمثال القرآنية[2].

واستعراض موضوعات السورة ومقاصدها قبل التلاوة يجلِّي للمتدبِّر فوائد نفيسة لم تخطر له من قبل على بال.

وكذلك معرفة أسباب النزول، فإنَّ القرآن نزل منجَّمًا بحسب الوقائع والأحداث، فجاء بعضه إجابةً عن سؤال، أو ردًّا لشبهة قِيلت؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[الفرقان:٣٣].

ومثلاً: الآيات النازلة في بدرٍ وأُحُد وسائر الغزوات التي نزل فيها قرآن، لا تفهم فهمًا سليمًا إلا بمعرفة وقائع هذه الغزوات، مثل فهم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤٠]، بعد معرفة ما أُصِيب به المسلمون يوم أُحُد من القتل والجراح، وكذلك لا تفهُّم آيات سورة النور في شأن الإفك إلا بمعرفة القصة، ونحو ذلك.

وأيضاً: من المعين على التدبُّر: اختيار كتاب تفسير واضح ميسَّر، خالٍ من الحشو والاستطراد، والغرائب والاسرائيليات، والتدرُّج بعده في دراسة كتب التفسير الأعلى.

---

(١) فتح القدير (٥/ ٥٩٧).

(٢) انظر: بحث بعنوان: توظيف المقاصد الشرعية في تدبُّر القرآن الكريم، للدكتور/ العربي الإدريسي (٢١)، - من أبحاث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ-.

ومن المهمِّ أن يرجع المتدبِّر في ذلك إلى كتب التفسير المعتمدة، دون الحاجة للوقوف على التفاصيل، والخوض في المطولات والشروح والروايات، إذ "ليس من شرط التدبُّر أن يكون تفصيلياً لكلِّ كلمة وكلِّ حرف، بل قد يكون التدبُّر بإدارك المعنى الإجمالي، وعقل الكليات المرادة بالآية، ولاشك أنَّ التدبُّر يكمل كلما كان العلم بالمعاني أكمل، وإن لم يكن شرط المعرفة التفصيلية للمعاني وأوجهها لازماً لمطلق التدبُّر"[(١)].

وسيأتي الكلام عن أثر التفسير في تحقيق التدبُّر في مبحث مستقل من هذا الفصل.

٦) الوقوف على شيء من أحوال النبي ﷺ والسلف في تعاملهم مع القرآن.

من المعلوم بالضرورة أنَّ النبي ﷺ كان الترجمان الحقيقي للقرآن، فهو المبيِّن لمجمله، والموضِّح لمشكله، وإذا كان الأمر كذلك، فإن تدبُّر القرآن وفهمه لا يتأتَّى إلا بالرجوع إلى ما ثبت من سيرته، وما صحّ من سنته ﷺ؛ إذ السنَّة مصدِّقة وشارحة ومفسِّرة للقرآن.

ومن شواهد ذلك: قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٤هـ): (كنت لا أسمع بحديث عن رسول الله ﷺ على وَجْهه، إلا وجدت مصداقه -أو قال تصديقه- في القرآن، فبلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[(٢)]، فجعلت أقول: أين مصداقها في كتاب الله؟ قال: وقلَّما سمعت حديثًا عن النبي ﷺ إلا وجدتُ له تصديقًا في القرآن، حتى وجدت هذه الآيات: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ﴾ [هود:١٧]، الملل كلها)[(٣)].

---

(١) كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) د/ ناصر العمر (١٤٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٥٣) في كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة أهل الإسلام.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٢٨٠).

فمن المُعين للمتدبِّر: دراسة ما أمكن من أخبار النبي ﷺ القولية والفعلية؛ ليقف على المنهج الأصيل لقراءة القرآن وتدبُّره، ويعرف حال من نزل عليه القرآن، وحال المعاصرين له، فإنَّ ذلك أدعى للامتثال، وأحرى بالاقتداء، ومن لم يتمكَّن من العيش مع معاني القرآن وقت نزولها، فلا أقلَّ من أن يتصوّر حال الناس عند نزول القرآن، وحينها تتغير نظرته وتعامله مع تلك الألفاظ، وسوف تصبح في ذهنه حية متحرّكة، ويتصوَّر أثرها على النبي ﷺ والصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فكم من آية كانت برداً وسلاماً على قلوب الصحابة، وتثبيتاً لأنفسهم، وهذا من أعظم الأمور المعينة على التدبُّر لمقاصد الآيات وحِكَمها وأحكامها.

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣٧٦هـ): (فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول ﷺ وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضمَّ إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفِّق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبُّره وتفهُّمه وكثرة التفكُّر في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمَّنه، وما تدلُّ عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالربُّ أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه)[١].

وأيضاً: فإنَّ دراسة سيرة الرسول ﷺ ومعرفة أخلاقه وشمائله، والإلمام بأقواله وأفعاله؛ من أسباب التدبُّر الصحيح؛ ذلك أنَّ الرسول ﷺ فسَّر القرآن بقوله، وأقامه بعمله وخُلقه ﷺ، بل كان ﷺ المثال الكامل للإنسان الكامل، الذي يحبُّه الله ويريد من كلِّ مؤمن أن يتأسى به، عملاً بقوله سبحانه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١]، ولمَّا سُئِلت عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ فقَالَتْ: (أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ)[٢].

---

[١] تيسير الكريم الرحمن (٣٠).

[٢] سبق تخريجه في المجلد الأول ص(٢٢١).

ولذلك فمحاولةُ تدبُّر القرآن بعيدًا عن دراسة سيرة الرسول ﷺ هي محاولة ناقصة؛ ذلك أنَّ الرسول ﷺ هو المثال التطبيقي لكتاب الله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[الشورى:٥٢].

- المطلب الثاني: أسباب تعين على تدبُّر القرآن أثناء تلاوته:

ثمَّة أمور أثناء التلاوة تعين المتدبِّر وتيسِّر له تدبُّره، ومن أهم هذه الأمور ما يلي:

١) **تطبيق سنن التدبُّر**، والتي تتضمَّن الالتزام بآداب التلاوة (الطهارة، والتهيؤ للتلاوة، والاستعاذة والبسملة، وتحسين الصوت بالقراءة، والقراءة الصحيحة السالمة من اللحن) وكذلك: ترتيل القرآن أثناء تلاوته، وترديد الآية وتكرارها، ومعرفة أحكام الوقف والابتداء، والقراءة والقيام بالقرآن في الصلاة، ومداومة النظر فيه، والقراءة حفظاً، وربط الآيات بالواقع والألفاظ بالمعاني، والجهر بالقراءة، وتحزيب القرآن، والتمهُّل، وتحسين الصوت، والخشوع دون تكلُّف[١].

٢) **التركيز والتجاوب مع الآيات الكريمة.**

والمقصود بالتجاوب: معايشة الآيات القرآنية، واستحضار معانيها، "مع تصوُّر الأثر الذي تحدثه في نفس القارئ والسامعين، فيُسَبِّح تارة، ويتساءل تارة، ويستعيذ تارة أخرى.."[٢].

إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضاً وخانات،... فإذا دخل المتدبِّر في الميادين، وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس

---

[١] سبق بيانها تفصيلاً في سنن التدبُّر.

[٢] تدبُّر القرآن للسنيدي (١٥٤).

الديباج، وتنزَّه في الرياض، وسكن غرف الخانات، اقتطعه وأوقفه ما يراه، وشغله الشاهد به عما سواه، فلم يعزب قلبه، ولم يتفرَّق فكره[١].

ومن عاش هذه المعاني، وتجاوب فكره معها، فأنَّى يغفل قلبه لحظة، أو يشرد عقله هنا أو هناك برهة؟!.

وقد كان للصحابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ أوفرُ حظٍّ، وأعظمُ نصيبٍ من تدبُّر القرآن؛ لِمَا شاهدوه من القرائنِ والأحوالِ التي اختُصُّوا بها، فحصل لهم الفَهْمُ التامُّ، والعِلمُ الصحيحُ.

"والقرآن يعطيك بمقدار ما تعطيه، ويتفتَّح عليك في كل مرة بإشراقات وإيحاءات بقدر ما تفتح له نفسك، ويبدو لك في كل مرَّة جديداً كأنك تتلقاه اللحظة"[٢].

"ومن أراد العيش مع آيات القرآن؛ فلينظر ما في القرآن من غايات وتطلُّعات، وليفتش في نفسه عن واقع تلك التطلُّعات في حياته، وليتأمَّل وصف الله لتلك التطلُّعات فيمن باشرها من الأنبياء والصالحين قبله، فمن فعل ذلك فيجد من برد اليقين، والفصْل المبين، والحِكم البالغة؛ ما ينشرح به صدره، وما يزيد معه يقينه، وسيدرِك من المعاني ما لم يدركه من قبل، ويجد للآيات تأثيراً في نفسه لم يقع له قبل ذلك، فيعيش المعاني عيشاً لا يعبِّر عنه بوصف بل تدركه المشاعر، ويخفق له القلب وتتفاعل معه النفس"[٣].

٣) البدء بالمواضع الأيسر فهمًا على القارئ.

كاختيار البدء بسور المفصَّل[٤]، كما قال سعيد بن جبير رَحِمَهُٱللَّهُ (٩٤هـ): (إِنَّ الَّذِي

---

[١] انظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (١/ ٨٧)، إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢٨٢).

[٢] في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٣٩) بتصرف يسير.

[٣] تدبُّر القرآن للسنيدي (٩٨-٩٩).

[٤] أول المفصَّل سورة الحجرات، وقيل: سورة (ق)، وسمِّي المفصَّل بذلك لكثرة انفصال بعضه من بعض، وسمي المفصَّل أيضاً الـمُحْكَم؛ لأنه لم ينسخ منه شيء، وكان واضحاً في لفظه ومعناه. انظر: جمال القراء =

تَدْعُونَهُ الْمُفَصَّلَ هُوَ الْمُحْكَمُ)، قَالَ: وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ)[1].

فابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بدأ بالمفصّل، لأنه أيسر للفهم؛ خاصّة للمبتدئين، لذا قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إن كان أحدٌ منكم متعلماً؛ فليتعلَّم من المفصَّل، فإنه أيسر)[2]، لأنه يساعد على غرس الإيمان وتثبيته، وتقبُّل الأحكام التكليفيَّة في السّوَر الأخرى[3].

ويشهد لذلك: ما أخرجه البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: (إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦]، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ)[4].

٤) تكرار الآيات التي يجد أثرها على القلب.

آيات القرآن كلها مؤثرة، لكن بعضها أكثر تأثيراً من بعض، فإذا تأثَّر المتدبِّر بآية فلا يتجاوزها إلى غيرها حتى تؤتي ثمارها؛ فيستوعب ما فيها تماماً، فإنَّ تكرار القراءة للآية مراراً وترديدها وسيلة للوقوف على معانيها ومراميها، وهو من أهم الوسائل المُعينة على الانتفاع

وكمال الإقراء (١/ ١٨٦-١٨٧).

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٣٥) في كتاب فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن. وقوله: (قرأت) أي: حفظت، لذلك يحتمل أن يكون قوله: (وأنا ابن عشر سنين) راجعاً إلى حفظ القرآن، لا إلى وفاة النبي ﷺ فإنه كان له عندها ثلاث عشرة سنة. انظر: تعليق د/ مصطفى البغا على هذه الرواية.

[2] أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٨١)، برقم: (٦٠٣٠).

[3] انظر: بحث بعنوان: تدبر القرآن الكريم وسائله وموانعه، للدكتور/ عبد الله إبراهيم المغلاج، - من أبحاث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ-.

[4] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٩٩٣) في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن.

بالقرآن وتدبُّره، فبالتكرار يتذوَّق المتدبِّر حلاوة القرآن، وتزول عن القلب الغفلة، وهو فعل الرسول ﷺ والصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ.

قال بشر بن السَّرِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ (١٩٦هـ)[١]: (إنما الآية مثل التمرة، كلما مضغتها استخرجت حلاوتها)، فحدِّث به أبو سليمان فقال: (صدق، إنما يؤتى أحدكم من أنه إذا ابتدأ السورة أراد آخرها)[٢].

وقال ابن قدامة رَحِمَهُٱللَّهُ (٦٨٩هـ): (وإن لم يحصل التدبُّر إلا بترداد الآية، فليردِّدها)[٣].

ولا يقتصر المتدبِّر على التدبُّر مرة واحدة لأنَّ المعاني تتجدد، والأذهان تتفتّح على معانٍ لم تظهر لها من قبل.

٥) إثارة التساؤلات حول الآية.

من الأسباب المعينة على التدبُّر أثناء التلاوة: أن يستثير القارئ الأسئلة حول ما يقرأ، ويقف مع الآيات متسائلاً: لماذا قُدمت هذه السورة على تلك؟ ولماذا افتتحت بكذا؟ ولماذا تكررت آية بعينها في سورةٍ أكثر من مرة؟ ولماذا عُبر هنا بكذا بينما عُبّر في موضع آخر بكذا...ويحاول الإجابة عن ذلك بنفسه، قبل أن يسأل أهل العلم، أو يبحث في كتب التفسير ونحوها، فإن ذلك مما يُثري ملكة التدبُّر وينمِّيها.

---

[١] **بشر بن السري** = الأفوه البصري، الواعظ، الزاهد، العابد، أبو عمرو البصري، نزيل مكة، كان متقناً للحديث، وثقه ابن معين، توفي: سنة خمس، أو ست وتسعين ومائة. انظر: سير السلف الصالحين (١٠٩٠)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٣٢).

[٢] ذكره الزركشي في البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٧١)، ولم أقف عليه عند غيره.

[٣] مختصر منهاج القاصدين (٥٣).

والتدبُّر يحصل بالسؤال والبحث عن المعاني وتفسيرها، "لكلِّ من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإنَّ السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبينات"(١).

عن ابْنِ مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (إِذَا أَرَدْتُمُ الْعِلْمَ، فَأَثِيرُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ، وَالْآخِرِينَ)(٢)، فإضفاء التساؤلات أثناء القراءة يعطي المتدبَّر فهما أوسع للقرآن، ويجعله يستجلي ويستنبط من الآيات مالم يعهده من قبل، ولم يطّلع عليه في كتاب.

فإذا قرأَ القارئُ مثلاً: فاتحةَ الكتابِ بتدبُّرٍ يُثوِّرُ به النصَّ القرآنيَّ؛ فإنَّ من الممكنِ أنْ تثورَ في نفسِهِ الأسئلةَ التاليةَ:

- ما سرُّ افتتاح القرآن بالحمدِ المطلقِ لله سبحانه وتعالى في قولِهِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[الفاتحة:٢]؟، وما الآياتُ التي ورد فيها الحمدُ؟، وما هي مساقاتُ الحمدِ؟.

فالله سبحانه قالَ في مفتتح كتابه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾[الأنعام:١]، وَقال فِي موضعٍ ثالثٍ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾[فاطر:١].

- ولماذا قدَّم الله ذكر الرحمة على ذكر ملكه ليوم الدين؟، ولمَ يدعو المرء بلفظ الجمع (اهدنا)؟، وما الصراط المستقيم، وما صفات أهله ؟.

وهكذا.. فإن المقصودَ من ذلكَ أنَّ المتدبِّر حين يسألُ هذه الأسئلةَ ويُسجِّلُهَا؛ سيجدُ أَنَّهُ خلالَ قراءَتِهِ للقرآنِ مرَّة بعد مرَّة يتزود من الاستنباطاتِ والفوائدِ واللطائفِ القرآنية الشيء الكثير.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣٩٤).

(٢) سبق تخريجه في المجلد الأول ص(٢٢٣).

ومن ذلك أيضاً طرح الأسئلة أثناء التلاوة لما سيأتي جوابه في السياق.

ومن أمثلة ذلك: عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢]، فاسأل مَن هم المتقون؟ فيأتي الجواب بذكر ست صفات لهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٣-٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ٣١ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة:٢٥-٣٢]، فيتساءل المتدبِّر: لماذا كل هذا العذاب يا رب؟ وما الأسباب التي أودت بهم إلى ذلك؟. فيأتي الجواب بعدها مباشرة: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الحاقة:٣٣-٣٤]، ونحو ذلك.

٦) المجاهدة والترقِّي.

لا شك أنَّ المتدبر يجد في طريقه بعض العقبات؛ خاصة في بداية الطريق، فلابد له من المجاهدة، وتحمُّل المشاق، والتضحية، فليس القرآن من الكتب البشرية التي يحيط أي إنسان بمحتوياتها، ويتعرَّف على أغراض مؤلفيها ومقاصدهم بمجرَّد ذكائه وفطنته وعلمه، بل إنه يحتاج للعلم بمقاصد الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، فإذا حاول وبذل جهده، وتكبَّد المشاق في سبيله، وعمل على طهارة قلبه وتزكية نفسه، وتحسين أخلاقه؛ تقبل عليه رحمة الله، ويدنو منه فيضه، ويعطيه الحكمة والعلم، فيحسُّ بحلاوته وبشاشته ولذَّته.

ثمَّ إنَّ غالب القرآن عمليّ وليس نظرياً، ومن ثمَّ فلا يمكن فهمه بطريقة نظرية فحسب، بل لابد للفرد من تجارب يعيشها، وعمل يحققه في واقع الحياة، وهذه إحدى ميزات الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ في فهم القرآن وإدراك معانيه[١].

---

[١] انظر: المدخل إلى الدراسات القرآنية للندوي (١٣٤-١٣٥).

وعلى هذا ينبغي للمتدبر أن يتصبَّر لما قد يتعثَّره، فيبدأ بتدبُّر آية، يحاول أن يقف معها، ويتفهَّم دلالتها، وينظر أين هو منها؟ ثم بعد الآية آيات، ثم سورة وسُور.

والتدرُّب على التدبُّر مهم جداً، وخاصة إذا كان تحت إشراف معلِّم وشيخ يحسن التدبُّر، فيعرض عليه ما توصَّل إليه في تدبُّره من المعاني، ليقوِّم عمله، حتى يكون من المتدبِّرين على أصول صحيحة[1].

وهكذا حتى يرقى إلى درجة عظيمة بالممارسة والتدرُّج، وحسبه دافعاً لذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩].

- المطلب الثالث: أسباب عامة تعين على تدبُّر القرآن الكريم:

من أبرز هذه الأسباب:

١) كثرة الذِّكر والاستغفار، والتوبة من الذنوب والمعاصي.

فالاستغفار من الوسائل الجالبة للخير العميم، والمتاع الحسن، خاصة عند اقترانه بالتوبة، يقول الله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥ﴾[هود:٣].

وهو من وسائل القوة النفسية والجسدية والقلبية: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾[هود:٥٢].

والاستغفار له أثر عظيم في جلب الرزق والخير والفهم على العبد.

سئِل يوسف بن أسباط رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٩٥ هـ)[2]: إذا ختمت القرآن بأي شيء تدعو؟ فقال:

---

[1] انظر: كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) د/ ناصر العمر (١٥٥).

[2] **يوسف بن أسباط** = أبو يعقوب، أصله من العراق من متقشِّفى العبَّاد والمتجرِّدين من الزهاد، جالَس عائذ بن شريح، وابن أبي خالد وذويهما، مات سنة خمس وتسعين ومائة. انظر: مشاهير علماء الأمصار (٢٩٦)، سير أعلام النبلاء (٩/ ١٦٩).

(أستغفر الله عَزَّوَجَلَّ مائة مرة من تلاوتي)، وكان يقول: (إني لأهمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدِل إلى التسبيح والإستغفار)[1] [2].

فلمَّا كان التدبُّر نعمة عظيمة من الله، وهداية يوفِّق لها من شاء من عباده: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[فاطر:٢]، فتطلَّب بلوغها بأن يكثر العبد من الاستغفار حتى يفتح الله عليه في فهم كتابه وتدبُّره، فإنَّ الله قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل:٤٦].

٢) شكر المؤمن ربه وفرح قلبه وسعادته على نعمة التدبُّر.

فديدن المؤمن دوماً أن يكلَ الفضل لصاحب الفضل، وأن يبرأ من حوْله وطوْله إلى صاحب الحوْل والطوْل عَزَّوَجَلَّ، فلولا الله ما فتح المتدبِّرُ المصحف، ولا تلا ولا تدبَّر، فشكره لربه عَزَّوَجَلَّ يزيده تدبُّراً، ويجعله يُقبل على القرآن بـحُبٍّ ونَهَم، مصداق قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨]، حيث وعَد بالمزيد مع الشُّكر، ووَعْده لا يخلَف أبداً.

والشكر يكون بالقلب واللسان والعمل بالجوارح.

فالشكر بالقلب: الاعتراف بالنعم للمنعم، وأنها منه وبفضله، ومحبة الله عَلَى نعمه.

والشكر باللسان: الثناء بالنعم وذكرها، وتعدادها وإظهارها.

والشكر بالجوارح: أن يستعان بالنعم عَلَى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يحذر من استعمالها في شيء من معاصيه[3].

---

(١) وليس هذا على الدوام وإلا أدى إلى هجر القرآن، ويحمل فعله على المجاهدة بالتسبيح والاستغفار حتى يتأهَّل لتحمل تبعة القراءة، وهذا واضح. والله أعلم.

(٢) ذكره عنه أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ١٠٨)، والغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٦).

(٣) انظر: مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ٣٤٩-٣٥٠).

وحقيق بالقلب أن يفرح ويسعد بما منَّ الله عَزَّوَجَلَّ على صاحبه من التلاوة والتدبُّر؛ وسعادة المرء بذلك التدبّر تدفعه إلى المزيد، وتحمله على المواصلة بعزم أكيد.

وهذا من فضل الله على العبد، الذي يفرح به، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨]، وينبغي أن لا يُنسِي الفرح دعاء الرب عَزَّوَجَلَّ بدوام التدبُّر والتفكُّر، والابتهال إليه باستمرار لذة الفهم والتأمُّل.

٣) تدوين المعاني والفوائد التدبُّرية التي وقف عليها أثناء تلاوته.

فيدوِّن المتدبِّر نفيس ما يحصل له من المعاني من خلال تدبُّره، فالعلم صَيْد والكتابة قَيده، وسيغتبط به بعد ذلك، ويحسُن به أن يعرض ما دوَّنه على كلام أهل العلم، فربما رأى من وافقه فيحمد الله على فضله، أو يقف على من نبَّه على خطأ فهمه، فيستفيد منه، وربما يذاكِر به أقرانه المتدبِّرين.

ويمكن أن تدوَّن الفوائد مجتمعة ثمَّ تصنَّف بحسب السور، أو بحسب الفنون التي تخصَّها.

وتدوين الفوائد أمر مهم لطالب العلم، ومما جاء به الخبر عَنْ أَنَس ابْنَ مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ**»[(١)].

ولا زال العلماء يوصون بذلك من بعده ﷺ، فكما يحرص جامع المال على جمعه، يجدر بالمتدبِّر أن يحرص كلَّ الحرص على جمع ما أوصله له تدبُّره لكتاب الله.

إنَّ التدوين طريق لتلافي النسيان، ومعين على مراجعة المسائل والفوائد، ويورث المتدبِّر قوة في الملَكة والتدبُّر، وهو سبب لشحذ همَّته إن فترت، وتقوية عزيمته إن ضعفت، وهو

---

(١) **صحيح**. أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم (٧٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/٣٠٦) برقم: (٣٩٥) مرفوعاً، وأخرجه الطبراني في الكبير (١/٢٤٦) برقم: (٧٠٠)، والحاكم في المستدرك (١/١٨٨) برقم: (٣٦١) موقوفاً على أنس. وصححه الألباني مرفوعاً في صحيح الجامع (٤٤٣٤)، والسلسلة الصحيحة (٢٠٢٦).

عمل الفضلاء وأهل العلم، وأخبارهم ووصاياهم في ذلك كثيرة، منها:

قال الخليل بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٧٠هـ)[١]: (ما سمعت شيئاً إلا كتبته، ولا كتبت شيئاً إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً إلا انتفعت به)[٢].

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٤هـ): (اعلموا رحمكم الله أنَّ هذا العلم يندُّ كما تندُّ الإبل، فاجعلوا الكتب له حماة، والأقلام عليه رعاة)[٣].

إنَّ متدبِّر الكتاب العزيز يقف على درر وفوائد نفسية، جديرة بالقيد والكتابة، فإنَّ الإنسان عرضة للنسيان، فإذا لم يحرص على المراجعة وتكرار ما دوَّنه من تدبُّر؛ كان ذلك عرضة للضياع والنسيان، وقد قيل:

العلمُ صَيْدٌ والكِتَابَة قَيْدُه ... قيِّد صُيودَك بالحِبالِ الواثِقَة

فَمِنَ الحَماقَة أن تَصِيْدَ غَزَالَةً ... وتفكَّها بين الخلائقِ طَالِقَة[٤]

وقد ذكر بعضُ العلماء لزوم المسارعة إلى تقييد ما يسنح بالخاطر من الإشارات واللطائف والمستنبطات؛ فإنها عزيزة الورود، سريعة الزوال، نادرة الرجوع.

---

[١] **الخليل بن أحمد** = الفراهيدي، الأزدي البصري سيد الأدباء في علمه وزهده، كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله، وهو أول من استخرج العروض وضبط اللغة وحصر أشعار العرب، وكان يحج سنة ويغزو سنة، وكان من الزهاد، توفي سنة ستين ومائة وقيل سبعين ومائة وله أربع وسبعون سنة. انظر: معجم الأدباء (٣/ ١٢٦٠)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٢٩).

[٢] أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم (١١٤-١١٥).

[٣] أخرجه الخطيب البغدادي في تقييد العلم (١١٤).

[٤] البيتين عزاهما الدمياطي الشافعي في إعانة الطالبين (٤/ ٥) للإمام مالك، وعزاهما غيره للشافعي، ولم أقف عليه في ديوانه أو كتبه، وكثيراً ما كان شيخنا محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردد هذين البيتين في دروسه، مستشهداً بهما على ضرورة كتابة العلم. انظر مثلاً: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٢٦/ ١٢٢).

ففي شرح حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (وَالَّذِي فَلَقَ الحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا عِنْدَنَا إِلَّا مَا فِي القُرْآنِ، إِلَّا فَهْمًا يُعْطَى رَجُلٌ فِي كِتَابِهِ، وَمَا فِي الصَّحِيفَةِ)[1].

قال ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ (٨٥٢هـ): (ومراد عليّ أنَّ الذي عندَه زائداً على القرآن مِمَّا كَتَبَ عنه: الصحيفة المذكورة، وما استنبط من القرآن، كأنَّه كان يكتب ما يقع له من ذلك لئلا ينساه، بخلاف ما حفظه عن النبي ﷺ من الأحكام فإنه يتعاهدها بالفعل والإفتاء بها فلم يخش عليها من النسيان) [2].

ولَمَّا كانت هذه التأملات والفتوحات التدبُّرية من نعم الله على العبد وفضله عليه؛ وجب عليه إكرامها وشكرها؛ بتقييدها وحفظها.

وقد تمثَّل ذلك الرازي رَحِمَهُٱللَّهُ (٦٠٦هـ) فقال عن إحدى اللطائف التي ظهرت له: (ثمَّ إن ههنا لطيفةٌ فقهية لاحت لهذا الضعيف حالَ تفكُّره في تفسير هذه الآية، فأراد تقييدها هنا؛ فإنها من فضل الله، فيجب عليَّ إكرامها بالتقييد بالكتاب) [3].

ومما ينفع أيضاً: تدوين ما أشكل من معاني الآيات، حتى يسهل الرجوع إلى أهل العلم فيها.

ومما له علاقة بذلك: الجدُّ والاجتهاد في طلب العلوم الشرعية عامة، والتفسير وعلوم القرآن خاصة، وتدوين الفوائد التدبُّرية من هذه العلوم.

٤) العمل بالمعنى المتدبَّر وربط القرآن بالواقع.

وهذا هو المقصود الأهم للتدبُّر، أن يُترجم تدبُّره لآيات القرآن الكريم إلى عمل، يتمثَّل في عمل صالح، وخلُق فاضل، ومشاركة في الخير وبناءً، وتأسياً بالنبي ﷺ واقتداءً، وإلا كان التدبُّر حجَّة عليه ووبالاً، نسأل الله العافية والسلامة.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٩٠٣) في كتاب الديات، وبرقم: (٦٩١٥) باب لا يقتل مسلم بكافر.

[2] فتح الباري (١٢/ ٢٤٦).

[3] مفاتيح الغيب (٢٩/ ٤٣١).

ويربط القرآن بالواقع بأن يتفاعل مع الآيات، ويستشعر أنه المقصود بالخطاب، وأنَّ كلَّ خطاب في القرآن فهو موجَّه إليه، فينظر في مواعظه فتحيي قلبه، ويتدبَّر قصصه فيتَّعظ بها، ويستقيم أمره بذلك كله.

ولقد كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ خير مثال لذلك، فكانوا حين يقرؤون القرآن، يستعملون ذهنهم وفهمهم، ويدركون أنهم المقصودون بالخطاب، فيحسنون العلم والعمل.

ومن أمثلة ذلك حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]»[1].

ففهموا أنهم المعنيُّون بخطاب القرآن، وذلك لكونهم أخذوا القرآن للتلقي والعمل، وأن كل ما فيه خطاب لكل من سمعه ومن بلغه، وليس لقوم دون آخرين.

والقرآن ليس وصفًا لحدث مضى وانتهى، وإنما هو حكم الله على الناس والأحداث، وقضية البشر الأساسية هي الإيمان والكفر، والموقف من الرسالات، وهذه القضية لا يتغير فيها إلا الوجوه فقط، وإلا فالأحداث والوقائع واحدة، بل والكلمات واحدة، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت:٤٣]، و﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦ﴾ [الذاريات:٥٢، ٥٣]، فقصَّة كلِّ رسول واحدة؛ اختلفت أسماؤهم وأزمانهم وأقوامهم، واتَّحدَت دعوتهم، وتطابقت كلمات مناوئيهم، وتشابهت قلوبهم.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٩٣٧) في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب ما جاء في المتأولين.

ينقسم الناس مع كل رسول إلى مؤمن وكافر، ويداول الله الأيام بينه وبين عدوه، ثمَّ تكون العاقبة بهلاك الظالمين، وبالنصر والتمكين للمؤمنين.

وكان الإيمان كذلك واحدًا.. اختلفت أسماء المؤمنين لكنهم كانوا في كل عصر على قلوب وأعمال واحدة؛ ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٩٢].

فوصف الله للكفَّار في عصر الرسالة هو وصفه للكفار كلَّ زمان، ويعيش عبدالله بن سلول رأس المنافقين ويموت في المدينة، ويظهر أشباهه في النفاق في كل جيل وأمة، ويصفهم الله في القرآن بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾[البقرة:٨]، وإذا مضى بلال وعمار وصهيب، فإنه يبقى أشباهُهم من أهل الإيمان يعذَّبون طالما بقيت فتنةٌ في الأرض، ويبقى وصفُ الله لهؤلاء في القرآن ماثلاً وقائمًا وواقعًا: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾[الحج:٤٠].

وهكذا.. فإنَّ من أنزل القرآن على واقعه وحياته؛ عَرَف كفَّار زمانه، وأهل النفاق في قومه، وأهل الإيمان الذين هم أهله حقًّا وصدقًا.

ومع هذا فيجب الحذرُ من إنزال القرآن على غيرِ منازله، فمَن أنزل آيات المؤمنين في الكافرين أو العكس، أو جعل المؤمنين الصالحين هم المنافقين الكافرين، ضلَّ ولم يهتدِ، ووضع القرآن في غير مواضعه، وهذا باب عظيم ضلَّ فيه مَن ضلَّ ممَّن حجب الله نور القرآن عن أبصارهم: ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[النور:٤٠][1].

---

(١) انظر: بحث بعنوان: قواعد في تدبر القرآن الكريم – محمود العشري، نشر في شبكة الألوكة الشرعية على شبكة الانترنت .

٥) المداومة على التدبُّر بتخصيص حزب يومي لذلك.

مما يعين على التدبُّر ويحقق ثمرته: الدوام والاستمرار عليه، فإنَّ"المزاولات تعطى الملكات، ومعنى هذا: أنَّ من زاول شيئاً واعتاده وتمرَّن عليه؛ صار ملَكةً له وسجيَّة وطبيعة"[١].

قال البقاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٨٥هـ) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد:٢٤]:(ولما كان الاستفهام إنكارياً فكان معناه نفياً، فهو لكونه داخلاً على النفيِ نفيٌ له فصار إثباتاً، فكان كأنه قيل: هل يجددون التدبُّر تجديداً مستمراً لترقَّ قلوبهم به وتنير بصائرهم له، فيكفوا عن الإفساد والتقطيع)[٢].

ومما يعين المتدبِّر في سيره: أن يجعل له وِرْداً وحزباً للتدبُّر يومياً أو أسبوعياً أو شهرياً حسب طاقته واستطاعته - ولو كان قليلاً-، حتى يداوم عليه، فأحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلَّ[٣].

فيحسُن بطالب التدبُّر وقاصده ألا يُغلَب على وِرْده من التدبُّر لأي سبب كان، وقد يشقُّ ذلك عليه أول الأمر، ثمَّ يسهل عليه مع الممارسة والتعوُّد[٤].

وللوِرد القرآني آثار نافعة لصاحبه، وتتباين درجاتها بحسب مقدار الوِرْد، وبحسب مناسبته لحال صاحبه، وتفاعله معه، بل إنَّ مقدار الورد القرآني ينبغي أن يرتبط بمدى تحقيقه للقدر الأكبر من هذه الآثار، وللدرجة الأعظم لكل أثر منها على حدة.

---

[١] عدة الصابرين لابن القيم (٢١).

[٢] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٨/ ٢٤٣-٢٤٤).

[٣] لحديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِّ ﷺ قَالَ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِّ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**». أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٤٦٤) في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل.

[٤] انظر: الطريق إلى القرآن – إبراهيم السكران (١١٦).

إنَّ أهم الآثار المترتبة على الوِرد القرآني هي مصاحبة القرآن، والرجوع إليه في كل الأحوال، والتعلق الوجداني به الذي يدفع للتدبُّر والعمل.

ويمكن أن يجعل المسلم لنفسه وِردَيْن بختمتين، الأولى للمراجعة وتثبيت الحفظ حتى لا يتفلَّت منه القرآن، وتكون في أسبوع أو ثلاثة أيام، والثانية للتدبُّر، يتأنَّى فيها ويتدبَّر، قد تكون كل شهرين أو ثلاثة، أو سنة.. كلٌ بحسبه.

ومما ورد في ذلك: أنَّ أبا العباس بن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٠٩هـ) كان له في كلِّ يوم ختمة، وبقي في ختمة يستنبط مودع القرآن بضع عشرة سنة فمات قبل أن يختمها[١].

ويحسُن القول هنا بأنَّ الوِرد القرآني القليل في مقداره - مع التدبُّر والفهم للمعاني الظاهرة، وإدراك بعض المعاني الباطنة-، أفضل من الوِرد الكثير في مقداره بدون تدبُّر وفهم[٢].

٦) تدارس القرآن الكريم ومذاكرته مع الآخرين.

مما يثري ملكة التدبُّر لدى القارئ: أن يتدارس القرآن مع غيره، لأنَّ ذلك يفتح الآفاق، ويعين على التدبُّر، ويصحِّح الخطأ، ويقوِّم السلوك والفكر.

ومن فاته شيء من السبل السابقة، فلا أقلّ من أن يتدارس القرآن مع أهل العلم والفضل، بالسؤال والمناقشة، ومن أبلغ الدلائل على هذه الفضيلة حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِّ تَعَالَى، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِّ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُّ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[٣].

---

(١) أخرجه عنه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٠٢)، وذكره عنه الذهبي في السير (١٤/ ٢٥٥).

(٢) انظر: بحث بعنوان: أثر الورد اليومي في تدبُّر القرآن وتحقيق آثاره، للدكتور/ محمد عبد اللطيف عبدالعاطي، - من أبحاث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ-.

(٣) سبق تخريجه في المجلد الأول ص(٥٤).

وحديث ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ)[١].

وذلك أنَّ القرآن كالمسكِ المختوم، إذا أثرتَه ونقَّبت فيه، فاح عطره، وانتشر شَذَاه؛ ومدارسة القرآن تصنعُ العَجَب في إثارة معانيه، واستخراج كنوزه.

ولقد كان الصحابة يعقِدون مجالس للمذاكرة وعرض الفهوم في الآيات الكريمة، ومن ذلك: ما ورد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ)، فَقَالَ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، فَدَعَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُمْ، فَمَا رُئِيتُ أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ، قَالَ: مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١]؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا، وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: أَكَذَاكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: (هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ لَهُ)، قَالَ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١] (وَذَلِكَ عَلاَمَةُ أَجَلِكَ)، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[النصر:٣]، فَقَالَ عُمَرُ: (مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ)[٢].

ومن ذلك أيضاً: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: (كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا صَلَّى السُّبْحَةَ وَفَرَغَ دَخَلَ مِرْبَدًا لَهُ، فَأَرْسَلَ إِلَى فِتْيَانٍ قَدْ قَرَءُوا الْقُرْآنَ، مِنْهُم ابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ أَخِي عُيَيْنَةَ، فَيَأْتُونَ فَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَدَارَسُونَهُ، فَإِذَا كَانَتِ الْقَائِلَةُ انْصَرَفَ، قَالَ: فَمَرُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة:٢٠٦]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [البقرة:٢٠٧])، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: (وَهَؤُلَاءِ

---

[١] سبق تخريجه في المجلد الأول ص(٦٠).

[٢] سبق تخريجه في المجلد الأول ص(١٤٤).

الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ). فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، لِبَعْضِ مَنْ كَانَ إِلَى جَنْبِهِ: (اقْتَتَلَ الرَّجُلَانِ). فَسَمِعَ عُمَرُ، مَا قَالَ، فَقَالَ: (وَأَيُّ شَيْءٍ قُلْتَ؟) قَالَ: لَا شَيْءَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: (مَاذَا قُلْتَ؟ اقْتَتَلَ الرَّجُلَانِ؟)، قَالَ: فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: (أَرَى هَاهُنَا مَنْ إِذَا أُمِرَ بِتَقْوَى اللهِ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، وَأَرَى مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ؛ يَقُومُ هَذَا فَيَأْمُرُ هَذَا بِتَقْوَى اللهِ، فَإِذَا لَمْ يَقْبَلْ وَأَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ، قَالَ هَذَا: وَأَنَا أَشْتَرِي نَفْسِي فَقَاتِلْهُ، فَاقْتَتَلَ الرَّجُلَانِ). فَقَالَ عُمَرُ: (للهِ بِلَادُكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ)[١].

٧) تخفّف المتدبّر من الماديات قدر المستطاع.

والمقصود: تخفُّف المتدبِّر من مُتع الحياة وزخرفها، وشهواتها ورفاهياتها، ويتخفّف كذلك من المآكل والمشارب، فيُقبِل على القرآن بمعدة خالية أو شبه فارغة، إذ العيش في زخرف الدنيا وشهواتها يحجب المتدبِّر عما يريد؛ وذلك لأنَّ القرآن كلامُ لطيفٍ خبير، فبِقدْر تخفُّف القارئ من مادِّيّاته وشهواته، يكن إقبال الله تعالى بفتوحاته وفيوضاته، والإنعام عليه بخزائن كتابه وأسراره.

قال لقمان لابنه: (يا بني.. إذا امتلأت المعدة؛ نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة)[٢].

وقال سحنون رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤٠هـ)[٣]: (لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع)[٤].

---

[١] أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٢٤٥).

[٢] ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٨٢).

[٣] **سُحْنون** = أبو سعيد عبد السلام بن حبيب بن حسان المغربي المالكي، قاضي القيروان، رأس الفقهاء المالكية في زمانه، صنّف المدونة، ومختصر المناسك. توفي سنة ٢٤٠هـ، وله ثمانون سنة. انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك (٤/ ٤٥-٨٨)، طبقات الفقهاء للشيرازي (١٥٦)، سير أعلام النبلاء (١٢/ ٦٣).

[٤] ذكره عنه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤١١).

وكذلك أن يتخفَّف مما يشغل عليه باله وذهنه من أمور الدنيا، فيكون خالي الذهن وقت تدبُّره، مقبلاً نهماً على كتاب ربه سبحانه ينهل من معينه العذب.

إنَّ هذا القرآنَ لا يَمنحُ كنوزَه إلاَّ لِمَن يُقبل عليه، وكلما خَلُصت حياةُ الإنسانِ لله، وتعلَّق قلبُه بِهَمِّ الآخرة، وصُفِّي من هموم الدنيا، وتطهَّر من لوثةِ تقديمِها على الأخرى، سيجد أُنسًا بالقرآنِ لا ينتهي.

قال عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وما أحبُّ أن يأتي عليَّ يوم وليلة إلا أنظر في كلام الله عَزَّوَجَلَّ -يعني القراءة في المصحف-)[١].

"إنَّ العقول السليمة الرشيدة كافية لفهم ما في دعوة الرسل ع من الخير والصلاح، لو لم يمنع من استعمال هدايتها الافتتان بالترف، والتفنن في أنواعه، بدلاً من القصدِ والاعتدال فيه، وشكر الله المنعِم به عليه، فالإتراف هو الباعث على الإسراف والفسوق والعصيان"[٢].

٨) نشر ثقافة التدبُّر.

ويبدأ بذلك من الأقربين عملاً بقول الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾[الشعراء:٢١٤].

وهذا من جملة التواصي بالحق، المعين على الثبات عليه، ورغد الحياة مع كتاب الله سبحانه، ومعالجة مشكلات الحياة التي تمر بالناس مِن أقوى وسائل الخروج منها، ومن أقوى أسباب رقي الأمة، والعودة بها إلى الأمر الأول الذي كان يعيشه السلف الصالح[٣].

ويمكن نشر ثقافة التدبُّر في المجتمع — على سبيل المثال- من خلال ما يلي:

---

[١] أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٧٩) برقم: (٧٧٥)، وعبد الله بن أحمد في فضائل عثمان بن عفان (١١٥-١١٦)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٧٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٥٩٣) برقم: (٥٢٤).

[٢] تفسير المنار (١٢/ ١٥٨).

[٣] انظر: كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) د/ ناصر العمر (١٥١).

- تعليم الأبناء عادات وسلوكيات قرآنية منذ الطفولة، كتنظيم الوقت واستغلاله بشكل صحيح، وربط تلك السلوكيات بآيات القرآن، وإعطاء المتعلِّم تدريبات من القرآن الكريم، ليستنبط منها تلك السلوكيات.

- التركيز على القصص القرآني في التربية، والتعرُّف على الكون والحيوان والنفس من خلال النظر في آيات القرآن الكريم، لينشأ جيل يُحسن الربط بين القرآن الكريم والكون والنفس، ويُحسن تنزيل القرآن على الواقع أيضاً.

- توفير البيئة اللازمة لتنمية التدبر السليم من خلال نبذ التقليد وتوعية الناس بأهمية التفكير السليم والعودة إلى كتاب الله وتدبُّره، وترك الفرقة والنزاع، والبعد عن التكبر عن قبول الحق والإصغاء إلى الحق، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها[١].

- عمل دورات وورش عمل تطبيقية، يشرف عليها متخصصون في تدبُّر القرآن وتشجيع ذلك، خاصة في مواسم المسابقات الدولية لحفظ القرآن الكريم والتي تقام في أنحاء متعددة من دول العالم الإسلامي، ومن المؤلم أن نشهد اليوم هذا الانصراف عن هذا العلم العظيم وألا نجد من يحتفي بنشره، فالحفظ والتلاوة وسيلتان لتدبُّر القرآن وتفهُّمه، ومن ثَمَّ العمل به، فلا يُشتغل بالوسائل عن الغايات.

- استحضار أهمية العمل والتطبيق لما يتدبَّره المسلم وما يتوصل إليه في واقعه وحياته، حتى يصبح القرآن واقعاً نحياه وسلوكاً عملياً نسير على هداه[٢].

- نشر بعض الوقفات التدبُّرية المتميزة في مجالس الناس ومنتدياتهم، واستعمال وسائل التواصل والتقنية الحديثة في ذلك.

---

(١) انظر: تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق- د/ رقية العلواني (٤٠-٤١).

(٢) انظر: المرجع السابق (٦٥).

- تخصيص برنامج للتدبُّر في حلقات القرآن الكريم ومدارسه ومعاهده، وأن يقرَّر ضمن برامجها مناهجها الرئيسة، والاعتناء بذلك عناية تضاهي العناية بالحفظ، إذ التدبُّر هو المقصود الأعظم الذي يحصل به الانتفاع بالقرآن.

- استثمار الأحداث والمناسبات في تدبُّر الآيات، ومن آثار ذلك: ربط المسلم بكتاب الله، وإزالة الفجوة بينه وبين القرآن، وتنمية ملكة استحضار القرآن وآياته عند كلِّ حدث ونازلة، ومراجعته عند ذلك مراجعة البحث والتنقيب عن العلاج للمشكلات، والتوجيه في الملمات.

- الاستعانة بالبرامج الحديثة، والمعارف المتنوعة على نشر ثقافة التدبُّر وإحيائها.

٩) **الاطلاع على الأبحاث العلمية**، التي تعتمد على الحقائق العلمية؛ والتي بينها القرآن الكريم قبل اكتشافها حديثاً، ففيها فوائد جمة، وزيادة فهم وتدبُّر لمعاني آيات الله في الآفاق والأنفس، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣].



المبحث الثاني: أثر فهم اللغة في تحقيق التدبُّر الصحيح

مدخل:

لقد حفظ الله بالقرآن الكريم اللغة العربية من الاندثار، ونشَرها في أقطار العالم، ووحَّد لهجاتها في لهجة واحدة حتى غدَت لغة الدين والعالم، والتفاهم بين الناس، وأوصل ماضي الأمة بحاضرها؛ حتى استطاع المتأخرون أن يفهموا ما كتبه السابقون الأولون، كما أغنى القرآن الكريم اللغةَ بالعبارات والمصطلحات الجديدة كالصوم والصلاة وغيرها، فساهمت هذه المزايا التي أعطاها القرآن لهذه اللغة؛ في فهم هذا الكتاب الكريم.

ولقد اختار الله عَزَّوَجَلَّ اللغة العربية؛ لتكونَ لغة القرآن، المعبِّرة عن وحي الرحمن، وهذا فوق أنَّ فيه تشريفًا لهذه اللغة الكريمة؛ اشتمل على حِكَم جليلة، وفوائد عظيمة، منها: إعجاز العرب، حين اتهموا النبي ﷺ أنه يعلِّمه بشر، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[النحل:١٠٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾[طه:١١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء:١٩٢-١٩٥].

ومن ذلك: تنزيله مفصَّلاً، كما قال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[فصلت:٣]، وقال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾[فصلت:٤٤].

ونزوله بلغة العرب؛ يسهِّل الإنذار به، وفهمه وتدبُّره، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[الشورى:٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[الزخرف:٣].

وقد ختم الله هذه الآية وآية سورة يوسف بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾أي تفهمون

عنه فهمًا يصل إلى العقل؛ فيُحكِم العقلُ إمساكَ هذا الكلام فلا يتفلَّت، ويعي عنه عَزَّوَجَلَّ ما يقول، وما ذلك إلا لكونه عربيًا.

"فأنزله الله: بهذا اللسان لنعقله ونتفهمه، وأمرنا بتدبُّره، والتفكر فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأنَّ تدبره مفتاح كل خير، محصِّل للعلوم والأسرار،... فإذا علم هذا؛ علم افتقار كل مكلَّف لمعرفة معانيه والاهتداء بها، وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلّمه وتفهُّمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك"[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٢٨]، قَرَن سبحانه بين كونه عربيًا وبين استقامته وعدم اعوجاجه، فكونه عربيًا أدى لوضوحه فلا لبس فيه ولا انحراف، فهو سهل المعاني واضح الألفاظ، ليس فيه خلل ولا نقص، وختَم الآية بقوله سبحانه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾؛ أي لعلَّ الفهم الصحيح لهذه اللغة التي نزل بها القرآن، وبالتالي فهم معانيه؛ تؤدي إلى تقوى الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه[2].

"وقد اختار الله تعالى أن يكون اللسان العربي مُظهِراً لوحيه... لِحكمة علِمَها؛ منها: كون لسانهم أفصح الألسن وأسهلها انتشاراً، وأكثرها تحمُّلاً للمعاني مع إيجاز لفظه، ولتكون الأمة المتلقية للتشريع والناشرة له أمة قد سلمت من أَفْنِ الرَّأْيِ عند المجادلة، ولم تقعد بها عن النُّهوض أغلال التكالب على الرَّفاهية، ولا عن تلقي الكمال الحقيقي..."[3].

وكذلك:"لأنَّ لغة العرب أفصح اللغات وأبينها وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢٩).

(٢) انظر: التفسير الميسر – مجمع الملك فهد (٤٦١).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٩).

أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وابتدئ إنزاله في أشرف شهور السنة وهو رمضان، فكمل من كل الوجوه"[١].

فلا غَرْوَ بعد ذلك أن يكون من أهم وسائل تدبُّر القرآن؛ فهم لُغته العربية، وإدراك أساليب العرب في كلامهم، وتذوُّق أسرار البلاغة والفصاحة، فبدون معرفة اللغة العربيَّة لا يُمكن فهمُ القرآن ولا تدبُّر معانيه؛ "لأنه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام- إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثم يتدبَّره ويعتبرَ به. فأما قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبُّره وهو بمعناه جاهل، كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه، لو أنشِد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: اعتبر بما فيها من الأمثال... فكذلك ما في آي كتاب الله من العبر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: اعتبرْ بها، إلا لمن كان بمعاني بيانه عالمًا، وبكلام العرب عارفًا"[٢]، "فمن أراد تفهُّمه، فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلُّب فهمه من غير هذه الجهة"[٣].

وقد جعلت الكلام على هذا المبحث من خلال المطالب الثلاث التالية:

- المطلب الأول: حكم تعلُّم اللغة العربية.:

تعلُّم ما يقوم به الدين، وتحصل به الحجَّة من اللغة العربية واجب، لأنَّه "لَمَّا كان المرجعُ في معرفة شرعِنا إلى القرآنِ والأخبار، وهما واردان بلغةِ العرب ونحوهم وتصريفهم، كان

---

[١] تفسير ابن كثير (٤/ ٣٦٥-٣٦٦).

[٢] جامع البيان (١/ ٨٢-٨٣).

[٣] الموافقات للشاطبي (٢/ ١٠٢).

العلم بشرعنا موقوفًا على العلم بهذه الأمور، وما لا يتمُّ الواجبُ المطلق إلا به - وكان مقدورًا للمكلف - فهو واجب"[١].

وإذا لم يكن المتدبِّر في كتاب الله تعالى والناظر فيه عالمًا باللغةِ العربية وأحوالها؛ تعذَّر عليه النَّظرُ السليم فيه، ومن ثَمَّ تعذَّرَ استنباط الأحكام الشرعية منه[٢].

و"اعتياد اللغة يؤثر في العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بيِّناً، ويؤثِّر أيضاً في مشابهة صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق.

وأيضاً: فإنَّ نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإنَّ فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ثمَّ منها ما هو واجب على الأعيان، ومنها ما هو واجب على الكفاية"[٣].

فمعرفة معاني مفردات اللغة وقواعدها، وأساليب البيان، وما تتضمَّنه معاجم اللغة، وعلم النحو والصرف، وعلم البلاغة، ونحوها من علوم اللغة، معينٌ للمتدبِّر؛ فكلَّما كان الإنسان ذا بصيرة في اللغة؛ كان أكثر قدرةً على فهم القرآن وتدبُّره، لذلك وُجِد من غير المسلمين ممن عرفوا العربية، مَن كانوا يقرُّون دائماً بأن علوّ أساليبهم، وقوَّة عارضتهم في اللغة، وعظيم فصاحتهم، يرجع إلى تأدُّبهم بالقرآن الكريم[٤].

---

[١] المحصول للرازي (٢٠٣).

[٢] انظر: مقدمة المحقق د/ محمد حسن عواد لكتاب: الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية، للإسنوي (٤٢).

[٣] اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٢٧).

[٤] انظر: بحث بعنوان: أثر اللغة العربية في تذوق معاني القرآن الكريم وفهمه- فضل حسن عباس، منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، عدد: (١).

وثبت عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتابه لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (تعلَّموا العربية، وتفقَّهوا في العربية)[(١)].

وقال أيضاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (تعلَّموا العربية فإنها تثبِّت العقل، وتزيد في المروءة)[(٢)].

وجاء عن أُبَيٍّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ فِي القرآن كما تتعلمون حفظه)[(٣)].

وذلك" لأنَّ الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو فقه أعماله"[(٤)].

وقد تتلمذَ الأئمة السابقون على فقهاء اللغة في عصرهم، وأولوها اهتماماً كبيراً لا يقلُّ عن اهتمامهم بالعلوم الشرعية، فهي آلة ووسيلة لفهمها.

ومن ذلك ما روي عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٠٤هـ) أنه قال: (أقمت في بطون العرب عشرين سنة، آخذ أشعارها ولغاتها، وحفظت القرآن؛ فما علمت أنه مَرّ بي حرفٌ إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد)[(٥)].

- المطلب الثاني: أهمية اللغة العربية وخطر الجهل بها على تدبُّر القرآن الكريم:

إنَّ فهم اللغة العربية يجعل الاستجابة سريعة لأمر الله، حين تقع الآيات موضعها من القلب، وأخبار مَن فهموا مراد الله فور سماعهم كلامه سبحانه وتعالى، شاهدة بذلك، ومنها:

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١١٣٢) برقم: (٢٢٢٧-٢٢٢٨).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢١٠) برقم: (١٥٥٦)، وضعَّف إسناده ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٢٩)، ونسبه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٣٧٤) للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

(٣) أخرجه ابن وهب كما في تفسير القرآن من الجامع (٣/ ٤٠) برقم: (٧٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١١٦) برقم: (٢٩٩١٥).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٢٨).

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/ ٢٩٧)، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٢).

- جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله ﷺ، فقال له: اقرأ عليَّ، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[النحل:٩٠]. قال: أعدْ، فأعاد النبي ﷺ، فقال: (والله إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمُثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وما يقول هذا بشر)[١].

- وسمع أعرابيٌّ رجلاً يقرأ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾[الحجر:٩٤]، فسَجَد، وقال: (سجَدْت لفصَاحته)[٢]، "وكان موضع التأثير في هذه الجملة: هو كلمة: اصدع، في إبانتها عن الدعوة والجهر بها، والشجاعة فيها، وكلمة: ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ في إيجازها وجمعها"[٣].

- وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾[يوسف:٨٠]، فقال: أشهد أنَّ مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام[٤].

- وذُكر أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ كان يوماً نائماً في المسجد، فإذا هو بقائم على رأسه يتشهَّد شهادة الحق، فاستخبره، فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهي قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[النور:٥٢][٥].

---

[١] أخرج القصة البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٩٨)، وذكرها القاضي عياض في الشفا (١/ ٢٦٢).

[٢] القصة ذكرها القاضي عياض في الشفا (١/ ٢٦٢)، والنويري في نهاية الأرب في فنون الأدب (٧/ ٥)، ونسبت لأبي عبيد القاسم بن سلام ولم أقف عليها في كتبه.

[٣] التحرير والتنوير (١/ ١٠٧).

[٤] ذكرها الماوردي في تفسيره النكت والعيون (١/ ٣٠)، والقاضي عياض في الشفا (١/ ٢٦٣).

[٥] ذكرها القاضي عياض في الشفا (١/ ٢٦٣).

- وحكي أنَّ ابن المقفع (١٤٥هـ)[١] طلب أنْ يعارِض القرآن، فنظَم كلاماً، وجعله مفصَّلاً، وسماه سوراً، فاجتاز يوماً بصبي يقرأ في مكتب: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤]، فرجع ومحَا ما عمِل، وقال: أشهد أنَّ هذا لا يعارض أبداً، وما هوَ من كلام البشر، وكان فصيحَ أهل عصره[٢].

- وقال الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١٦هـ): (رأيت بالبادية جارية خماسية أو سداسية وهي تقول:

أستغفرُ اللهَ لذنبي كُلِّهِ　　　قتلتُ إنسانا لغَيْرِ حِـــلِّهِ

مثل غزالٍ ناعمٍ في دَلِّهِ　　　وانتصف الليلُ ولم أُصَلِّهِ

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: أتعد فصاحة بعد قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[القصص:٧]، فجمَع في آية واحدة، بين أمرين، ونهيين، وخَبرين، وإنشاءين)[٣].

- وقال أيضاً: (أقبلت ذات يوم من المسجد الجامع في البصرة، فبينا أنا في بعض سككها إذ طلع أعرابي جِلْف جافّ على قعودٍ له، متقلِّدٌ سيفه، وبيده قوس، فدنا وسلَّم، وقال لي:

---

[١] **ابن المقفع**= عبد الله بن المقفع، أحد البلغاء والفصحاء، ورأس الكتاب، وأولي الإنشاء، كان من مجس فارس فأسلم، وكان متهماً بالزندقة، قتله المنصور، سنة خمس وأربعين ومائة. انظر: سير أعلم النبلاء (٦/ ٢٠٨)، لسان الميزان (٣/ ٣٦٦).

[٢] أشار الباقلاني في إعجاز القرآن (٣٢) للقصة، وذكرها الماوردي في تفسيره النكت والعيون (١/ ٣١).

[٣] لم أقف على القصة في كتب الأصمعي، وذكرها الماوردي في تفسيره النكت والعيون (١/ ٣١)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٥٢)، ونسب أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) البيتين للشاعر الرافضي الماجن: عبد السلام بن رغبان بن حبيب الكلبي الملقب: بديك الجن (٢٣٥هـ) وانظر ترجمته في السير (١١/ ١٦٣).

من الرجل؟، قلت: من بني الأصمع، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم، قال: ومن أين أقبلت؟، قلت من موضع مليء بكلام الرّحمن، قال: وللرّحمن كلام يتلوه الآدمين؟، قلت: نعم، قال: اتل عليَّ شيئاً منه، فقلت له: انزل عن قعودك. فنزل، وابتدأت بسورة وَالذَّارِياتِ، فلمّا انتهيت إلى قوله سبحانه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات:٢٢]، قال: يا أصمعي هذا كلام الرَّحمن؟، قلت: أي والذي بعثَ محمداً بالحق، إنّه لكلامه أنزله على نبيِّه محمد، فقال لي: حسبك، ثم قام إلى الناقة فنحرها وقطعها كلَّها، وقال: أعنِّي على توزيعها، ففرَّقناها على من أقبل وأدبر، ثم عمَد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وجعلهما تحت الرمل، وولَّى مدبراً نحو البادية وهو يقول: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[الذاريات:٢٢].

فأقبلت على نفسي باللوم وقلت: لم تنتبهي لما انتبه له الأعرابي، فلمَّا حججت مع الرشيد دخلت مكة، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذ هتف بي هاتف بصوت دقيق فالتفّت فإذا أنا بالأعرابي نحيلاً مصفاراً، فسلَّم عليَّ، وأخذ بيدي وأجلسني من وراء المقام وقال لي: اتل كلام الرّحمن، فأخذت في سورة وَالذَّارِياتِ، فلمّا انتهيت الى قوله: وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ، صاح الاعرابي فقال: وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقًّا، ثم قال: وهل غير هذا؟ قلت: نعم يقول الله سبحانه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾[الذاريات:٢٣]، فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟، ألم يصدِّقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين؟ قالها ثلاثاً، وخرجت فيها نفسه)[1].

وفي مقابل ذلك؛ فإنَّ من لا يُحسن اللغة العربية ويجهل أساليب العرب وخطاباتهم، يَكثر لَحنه فيحرِّف المعاني ويغيِّرها؛ ويقع في الخطأ في فهم القرآن، فيفهم عن الله غير ما أراد، ويقع في الحيرة والاشتباه في المراد.

---

(١) لم أقف على القصة في كتب الأصمعي، وأخرجها الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان (٩/ ١١٥)، وابن قدامة في كتاب التوابين (١٦٣)، وذكرها الزمخشري في الكشاف (٤/ ٤٠٠)، القرطبي في تفسيره (١٧/ ٤٢).

ومثال ذلك: حين قدم أعرابي في زمان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: من يقرئني مما أنزل الله على محمد؟، قال: فأقرأه رجل براءة، فقال: ﴿أَنَّ اللهَّ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ بالجرِّ، فقال الأعرابي: (أوقد برئ الله من رسوله؟، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه)، فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه، فقال: (يا أعرابي أتبرأ من رسول الله ﷺ؟)، قال: (يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن فسألت من يقرئني فأقرأني هذا سورة براءة، فقال: ﴿أَنَّ اللهَّ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾، فقلت أوقد برئ الله من رسوله؟، إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه)، فقال عمر: (ليس هكذا يا أعرابي)، قال: (فكيف هي يا أمير المؤمنين؟) فقال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:٣]، فقال الأعرابي: (وأنا والله أبرأ مما برئ الله ورسوله منه)، فأمر عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ألا يُقرئ القرآن إلا عالمٌ باللغة، وأمر بالأسْود[١] فوضع النحو[٢].

لذا كان اللحن عند العرب عيباً ومثلبة في لسان المتكلِّم، "وَقَدْ كَانَ الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أَوْ يقرءونه اجتنابَهم بعضَ الذنوب"[٣]، ومن أخبار ذلك:

- قال الخليفة المأمون (٢١٨هـ) وقد سمع من بعض ولده كلاماً أسرع فيه اللحن إلى لسانه: (ما على أحدكم أن يتعلَّم العربية فيقيم بها أَوَده، ويزيِّن مشهده، ويتملَّك مجلس

---

[١] **أبو الأسود الدؤلي**= ظالم بن عمرو، ويقال: الديلي، العلامة، الفاضل، قاضي البصرة، ولد زمن النبوة، وهو أول من تكلم في النحو، وأول من نقط المصاحف، مات في طاعون الجارف، سنة تسع وستين، وهذا هو الصحيح. انظر: الطبقات الكبرى (٧/ ٩٩)، تاريخ دمشق (٢٥/ ١٧٦)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٨٦).

[٢] ذكر القصة ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥/ ١٩١)، وكمال الدين الأنباري في نزهة الألبَّاء في طبقات الأدباء (١٩)، وأوردها القرطبي في التفسير (١/ ٢٤).

[٣] الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس (٣٥).

سلطانه بظاهر بيانه، ويقلَّ حُجج خصمه بسكنات حكمته، أويسرُّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته ولا يزال أسير كلمته؟)[١].

وفي هذا التوجيه من المأمون لابنه ما يدلُّ على أهمية تعلُّم اللغة على وجهها الصحيح نطقاً وإعراباً، فهي زينة اللسان، وقوة لإظهار الحجة والبرهان.

وإنَّ تفريط الأمة في لغتها؛ هو تفريط في دينها وعقيدتها وتراثها وحضارتها العريقة.

قال ابن جنِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٢هـ)[٢]: (إنَّ أكثر مَن ضَلَّ من أهل الشَّريعة عن القصد فيها، وحادَ عن الطَّريقة المُثلى إليها فإنَّما استهواه، واستخَفَّ حلمَهُ، ضعفُه في هذه اللُّغة الكريمة الشَّريفة التي خوطب الكافة بها)[٣].

"وما فرَّط المسلمون في آداب هذا القرآن الكريم إلا منذ فرطوا في لغته، فأصبحوا لا يفهَمون كلِمَه، ولا يدرِكون حِكمَه، ولا ينزعون أخلاقه وشيَمه؛ وصاروا إلى ما هم عليه من عربية كانت شراً من العجمة الخالصة واللكنة الممزوجة، فلا يقرون هذا الكتاب إلا أحرفاً، ولا ينطقون إلا أصواتاً، وتراهم يرعونه آذانهم وهم بعدُ لا يتناولون معاني كلام الله إلا من كلام الناس"[٤].

---

[١] ذكر القصة إبراهيم بن محمد البيهقي (ت: بعد ٣٢٠هـ) في كتاب المحاسن والمساوئ (٤٢٣)، وابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٦٤).

[٢] **ابن جني**= أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، إمام العربية، صاحب التصانيف، حذق علوم اللغة العربية، وارتَحَلَ إلى حلب كثيرًا، مؤلفاته تبهر العقول؛ لكثرتها وغاية إتقانها. تُوفِّي ببغداد في صفر سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، ووُلدَ قبل الثلاثين وثلاثمائة. انظر: إنباه الرواة (٢/ ٣٣٥)، سير أعلام البلاء (١٧/ ١٧).

[٣] الخصائص (٣/ ٢٤٨).

[٤] إعجاز القرآن للرافعي (٧٥).

وحين عرف الأعداء ضرورة اللغة العربية في فهم القرآن وتدبُّره حرصوا كلَّ الحرص على قطع العلاقة بين المسلمين ولغتهم، حتى بتنا نرى من أبناء العرب والمسلمين من يسارعون إلى تنشئة أبنائهم -منذ درجات الحياة الأولى- على لغات أخرى غير العربية، ويتفانون في إتقانهم لها، غير عابئين بتعليمهم لغة القرآن، وإتقانهم فنونها وأساليبها، وغير مكترثين بما قد يسببه تعلق أبنائهم باللغات الأخرى من هجرهم لتعلم العربية، ومن ثَمَّ الدين؛ فنشأت أجيال لا يربطها بكتاب الله تعالى إلا الاسم، وربما لو أحسن أحدهم حفظه دون فهم، أو تلاه دون تدبُّر، وهذا هو عين ما قصده أعداء الدين والملة، والله المستعان.

إنه"ما ذلَّت لغة شعب إلا ذلّ، ولا انحطَّت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار؛ ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضًا على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويشعرهم عظمته فيها، ويستلحقهم من ناحيتها؛ فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثة في عمل واحد: أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا؛ وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًا ونسيانًا؛ وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها؛ فأمرهم من بعدها لأمره تبع"[١].

لقد حرص الأعداء - حين بثُّوا في الناس تعظيم لُغاتِهم وإهمال لغة القرآن - على بناء جدار متين يحجز الأجيال عن تدبُّر القرآن، ويعزلهم عن التفكُّر فيه، وقد كان لهم الكثير مما أرادوا، فقد بتنا نرى من العرب من لا يحسن فهم العربية ولا استيعابها، بل ربما لم يحسنوا القراءة والكتابة، ومن البداهة حينها ألا يدركوا المعاني الظاهرة، فضلاً عن التدبُّر والتأمُّل في مقاصد الألفاظ والمعاني، وإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

---

[١] وحي القلم للرافعي (٣/ ٢٧).

- المطلب الثالث: مجالات اللغة العربية المعينة على تدبُّر القرآن الكريم:

إنَّ القرآن الكريم واضح سهل، جاء بلسان عربي بيِّن في نفسه، وكاشف لما يراد منه، "غير تارك لبساً عند من تدبَّره حق تدبُّره على ما يتعارفه العرب في مخاطباتها، من سائر لغاتها، بحقائقها ومجازاتها على اتساع إراداتها، وتباعد مراميها في محاوراتها، وحسن مقاصدها في كناياتها واستعاراتها، ومن يحيط بذلك حقَّ الإحاطة غير العليم الحكيم الخبير البصير"[1].

"وبالجملة فالقرآن كله لم ينزله تعالى إلا ليفهمه ويُعلم ويُفهم، ولذلك خاطب به أولي الألباب الذين يعقلون والذين يعلمون والذين يفقهون والذين يتفكرون: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[ص:٢٩] "[2].

ولَمَّا كان القرآن كلاماً عربياً؛ كانت" قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة، ويعنى بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتَّبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم، ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين"[3].

فعلوم اللغة كلُّها من الأدوات المهمة لفهْم كلام الله تعالى، فالمعاجم تكشف معاني الكلمات، والصرْف يبحث بِّنية الكلمة، والنحو يبين صحة الكلام، ويوضّح علاقة الكلمات ببعضها، والبلاغة تستثمر ذلك كله لتكشف عن إعجاز القرآن البياني.

---

[1] نظم الدرر للبقاعي (١٤/ ٩٧-٩٨).

[2] البرهان للزركشي (٢/ ١٤٥).

[3] التحرير والتنوير (١/ ١٨).

والمتدبِّر بحاجة إلى العناية بمفاتيح علوم اللغة العربية، لتقوده إلى التدبُّر الصحيح لكتاب الله، ومن هذه العلوم:

الأول: علم معاني الألفاظ والمفردات.

و"لَمّا كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم، لأنَّ شرف العلم بشرف المعلوم"[١].

فمَن لا يعرف معاني ألفاظ العربية ومفرداتها، فلن يعرف المقصود بكثير من الحقائق الشرعية التي نزل بها القرآن، ومهمٌّ للمتدبِّر أن يفرِّق بين معاني المفردات، وأن يعرف الاشتقاقات والمترادفات والفروق اللغوية.

ومعرفة معنى الغريب مفتاح لفهم المراد، فلا يتجاوز الآية إلا بعد معرفة معناها.

وألفاظ القرآن الكريم ومفرداته لا تخرج في تفسيرها عن خمس مراحل[٢]، هي:

١) أن تأتي اللفظة على الأصل الاشتقاقي.

٢) أن تأتي اللفظة على الاستعمال الغالب عند العرب، وفي هذه الحال يكون فيها معنى الأصل الاشتقاقي.

٣) أن يكون للفظة استعمال سياقيٌّ، وهو ما استفاد منه أصحاب (الوجوه والنظائر) فركَّبوا كتبهم منه، والاستعمال السياقي قد يرجع إلى أصل اللفظة الاشتقاقي، وقد يرجع إلى المعنى الغالب في استعمال اللفظة عند العرب، وهو على كلِّ الأحوال لا يخلو من الأصل الاشتقاقي.

---

[١] زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (١/ ١١).

[٢] انظر: كتاب مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير أ.د/ مساعد الطيار، صـ(١٧١)، موضوع بعنوان: المفردة القرآنية والمراحل التي تمرُّ بها حال تفسيرها.

٤) المصطلح الشرعي، وهذا كثير في القرآن، والمقصود به أن يكون استخدام اللفظ في القرآن والسنة على معنى خاصٍّ؛ كالصلاة والزكاة والحج والجهاد، وغيرها.

والمصطلح الشرعي لا بدَّ أن يكون راجعًا من جهة المعنى إلى الأصل الاشتقاقي، وقد يكون راجعًا إلى أحد المعاني التي غلب استعمال اللفظ فيها عند العرب.

٥) المصطلح القرآني، وهو أخصُّ من المصطلح الشرعي ومن الاستعمال السياقي؛ لأنَّ المراد به أن يكون اللفظ في القرآن جاء على معنى معيَّنٍ من معاني اللفظِ، فيكون معنى اللفظ الأعم قد خُصَّ في القرآن بجزء من هذا المعنى العامِّ، أو يكون له أكثر من دلالة لغوية فتكون أحد الدلالات هي المستعملة لهذا اللفظ في القرآن، وتفصيل ذلك فيما يلي:

١) أن تأتي اللفظة على الأصل الاشتقاقي.

عامة ألفاظ القرآن لا تكاد تخلو من أصل اشتقاقي، ومعرفته تفيد في معرفة دلالة الألفاظ، ومعرفة مناسبة تفسيرات المفسِّرين لأصل هذا اللفظ، وتفيد أيضاً في جمع جملة من المفردات القرآنية المتناثرة بتصريفات متعددة تحت معنى كليٍّ واحد.

وقد يكون للَّفظة أصل واحد تدور عليه تصريفات الكلمة في لغة العرب، وقد يكون لها أكثر من أصل[١].

ومن أمثلة الألفاظ القرآنية التي لها أصل واحدٌ لفظ: (رَجَف).

---

[١] عُنيَ الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٢هـ) بذكر أصل اشتقاق المفردة واستعمالاتها في القرآن الكريم، وممن سبقه في ذلك من اللغويين: يحيى بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٠هـ) في كتابه: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرَّفت معانيه، وابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٧٦هـ)، في كتابيه: تأويل مشكل القرآن، وتفسير غريب القرآن، وكذلك ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٥هـ) في كتابه: مقاييس اللغة، الذي سار فيه على نهج ابن قتيبة في كتابيه.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٢هـ): (الرَّجْفُ: الاضطراب الشديد، يقال: رَجَفَتِ الأرض ورَجَفَ البحر، وبحر رَجَّافٌ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات:٦]، ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ [المزمل:١٤]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف:٧٨]، والإِرْجَافُ: إيقاع الرّجفة، إمّا بالفعل، وإمّا بالقول، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾[الأحزاب:٦٠]، ويقال: الْأَرَاجِيفُ ملاقيح الفتن)[١].

٢) أن تأتي اللفظة على الاستعمال الغالب عند العرب.

والمراد هنا أنه يغلب استعمال أحد التصريفات اللفظية على معنى مشهور متبادرٍ بين المخاطبين، ينصرف الذِّهن إليه عند وقوعه، لكنه يُحمَل على تفسير آخر لورود هذا التصريف في اللغة بمعنى آخر، فيحمل الكلام عليه.

ومن أمثلة ذلك: لفظ (دابَّة): في الأصل من دبَّ: والدَّالُ وَالْبَاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ مُنْقَاسٌ، وَهُوَ حَرَكَةٌ عَلَى الْأَرْضِ أَخَفُّ مِنَ الْمَشْيِ. تَقُولُ: دَبَّ دَبِيبًا. وَكُلُّ مَا مَشَى عَلَى الْأَرْضِ فَهُوَ دَابَّةٌ[٢]،وقد اختصَّ لفظ: (الدابة) بالفرس في لغة العرب، ومن ثَمَّ توسَّعت دلالتها لتطلق على كلِّ حيوان دبَّ على الأرض[٣].

والدبيب: مشي خفيف، ويستعمل ذلك في الحيوان والحشرات، ويستعمل مجازاً في الإنسان.

وذُكِرَت لفظة: (دابَّة) في أربعة عشر موضعاً من القرآن الكريم، فتنوَّعت دلالتها، فتارة

---

(١) المفردات في غريب القرآن (٣٤٤).

(٢) مقاييس اللغة (٢/ ٢٦٣).

(٣) لسان العرب= مادة: دبَب (١/ ٣٦٩).

يُراد بها معناها الخاص، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[الأنعام:٣٨]، فهنا اختصَّ لفظ: ﴿دَآبَّةٍ﴾ بالحيوانات التي تدبُّ على الأرض[1].

وأشهر المعاني والإطلاقات في هذه المادة يعود إلى الحيوانات، حتى غلب هذا الاستعمال على هذه المادة، حتى كاد أن يكون أصلاً لها.

وتارة يراد بها عُموم المخلوقات، من كلِّ ذي روح في السماء والأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾[الشورى:٢٩].

وفي موضع آخر أُطلِق ﴿دَآبَّةٍ﴾ على جنس البشر من باب إطلاق الكلِّ على الجزء، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾[النحل:٦١]، فأطلق لفظ: (الدابة) على الناس.

وفي موضع آخر، جاء من باب التحقير للمعرضين المكذبين، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[الأنفال:٢٢].

وفي قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[الأنفال:٥٥][2].

٣) أن يكون للفظة استعمال سياقيٌّ.

فأي كلمة لها في سياقها معنى مراد، قد يكون خارج المعنى اللغوي المطابق، وقد يكون في أكثر من سياق قرآني، وقد لا يكون له إلا سياق واحد.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (٣٠٦).

(٢) انظر: أطروحة دكتوراه في كلية التربية بجامعة بغداد، بعنوان: التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني – للباحثة/ جنان منصور الجبوري.

وقد عُنيت كتب الوجوه والنظائر بالاستعمال السياقي في تعيين الوجوه للألفاظ القرآنية، فتعدَّدت الوجوه للفظ الواحد الذي يعود إلى معنى لغوي واحدٍ؛ لأنه لا اعتبار لأصل اللفظ ولا لاستعمال العرب في تحديد الوجوه إلا إذا كان هو المعنى المراد في السياق.

ومن أمثلة ذلك: معنى كلمة: ﴿شِقَاقٍ﴾ حسب السياق جاء على أربعة وجوه:

الأول: شقاق يعني ضلالاً، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾[البقرة:١٣٧]، يعني ضلالاً.

وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[البقرة:١٧٦]، يعني الضلال الطَّويل.

وكقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[الحج:٥٣]، يعني ضلالاً طويلاً.

وكقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[فصلت:٥٢]، يعني ضلالاً طويلاً.

الثاني: شقاق يعني اختلافاً، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾[النساء:٣٥]، يعني اختلافا بينهما. وكقوله: ﴿فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[ص:٢]، يعني اختلافاً. وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾[النساء:١١٥]، يعني يُخالفُ الرّسول: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾[النساء:١١٥]، وقال.... الشِّقاق: الفراق.

الثالث: شقاق يعني عداوة، وذلك قوله في سورة الأنفال: ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[الأنفال:١٣]، يعني عَادوا الله ورسوله. وهو قول الحسن. وكقوله في سورة الحشر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[الحشر:٤]، يعني عَادَوُا الله ورسوله. وكقول شعيب: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ﴾[هود:٨٩]، يقول: لا تحملنَّكم عدواتي. وهو قول قتادة. وكقوله في الَّذِين كفروا: ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾[محمد:٣٢]، يعني عَادَوُا الرّسول.

الرابع: شقاق يعني حجاجاً، وذلك قوله في سورة النَّحل: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾[النحل:٢٧]، يعني تحاجون فيهم... كالمحاربة والعداوة[1].

وبالرجوع إلى تحليل لفظة (الشقاق) من جهة الاشتقاق والاستعمال العربي تبيَّن ما يلي:

قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٥هـ): (الشِّينُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى انْصِدَاعٍ فِي الشَّيْءِ)[2].

وهذا يعني أنَّ الدلالة الأصلية موجودة في جميع الوجوه المذكورة، وهي كذلك:

فالضلال فيه انصداع عن الحقِّ، لما فيه من قلب الأمور.

والاختلاف انصداع في العلاقة بين الناس.

والعداوة انصداع في لحمة المجتمع وترابطه وتماسكه.

والمجادلة بالباطل والمحاجة به صدع في بيان الحقيقة وإثباتها.

٤) المصطلح الشرعي.

يراد بالمصطلح الشرعي ما جاء بيان معناه في لغة الشارع سواءً في القرآن أو في السنة النبوية، ولمَّا كان كلام الشارع مبني على الشرعيات لا على اللغات؛ استعمل ما تعرفه العرب من كلامها، وزاد عليه، أو خصَّص ألفاظاً على معنى معيَّن، وهذا يعرف من جهة الشرع، ويسمى تعريفاً شرعياً.

ومن أمثلة ذلك: تعريف الصلاة لغة، وفيه بيان أصل معنى اللفظ واستعمالات العرب لهذا اللفظ في لغتها.

---

[1] التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرَّفت معانيه، ليحيى بن سلام (١٥٤).

[2] مقاييس اللغة (٣/ ١٧٠).

وتعريف الصلاة شرعًا، فيه بيان استعمال الشارع للصلاة، وهو أنه نقلها من المعنى اللغوي المعروف إلى معنى زائد أو مخصوص بأعمال وأفعال وأحكام مخصوصة سمَّاها صلاة، والمعنى الشرعي لا ينفكُّ عن أصل اللفظ في لغة العرب، وهو موجودٌ فيه غير أنه يزيد عليه بتحديدات شرعية لم تعرفها العرب من قبل.

ولقد برز عند العلماء بسبب هذا قاعدة تقديم المعنى الشرعي على المعنى اللغوي عند وجود احتمال التعارض بين المعنيين في سياق واحد، وسبب ذلك أنَّ الشارع معنيٌّ ببيان الشرع لا بيان اللغات.

ومن أمثلة احتمال التعارض بين المعنى الشرعي والمعنى اللغوي ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤]، إذ السياق يحتمل المعنيين، فقد يكون المراد: لا تدع لهم، وهو معنى الصلاة في أصل اللغة.

وقد يكون المراد لا تصلِّ عليهم صلاة الجنازة، وهو المعنى الشرعي المخصوص، وهو المقدَّم هنا.

لكن الصلاة على المؤمنين قد وردت في سياق آخر، ولا يُراد بها الصلاة الشرعية، بل الصلاة بمعناها اللغوي، وهو الدعاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾[التوبة:١٠٣].

فعلى ذلك فالصلاة المأمور بها هنا هي الدعاء، وهو المعنى اللغوي.

ولعلَّ من الملاحظ أن مستوى تفسير اللفظ بالمصطلح الشرعي أخصُّ من المستويات السابقة، فكلُّ لفظة لها مصطلح شرعي متميز؛ لها أصل واستعمال في لغة العرب، ولا يلزم من كل لفظٍ في لغة العرب أن يكون له مصطلح شرعي خاصٌّ[1].

---

(١) انظر: كتاب مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير أ.د/ مساعد الطيار، صـ(١٨٤)، موضوع بعنوان: المفردة القرآنية والمراحل التي تمرُّ بها حال تفسيرها، وقد كُتِبَ في المعنى الشرعي كتابات كثيرة، =

٥) المصطلح القرآني.

قد يكون اللفظ القرآني له وجه واحدٌ في الاستعمال العربي، ولا يرد في الشرع زيادة على هذا المعنى، فيبقى اللفظ على استعماله العربي، وهذا كثيرٌ جدًا في القرآن الكريم.

وإذا كان استعمال اللفظة القرآنية على وجه واحد، ولها في اللغة معنى واسع أو أكثر من مدلول، فيطلق على استعمال هذه اللفظة: (المصطلح القرآني) أو (طريقة القرآن).

والمراد بالمصطلح القرآني أن يكون له تخيُّرٌ دلالي للفظة تتعدَّد فيها الدلالة اللغوية، أو أن يكون للفظة مدلول واسع، فتكون في القرآن بمدلول خاصٍّ بعينه دون ما سواه.

ومن هنا يمكن أن يقسَّم الموضوع إلى قسمين:

الأول: أن يكون للفظة في اللغة مدلول واسع، فيخصُّ القرآن من هذا المدلول استعمالاً خاصًّا لهذه اللفظة، كلفظة (زعم) فهي تشمل كل قول مزعوم، ولا تخرج عن معناها الذي يدلُّ على حكاية قول مظنَّة الكذب، وإنما يدرك كون المادة في الصدق أو الكذب من السياق، فلا يُخصُّ إلا به.

والزَّعْمُ: حكاية قول يكون مظنّة للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كلّ موضع ذمّ القائلون به، نحو: قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[الأنعام:٢٢]، ﴿زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾[الإسراء:٥٦]، ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾[الكهف:٤٨]، ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾[التغابن:٧].

وقيل للضّمان بالقول والرّئاسة: زَعَامَةٌ، فقيل للمتكفّل والرّئيس: زَعِيمٌ، للاعتقاد في قوليهما أنهما مظنّة للكذب، قال: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف:٧٢]، ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ

ومن أجود الدراسات المعاصرة في هذا الباب، رسالة ماجستير- مطبوعة بعنوان: التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن – تأليف/ عودة خليل أبو عودة.

﴿زَعِيمٌ﴾[القلم:٤٠]، إمّا من الزَّعَامَةِ أي: الكفالة، أو من الزَّعْمِ بالقول[١].

الثاني: أن يكون للفظة أكثر من مدلول على سبيل الاشتراك اللفظي اللغوي، لكن الوارد من هذا الاشتراك أحد المعاني.

ومن ذلك لفظة ﴿شَطْرَ﴾، فالشِّينُ وَالطَّاءُ وَالرَّاءُ تدلُّ على ثلاثة أصول:

الأول: نِصْفِ الشَّيْءِ.

الثاني: الْبُعْدِ.

الثالث: الْمُوَاجَهَةِ.. وقَصْدِ الشَّيْءِ وَجِهَتِهِ.

والذي ورد في القرآن هو المعنى الثالث، فِي شَأْنِ الْقِبْلَةِ، في قوله سبحانه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة:١٤٤]، [البقرة:١٥٠] أَيْ قَصْدَهُ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[البقرة:١٤٩][٢]، ولم ترد هذه المادة في القرآن إلا في التوجُّه إلى الكعبة.

ويتَّضح مما سبق أنَّ المصطلح القرآني للفظة أقل من المصطلح الشرعي أو الوجوه والنظائر، وأنه لا سبيل إلى معرفة المصطلح القرآني إلا بالاستقراء التام للفظة في مواردها، والتأكد من مجيئها على وجه واحد فقط، والله أعلم[٣].

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (٣٨٠).

(٢) انظر: مقاييس اللغة (٣/ ١٨٦)، مفردات ألفاظ القرآن (٤٥٣).

(٣) انظر: كتاب مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير أ.د/ مساعد الطيار، صـ(١٨٩)، موضوع بعنوان: المفردة القرآنية والمراحل التي تمرُّ بها حال تفسيرها.

الثاني: علم النحو والإعراب.

إنَّ دِعامة العلوم العربية، وقانونها الذي ترجع إليه في جميع مسائلها، هو علم النَّحو، فمعرفة قواعد النحو، وسبْر فنونه، وضبْط أصوله؛ أساس في فهم القرآن الكريم.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (تعلَّموا النحو كما تعلَّمون السُّنن والفرائض)[١].

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣١ هـ)[٢]: (تعلَّموا النحو، فإنه جمالٌ للوضيع، وتركه هُجنةٌ للشَّريف)[٣].

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٠٤هـ): (مَن تَبَحَّرَ في النحو اهتدَى إلى كلِّ العلوم)[٤].

وقال الشاعر[٥]:

النحو يبسط من لسان الألكن ... والمــــرء تكرمـه إذا يَلحـــن

وإذا طلبت من العلوم أجلـها ... فأجلُّها منها مقيمَ الألسن[٦]

---

[١] ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (٢/ ١٥١).

[٢] **أيوب السختياني** = أيوب بن أبي تميمة، أبو بكر، كان من سادات أهل البصرة، وعباد أتباع التابعين وفقهائهم ممن اشتهر بالفضل والعلم والنسك والصلابة في السنة، مات سنة إحدى وثلاثين ومائة سنة الطاعون وله ثلاث وستون سنة. انظر: مشاهير علماء الأمصار (٢٣٧)، سير أعلام النبلاء (٦/ ١٥).

[٣] ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (٢/ ١٥١).

[٤] شذرات الذهب لابن العماد (٢/ ٤٠٧).

[٥] من الكامل= ونسبت الأبيات لإسحاق بن خلف- الشاعر المعروف بابن الطبيب، ولم أقف له على ديوان، وهو من شعراء المعتصم؛ كان رجلاً شأنه الفتوة، وكان من أحسن الناس ألفاظاً وإنشاداً، توفي في حدود الثلاثين ومائتين. انظر: فوات الوفيات (١/ ١٦٣).

[٦] حكاه ابن قتيبة في عيون الأخبار (٢/ ١٧٢)، والمبرد في الكامل (٢/ ١٩)، وابن عبد ربه في العقد الفريد (٢/ ٣٠٨).

والذي يحتاج المتدبِّر إليه من معرفة لغة العرب: قدر ما يعرف كلَّ شئ باسمه الذي وضعته له، ويجب أن يكون ذلك الاسم أفصح أسمائه إن كانت له عدة أسماء، فإذا عرف ذلك احتاج إلى معرفة ما يتصرَّف الاسم عليه من جمع وتثنية وتذكير وتأنيث وتصغير وترخيم ليورده على جميع ما يتصرَّف فيه صحيحاً غير فاسد، ولهذا افتقر إلى علم النحو[١].

وقد أَجْمَعَ الأئمَّة منَ السَّلَف والخَلَف قاطبة على أنَّ النَّحو "شرط في رتبة الاجتهاد، وأنَّ المجتهد لو جَمَع جميع العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم من قواعد النَّحو ما يعرف به المعاني المتعلِّقة بمعرفتها به منه"[٢].

وحصر ابن رشد القرطبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٥هـ) الأسبابَ المؤدّيةَ إلى الاختلافِ بينَ الفقهاء، في تحديد معاني الألفاظ التي بنى عليها الأحكام في ستّةٍ، السّببُ الثّالث منها: (اختلاف الإعراب)؛ وذلك لأهمّيّته في التّمييز بين المعاني التّركيبيّة[٣].

ولذلك فإنَّ معظم أسباب الاختلاف في الفروع الفقهيّة، وبعض توجيهات الآيات القرآنيّة؛ توجيه النحو والإعراب، وإلى ذلك أشار الزمخشري (٥٨٣هـ)، في قوله: (ويرون الكلام في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها؛ مبنياً على علم الإعراب، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين، والإستظهار في مآخذ النصوص بأقاويلهم، والتشبُّث بأهداب فسْرهم وتأويلهم، وبهذا اللسان مناقلتهم في العلم ومحاورتهم وتدريسهم ومناظرتهم، وبه تقطر في القراطيس أقلامهم، وبه تسطر الصكوك والسجلات حكامهم، فهم ملتبِّسون بالعربية أية سلكوا، غير منفكين منها أينما وجّهوا)[٤].

---

[١] انظر: سرَّ الفصاحة للخفاجي الحلبي (٢٨٨).

[٢] انظر: لمع الأدلة في أصول النحو لابن الأنباري (٩٥)، وانظر: النحو الوافي لعباس حسن (١/ ١).

[٣] انظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١/ ١٢).

[٤] المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري (١٨).

إنَّ مما يعين المتدبِّر على فهم اللغة؛ معرفة أوجه الإعراب؛ لأنَّ المعنى يتغيرُ بتغير الإعراب، ويختلف باختلافِه، ولو أنَّ قارئًا قرأ: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴾ [الإخلاص:٤]، برفع (كفو) ونصب (أحد) لكان قد أثبتَ كفوًا لله - تعالى الله -.

بل إنَّ الحركةَ لها دورٌ في المعنى ولو لم تكن إعرابًا، ويدلُّ على ذلك لزوم كسر الخاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد:٣]، وكسر الواو في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ ﴾[الحشر:٢٤]، فإنَّ فتحَها قد يؤدِّي إلى الكفر.

لذلك كان السلف يؤدِّبون أولادهم على اللحن، والخطأ في الكلام، والزيغ عن الإعراب[١].

قال سَلْم بن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٠هـ)[٢]: كنتُ عند ابن هُبَيرة الأكبر (١٣٢هـ)[٣]، فجَرَى الحديث، حتى ذكر العربيَّة، فقال: (والله ما استوى رجلان، دينُهما واحد، وحسبهما واحد، ومروءتهما واحدة، أحدهما يَلحَنُ، والآخرُ لا يَلحَنُ، إنَّ أفضلَهما في الدنيا والآخرة الذي لا يَلحَنُ).

---

(١) ومن أخبارهم في ذلك: - كان عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يضرب أولاده على اللحن، ووجد في كتاب عامل له لحناً فأحضره وضربه درة واحدة. انظر: سمط الآلي في شرح آمالي القالي (٢/ ٦٦)، معجم الأدباء (١/ ٢٣).
- وكان علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ يَضْرِبُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ عَلَى اللَّحْنِ. أخرجه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٨) برقم: (١٠٨١).
- وكان ابن عمر يضرب ولده على اللحن كما يضربهم على تعليم القرآن. انظر: معجم الأدباء (١/ ٢٨).
- وكان عمر بن عبد العزيز أشدّ الناس في اللحن على ولده وخاصته ورعيته وربما أدّب عليه. انظر: معجم الأدباء (١/ ٢٨).

(٢) **سَلْمُ بنُ قُتَيْبَةَ** = أبو قتيبة الخراساني، الإمام، المحدث، الثبت، نزيل البصرة. احتج به البخاري، وتوفي بعد المائتين. انظر: التاريخ الكبير للبخاري (٤/ ١٥٨)، سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٠٨).

(٣) **ابن هبيرة الأكبر**= يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري، أمير العراقين، أبو خالد، نائب مروان الحمار، كان بطلاً، شجاعاً، فصيحاً، خطيباً، ولي حلب للوليد بن يزيد، عاش نحواً من خمس وأربعين سنة، قتل في ذي القعدة، سنة اثنتين وثلاثين ومائة. انظر: تاريخ دمشق (٦٥/ ٣٢٤)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٠٧).

قلت: (أصلحَ اللهُ الأميرَ، هذا أفضلُ في الدُّنيا لفضل فصاحتِه وعَرَبيته، أرأيتَ الآخرة، ما باله فُضِّل فيها؟)، قال: (إنَّه يَقرأُ كتابَ الله على ما أنزَل اللهُ، وإنَّ الذي يلحنُ يحمِلُه لَحَنُه على أن يُدْخِلَ في كتابِ الله ما ليس فيه، ويُخْرِجَ منه ما هو فيه).

قال: قلتُ: صَدَق الأميرُ، وبَرَّ[1].

إنَّ معرفة النحو والإعراب من الوسائل المهمَّة لطالب تدبُّر القرآن وتفهُّمه، لذا قال مكي بن أبي طالب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٣٧هـ): (وَرَأَيْت من أعظم مَا يجب على الطَّالِب لعلوم الْقُرْآن، الرَّاغِب فِي تجويد أَلْفَاظه وَفهم مَعَانِيه، وَمَعْرِفَة قراءاته ولغاته، وَأفضل مَا القارىء إِلَيْهِ مُحْتَاج؛ معرفَة إعرابه، وَالْوُقُوف على تصرُّف حركاته وسواكنه، يكون بذلك سالما من اللّحن فِيهِ، مستعينا على أَحْكَام اللَّفْظ بِهِ، مطَّلعاً على الْمَعَانِي الَّتِي قد تخْتَلف باخْتلَاف الحركات، متفهِّما لما أَرَادَ الله بِهِ من عباده، إِذْ بِمَعْرِفَة حقائق الْإِعْرَاب تعرف أَكثر الْمَعَانِي، وينجلي الْإِشْكَال، فتظهر الْفَوَائِد وَيفهم الْخطاب، وَتَصِحّ معرفَة حَقِيقَة الْمُرَاد)[2].

"وإنَّ الإعراب أجدى من تفاريق العصا، وآثاره الحسنة عديدة الحصى، ومن لم يتَّق الله فى تنزيله؛ فاجترأ على تعاطي تأويله، وهو غير معرِب فقد ركِب عمياء، وخبَط خبْط عشْواء، وقال ما هو تقوُّل وافتراء وهراء، وكلام الله منه براء"[3].

وسأضرب أمثلة تبيِّن أثر النحو والإعراب في المعنى والتفسير، مما يعين المتدبِّر، ويفتح له آفاقاً من التدبُّر والفهم لكتاب الله تعالى.

* **المثال الأول**: في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:٧].

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٥/ ٣٨٠)، وياقوت الحموي في معجم الأدباء (١/ ٢٥).

(٢) مشكل إعراب القرآن (١/ ٦٣).

(٣) المفصل في صنعة الإعراب للزمخشري (١٩).

أوجه الإعراب ومعانيها:

تحتمل (ما) في قوله سبحانه: ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ وجهين من الإعراب[1]:

الأول: مصدرية زمانية، فتكون (ما) في محلِّ نصب على الظرفية، وهي بتقدير المضاف، والتقدير: استقيموا لهم مدَّة استقامتِهم لكم[2].

الثاني: شرطية، وتكون (ما) منصوبةُ المحلِّ على الظرفية الزمانية، أي: زمانَ استقاموا لكم فاستقيموا لهم، أو مرفوعةٌ على الابتداء والعائدُ محذوفٌ.

والفاء الواقعة في قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ فاء جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه في محلِّ رفع خبر (ما)، وإنما جاز أن تكون شرطية؛ لوجود الفاء في: ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟﴾، لأنَّ المصدرية الزمانية لا تحتاج إلى الفاء، والمعنى: فما أقاموا على الوفاء بالعهد فأقيموا عليه، فدلَّ على أنَّهم إذا نقضوا العهد سقط أمانهم، وحلَّت دماؤهم[3].

أثر الاختلاف: أفاد الاختلاف في أوجه الإعراب (ما) هنا بين النصب على الظرفية، وبين الرفع بالابتداء؛ تنوُّعاً في المعنى التفسيري، بما يزيد في المعنى ويوضِّحه، ويزيل مشكله، ويعين المتدبِّر على تدبُّره[4].

---

(١) انظر: التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٦٣٦)، تفسير أنوار التنزيل للبيضاوي (٣/ ٧٢)، اللباب في علوم الكتاب لابن عادل (١٠/ ٢٣)، غرائب القرآن للنيسابوري (٣/ ٤٣٥)، إرشاد العقل السليم (٤/ ٤٥)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٥/ ٢٤٠)، إعراب القرآن وبيانه (٤/ ٦٠).

(٢) انظر: الكشاف (٢/ ٢٤٩)، البحر المحيط في التفسير (٥/ ٣٧٦)، إرشاد العقل السليم (٤/ ٤٥).

(٣) انظر: النكت والعيون للماوردي(٢/ ٣٤٢)، التحرير والتنوير (١٠/ ١٢٢).

(٤) انظر: أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم (من التوبة إلى يوسف)- رسالة ماجستير للطالب/ أمجد وفيق أبو مطر، الجامعة الإسلامية بغزة، صـ(٣٢).

* **المثال الثاني**: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣].

أوجه الإعراب ومعانيها:

في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ تأتي صيغة المضارع للدلالة على تجدد التدبير واستمراره منه سبحانه[1]، وتحتمل جملة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ثلاثة أوجه من الإعراب[2]:

الأول: جملة مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب، ووجه الاستئناف أنَّ جملة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ كالتفسير والتفصيل لما قبلها، فهي مبنية على سؤال مقدَّر نشأ من ذكر الاستواء على العرش، كأنه قيل: كيف يُجري أحوال السماوات والأرض؟ فالجواب: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ، ويقضيه وحده، وهو ينبئ عن إجراء أحكام المُلْك[3].

الثاني: في موضع نصب حال، فالجملة حال من ضمير ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾، والتقدير: ثمَّ استوى على عرشه مدبِّراً للأمور، والمعنى: أنه تعالى قد دلَّ بالجملة قبلها على عظمة شأنه، وبالاستواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة؛ لزيادة الدلالة على العظمة، وأنه سبحانه الذي رفع السموات بغير عمد؛ يقضي أمورَ الدنيا والآخرة كلها، ويدبِّر ذلك وحده، بغير شريك ولا ظهير ولا معين سُبْحانه. لا يخرج أمر من الأمور في العالم العلوي والسفلي، إلا بإرادته وتدبيره، وقضائه وحكمته[4].

---

(١) انظر: تفسير روح المعاني للألوسي (٦/ ٦٣).

(٢) انظر: التبيان في إعراب القرآن (٢/ ٦٦٤)، البحر المحيط(٦/ ١٢)، اللباب في علوم الكتاب(١٠/ ٢٦٠).

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم (٤/ ١١٨)، تفسير روح المعاني للألوسي (٦/ ٦٣).

(٤) انظر: جامع البيان للطبري (١٦/ ٣٢٦)، الكشاف (٢/ ٣٢٨).

الثالث: الجملة في محلِّ الرفعِ على أنها خبر ثان لـ«إنَّ».

أثر الاختلاف: الجملة في قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ احتملت ثلاثة أوجه من الإعراب، وكلُّ وجه منها له معنى، وتنوع المعاني يعين المتدبِّر على فهم الآيات وتدبُّرها[1].

* **المثال الثالث**: في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [هود:٤٦].

أوجه القراءات ومعانيها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ فيه قراءتان:

الأولى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾ ، مرفوع منوَّن، وبرفع غيرُ، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمزة[2].

والمعنى: أنَّ سؤالك إياي أن أنجي كافراً عملٌ غيرُ صالح، لأنَّ نوحاً قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود:٤٥]، فقال الله تعالى إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، إن سؤالك إياي عمل غير صالح، وقيل ليس من أهلك: أي من أهل دينك[3].

"إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قدّم له الوعد بإنجاء أهله، مع استثناء من سبق عليه القول منهم، فكان عليه أن يعتقد أنَّ في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غيرَ صالح، وأن كلهم ليسوا بناجين، وأن لا تخالجه شبهة حين شارف ولده الغرق في أنه من المستثنين لا من المستثنى منهم، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه"[4].

---

[1] انظر: أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم (من التوبة إلى يوسف)- رسالة ماجستير للطالب/ أمجد وفيق أبو مطر، الجامعة الإسلامية بغزة، صـ(٦٩).

[2] انظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد (٣٣٤)، حجة القراءات لابن زنجلة (٣٤١).

[3] انظر: معاني القراءات للأزهري (٢/ ٤٦).

[4] الكشاف (٢/ ٤٠٠).

الثانية: ﴿إِنَّه عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ بِكَسْر الْمِيم وَفتح اللَّام، ونصب الراء في (غيرَ)، وهي قراءة الكسائي وحده[1].

والمعنى: إن ابنك عمِل عملاً غير صالح[2]، بكفره، وبعدم ركوبه السفينة.

أثر الاختلاف: تعددت المعاني التفسيرية بسبب اختلاف القراءات في هذا الموضع، وكان لكلِّ قراءة معنى مختلف مترتب عليها، بما أظهر دور الإعراب والنحو بشكل جليٍّ في المعنى، وتدبُّر المعنى بعد ذلك[3].

ومما يبيِّن أهمية النحو والإعراب في فهم كلام الله وتدبُّره: دقة المعاني المترتبة على اختلاف الإعراب وتنوعه، وسأضرب لذلك مثلاً واحداً من خلال النظر في معاني الفعل: (كان)، فهي تأتي في القرآن على خمسة أوجه:

١- بمعنى الأزل والأبد، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧].

٢- وبمعنى المضيِّ المنقطع كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل:٤٨].

وهو الأصل في معاني كان كما تقول كان زيد صالحاً، أو مريضاً، أو وفياً، أو نحوه.

٣ - وبمعنى الحال كقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

٤ - وبمعنى الاستقبال كقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧].

---

(١) انظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد (٣٣٤)، حجة القراءات لابن زنجلة (٣٤١).

(٢) انظر: معاني القراءات للأزهري (٢/ ٤٦).

(٣) انظر: أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم (من التوبة إلى يوسف)- رسالة ماجستير للطالب/ أمجد وفيق أبو مطر، الجامعة الإسلامية بغزة، صـ(١١٥).

٥ - وبمعنى صار كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة:٣٤][1].

فهذه أمثلة يسيرة تبيِّن أهمية النحو في فهْم كتاب الله تعالى وبيان معانيه.

ومما سبق يتَّضح أثر معرفة النحو والإعراب على المتدبِّر، إذ به تتفتَّح أمامه المعاني، وتيسِّر له آفاقاً للغوص والتنقيب عن المعاني المتدبَّرة المفهومة من الآيات.

الثالث: علم البلاغة والبيان.

البلاغة من أوسع علوم اللغة؛ لأنه علم يهتمُّ بكل ما يُبْلِغ به المتكلِّم قلب السامع بالمعنى المراد إقناعاً وتأثُّراً، بحيث يوافق ما تقتضيه حال المخاطب؛ ولذلك عُرِّف بأنه: علم يعرف به أحوال اللفظ العربي الذي يطابق مقتضى الحال[2].

يقال: رجلٌ بليغٌ، إِذَا كان يبلُغ حاجتَهُ بكلامٍ حَسَنِ الصورةِ، مقبولِ العِبارةِ وفصيحٌ[3].

إنَّ تحليل النصوص القرآنية من خلال الأدوات البلاغية يعدُّ تطبيقاً لتوظيف البلاغة في خدمة النص القرآني عموماً، والتدبُّر على وجه الخصوص.

والبلاغة للمتدبِّر هي أداة مهمَّة لخدمة معاني القرآن العظيمة، وتأكيدها والإقناع بها، فإنَّ قول القائل: نستفيد من هذه الآية كذا وكذا، لا يكون مقنعاً ما لم يدعمه بدليل لفظي وسياقي يتَّضح به المعنى، وتنجلي به الصورة[4].

---

[1] انظر: إعراب القرآن وبيانه- محيي الدين درويش (١٠/ ٣١٨).

[2] هذا تعريف الجرجاني في التعريفات (١٥٦) لعلم المعاني، ويصحُّ أن تعرَّف به البلاغة.

[3] التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، لأبي هلال العسكري (٩٥).

[4] انظر: بحث الدكتور/ عويض العطوي، بعنوان: المنهج البلاغي وأثره في تدبُّر القرآن الكريم - من أبحاث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ-.

لقد كان من أهداف نشأة علم البلاغة: الدفاع عن القرآن، وإبراز وجوه إعجازه البياني، ونشر معانيه خاصة بعد فشوُّ اللحن وضعف السليقة العربية[١].

ولهذا تخصصت كتب ومصنَّفات مثل: النكت في إعجاز القرآن للرماني، وإعجاز القرآن للباقلاني وغيرها لخدمة غرض الإعجاز، كما ظهرت كتب عُني أصحابها بالمعاني وأساليب القرآن، مثل: مجاز القرآن لأبي عبيدة، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، كما ظهرت كتب لخدمة تفسير القرآن من خلال التطبيق الواسع لألوان البلاغة، يتقدَّمها: تفسير الكشّاف للزمخشري.

ومن الكتب المتأخِّرة التي لا غِنى عنها لباحث في البلاغة أو التفسير: التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، الذي عُني بالبلاغة أيما عناية، فقال في مقدِّمته: (وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية، وأساليب الاستعمال)[٢].

لقد وقف العرب عاجزين أمام بلاغة القرآن الكريم وفصاحته التي أعجزت الخلق جميعاً، ولم يستطع أحد من أساطين اللغة وفحولها أن يأخذ على القرآن حرفاً ولا حداً، ولا ينقضه في لفظة من ألفاظه، أو آية من آياته.

فليس بمستغرب بعد ذلك أن تنشأ البلاغة وتنمو في المحيط القرآني، وأن تكون من أوائل علوم الآلة التي ارتبطت بالقرآن؛ ذلك أنَّ البيان القرآني هو المعجزة الأظهر في أمة العرب، بوصفهم سادة البيان وأرباب الفصاحة، وبيان أوجه ذلك البيان وعِظَم تأثيره؛ مهمَّة قامت بها البلاغة خير قيام.

ولهذا تجد كثيراً من المفسِّرين أشادوا بعلم البلاغة على وجه الخصوص، باعتبار أنَّ القرآن الكريم هو ميدان البلاغة الأرحبْ، أو لكونه علْماً لا غنى لمفسِّرٍ عنه، ومن أقوالهم في ذلك:

---

[١] انظر: البيان العربي- د/ بدوي طبانة صـ(١٥-١٦).

[٢] التحرير والتنوير (١/ ٨).

- قال الزمخشري (٥٨٣هـ): (ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برعَ في عِلْمين مختصِّين بالقرآن، وهما: علم المعاني وعلم البيان، وتمهَّل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنة، وبعثته على تتبع مظانهما همَّة في معرفة لطائف حجة الله، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظ، جامعاً بين أمرين تحقيق وحفظ كثير المطالعات، طويل المراجعات)[1].

- وعند قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٠٦هـ): (فبيَّن أن القول الذي هو القرآن كان معروفاً لهم، وقد مكِّنوا من التأمل فيه من حيث كان مبايناً لكلام العرب في الفصاحة، ومبرأ عن التناقض في طول عمره)[2].

- وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرَّر حلا وعلا، لا يخلق عن كثرة الرد، ولا يملُّ منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن)[3].

- وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٤هـ): (واعلم أن معرفة هذه الصناعة بأوضاعها هي عمدة التفسير المطَّلع على عجائب كلام الله، وهي قاعدة الفصاحة، وواسطة عقد البلاغة، ولو لم يجب الفصاحة إلا قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ

---

[1] الكشاف (٢) من مقدِّمة التفسير.

[2] مفاتيح الغيب (٢٣/ ٢٨٦).

[3] تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٠٠).

﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ [الرحمن:١-٤]، لكفى، والمعلومات كثيرة، ومنن الله تعالى جمَّة، ولم يخصص الله من نعمه على العبد إلا تعليم البيان، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٣٨]، وقال تعالى: ﴿تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ﴾ [النحل:٨٩].

ولحذف الواو في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن:٤]، نكتة علمية؛ فإنه جعل تعليم البيان في وزان خلقه، وكالبدل من قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن:٣]، لأنه حي ناطق، وكأنه إلى نحوه أشار أهل المنطق بقولهم في حد الإنسان حيوان ناطق، ولا شك أنَّ هذه الصناعة تفيد قوَّة الإفهام على ما يريد الإنسان ويراد منه؛ ليتمكَّن بها من اتباع التصديق به، وإذعان النفس له، وينبغي الاعتناء بما يمكن إحصاؤه من المعاني التي تكلَّم فيها البليغ مثبتاً ونافياً)[1].

فكما يتَّضح ذكْر البيان والقرآن في سياق واحد، وكلاهما ذُكر معه التعليم، مما يشير إلى ارتباطهما، وإلى شأن التعليم فيهما.

- قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): (ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلْم التفسير؛ لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني، وإظهار وجه الإعجاز، ولذلك كان هذان العلْمان يسمَّيان في القديم: علم دلائل الإعجاز)[2].

ومن خلال استعراض الأقوال السابقة؛ ندرك أنَّ العناية بالبلاغة في تفسير القرآن وتدبُّره ليست ترفاً علمياً، بل هي أمرٌ من الأهمية بمكان.

وبلاغة القرآن هي أحد أهمِّ صور إعجازه مما لا يكاد أن يختلف فيه أحد، ولا ينازع فيه منازع، ومن هنا تظهر العلاقة الوثيقة بين الإعجاز وعلم البلاغة؛ إذ لا يُعقل أن يتعلَّق الإعجاز بمجرد بيان غوامض المعاني والألفاظ.

---

(١) البرهان في علوم القرآن (١/ ٣١٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٩).

- قال أبو الهلال العسكري (٣٩٥هـ): (إنّ أحقَّ العلوم بالتعلُّم، وأولاها بالتحفّظ- بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه- علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى، الناطق بالحقّ، الهادى إلى سبيل الرّشد، المدلول به على صدق الرسالة وصحّة النبوة، التى رفعت أعلام الحقّ، وأقامت منار الدّين، وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكَت حجب الشكِّ بيقينها.

وقد علمنا أنَّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخلَّ بمعرفة الفصاحة؛ لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصَّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحَنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف؛ وضمَّنه من الحلاوة، وجلَّله من رونق الطَّلاوة، مع سهولة كلِمِه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها، وتحيَّرت عقولهم فيها)[١].

ومحلُّ التدبر في القرآن، هو معانيه وأخباره، وبلاغته ونظمه؛ التي هي أداته، وأحد أدلَّة إعجازه، وكونه من عند الله، وأنَّ سبيل الكشف عنها هو التدبُّر في كلام الله.

وتدبُّر بلاغة القرآن ينشأ عنه: إثبات الإعجاز القرآني الذي يدلُّ على صدق النبي ﷺ، وإعجاز القرآن في نظمه لا يتبيَّنه إلا من فقه لسان العرب وبلاغتهم، "ومن تدبَّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى"[٢].

كما يفيد تدبُّر البلاغة القرآنية في معرفة حقيقة المراد، واستظهار المعاني واستنباط الدلالات التي تكتنزها الآيات، وهي معان مرادة ما دامت ألفاظ القرآن وتراكيبه تحتملها.

وبهذا تكون علاقة البلاغة بالتدبُّر علاقة تأثُّر وتأثير، فالبلاغة هي أداة التدبُّر، والتدبُّر هو الطريق لمعرفة إعجاز القرآن وفهمه.

---

[١] كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر – المقدمة صـ(١).

[٢] تفسير ابن كثير (١/ ١٩٩).

ومن هنا كان لزاماً على متدبِّر القرآن الكريم أن يتقن معرفة أساليبه البلاغية وتراكيب جمَله؛ فإنَّ من لا يعرف طرائق العرب في البيان؛ لن يستطيع أن يفرِّق مثلاً بين قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ ونعبدك، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، ونستعين بك، ونحو ذلك، بل سيجد نفسه غريباً عن فهم آياته، ويصعب عليه التدبُّر حينئذ.

*** من أساليب البيان في القرآن:**

لقد نزل القرآن بهذه اللغة وفْق أساليب العرب في البيان، واشتمل على أبلغ ما في كلام العرب مما يعجزوا عن نظْمه وسبْكه، فاستخدم التشبيه، وضرْب الأمثال، والتقديم والتأخير، والحذف والإيجاز والإطناب، والالتفات من الخطاب إلى الغَيبة والعكس، والتعريف والتنكير لأغراض بيانية من التعظيم والتحقير، وكذلك التهكُّم والاستهزاء؛ كقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨]، وقوله: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]، وغير ذلك من أساليب اللغة.

ولعل ما سأبينه هنا من مجالات يجمع بين النظرية والتطبيق[1]، ومن ذلك ما يلي:

١- التقديم والتأخير.

ففي قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء:٨٨]، قدَّم الإنس لأنَّهم أفصح لساناً وأوضح بياناً، والإتيان بمثل القرآن -إن أمكن- فهو بالإنس أليق، لذا قدَّم الإنس على الجنَّ، ولأنَّ المقام مقام تحدي، وهم المعنيون به.

---

(١) انظر: بحث بعنوان: أثر اللغة العربية في تذوق معاني القرآن الكريم وفهمه- فضل حسن عباس، منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، عدد: (١).

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن:٣٣]، لما كان الجنُّ أقدر على الحركة والتشكُّل؛ كان النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق إن أمكن، فهي في مقام القوَّة، فقدَّموا في هذه الآية الكريمة على الإنس[١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، قدَّم الأصلَ في تعلق المحاسبة به، وهو الأمورُ والأعمال الباديةُ الظاهرة دون الخافية.

أما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٢٩]، فقد قدَّم فيه الإخفاءُ على الإبداء لأنَّ الآية جاءت في سياق موالاة الكافرين في قوله تعالى في الآية قبلها: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:٢٨]، وهذا من الأعمال القلبية الخفية، والتي قد لا يحبون إظهارها، فتكون سراً بينهم وبين أعداء الله، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلكَ باعتبار أن مرتبةَ السرِّ متقدِّمةٌ على مرتبة العلن؛ إذ ما من شئ يُعلَنُ إلا وهُو قبل ذلك مضمرٌ في القلبِ، ويتعلَّقُ بِهِ الإسرارُ غالباً[٢].

٢- **العطف وترك العطف.**

في قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٥-٦]، عطف الجملة الثانية: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ على التي قبلها، وتركت الجملة الثالثة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بلا عطف، فقطعت قصَّة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف.

---

[١] انظر: التفسير المنير، د/ وهبة الزحيلي (٢٧/ ٢١٦)، المعجزة القرآنية، أحمد أبو شوفة (٦٦).

[٢] انظر: تفسير القرطبي (٣/ ٤٢٣)، ملاك التأويل للغرناطي (١/ ٧٢)، إرشاد العقل السليم (١/ ١١٩).

وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، جاء العطف بين هذه الجمل.

وذلك -والله أعلم- إنما جاء من أجل دقة المعنى الذي يقصد إليه القرآن؛ فالأولى جاءت مسوقة لذكر الكتاب، وأنه هدى للمتَّقين، والثانية سيقت لوصف أحوال الكفار، فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب، وهما على حدّ لا مجال فيه للعاطف[1].

٣- تقييد الجمل بالشرط.

﴿إِن﴾ و﴿إِذَآ﴾ أداتان من أدوات الشرط.

فأداة الشرط ﴿إِن﴾ حرف جازم، والأصل في استعمالها أن يكون الشرط فيها غير مقطوع بوقوعه، ويحتمل الشكَّ لا اليقين، كما تقول لصاحبك: (إنْ تكرمني أكرمك)، وأنت لا تقطع بأنه يكرمك، ومن أمثلة ذلك من كتاب الله، ما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء:٣]، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات:٦].

وأما ﴿إِذَآ﴾ فهي اسم شرط (ظرف زمان)، والأصل في استعمالها أن يكون الشرط مقطوعاً بوقوعه، ولا يدخله الشكُّ. ومن أمثلة ذلك: أنَّ جميع الأمور اليقينية في القرآن من أخبار الموت واليوم الآخر وأهوال القيامة جاء التعبير عنها بـ (إذا) ولم يأتِ بـ(إنْ) ، لأنه متحقق الوقوع لا محالة، كما في قوله تعالى عن الموت: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٤]، وقوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ

---

[1] انظر: الكشاف (١/ ٤٦).

سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس:٤٩]، وقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ [فاطر:٤٥].

وكذلك في الحديث عن القيامة وأهوالها، قال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴾ [الواقعة:١]، وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ [الحاقة:١٣]، وقال سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار:١]، وقال: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير:١]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق:١]، ونحو ذلك من الآيات[1].

ويتبيَّن الفرق بجلاء إذا اجتمعت الأداتان في تعبير واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٣٩]، حيث جاءت الجملة الأولى التي ذُكر فيها فعل الخوف مقيَّدة بـ ﴿إِن ﴾، والثانية التي ذكر فيها الأمن مقيَّدة بـ و﴿إِذَآ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم:٣٦]، فحصول الرحمة من الله تعالى مؤكَّدة، فجاء التعبير بإذا، وأما حصول السيئة بما قدَّمت أيديهم أمر محتمِل، فجاء التعبير بإنْ.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾ [الممتحنة:١٠]، وفي الآية التي تليها: ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ﴾ [الممتحنة:١١]، فلما كان مجيء المؤمنات مهاجرات أمراً محققاً، شهد التاريخ بتحققه؛ عُبِّر بـ﴿إِذَآ ﴾، ولما كان ارتداد المرأة عن الإسلام أمراً نادراً أو محتمِلاً عبِّر بـ﴿إِن ﴾ .

---

[1] انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (٢/ ١١٧)، جواهر البلاغة للهاشمي (١٥١).

٤- صيغ الأفعال، وصيغ الأسماء.

فنجد التعبير بالفعل الماضي تارة، وبالفعل المضارع تارة أخرى، وقد يكون ذلك في جملة واحدة، مثل قوله تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]، وقد يكون في جملتين مختلفتين، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل:٤٠]، على حين نقرأ في سورة لقمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان:١٢]، فعبَّر عن الشُّكر بصيغتين مختلفتين.

وفي قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات:١٠-١٢]، ذكر الفعل المضارع أولاً ﴿يَقُولُونَ﴾، إذا قيلَ لهم إنكُم تبعثونَ منكرينَ له، ثمَّ ذكر الفعل الماضي ﴿قَالُوا۟﴾ حكاية لكفر آخر متفرِّعٍ على كُفْرِهم السابقِ، ولعلَّ توسيطَ ﴿قَالُوا۟﴾ بينهُمَا للإيذانِ بأنَّ صدورَ هذا الكفرِ عنهُم ليسَ بطريقِ الاطرادِ والاستمرارِ مثلَ كفرِهم السابقِ المستمرِّ صدورُه الذي حُكي عنهم بصيغةِ المضارعِ، وفي هذا ما فيه من بديع النظم، وبديع الأسلوب[(١)].

وجاء في بعض فواتح السور: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:١]، بلفظ الماضي، وفي بعضها: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة:١]، بلفظ المضارع، وفي هذا إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبِّحةً لله أبداً، غير مختصٍّ بوقت دون وقت، بل كانت مسبِّحة أبداً في الماضي، وستكون مسبِّحة أبداً في المستقبل[(٢)].

وكذلك جاءت صيغ الأسماء، مثل صيغ المبالغة، واسم الفاعل والمفعول، ونحوها.

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم (٩/ ٩٧-٩٨).

(٢) انظر: لباب التأويل للخازن (٤/ ٢٤٥).

ومن أمثلة صيغ المبالغة، قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩]، فجاءت ﴿عَلَّٰمُ﴾ صيغة (فعَّال) التي تفيد المبالغة، فهي تفيد الغاية في العلم، فهو سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن، وما هو كائن.

وجاء قوله سبحانه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ [فصلت:٤٩]، على وزن (فعول) من صيغ المبالغة، وُصِفَ بهما الإنسان لكثرة ما ينتابه من يأس وقنوط، واليأس من صفة القلب، والقنوط: أن يظهر آثار اليأس في الوجه والأحوال الظاهرة.

ومن أمثلة اسم الفاعل، قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦]، وقوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢]. ونحو ذلك.

٥- وضع الحروف المختلفة.

قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ [غافر:١٣]، وفي آية الأنفال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [الأنفال:١١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح:٤]، وفي آية أخرى في السورة نفسها قال سبحانه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٦].

٦- الحذف.

فنجد أنَّ الله "سبحانه يذكر جواب القسم تارة، -وهو الغالب-، وتارة يحذفه، كما يحذف جواب لو كثيراً كقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥]، وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [الرعد:٣١]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال:٥٠]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾ [سبأ:٥١]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام:٣٠]، ومثل هذا حذفه من أحسن الكلام، لأنَّ المراد: أنك لو رأيت ذلك لرأيت هولاً عظيماً، فليس في ذِكر الجواب زيادة على ما دلَّ عليه الشرط، وهذه عادة الناس في كلامهم إذا رأوا أمورا عجيبة وأرادوا أن يخبروا بها الغائب عنها، يقول أحدهم لو

رأيت ما جرى يوم كذا بموضع كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾[البقرة:١٦٥]، فالمعنى في أظهر الوجهين: لو يرى الذين ظلموا في الدنيا إذ يرون العذاب في الآخرة، والجواب محذوف، ثم قال: ﴿أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾[سبأ:٥١]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[الأنفال:٥٠]، أي لو ترى ذلك الوقت وما فيه"[١].

٧- الالتفات.

"وهو نقل الكلام من أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخر، تطريةً واستدراراً للسامع، وتجديداً لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملال والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه"[٢].

والالتفات له فوائد عامة وخاصة؛ فمن العامة: التفنُّن والانتقال من أسلوب إلى آخر، لما في ذلك من تنشيط السامع، واستجلاب صفائه، واتساع مجاري الكلام، وتسهيل لوزن والقافية.

وأما الخاصة فتختلف باختلاف محاله ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلم.

وله أنواع كثيرة منها:

- الالتفات من التكلُّم إلى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[يس:٢٢]، الأصل: (وإليه أرجع) فالتفتَ من التكلُّم إلى الخطاب، وفائدته: أنه أخرج الكلام في معرض مناصحته لنفسه، وهو يريد نصح قومه؛ تلطفاً وإعلاماً أنه يريده لنفسه، ثمَّ التفت إليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله.

- من التكلُّم إلى الغيبة، كقوله: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾[الكوثر:١-٢]، حيث لم يقل: (فصلِّ لنا) تحريضاً على فعل الصلاة لحقِّ الربوبية.

---

[١] التبيان في أقسام القرآن (٢-٣).

[٢] البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٤).

- من الخطاب إلى التكلُّم، كقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس:٢١]، فأنزل سبحانه نفسه منزلة المخاطب.

- من الخطاب إلى الغيبة، كقوله: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف:٧٠]، ثم قال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ [الزخرف:٧١]، فانتقل عن الخطاب إلى الغيبة، ولو ربط بما قبله لقال: (يطاف عليكم)، لأنه مخاطب لا مخبِر، ثم التفَتَ فقال: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧١]، فكرَّر الالتفات.

- من الغيبة إلى التكلُّم، كقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١].

- من الغيبة إلى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثۚ﴾ [الأعراف:١٧٥][1].

٨- الحثُّ والأمر.

جاء الحثُّ في القرآن الكريم بأساليب كثيرة منها:

أ- التذكير بالآمر وعظمته، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٢٣].

ب- التشويق للأجر وكثرته، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة:١٠٤]، ففيه تشويق إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ويمحِّصها ويمحَقها[2].

---

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٥-٣٢٦)، الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٨٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٠٨).

وقوله تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[الحديد:٧].

ج- التهييج، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[محمد:١٩]، ففيه تهييج للأمة على الاستغفار[1].

د- التذكير بمنزلة المأمور، وحاجته إلى ربه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

هـ- الاعتبار بحياة الأنبياء وأعيان الصالحين، كما في قوله: ﴿وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[هود:١٢٠].

٩- التبغيض والنهي.

وجاء ذلك في القرآن الكريم بأساليب منها:

- النهي الصريح، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[النساء:٢٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾[الأنعام:١٥١]، وهذا كثير في القرآن الكريم، ويفيد تحريم هذه الأفعال على الجملة.

- التبغيض للفعل، والتنفير منه، مثل قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾[الحجرات:١٢].

- التهكُّم أو السخرية من الفاعلين، كقوله عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾[البقرة:١٣].

- بيان العاقبة في الدنيا، أو في الآخرة، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾[النساء:٣٠].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١٥١).

- الاعتبار بالأمم الظالمة أو أعيان المعاندين، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴾[الأحزاب:٦٩].

وغير ذلك من الأساليب القرآنية البليغة.

الرابع: معرفةُ أوجهِ اللغة.

من مجالات اللغة التي يحتاج إليها المتدبِّر لكتاب الله: معرفة أوجه اللغة، والحاجة إليه في اختيارِ ما يناسب النص، وقَصْر المعنى على الوجهِ المراد، ومن ذلك على سبيل المثال معنى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى:٧]، فإنَّ لفظة: (الضلال) تقعُ على معانٍ كثيرة، منها: الغفلة، والنسيان، والمحبة، وغيرها[(١)].

وتوهَّم البَعْضُ أنَّه أراد بالضَّلالِ الذي هو ضدُّ الهدى، وزعموا أنَّ الرسول ﷺ كان على مذهبِ قومه أربعين سنة، وهذا خطأ فاحش؛ فقد طهَّرَه الله تعالى لنبوتِه، وارتضاه لرسالته، ومن سيرته ﷺ ما يردُّ على قولهم؛ إذ سُمِّي في الجاهليةِ الأمين، وكانوا يرتضونه حكمًا لهم وعليهم.

فالصحيح: أنَّ المقصود بالضَّلالِ: الغفلة عما يراد به من أمر النبوة والدين، فلم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلَّمه الله تعالى ما لم يكن يعلم[(٢)]، وهو مصداق قول الله تعالى: ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف:٣]، وهو أيضاً معنى قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[الشورى:٥٢].

---

(١) وقد أورد الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب (٣١/ ١٩٧-١٩٩) عشرون قولاً في المراد بالضلال في الآية.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٩٢٨).

والغفلة في حق الأنبياء لا جهل فيها، لأنَّ الجاهل لا يسمى غافلاً حقيقة لقيام الجهل به، فصح أن ضلال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غفلة لا جهل[1].

وقد زكى الله تعالى عقل نبيه ﷺ فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٢].

الخامس: معرفة صيغ الأسماء وما تدلُّ عليه من معنى.

لئلا يؤدِّي ذلك إلى تفسيرِ القرآن الكريم بما لا يليق، أو فهم المعنى غير المراد؛ ومن ذلك على سبيل المثال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وغير ذلك من الآياتِ التي ورد فيها نفي الظلم عن الله - سبحانه وتعالى - بصيغة ﴿فَعَّالٌ﴾، ففي هذه الآيةِ وما أشبهها وردت لفظةُ (ظلَّام) بصيغةِ المبالغة، ومعلومٌ أنَّ نفي المبالغة لا يستلزم نفي الفعل من أصلِه؛ مثال ذلك قولك: زيد ليس بنحَّارٍ للإبل، لا ينفي إلا مبالغته في النَّحر، ولا ينفي أنه ربما نَحَر بعضَ الإبل، ومعلوم أنَّ المرادَ بنفي المبالغة في الآياتِ هو نفي الظلم من أصلِه عن الله - سبحانه وتعالى.

وعلى هذا أجمعَ المحقِّقون من المفسِّرين واللغويين[2].

السادس: المعرفة بلغات العرب.

فمن المعلومِ أنَّ لكلِّ قبيلة لغتها، وأفصح اللغاتِ لغة قريش، وقد جاءت بعضُ الكلمات في القرآن على غيرِ لغة قريش، ومن ذلك: ما أشكل على عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل:٤٧]، فوقف به فتى فقال: (إنَّ أبي يتخوَّفُني حقي)، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الله أكبر ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ أي: على تنقص لهم)[3].



---

[1] انظر: تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، لابن خمير (١١٣).

[2] انظر: تفسير الطبري (٢١/ ٤٨٧)، تفسير السمعاني (٥/ ٥٨)، المحرر الوجيز (٥/ ٢١)، تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٠)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٥/ ٧٤)، تفسير ابن كثير (٧/ ١٨٥)، إرشاد العقل السليم (٨/ ١٧).

[3] انظر: المحرر الوجيز (١/ ٤٧)، تفسير القرطبي (١/ ٤٤)، الجواهر الحسان للثعالبي (١/ ١٤٧).

المبحث الثالث: أثر فهم التفسير في تحقيق التدبُّر الصحيح

جاء الكلام عن هذا المبحث في ثلاثة مطالب:

- المطلب الأول: أهمية التفسير للمتدبّر:

تدبُّر القرآن هو الطريق إلى تفسيره، وفهم معانيه طريق لتدبُّره، وكل من سلك طريقاً وعمِل عملاً، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، وكلما عظُم المطلوب تأكَّد هذا الأمر، وتعيَّن البحث التام عن أمثل وأقوَم الطرق الموصلة إليه.

والتلقِّي الصحيح للقرآن هو كما تلقَّاه الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ فإنهم كانوا إذا قرأوا عشر آيات، أو أقل أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ويحققوا ما دلَّت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلونها على واقعهم، وينقادوا لأوامرها ونواهيها، ويطبِّقونها ويحاسبون أنفسهم في تقصيرهم في ذلك.

فمن سلك الطريق الذي سلكوه، وجَدَّ واجتهد في تدبُّر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته واستنارت بصيرته، واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصاً إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانباً قوياً، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبي ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإنَّ ذلك أكبر عون على هذا المطلب[(١)].

والتفسير للمتدبِّر كالمصباح الذي ينير طريقه، ويعينه على الوصول إلى مقصده.

فعن سعيد بنُ جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٥هـ) قال: (من قرأ القرآنَ ثمَّ لم يُفسِّره، كان كالأعمى أو كالأعرابي)[(٢)].

---

(١) انظر: القواعد الحسان للسعدي (٩-١٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٨١) برقم: (٨٧).





وقال إياس بن معاوية المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢١ هـ)[١]: (مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره؛ كمثل قوم جاءهم كتاب من مَلِكِهم ليلاً وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة لا يدرون ما في الكتاب، ومثَل الذي يعرِف التفسير: كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب)[٢].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١ هـ): (وينبغي له أن يتعلَّم أحكام القرآن، فيفهم عن الله مراده، وما فرض عليه، فينتفع بما يقرأ ويعمل بما يتلو، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه، وما أقبح أن يُسأل عن فقه ما يتلوه ولا يدريه، فما مثَل من هذه حالته إلا كمثل الحمار يحمل أسفاراً)[٣].

ومن تأمَّل الآيات التي تحدثت عن علاقة العباد بالقرآن وموقفهم منه وجد أنها جاءت بلفظ التدبُّر؛ فهو ما كُلِّفوا به لنيل الغاية العظمى: اليقين بالقرآن في مصدره، وأخبَاره، وتشريعاته، ومن ثَمَّ افترقَ التَّدبر عن التفسير في الغايةِ والحُكْمِ.

فمثلاً: في قولِه تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾[البقرة:٧٥]، إشارةٌ إلى نوعين من فهم القرآن: فهمُ عقلٍ، وفهمُ إيمانٍ. فالأوَّلُ غايةُ التفسير، وهي: فهم معنى القرآنِ. والثاني غايةُ التدبر، وهي: اليقينُ به[٤].

---

[١] **إياس بن معاوية** = أبو واثلة المزني، قاضي البصرة، وكان يضرب به المثل في الذكاء، والدهاء، والسؤدد، والعقل، وثقه: ابن معين، توفي: سنة إحدى وعشرين ومائة. انظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٥٥).

[٢] ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ٤٠)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٦).

[٣] الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢١).

[٤] انظر: صـ(٦) من بحث غير مطبوع للزميل الدكتور/ نايف الزهراني، بعنوان: تحليل مناهج معاصرة للتدبُّر وتقويمها- وهو من أبحاث ملتقى تدبُّر الثاني بالرياض ١٤٣١هـ.

وقد سبق الكلام عن التدبُّر والتفسير والفرق بينهما[1]، وتبيَّن أنَّ التدبُّر أوسع من التفسير، إذ يحصل من كلِّ تالٍ للآيات، أو مستمع لها دون اشتراط آلة تؤهله للتفسير غير فهم الخطاب العربي، فكان مأموراً بالتدبُّر دون التفسير؛ إذ للتفسير والمفسِّر شروطٌ يجب توافرها فيه، ليست ذاتها للمتدبِّر.

وقد سبق تقسيم درجات التدبُّر باعتبار تفاوت المتدبِّرين إلى درجتين[2]:

الأولى: تدبُّر العامة، ويكون بالوقوف عند الآيات مع الفهم العام لها، والتبصُّر بما اشتملت عليه من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد، والانتفاع بها تذكُّرًا واتباعًا.

الثانية: تدبُّر الخاصة -وهم أهل العلم وطلبته-، ويكون بالوقوف عند الآيات مع الفهم لمعناها ودلالاتها، والتبصُّر بمقاصدها وهداياتها، ومراميها وأسرارها.

وكلا أصحاب الدرجتين- العامة والخاصة- يحتاج تدبُّرهم إلى فهم المعنى العام والخاص أيضاً، وزيادة الفهم، التي تحصل بكثرة التكرار والنظر في كتاب الله، حتى يستبين المعنى المراد.

والتفسير: بيان معاني القرآن، فإذا بانت له هذه المعاني، فإنه قد أتمَّ مرحلة فهم المعنى، وفي هذه الحال يُعمل المفسِّر عقله في تفهُّم المعاني؛ فهي مرحلة عقلية يحتاج فيها المفسِّر إلى اجتهاد بإعمال العقل للوصول إلى المعنى المراد؛ إما بسبب خفاء المعنى، وإما بسبب اختلاف المفسِّرين.

وهذه الحال هي أحد مجالات التدبر؛ لأنه لا يمكن أن يَتدبَّر ما لم يفهم معناه، واجتهاده في تفهُّم المعنى نوع متقدِّم من التدبُّر.

---

[1] في المبحث الثاني من الفصل الأول من الباب الأول.

[2] انظر: المبحث الثالث من الفصل الثالث من الباب الأول.



أما ما يدركه -مما لا يحتاج إلى تفسير-؛ فذلك مما لا يحتاج إلى إعمال العقل للوصول إلى المعنى؛ لأنَّ المعنى قد حصل وانتهى؛ لكنه يتدبَّر ما وراء النصِّ من الاستنباطات والفوائد، واستخراج الحكم والأحكام التي تظهر بالتدبُّر[1].

وسبق أيضاً كلام ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا حين قال: (التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله)[2].

فأما ما لا يُعذر أحدٌ بجهله؛"فهو ما تتبادر الأفهام إلى معرفة معناه من النصوص المتضمِّنة شرائع الأحكام، ودلائل التوحيد، وكلُّ لفظ أفاد معنى واحداً جلياً لا سواه يعلم أنه مراد الله تعالى"[3]، فيسوغ للعامة تدبُّر ذلك بمجرَّد الفهم العام للعربية، ولا يحتاج إلى مزيد تفسير وتفصيل، كالتدبُّر مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣]، وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، فمن كان عربيَّ اللسان، مستقيم الفطرة؛ عرف المعنى وتدبَّره بمجرَّد سماعه؛ وقد يدرك ذلك من تأمُّل السياق، فيخشى الله عند سماع آيات الترهيب والزجْر، وينشط لطاعة ربه حين يسمع آيات الترغيب والأجْر، ونحو ذلك[4].

وأما ما تعرفه العلماء فهو من التدبُّر الخاص، الذي يحتاج إلى تكرار النظر، ويحتاج إلى

---

[1] انظر: مفهوم التدبر تحرير وتأصيل (٧٢-٧٩) ورقة د/ مساعد الطيار (مفهوم تدبر القرآن) بتصرُّف.

[2] سبق تخريجه في المجلد الأول ص(٩١).

[3] البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٦٥).

[4] انظر: مدارج الحفظ والتدبُّر – أ.د/ ناصر العمر (٦٤-٦٥).

معرفة دقيقة بالتفسير، وهو سبب لتفتُّح المعاني، واستخراج الفوائد من الآيات، وفي هذا المعنى يذكر ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٣٧هـ) عن نفسه فيقول: (واعلم أنَّ المتصدِّي لحلِّ معاني القرآن يحتاج إلى كثرة الدرس، فإنه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل، وهذا شيء جرَّبته وخبرته، فإني كنت آخذ سورة من السور وأتلوها، وكلما مرَّ بي معنى أثبته في ورقة مفردة، حتى انتهي إلى آخرها، ثم آخذ في حلِّ تلك المعاني التي أثبتها واحدًا بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة، وأفعل ما فعلته أولًا، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر في كلِّ مرة من المعاني ما لم يظهر لي في المرة التي قبلها)[١].

ولذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ) يقول: (رُبمَا طالعت على الْآيَة الْوَاحِدَة نَحْو مائَة تَفْسِير، ثمَّ أسأَل الله الْفَهم)[٢].

وهو بعد التدبُّر والاستعانة بربه سبحانه، سيظهر له بعض الفهم، ولن يبلغ كمال الفهم كله.

قال سهل بن عبدالله التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٨٣هـ): (لو أعطي العبد بكلِّ حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه لأنه كلام الله؛ وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه)[٣].

وبنحوه قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وكلُّ ما ذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن، هو حجَّة على إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبَّهوا لما تنبَّهوا له)[٤].

شبهة والجواب عنها:

هل يشترط العلم بمعنى الآية لصحَّة تدبرها؟ وهل التدبُّر أمر مخصوص بالعلماء؟.

---

[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ١٢٧).

[٢] العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية (٤٢)، وانظر كتاب: (أفلا يتدبرون القرآن) د/ ناصر العمر (١٥١).

[٣] ذكره عنه الزركشي في البرهان في علوم القرآن (١/ ٩).

[٤] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ٤٢٩).

قال الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ): (قول بعض متأخري الأصوليين: إنَّ تدبر هذا القرآن العظيم، وتفهُّمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، وإنَّ كل من لم يبلغ درجة الاجتهاد المطلق بشروطه المقررة عندهم التي لم يستند اشتراط كثير منها إلى دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس جلي، ولا أثر عن الصحابة = قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً، بل الحق الذي لا شكَّ فيه: أنَّ كل من له قدرة من المسلمين، على التعلُّم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة، يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما، أما العمل بهما؛ مع الجهل -بما يُعمل به منهما- فممنوع إجماعاً، وأما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلُّم صحيح فله أن يعمل به ولو آية واحدة، أو حديثاً واحداً، ومعلوم أنَّ هذا الذمَّ والإنكار على من يتدبَّر كتاب الله؛ عام لجميع الناس.

ومما يوضح ذلك أنَّ المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، ليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول، بل ليس عندهم شيء منها أصلاً. فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصلاح الأصولي لما وبَّخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصِّلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين، كما ترى)[1].

ويمكن أن يقال: إنَّ الجواب على هذا يتوقف على تحديد المعنى المراد تدبُّره، فإن كان المعنى موضع التدبُّر هو تفسيرها ومعناها المباشر؛ صحَّ اشتراط العلم بتفسير الآية ليصحَّ التدبُّر المبني عليها، وإن كان المعنى موضع التدبُّر أحد المعاني المستنبطة - والتي لها نوع علاقة بالمعنى المباشر- فيكفى من هذا الشرط العلم بهذا المعنى المستنبط، والاطمئنان إلى صحة علاقته بالآية، وارتباطه بها.

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٨).

وفيما نرى من تأثر كثير من العرب والعجم بسماع القرآن وتلاوته مع عدم إدراكهم لتفاصيل معناه، ومرتبة هذا المعنى تفسيراً أو استنباطاً = دليل على صحة التوسع في هذا الباب، وعدم تضييقه، وأن كل تأمل أُوْرِثَ علماً صحيحاً -ولو مجملاً-، وعملاً صالحاً؛ هو تدبُّر مأمور به، ومأجور عليه.

ويكفي علمَ التفسير شرفاً أنه خيرُ معين للوصول إلى هذه الغاية الشريفة من إنزال القرآن: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص:٢٩][1]، والله أعلم.

- المطلب الثاني: طرق التفسير وأثرها على التدبُّر:

لما كان فهم التفسير لكلا الصنفين يعين على تدبُّر القرآن الكريم، وأنه كلَّما كان علم المرء بكتاب الله أتمَّ؛ كان تدبُّره له أكمل[2]؛ كان جديراً بالبحث الوقوف على أنواع التفسير، ومناهجه، وأثر كلِّ نوع على تدبُّر كتاب الله تعالى.

فقد اتبع المفسِّرون طرقاً متعددة في تفسير كلام الله تعالى[3]، وترجع في مجملها إلى ما يلي:

---

[1] انظر: مقال بعنوان: (تدبُّر في التدبُّر)، للزميل الدكتور/ نايف الزهراني، منشور على شبكة الانترنت في ملتقى أهل التفسير.

[2] انظر: مدارج الحفظ والتدبُّر – أ.د/ ناصر العمر (٨٩).

[3] اصطلح المعاصرون على تقسيم طرق التفسير إلى قسمين: التفسير بالمأثور (وأدخلوا فيه تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة، وبأقوال الصحابة، والتابعين)، والتفسير بالمعقول (وهو التفسير بالرأي بنوعيه المحمود والمذموم) والذي يترجَّح والله أعلم أنَّ هذا التقسيم حادث، وتترتب عليه إشكالات كثيرة، فالصحيح أن تكون كلها طرقاً للتفسير، دون تقييدها بهذين القسمين، وللاستزادة حول ذلك يمكن الاطلاع على ما كتبه الدكتور/ مساعد الطيار في كتابه: مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبُّر والمفسِّر (١٩-٤٠) ففيه مزيد بيان وتفصيل ومناقشة لذلك.

١- **تفسير القرآن بالقرآن**: وهو أشرف أنواع التفسير وأجلّها؛ إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله مِن الله عَزَّوَجَلَّ، فصاحب الكلام سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من كلِّ أحد، وإنَّ "أصحَّ الطرق في ذلك أن يفسَّر القرآن بالقرآن؛ فما أجمل في مكان فإنه قد فسِّر في موضع آخر، وما اختصر من مكان فقد بسط في موضع آخر"[1].

ومن أمثلة هذا القسم: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١]، ففسَّر لفظة ﴿هَلُوعًا﴾ بما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٢-٣]، فإنَّ قوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ تفسير لكلمة الطارق التي قبلها.

٢- **تفسير القرآن بالسنة**: فهي "شارحة للقرآن وموضحة له؛ بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٤هـ): (كلُّ ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن)[2]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٦٤]،

---

[1] مقدمة في أصول التفسير- لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣٩).

[2] لم أقف عليه في مظانه.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[1] يعني السنة"[2].

ومن أمثلة هذا القسم: ما روي عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ»، قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-٨]، قَالَ: «ذَاكَ العَرْضُ، يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ»[3].

ومعرفة تفسير النبي ﷺ للقرآن مما يعين المتدبِّر على تدبُّره، إذ تفتح ذهنه على معانٍ لم يعرفها من قبل، وقد لا تتضح له بمجرَّد القراءة لآيات، إضافة إلى أنها تربط المتدبِّر بالسنة التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع.

ولم يكن ﷺ يطنب في تفسير الآية، أو يخرج إلى ما لا فائدة في معرفته، فكان أكثر تفسيره ﷺ بياناً لمجمل، أو توضيحاً لمشكل، أو نحو ذلك.

---

(١) **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٢٨/ ٤١٠) برقم: (١٧١٧٣)، وأبو داود في سننه (٧/ ١٣/) برقم: (٤٦٠٤)، والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٣٧) برقم: (١٠٦١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤١)، وتمام الحديث: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السِّبَاعِ، أَلَا وَلَا لُقَطَةٌ مِنْ مَالِ مُعَاهَدٍ إِلَّا أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ، فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُمْ، فَلَهُمْ أَنْ يُعْقِبُوهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُمْ».

(٢) المصدر السابق (٣٩-٤٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٠٣) في كتاب العلم، باب من سمع شيئاً فلم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه، وبرقم: (٤٩٣٩) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٨]، وبرقم: (٦٥٣٦) في كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذِّب. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٨٧٦) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إثبات الحساب.

٣- تفسير القرآن بأقوال الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ: لكونهم سمعوا القرآن من منبعه الصافي؛ رسول الله ﷺ، الذي بيَّن لأصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ معاني القرآن، كما بيَّن لهم ألفاظه؛ فقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤] يتناول بيانه للمعاني والألفاظ، حتى صاروا بذلك أعلى قدْراً من الإيمان، وسلامة الفطرة، والسليقة الأصلية.

إضافة لكون الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡعرَباً خلَّصاً؛ يفهمون القرآن الكريم بمقتضى السليقة العربية، وإذا أشكل عليهم شيء سألوا عنه النبي ﷺ فبيَّنه ووضَّحه لهم، كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم:٤].

ثمَّ إنهم بعد وفاة النبي ﷺ حاولوا الكشف عن بعض المعاني باجتهادهم، متَّبعين بذلك منهجاً متميِّزاً يمكِّنهم من الفهم الصحيح للآيات المراد تفسيرها، مما جعل تفسير الصحابي -عند بعض العلماء- بمنزلة المرفوع إلى النبي ﷺ إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، ولا مجال للرأي فيه[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وهذا، وإن كان فيه نظر، فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأمة بمراد الله عَزَّوَجَلَّ من كتابه، فعليهم نزل، وهم أول من خوطب به من الأمة، وقد شاهدوا تفسيره من الرسول ﷺ علماً وعملاً، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة، فلا يُعدَل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل)[٢].

"وقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير"[٣].

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٨٣) بعد الأثر رقم: (٣٠٢١)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٥٧).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢٤٠).

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٤/ ٢٣٣).

ومن أمثلة تفسير الصحابة للقرآن: أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ [البقرة:٢٦٦]؟ قَالُوا: اللهُ أَعْلَمُ، فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: (قُولُوا: نَعْلَمُ أَوْ لاَ نَعْلَمُ)، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ عُمَرُ: (يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلاَ تَحْقِرْ نَفْسَكَ)، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضُرِبَتْ مَثَلًا لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: (أَيُّ عَمَلٍ؟) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ، قَالَ عُمَرُ: (لِرَجُلٍ غَنِيٍّ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ لَهُ الشَّيْطَانَ، فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ)[1].

فالنَّظر في تفسير الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مما يعين المتدبِّر على تدبُّره، إذ تميَّز تفسيرهم بالنقل والرواية، والاكتفاء بالمعنى الإجمالي، وتوضيح المعنى بأقصر لفظ، بعد التدبُّر والنَّظر، مع قلَّة اختلافهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في فهم معاني القرآن الكريم.

٤- **تفسير القرآن بأقوال التابعين**: والتابعي هو من صحِب الصحابي[2]، وهذا التعريف خرج به مجرَّد اللقاء أو الرؤية؛ إذ لا بدَّ من الصحبة.

وقد عدَّ بعضهم أقوال التابعين حجَّة لأنهم أخذوها عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولم يعتبرها جمهور العلماء حجَّة إلا إذا أجمعوا عليها، وهو الأقرب، والله أعلم[3].

وللتفسير بالمأثور فضل على غيره؛ لأنه إما أن يكون تفسيراً للقرآن بكلام الله تعالى فهو أعلم بمراده، وإما أن يكون تفسيراً له بكلام الرسول ﷺ فهو المبيِّن لكلام الله تعالى، وإما أن يكون بأقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهم الذين شاهدوا التنزيل بقرائنه وأحواله وهم أهل اللسان[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٥٣٨) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة:٢٦٦].

(٢) عرَّفه بذلك الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية (٢٢).

(٣) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (٤٦)، مناهل العرفان (٢/ ١٣-١٤).

(٤) انظر: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، أ.د/ فهد الرومي (٧١).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا؛ أنَّ كثيراً من الباحثين في التفسير بالمأثور قصروا بحثهم على الجانب النظري من كلام النبي ﷺ وصحابته الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، ولم ينظروا أو يفيدوا من الجانب العمليِّ في حياتهم.

إنَّ المتدبِّر يحتاج أثناء دراسة ذلك أن يُدرك أنَّ النبي ﷺ وصحابته الكرام رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ عاشوا القرآن في حياتهم، وفسَّروه بواقعهم وأعمالهم، ملتزمين توجيهاته وأحكامه، ومنفِّذين أوامره وواجباته، ولا أدلَّ على ذلك من قول أم المؤمنين عَائِشَةُ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا حين سُئلت عَنْ خُلُقِ رَسُولِ الله ﷺ فقَالَتْ: (أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ)[1]، وكأنها تعني بذلك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أنَّ سلوكه وهديه وفعله كان مفسِّراً للقرآن وشارحاً له.

فمن تدبَّر القرآن ونَظر في تفسيره؛ كان حقيقاً به أن يستصحب النَّظر في سيرة النبي ﷺ ومغازيه وشمائله وفضائله، وأن يعرف أحوال الصحابة مع القرآن، فيقرأ أخبارهم وسِيَرهم التي جمَعت أعظَم تفسير عمليٍّ للقرآن بعد النبي ﷺ[2].

٥- التفسير بالرأي:

والمقصود به: تفسير القرآن الكريم بالاجتهاد بعد معرفة المفسِّر لكلام العرب، ومعرفة الألفاظ العربية ووجوه دلالتها، ومعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وغير ذلك، وهو قسمان: محمود ومذموم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن – د/ صلاح الخالدي (١٢٩-١٣١)، وسبقت الإشارة إلى ذلك في المبحث الأول من هذا الفصل من الأسباب المعينة على التدبر تحت عنوان: الوقوف على شيء من أحوال النبي ﷺ والسلف في تعاملهم مع القرآن.

أ- ما يجوز من التفسير بالرأي (التفسير المحمود):

هو ما كان موافقاً لكلام العرب، ومناحيهم في القول، مع موافقة الكتاب والسّنة، ومراعاة سائر شروط التفسير؛ من معرفة الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول وغيرها.

واستدلَّ العلماء لجوازه بأمور، منها:

١- أنَّه من التدبُّر، والله تعالى قد أمر بتدبُّر القرآن، فقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[ص:٢٩].

٢- أنَّ رسول الله ﷺ دعا لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: «**اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ**»[1].

٣- أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في شيء من تفسير آيات من القرآن مما لم يبيِّن لهم رسول الله ﷺ، فلو كان النظر والاجتهاد محظوراً في فهم كتاب الله تعالى من أهله، لكان الصحابة قد وقعوا في معصية الله تعالى، وهذا بعيد لفضلهم.

٤- أنَّ الناس درجوا على تفسير كتاب الله تعالى بالاجتهاد والنظر من أيام التدوين إلى هذه الأزمنة، ولن تجتمع الأمة على ضلالة.

ب- ما لا يجوز من التفسير بالرأي (التفسير المذموم):

هو ما كان باعثه الهوى والتعصُّب، ولم يصدر عن علم ودراية، وغير جارٍ على قواعد اللغة العربية، ومخالف للأدلة الشرعية، غير مستوفٍ شرائط التفسير التي ذكرها المفسِّرون، وهو محرَّم غير جائز، إذ لا يجوز تفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل، ومن

---

[1] **صحيح**. رواه البخاري في صحيحه برقم: (١٤٣) في كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء، دون قوله: "وعلمه التأويل"، وأخرجه بتمامه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٢٢٥) برقم: (٢٣٩٧)، والبزار في مسنده (١١/ ٢٨٢) برقم: (٥٠٧٥)، وابن حبان في صحيحه (١٥/ ٥٣١) برقم: (٧٠٥٥)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦١٥) برقم: (٦٢٨٠). وصححه الألباني في تصحيح العقائد (١٦٧).

أمثلته: ما يفسِّره أهل الأهواء مما يؤيد مذاهبهم المنحرفة، وكذلك من فسَّروا القرآن بالأمور الفلكية أو الأرضية التي لم يدلَّ عليها القرآن، وربما دخل في ذلك أيضاً ما ظهر مؤخَّراً مما يسمى بالإعجاز العددي، والتكلُّف في ذلك بأمور ما أنزل الله بها من سلطان، ونحو ذلك، فكلُّ هؤلاء فسَّروا القرآن بآرائهم.

ويدخل فيه: من أنزل آيات القرآن على غير ما أراد الله، مثل قول بعضهم إذا سئل عن شيء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ [المائدة:١٠١]، فهذا أيضاً من تنزيل القرآن على غير ما أراد الله، فإنَّ للقرآن حرمة ومكانة عظيمة، فلا يتجاسر على القول فيه إلا من أوتي فهماً وعلماً وفقهاً راسخاً.

قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٧٩هـ): (وهكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، أنهم شددوا في هذا في أن يفسر القرآن بغير علم)[(١)].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (فأما تفسير القرآن بمجرَّد الرأي فحرام)[(٢)].

وقد استدلَّ العلماء على منع التفسير بالرأي بما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣]، وقوله سبحانه: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ [يونس:٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ ﴾ [الإسراء:٣٦]، فبيَّن سبحانه حرمة القول عليه بغير علم، وأنَّ الفلاح محجوب عمن يفتري الكذب عليه سبحانه.

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٢٠٠).

(٢) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (٤٦).

بل عاقب سبحانه أهل الكتاب لَمَّا اجترؤوا وتجاسروا على كلامه تحريفاً وتبديلاً كما قال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٥٥]، وما لحقهم يمكن أن يلحق غيرهم إن فعلوا كفعلهم.

٢- نهى الرسول ﷺ عن تفسير القرآن بالرأي، بقوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ، أَوْ بِمَا لَا يَعْلَمُ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[١].

قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٥٨هـ): (وهذا إن صحَّ، فإنما أراد -والله أعلم- الرأي الذي يغلِب على القلب من غير دليل قام عليه، فمثل هذا الذي لا يجوز الحكم به في النوازل، فكذلك لا يجوز تفسير القرآن به، وأما الرأي الذي يشدُّه برهان فالحكم به في النوازل جائز، وكذلك تفسير القرآن به جائز...)[٢].

لذا كان أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -على فضله وقدره- يخشى القول في القرآن برأيه دون علم فيقول: (أيُّ أرْضٍ تُقِلُّني، وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني، إذا قلتُ في القرآن ما لا أعلم؟!)[٣].

٣- خروج ذلك التفسير عن جادة التفسير، بتجاهل الناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، ونحو ذلك، لذلك قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه، ولا من فاسق بيِّن فسقه، ولكنِّي أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أزلقَه بلسانه، ثمَّ تأوَّله على غير تأويله)[٤].

---

[١] **ضعيف**. رواه النسائي في السنن الكبرى (٧/ ٢٨٦) برقم: (٨٠٣١)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢٥٨) برقم: (١١٨). وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٢٩٥٠).

[٢] شعب الإيمان (٣/ ٥٤٠).

[٣] أخرجه عنه الطبري في تفسيره (١/ ٧٨).

[٤] أخرجه عنه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٢٠٤).

٤- تجنُّبه وضع اللغة، فإنَّ الخروج بالكلمة أو الجملة عن المراد بهما تعطيل لهما، والكلام إنما هو لإفهام معان معينة منها.

ويشترط في التفسير بالرأي حتى يكون مقبولاً: ألا يعود على المأثور الصحيح بالبطلان، والرجوع للمأثور الصحيح عن النبي ﷺ، وصحابته الكرام، والاعتماد على اللغة العربية، وعدم صرف الآيات إلى غير المشهور من كلام العرب، والاعتماد على مقتضى الكلام وما يدلُّ عليه الخطاب الشرعي من الخصوص والعموم، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، ونحو ذلك[1].

إنَّ تفسير القرآن بالرأي لا ينبغي أخذه إلا إذا قامت عليه بينات لا تعارض المأثور، والأخذ بالمأثور متى خالف الرأي كان أخذه هو الواجب، وإنَّ القائلين بآرائهم المستندة على الأهواء؛ لا مكان لأقوالهم في تفسير القرآن، ولا يعتدُّ بها.

إنَّ أمر التفسير أشدُّ خطراً من أمر التدبُّر؛ لأنَّ المفسِّر يعيِّن مراد الله جلَّ وعلا من كلامه ويقرره لغيره، أما المتدبِّر فلا يسمَّى متدبِّراً إذا لم يكن متابعاً لدلالات القرآن، بل قد يحصل له قدر من التدبُّر وإن لم يفهم المعاني التفصيلية التي يبحث فيها علم التفسير.

وينبغي أن يكون التدبُّر منضبطاً بتفسير الأئمة الثقات للمعنى؛ بحيث لا تكون المعاني المتدبَّرة مخالفة للتفسير في مجملها[2].

---

(١) انظر لما سبق من مبحث التفسير بالرأي: البرهان في علوم القرآن (٢/ ١٦١)، مناهل العرفان (٢/ ٤٩)، شرح شيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمقدمة التفسير (١٤٠)، الواضح في علوم القرآن (٢٣٦).

(٢) انظر: مدارج الحفظ والتدبُّر، أ.د/ ناصر العمر (٦٨-٧٠).

- المطلب الثالث: أساليب التفسير وأثرها على التدبُّر:

مما يعين على التدبُّر معرفة أساليب المفسِّرين في التفسير، وهي أربعة[1]:

التفسير التحليلي، والتفسير الإجمالي، والتفسير المقارن، والتفسير الموضوعي.

١- **التفسير التحليلي**: وهو الأسلوب الذي يتتبع فيه المفسِّر الآيات حسب ترتيب المصحف، سواء تناول جملة من الآيات متتابعة، أو سورة كاملة، أو القرآن كله، ويبين ما يتعلَّق بكل آية من معاني ألفاظها، ووجوه البلاغة فيها وأسباب نزولها وأحكامها ومعناها ونحو ذلك.

وهو أقدم أساليب التفسير، والغالب على مؤلفاته، ويتباين فيه المفسِّرون بين الإيجاز والإطناب، ويعتمد هذا الأسلوب على وحدة الآية.

٢- **التفسير الإجمالي**: وهو الأسلوب الذي يعمَد فيه المفسر إلى الآيات القرآنية حسب ترتيب المصحف؛ فيبيِّن معاني الجمل فيها متتبِّعاً ما ترمي إليه من أهداف، ويصوغ ذلك بعبارات من ألفاظه ليسهُل فهمها، وتتضح مقاصدها للقارئ.

٣- **التفسير المقارن**: وهو الذي يعمَد المفسِّر فيه إلى الآية أو الآيات فيجمع ما حول موضوعها من نصوص؛ سواء كانت نصوصاً قرآنية، أو حديثية، أو للصحابة، أو للتابعين، أو غيرها، ثمَّ يقارن بين هذه النصوص، ويوازن بين الآراء ويستعرض الأدلة، ويبيِّن الراجح، وينقض المرجوح.

ومن فوائد هذا النوع من التفسير: المقارنة مثلاً بين نص قرآني وبين نص في التوراة، أو نص في الإنجيل لإظهار فضل القرآن، ومزيته، وهيمنته على الكتب السابقة، وكشف وجوه التحريف والتبديل فيها، وتوضيح المعنى القرآني، ونحو ذلك.

---

[1] انظر: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، أ.د/ فهد الرومي (٥٧-٦٢).

٤- **التفسير الموضوعي**: وهو جمع الآيات القرآنية التي تتناول موضوعاً واحداً (الوحدة الموضوعية)، وتفسيرها مجتمعة، واستنباط الحكم المشترك منها، ومقاصد القرآن فيها.

وقيل: هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر[1].

ومن الموضوعات التي تناولها القرآن على سبيل المثال: آيات الإيمان بالله، وآيات الحجَّة على المشركين، وآيات الأحكام، وغيرها.

فيجمَع المفسِّر آيات كل باب على حدة، ثمَّ يقوم بدراستها واستنباط الأحكام منها، والجمع بين ما ظاهره التعارض، وذكر ما أُثر فيها من أقوال السلف، وما استنبط من القرآن الكريم بالرأي ونحو ذلك، وكله داخل تحت مسمى التفسير الموضوعي.

ويدخل في هذا الأسلوب كذلك: وحدة الموضوع الذي تناولته السورة، وبيان التناسب بين الآيات بعضها مع بعض.

ولا بدَّ لهذا الأسلوب أولاً من التفسير التحليلي للنصوص، ومعرفة معاني الآيات.

وهذا الأسلوب من التفسير يعين المتدبِّر على تدبُّره، إذ فيه تدبُّر لجمع الآيات التي تتناول موضوعاً واحداً، وتدبُّر في بيان معانيها، واستخراج الفوائد والمسائل منها.



(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي – د/ مصطفى مسلم (١٦).

المبحث الرابع: أثر علوم القرآن في تحقيق التدبُّر الصحيح

يمكن تعريف (علوم القرآن) كعِلْم وفن مدوَّن بأنه: (علمٌ ذو مباحث، تتعلق بالقرآن الكريم من حيث نزوله وترتيبه، وجمعه وكتابته، وقراءاته، ومحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، وأساليبه وتفسيره، وإعجازه، ونحو ذلك)(١).

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، يعني: (المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه، ومحكَمه ومتشابَهه، ومقدَّمه ومؤخَّره، وحلاله وحرامه، وأمثاله)(٢).

---

(١) انظر: المدخل لدراسة القرآن- أبو شهبة (٢٦)، الواضح في علوم القرآن (٨)، دراسات في علوم القرآن الكريم-أ.د/ فهد الرومي (٣٠).

وقد يلاحظ أنَّ حدَّ هذا التعريف غير جامع مانع كما جرت عليه عادة العلماء في ذلك، وهذا صحيح، إذ أن بعض العلوم لا يمكن أن تحدَّ بحدٍّ جامع مانع، فيكفي فيه ما كان أكثر دقة وتوضيحاً للمقصود. ولو نظرنا في أشمل وأقدم كتابين صنِّفا في علوم القرآن كعلم مستقل: البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، لوجدنا أنهما لم يعرِّفا علوم القرآن تعريفاً مانعاً جامعاً، فالإصطلاح على التعريف جاء بعدهما عند المعاصرين. انظر: المحرر في علوم القرآن – د/ مساعد الطيار (٢٣-٢٤).

وقد أوصل الزركشي في كتابه البرهان (١/ ١٢) أنواع علوم القرآن إلى سبعة وأربعين نوعاً، ثمَّ قال: (واعلم أنه ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد الإنسان استقصاءه لا ستفرغ عمره ثم لم يحكم أمره، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله والرمز إلى بعض فصوله فإن الصناعة طويلة والعمر قصير ماذا عسى أن يبلغ لسان لتقصير) ا.هـ. وأوصلها الحافظ السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن (١/ ٣١) إلى ثمانين نوعاً ثم قال: (فهذه ثمانون نوعاً على سبيل الإدماج ولو نوعت باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة، وغالب هذه الأنواع فيها تصانيف مفردة وقفت على كثير منها) ا.هـ.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٥/ ٥٧٦) برقم: (٦١٧٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٥٣١) برقم: (٢٨١٨).

وقال مقاتل بن سليمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٥٠هـ) في قوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:٢٦٩]: (وهي علم القرآن والفقه فيه)[١].

ودراسة ومعرفة هذه العلوم من أهم العلوم، وأعلاها، وأنفعها للمتدبِّر، إذ معرفتها سبيلٌ لفهم كتاب الله، ومعرفة أحكامه وحِكَمه.

إنَّ معرفة علوم القرآن تجعل التدبُّر صائباً مقبولاً، ونتائجه جازمة قاطعة للمتدبِّر، دون أن يلوي أعناق النصوص إلى خطأ أو باطل، أو يقوِّلها ما لم تحتمله، أو يختلق لها ما ليس فيها، وهي عاصم من الخطأ والزلل إذا استعان بالله، وأصلح النية، وأحسن السبيل.

وتظهر أهمية دراسة علوم القرآن من جوانب عديدة منها:

١- أنَّ معرفة علوم القرآن تساعد على فهم وتدبُّر القرآن الكريم بصورة صحيحة دقيقة، إذ معرفة أوجه قراءة القرآن وأسباب نزوله، وناسِخه ومنسوخه، ومحكَمِه ومتشابهه، ونحو ذلك، كلُّها علوم تعين على فهم القرآن الكريم وتدبُّره.

٢- زيادة العلم والثقة واليقين بهذا القرآن العظيم، خاصة لمن تعمَّق في معرفة إعجازه، ووقف على دقيق أسراره، إذ الجهل بمثل هذه العلوم يجعل المسلم عرضة للشبهات والشكوك التي يُقصد من ورائها زعزعة اليقين، وفي هذا قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٦هـ): (أحبُّ الخلق إلى الله أعلمهم بما أُنْزِل)[٢].

٣- معرفة الجهود العظيمة التي بذلها العلماء - عبر التاريخ والقرون- لخدمة هذا الكتاب، ودور هذه الجهود في حفظه من التغيير والتبديل، وفي تيسير فهمه وتدبُّره.

٤- نيل الأجر والثواب، إذ تعلُّم مثل هذه العلوم من أوسع أبواب العبودية لله.

---

[١] تفسير مقاتل بن سليمان (٢٢٣).

[٢] ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز (١/ ٤٠)، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن (١/ ٢٦).

٥- تطهير القلب، وتهذيب النفس، وزيادة الإيمان، إذ تعلُّم علوم القرآن يربط المسلم بصورة قوية بكتاب الله الذي أنزله الله شفاء للناس ورحمة.

والتفسير جزء من علوم القرآن بل هو أكبر علومه، وقد تشترك بعض علوم القرآن بين علوم التفسير، وعلوم القرآن.

والمقصود هنا بيان أثر معرفة مباحث علوم القرآن في تحقيق التدبُّر.

إنَّ التمكُّن من أساسيات علوم القرآن ليس أمراً مستحيلاً، فيأخذ ما يحتاج من هذه العلوم، ويطَّلع على الضروري منها للتدبُّر، ويعرف مجمل الأمر الذي تتحقق به الغاية، وقد يكفيه أن يطَّلع على كتاب واحد يحوي هذه العلوم بإيجاز مفيد، لتحقق له ما يريد، والمتدبِّر كلَّما زادت مكتسباته من القرآن، كلَّما زادت رغبته لطلب هذه العلوم، والاستزادة منها[١].

وثمَّة مباحث من علوم القرآن تتعلَّق بالتدبُّر، ولها صلة مباشرة به، مثل: أسباب النزول، وزمان النزول ومكانه، وما نزل أولاً، والأحرف التي نزل عليها القرآن، وملابسات النزول، والمكي والمدني، والعام والخاص، والمطلق والمقيَّد، والأشباه والنظائر، والناسخ والمنسوخ، وأساليب البيان في القرآن، وغير ذلك كثير.

وسأتناول في دراسة هذا المبحث اختصاراً؛ بعض أنواع علوم القرآن التي تؤثِّر في التدبُّر، مع ذكر أمثلة تطبيقية تبيِّن أثر معرفتها على التدبُّر، ومن ذلك ما يلي:

١- أسباب نزول القرآن الكريم.

معرفة أسباب النزول من الأمور المعينة على التدبُّر، ومن الوسائل المهمة النافعة له، لأنَّ ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة

---

[١] انظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن (١٤٢-١٤٣).

والأمكنة؛ كلُّ ذلك من دواعي تقرُّر الأشياء وانتقاشها في الذهن، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر.

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٠٢هـ): (وبيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز)[١].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإنَّ العلم بالسبب يُورث العلم بالمسبب)[٢].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن)[٣].

وغالب آيات القرآن نزلت ابتداءً دون سبب يقتضي نزولها.

وكثير من الآيات تقدَّم نزولها سبب يقتضيه:

- إما جواباً عن سؤال، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾[البقرة:١٨٩]، وغيرها من السؤالات.

- أو بياناً وتحذيراً من فعل معيَّن، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾[التوبة:٦٥-٦٦]، نزلت في شأن رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس: (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء!)، فقال رجل في المجلس: (كذبتَ، ولكنك منافق!، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، فجاء إليه يعتذر وهو يقول: (يا

---

[١] إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (٢/ ٢٥٩).

[٢] مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٩).

[٣] الموافقات (٤/ ١٤٦).

رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب!)، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦][1].

- أو بيان حكم فعل واقع يُحتاج إلى معرفته، مثل قصَّة خولة بنت ثعلبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، حين ظاهر منها زوجها؛ فنزلت آيات الظهار[2]، في قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١][3].

فمعرفة كلِّ ذلك يعين على فهم النصِّ القرآني، وتدبُّره، والانتفاع به.

وسأضرب مثالين لأسباب النزول، ليتَّضح أثر العلم بها في تدبُّر الآيات.

الأول: عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: (لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ، كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالُوا: مُرَائِي، وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا، فَنَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة:٧٩])[4].

---

[1] **حسن**. أخرجه الطبري في تفسيره (١٤/ ٣٣٣)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٢٩) برقم: (١٠٠٤٧). وسنده صحيح. انظر: الاستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ٢٨٧).

[2] وذلك من قول عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، تَشْكُو زَوْجَهَا، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة:١]). والحديث أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، ووصله أحمد في مسنده (٤٠/ ٢٢٨) برقم: (٢٤١٩٥)، وابن ماجه في سننه (١/ ١٣٠) برقم: (١٨٨)، والنسائي في سننه (٦/ ١٦٨) برقم: (٣٤٦٠)، وهو حديث صحيح.

[3] انظر: أصول في التفسير- لشيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠-١١).

[4] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٤١٥) في كتاب الزكاة، باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة، وبرقم: (٤٦٦٨) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ

=

فمن تدبَّر الآية وهو يعرف سبب نزولها ظهرت له من المعاني ما لا يظهر لغيره، ومن ذلك: أنَّ من طبْع المنافقين في كلِّ زمان ومكان؛ لمز المؤمنين، والسخرية منهم في كلِّ أحوالهم، فلا يتوقَّع منهم الرضا عن المؤمنين وأعمالهم، لأنَّ بدواخلهم كره وحقد عليهم.

الثاني: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «**يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ**» - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**»، قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ اليَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد:١-٢][1].

فمن استحضر سبب النزول وهو يتدبَّر هذه السورة؛ ظهر له من فوائد تدبُّرها:

* أنَّ الجزاء من جنس العمل، فحين أراد أبو لهب تحقير النبي ﷺ ودعا عليه بالهلاك

ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة:٧٩]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٠١٨) في كتاب الزكاة، باب الحمل أجرة يتصدق بها، والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل.

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٣٩٤) في كتاب الجنائز، باب ذكر شرار الموتى، وبرقم: (٤٧٧٠) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ [الشعراء:٢١٤-٢١٥]، وبرقم: (٤٨٠١) في باب قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦]، وبرقم: (٤٩٧١)، في باب قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:٣]، وبرقم: (٤٩٧٢) في باب قوله: ﴿وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد:١-٢]، وبرقم: (٤٩٧٣) في باب قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد:٣]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٠٨) في كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

حين قال: (تبًّا لَكَ[1]سَائِرَ اليَوْمِ)، أنزل الله فيه سورة كاملة تُتلى في الصلوات فرضها ونفلها، يُثاب المرء على تلاوتها، وهي في الدعاء والتحقير لأبي لهب وزوجته ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد:٤]، التي كانت تلقي الشوك في طريق رسول الله ﷺ.

وهذه قاعدة شرعية، يدلُّ عليها أيضاً قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١]، فكان الجزاء مماثلاً للعمل من جنسه في الخير والشر، فمن ضار مسلمًا ضارَّ الله به، ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه، ومن خذل مسلماً في موضع يجب نصرته فيه خذله الله في موضع يحبُّ نصرته فيه، فهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه كله قائم بهذا الأصل وهو إلحاق النظير بالنظير واعتبار المثل بالمثل[2].

"وفيه عِبْرة لكل متعاونين على الإثم، أو على إثم ما.. أو عدوان ما.."[3].

* ومن فوائد تدبُّر السورة: أنَّ أبا لهب لم تشفع له قرابته للنبي ﷺ، ولم تنفعه عمومته له، وهذه قاعدة شرعية معتبرة، يشهد لها قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٨]، وقول النبي ﷺ في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «... **وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»[4].

- ومن علوم القرآن المتعلِّقة بأسباب النزول: **معرفة ما نزل أولاً**، وسأضرب مثالين لتبيين أثر معرفة ذلك على المتدبِّر.

---

(١) **التَّبُّ** = النقص والخَسار والهلاك؛ يُقَال: تَبّاً لِفلان على الدُّعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود:١٠١]، أي: مَا زادوهم غير تخْسير. انظر: مادة: (تبَّ) في تهذيب اللغة (١٤/ ١٨٢)، المحيط في اللغة (٢/ ٣٧١)، لسان العرب (١/ ٢٢٦)، القاموس المحيط (٦١).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (١/ ١٥٠) بتصرُّف كثير.

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٦٠٣).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٦٩٩) في كتاب العلم، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

الأول: في تدبُّر قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ﴾ [البقرة:١٩٣]، مع قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ [الأنفال:٣٩]، تظهر نكْتة إضافة ﴿كُلُّهُۥ﴾ في آية الأنفال -والله أعلم-: لأنَّ آية البقرة نزلت في أول سنة من الهجرة، في سرية عبد الله بن جحش، لعمرو بن الحضرمي وصناديد مكة أحياء، ولم يكن للمسلمين رجاء في إسلامهم تلك الحال، وآية الأنفال نزلت بعد وقعة بدر، وقتل صناديدهم، فكان المسلمون بعد ذلك أرجى لإسلام أهل مكة عامة وغيرهم، فأكَّد سبحانه وتعالى رجاءهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾أي: لا يعبد سواه[1].

الثاني: ما ذُكر عن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٠هـ) أنَّ ابنه عبدالملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠١هـ) قال له: (ما لك لا تنفِّذ الأمور؟ فوالله ما أبالي لو أنَّ القدور غلَت بي وبك في الحق). قال له عمر: (لا تعجَل يا بني، فإنَّ الله ذمَّ الخمر في القرآن مرَّتين، وحرَّمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحقَّ على الناس جُملة، فيدفعوه جُملة، ويكون من ذا فتنة)[2]. فتدبُّر عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترتيب نزول آيات تحريم الخمر؛ جعله يفقه منهج التدرُّج مع الناس، ويسير عليه في شؤون حكْمه.

٢- المكي والمدني:

أقرب التعريفات في المكي والمدني:

أنَّ المكي: هو ما نزل على النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

والمدني: ما نزل على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة[3].

---

(١) انظر: كشف المعاني في المتشابه المثاني لابن جماعة (١١٤).

(٢) ذكره الشاطبي في الموافقات (٢/ ١٤٨)، وبنحوه أخرجه الإمام أحمد في الزهد (٢٤٣)، وابن عبد الحكم في سيرة عمر بن عبد العزيز (٥٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٧/ ٣٨).

(٣) انظر: أصول في التفسير- لشيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤).

وسأضرب أمثلة تبيِّن أثرَ معرفة المكي والمدني في التدبُّر:

الأول: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾[البقرة:٥٨]، وقال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ﴾[الأعراف:١٦١].

تدبَّر الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٠٦هـ) في الآيتين؛ لم قال في البقرة: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ﴾، وقال في الأعراف: ﴿ٱسۡكُنُواْ﴾؟ فقال: (الدخول مقدَّم على السكون، ولا بد منهما، فلا جرم ذِكْر الدخول في السورة المتقدِّمة، والسكون في السورة المتأخرة)[١].

فتعقَّبه ابن عادل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٥هـ) فقال: (وهذا يُردُّ عليه؛ فإنَّ الأعراف قبل البقرة لأنها مكية)[٢].

الثاني: في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗا﴾ [آل عمران:٤١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم:١٠]، فذكَر الأيام في سورة آل عمران، والليالي في سورة مريم؛ للدلالة على أنَّ العلامة هي ألا يكلِّم الناس ثلاثة أيام بلياليها، وكان ذكر الليالي في هذه السورة لأنها مكية، وكان العرب الأميون في مكة يعرفون الأيام بالليالي، حيث يرون القمر، فهو شهر الأميين[٣].

الثالث: من تدبَّر سورة ﴿صٓ﴾ المكية، وذِكْر تكريم الله عَزَّوَجَلَّ لآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ وجدَ فيها دلالة على أنَّ المعلِّم والناصح يعظَّم، وأنه شرع منه تعالى قديم، وكان على أهل مكة أن يعاملوا النبي ﷺ معاملة الملائكة لآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لا معاملة إبليس له[٤].

---

[١] تفسير مفاتيح الغيب (٣/ ٢٥٦).

[٢] تفسير اللباب في علوم الكتاب (٢/ ١٠٤).

[٣] انظر: زهرة التفاسير (٩/ ٤٦١٥).

[٤] انظر: تفسير روح المعاني للألوسي (١٢/ ٢١٣).

الرابع: في قوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر:٣١] إخبار عن الغيب، لأنَّ السورة مكية، والنفاق ظهر في المدينة[١].

٣-موهم التعارض في القرآن.

المقصود بالتعارض في القرآن: أن تتقابل آيتان، بحيث يمنع مدلولُ إحداهما مدلولَ الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبته لشيء، والأخرى نافية فيه.

فإذا جاء ما يوهم التعارض، وجب الجمع بينهما، فإن لم يتبيَّن وجب التوقُّف فيه، وإرجاع الأمر إلى عالمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[٢].

ومن أمثلة تدبُّر ذلك: قال تعالى عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، وقال سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين، وفي الثانية عامة للناس، فمن تدبَّرهما جمَع بينهما بأنَّ: الهداية في الأولى: هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية: هداية التبيان والإرشاد[٣].

٤- الناسخ والمنسوخ.

معرفة علم الناسخ والمنسوخ مما يعين على تدبُّر القرآن، وفهمه فهماً دقيقاً.

والمراد بالنَّسخ: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي متأخِّر[٤].

---

(١) انظر: تفسير الإيجي الشافعي- جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٤٠٦).

(٢) ذكر العلماء أمثلة كثيرة لما يوهم التعارض، ومن أجمع ما كُتب في هذا الموضوع كتاب: (دفع إيهام الاضطراب عن أي الكتاب)، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) انظر: أصول في التفسير، لشيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٦).

(٤) انظر: بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب (٢/ ٤٨٩)، الموافقات (٣/ ٣٤١)، البحر المحيط في أصول الفقه (٥/ ١٩٧).

وقد حرص السلف الصالح والأئمة العلماء على معرفة هذا العلم.

مرَّ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقاص، فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: (هلَكْت وأهلَكْتَ)[1]، يريد أنه عرَّض نفسه وعرَّض الناس للهلاك، لجهله بذلك.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٧١هـ) في بيان أهمية معرفة النسخ: (معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء، لما يترتَّب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام)[2].

وقال الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٩٤هـ): (قال الأئمة: ولا يجوز لأحد أنْ يفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ)[3].

ومن أمثلة أثرِ معرفة الناسخ والمنسوخ على المتدبِّر:

من البديع في المبالغة: أن يعبِّر عن الجنس في باب الذمِّ؛ بالأنقص والأخسِّ، وفي باب المدح؛ بالأكبر والأعلى، لذا قال في الآية التي كانت من القرآن في سورة الأحزاب، ثمَّ نُسخ لفظها وبقي حكمها: (الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللهِّ والله عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ)[4]، فقال:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف (٣/ ٢٢٠) الأثر رقم: (٥٤٠٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٦٢).

(٣) البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي (٢/ ٢٩).

(٤) حديث الرجم أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب الأحكام، باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولايته القضاء أو قبل ذلك للخصم، من قول عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (لَوْلاَ أَنْ يَقُولَ النَّاسُ زَادَ عُمَرُ فِي كِتَابِ اللهَّ، لَكَتَبْتُ آيَةَ الرَّجْمِ بِيَدِي)، وأخرج مسلم في صحيحه برقم: (١٦٩١) في كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنا، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرَّجْمِ، قَرَأْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا، فَرَجَمَ رَسُولُ الله ﷺ، وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: مَا نَجِدُ الرَّجْمَ فِي كِتَابِ الله فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا الله).وأخرج الحديث بلفظ =

(الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ)، ولم يقل: المحصَن والمحصَنة[1]، والمقصود بهما: الثيِّب والثيِّبة[2].

ووجه آخر في المعنى ذكره السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ) بقوله: (وجعل الشارع الرَّجم بوصف الإحصان؛ لأنَّه هو الصفة الموجبة لا وصف الشيخوخة، ولكن في ذِكر الشيخ والشيخة من بيان شناعة هذه الفاحشة -ممن وصل إلى هذه الحال وقبحها ورذالتها- ما يوطِّن قلوب المؤمنين في ذلك الوقت الذي كانت القلوب يصعب عليها هذا الحكم على الزنا، الذي كانوا آلفين له في الجاهلية؛ فلم يفجأهم بحكم الرجم دفعة واحدة، بل حكم به على الشيخ والشيخة اللذين ماتت شهوتهما، ولم يبق لهما إرادة حاملة عليه إلا خُبث الطبع وسوء النية، فلمَّا توطَّنت نفوسهم على قبحه، شرع لهم الحكم العام، والله أعلم)[3].

الآية: ﴿وَالشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا أَلْبَتَّةَ نَكَالًا مِنَ اللهِّ والله عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ﴾، من حديث أبيٍّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: الطيالسي في مسنده (١/ ٤٣٦) برقم: (٥٤٢)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٦٥) برقم: (٥٩٩٠)، والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ٤٠٨) برقم: (٧١١٢)، وابن حبان في صحيحه (١٠/ ٢٧٤) برقم: (٤٤٢٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٠) برقم: (٣٥٥٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال ابن حزم في المحلى (١٢/ ١٧٥): (هذا إسناد صحيح كالشمس لا مغمز فيه). وحسَّنه ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣٧٥)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٨٨٣)، وفي السلسلة الصحيحة (٦/ ٩٧٢)، وفي صحيح ابن ماجه (٢٠٨٣)، وقال شيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ في الشرح الممتع (١٤/ ٢٢٩): لا يصح لأمرين: الأول: أن من قرأه لم يجد فيه مُسْحَة القرآن، والثاني: أن الحكم فيه مخالف للحكم الثابت، فالحكم في هذا اللفظ معلق على الكبر والشيخوخة، مع أنَّ الحكم الثابت معلَّق على الثيوبة سواء أكان شيخاً أم شاباً. ا.هـ (بتصرف)، لكنَّ الذي يظهر أنه لا يسلَّم به، خاصة مع صحة إسناده، وما ذُكر من تدبُّر ابن الحاجب رَحِمَهُٱللَّهُ، فلا حاجة لردِّه وقد تلقَّته الأمة بالقبول، والله أعلم.

[1] آمالي ابن الحاجب (٢/ ٧٩٤)، وانظر: البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي (٢/ ٣٥).

[2] انظر: موطأ الإمام مالك بن أنس (٥/ ١٢٠٣)، بعد الأثر رقم: (٣٠٤٤).

[3] المواهب الربانية من الآيات القرآنية (٢١).

ومما يوضِّح أثر التدبُّر على معرفة الناسخ من المنسوخ، ما روي عن أبي القاسم هبة الله المقرئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤١٠هـ)[١] أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨]: (المنسوخ من هذه الجملة: ﴿وَأَسِيرًا﴾، والمراد بذلك أسير المشركين)، فقرئ الكتاب عليه وابنته تسمع، فلما انتهى إلى هذا الموضع، قالت: (أخطأت يا أبتِ في هذا الكتاب) فقال لها: (وكيف يا بنية؟!)، قالت: (أجمع المسلمون على أنَّ الأسير يطعَم، ولا يقتَل جوعاً)، فقال: (صدقتِ)[٢].

٥- أساليب القرآن، ومن ذلك:

- التعريف والتنكير.

ومن أمثلة ذلك: في قوله سبحانه على لسان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة:١٢٦]، ﴿بَلَدًا﴾ بالتنكير، وفي سورة إبراهيم قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم:٣٥]، بالتعريف.

وذلك -والله أعلم- أنه في البقرة ذكر البيت في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة:١٢٧]، وذكْر البيت يقتضي بالملازمة ذكْر البلد الذي هو فيه، فلم يحتج إلى تعريف، بخلاف آية إبراهيم، فإنها لم يتقدَّم قبلها ما يقتضي ذكْر البلد ولا المعرفة به، فذكره بلام التعريف[٣].

---

[١] **هبة الله بن سلامة** = أبو القاسم البغدادي، المقرئ، المفسِّر، الضرير، كَانَ من أحفظ الناس لتفسير القرآن والنحو والعربية، وكان لَهُ حلقة فِي جامع المنصور ببغداد، وله كتاب في الناسخ والمنسوخ، توفي يوم الثلاثاء، ودُفِنَ يوم الأربعاء العاشر من شهر رجب سنة عشر وأربعمائة فِي مقبرة جامع المنصور. انظر: تاريخ بغداد (١٦/ ١٠٧)، معجم الأدباء (٦/ ٢٧٧١).

[٢] ذكر القصة الزركشي في البرهان (٢/ ٢٩)، ونسبها لكتاب هبة الله، يعني: كتاب الناسخ والمنسوخ للمقري، ولم أقف على هذه القصة في المخطوط والمطبوع.

[٣] انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/ ٩٧).

وقيل: إنه سأل في الأوَّل أَن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً[1].

وقيل: أنَّ آية الأولى قبل بناء البيت، وفي الثانية إشارة إلى البلد بعد البناء[2].

"وهذا يقتضي أنَّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ دعا بهذا الدعاء مرَّتين، والظاهر أنه مرة واحدة، حُكي لفظه فيها على وجهين"[3].

- **الجمع والإفراد.**

ومن أمثلة تدبُّر ذلك: قوله تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌ وَرَعۡدٌ وَبَرۡقٌ﴾ [البقرة:١٩]، جمَع الظلمات، وأفرَد الرعد والبرق، لأنَّ المقتضي للرعد والبرق واحد وهو: السحاب، والمقتضي للظلمة متعدد وهو: الليل والسحاب والمطر، فجمع لذلك[4].

وبنحوه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، فجمَع الظلمات ووحَّد النور لأنَّ النور يتعدى، والظلمة لا تتعدى[5]، ولأنَّ الظلمات كثيرة، والنور واحد[6].

---

(١) انظر: الكشاف للزمخشري (٢/ ٥٥٧).

(٢) انظر: غرائب التفسير للكرماني (١/ ١٧٥)، كشف المعاني لابن جماعة (١٠٥).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي (١/ ٩٨).

(٤) انظر: كشف المعاني لابن جماعة (٩٠).

(٥) انظر: الكشف والبيان للثعلبي (٤/ ١٣٢)، تفسير القرطبي (٦/ ٣٨٦).

(٦) انظر: الكشاف (٢/ ٤)، كشف المعاني لابن جماعة (١١٩)، غرائب القرآن للنيسابوري (٤/ ١٥٠)، نظم الدرر للبقاعي (٤/ ٤٦).

- **التقديم والتأخير.**

من أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال:٧٢]، وقال في التوبة: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾[التوبة:٢٠]، فقدَّم المال في الأنفال، وأخَّره في براءة.

وذلك لأنَّ آية الأنفال تقدَّمها ذكر الغنائم واختيارهم أخذ الفداء من الأسرى ببدر، فناسب تقديم إنفاق المال في سبيل الله تعالى، وآية براءة: تقدَّمها ذكر افتخارهم بعمارة المسجد الحرام على المجاهدين، فناسب تقديم الجهاد في سبيل الله على ذكر الأموال، وأنه أهم، والله أعلم[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾[النساء:٥٥]، وقال تعالى في التغابن: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[التغابن:٢]، قدَّم في سورة النساء المؤمن، وأخَّره في التغابن؛ لأنه لمَّا سمى إبراهيم وآله ناسب تقديم (مؤمن)، بخلاف آية التغابن لعموم اللفظ فيه[2].

- **الإظهار والإضمار.**

ومن أمثلة ذلك: في قوله تعالى: ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ [يوسف:٧٦]، أظهر الوعاء، وكان القياس أن يضمره بقوله: (ثمَّ استخرجها منه) لتقدُّم ذكره، وذلك -والله أعلم- أنه لو قيل: (ثمَّ استخرجها منه) لأوهم أن يكون الضمير للأخ نفسه، فيصير كأنَّ الأخ كان مباشراً بطلب خروج الوعاء، ولم يكن الأمر كذلك، لما في المباشرة من الأذى الذي تأباه النفوس الأبية، فأعيد بلفظ الظاهر لنفي هذا التوهُّم.

---

(١) انظر: كشف المعاني لابن جماعة (١٩٣-١٩٤).

(٢) انظر: كشف المعاني لابن جماعة (١٣٩-١٤٠).

وكذلك لم يضمِر الأخ فيقال: (ثمَّ استخرجها من وعائه) لأنَّ ضمير الفاعل في ﴿ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ ليوسف عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فيمكن أن يتوهَّم أنَّ الوعاء ليوسف لأنه أقرب مذكور، فأُظِهر دفعاً لذلك، والله أعلم[1].

ومن أمثلة ذلك أيضاً: في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل:١٤]، أعيد لفظ الجبال، والقياس: الإضمار لتقدُّم ذكرها؛ للتخويف والتنبيه على عِظمِ الأمر، فإعادة الظاهر أبلغ، والله أعلم[2].

- **المخالفة في الحروف.**

ومن أمثلة ذلك:

"في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤]، استعملت ﴿عَلَىٰ﴾ في جانب الحق، و﴿فِي﴾ في جانب الباطل؛ لأنَّ صاحب الحق كأنه مستعل يرقب نظره كيف شاء، ظاهرة له الأشياء، وصاحب الباطل كأنه منغمِس في ظلام، ولا يدري أين توجَّه"[3].

وفي قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان:٦٣]، وقال: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧]، وما قال: على الأرض، وذلك لمَّا وصف العباد بيَّن أنهم لم يوطِّنوا أنفسهم في الدنيا، وإنما هم عليها مستوقِرون، ولما أرشده ونهاه عن فعل التبختر، قال: لا تمش فيها مرحاً بل امش عليها هوناً[4].

---

[1] انظر: آمالي ابن الحاجب (١/ ٢١٠).

[2] انظر: آمالي ابن الحاجب (١/ ٢٢٣).

[3] انظر: البرهان في علوم القرآن (٤/ ١٧٥).

[4] انظر: البرهان في علوم القرآن (٤/ ١٧٦).

٦- قصص القرآن.

وهو باب واسع للتدبُّر، ومعرفة حال الأمم وأحوالها، والنظر في الآيات المتشابهات حولها، يعين المتدبِّر ويفتح له آفاقاً تدبُّرية عظيمة.

ومن أمثلة ذلك: في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴾ [المؤمنون:٤٢]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص:٤٣].

من خلال تدبُّر ما سبق يتَّضح أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بحكمته؛ رفع عذاب الاستئصال عن الأمم بعد بعث موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ونزول التوراة، وشرَع الجهاد للمكذبين المعاندين؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكَر الله في سورة المؤمنون الأمم المهلَكة المتتابعة على الهلاك، ثمَّ أخبر أنه أرسل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعدهم، وأنزل عليه التوراة، فيها الهداية للناس، ولا يرد على هذا، إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة.

وفي سورة القصص؛ لما ذكر هلاك فرعون قال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص:٤٣]، وهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية.

لذا كان بنو إسرائيل لَمَّا يفعلون ما يفعلون من الكفر والمعاصي؛ يعذَّبُ بعضهم ويبقى بعضهم، ولهذا لم يزل في الأرض أمة منهم باقية، وقال تعالى عنهم: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٨][1].

---

[1] انظر: الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح (٦/ ٤٤١-٤٤٥)، تيسير الكريم الرحمن (٥٥٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وتأمَّل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال؛ لما كانوا أطول أعماراً، وأعظم قوى، واعتى على الله وعلى رسوله، فلما تقاصَرت الأعمار، وضعُفت القوى، رُفع عذاب الاستئصال، وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين، فكانت الحكمة في كل واحد من الأمرين ما اقتضته في وقته)[1].

٧- أمثال القرآن.

" ضرب الله تعالى الْأَمْثَال فِي كِتَابه تذكيراً ووعظاً، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[الزمر:٢٧] فما اشْتَمَل من الْأَمْثَال على تفَاوت فِي ثَوَاب، أَو على إحباط عمل، أَو على مدح أَو ذمّ، أَو على تفخيم أَو تحقير، أَو على ثَوَاب أَو عِقَاب؛ فَإِنَّهُ يدل على الْأَحْكَام بِحَسب ذَلِك"[2].

ومعرفة الأمثال القرآنية من الأمور المعينة على التدبُّر، وفيها مزيد إعمال للفكر للوصول إلى أعلى المراتب والدرجات، كما قال سبحانه: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٣]، وقال سبحانه:﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر:٢١].

فجاءت الأفعال المذكورة مع المثل: تعقُّل، تفكُّر، تذكُّر.

والحكمة في ضرب الأمثال أن يتفكَّر الناس فيها فيفهموا الشيء بنظرة، والمثل المضروب يجعله الله سبب هداية لقوم فهموه، وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته، كما قال سبحانه:

---

[1] مفتاح دار السعادة (١/ ٢٥٥).

[2] الإمام في أدلة الأحكام للعز بن عبد السلام (١٤٣).

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦][١].

"وضرْب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحثُّ، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحسِّ"[٢].

ومن الأمثلة التي تبيِّن أثرَ أمثال القرآن على التدبُّر:

تدبُّر الأمثال الواردة في السورة الواحدة بالنظر في مقصدها الأساس، والموضوع العام لها، فإنَّ المتدبِّر للأمثال القرآنية يتَّضح له ارتباط المثل بمقاصد السور التي وردت فيها، فالمثل يلتحم مع السورة التحاماً موضوعياً لا ينفصل عنها.

ومن ذلك: تدبَّر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) المقصد لعام لسورة التحريم، مع نهايتها، وما ضربه الله مثلاً بامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة فرعون في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ﴾ [التحريم:١٠]، إلى نهاية السورة، فقال: (فذكر ثلاثة أصناف النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر، والمرأة العزبة التي لا وصلة بينها وبين أحد، فالأولى لا تنفعها وصلتها وسببها، والثانية لا تضرها وصلتها وسببها، والثالثة لا يضرها عدم الصلة شيئاً، ثمَّ في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي ﷺ والتحذير من تظاهرهنَّ عليه، وأنهنَّ إن لم يُطِعْن الله ورسوله ﷺ، ويُرِدْن الدار الآخرة؛

---

[١] انظر: أضواء البيان (٢/ ٢٤٦).

[٢] البرهان للزركشي (١/ ٤٨٦-٤٨٧).

لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ، كما لم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما، ولهذا ضرب لهما في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة)[1].

ومثله أيضاً: ما ضربه الله مثلاً في التحذير من الغيبة، والتنفير منها في سورة الحجرات، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات:١٢]؛ ناسب موضوع السورة الأساس، وهو التربية على الآداب والأخلاق الاجتماعية بأنواعها[2].

ومن خلال ما سبقت دراسته؛ يتبيَّن أثر معرفة علوم القرآن على التدبُّر، إذ هي مفتاح لفهم القرآن، وأداة مهمة تعين على تدبُّره، واكتشاف كنوز، و"مَنْ كان حظُّه في العلوم أوفر؛ كان نصيبه من علم القرآن أكثر"[3]، والله أعلم.



(١) الأمثال في القرآن الكريم (٥٧).

(٢) انظر: بحث بعنوان: منهجيات في تدبُّر الأمثال، د/ فلوة الراشد (١٧) - من بحوث المؤتمر العالمي الأول لتدبُّر القرآن الكريم في الدوحة ١٤٣٤هـ -.

(٣) تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٢٧).

المبحث الخامس: شروط التدبُّر

مدخل:

ذكر العلماء شروطاً لمفسِّر القرآن[1]، وبنحوها شروطاً للاستنباط، ولمَّا كان التدبُّر مختلفاً عن ذلك-إذ بينه من الفرق ما سبقت دراسته وبحثه[2]-؛ كانت شروط التدبُّر تختلف عن شروط التفسير والاستنباط.

إنَّ التدبُّر يحتاج إلى فهم المعنى العام مع حسن القصد وصدق الطلب، والتفسير له شروط ذكرها العلماء، لأنه من القول على الله، ولذا يقال: قد لا يعذر المسلم في التدبر، ويعذر في التفسير.

والمبالغة في وضع قيود وشروط للتدبُّر، ووضع أداة له؛ تجعله إلى التفسير أقرب، وربما منعت عامة الناس من النظر في القرآن بتدبُّر وتعقُّل بحجَّة التخصص والشروط.

وكما لا يخفى فإنَّ القرآن الكريم بذاته بالغ التأثير في النفوس، كما أنه ميسَّر للفهم إذا وجد المحلَّ القابل، وهو يشتمل على العقائد والأحكام والقصص والأمثال وأحوال الدنيا والآخرة، وربما كانت بعض هذه القضايا أكثر تأثيراً في بعض الناس من بعض، فيتفاوت الناس فيه بحسب مقاصدهم، وعمْق أفهامهم، ولطافة أنظارهم.

وقد جاء الحث على التدبُّر عاماً لجميع الخلق، لأنَّ الله يسَّر القرآن للذكر، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧]، وأنزله للتدبُّر العام والخاص، كلٌّ حسب طاقته وجهده ووسعه، ولم يخصَّ سبحانه بالتدبُّر أهل العلم دون غيرهم، إلا أنَّ تفاوت الناس في فهم القرآن؛ جعل منهم "من يفهَم من الآية حُكماً أو حكمين، ومنهم من يفهم منها عشرة أحكام أو أكثر من ذلك، ومنهم من يقتصر في الفهم على مجرَّد اللفظ دون سياقه ودون

---

[1] انظر: تفسير الراغب الأصفهاني (١/ ٣٧)، البرهان (٢/ ١٦١)، الإتقان (٤/ ٢٠٠).

[2] انظر: المبحث الثاني من الفصل الأول من الباب الأول.

إيمائه وإشارته وتنبيهه واعتباره، وأخصُّ من هذا وألطف ضمُّه إلى نصٍّ آخر متعلِّق به؛ فيفهم من اقترانه به قدراً زائداً على ذلك اللفظ بمفرده، وهذا باب عجيب من فهم القرآن لا يتنبه له إلا النادر من أهل العلم، فإنَّ الذهن قد لا يشعر بارتباط هذا بهذا وتعلُّقه به[(١)].

ومن أمثلة هذا: فهم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين أُتِيَ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في امرأة وَلَدت في ستة أشهر فأمرَ برجمها، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أدنوني منه، فأدنوه، فقال: إنها تخاصمك بكتاب الله يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، ويقول في آية أخرى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، فردَّها عثمان وخلَّى سبيلها[(٢)]، وهذا داخل في الاستنباط.

ومن أمثلة يسْر التدبُّر وتمكُّن العامي البسيط منه؛ ما سبق من خبر الأعرابي الذي سمع الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١٦هـ) يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨]، وما كان منه من تصحيح خطأه في قراءة الآية، دون أن يعرف القرآن من قبل، وما ذاك إلا لحضور عقله، وتهيؤ قلبه للقرآن، مع سلامة لغته وفطرته[(٣)].

ومما ورد في السنة مما يبيِّن أثر التدبُّر على المشرك، ودخوله الإسلام بسماع القرآن وتدبُّره: قصة إسلام جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسماعه آيات سورة الطور، فقَالَ: (كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ)[(٤)]، فهو لَّما قدم المدينة خالي الذهن، مهيأ القلب، وتجرَّد حين سمع القرآن لقبول الحق، كانت النتيجة أن أسلَم فورَ وقوع القرآن في قلبه، وتمكُّنه منه.

ومن هنا فيمكن تقسيم شروط التدبُّر باعتبار المتدبِّر، والمعنى المتدبَّر، لمطلبين:

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٢٦٧)، وانظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٦٠).

(٢) أخرجه عنه سعيد بن منصور في السنن (٢/ ٩٣) برقم: (٢٠٧٥)، وابن شبة في تاريخ المدينة (٣/ ٩٧٨)، والمنتقى من كتاب الطبقات لأبي عروبة الحراني (٦٨).

(٣) مرَّت القصة قريباً في المبحث الثاني من هذا الفصل.

(٤) سبق تخريجها.

- **المطلب الأول**: شروط التدبُّر بحسب المتدبِّر.

- **المطلب الثاني**: شروط التدبُّر من حيث المعنى المتدبَّر.

وسأتناول ذلك بمزيد إيضاح وتفصيل.

- المطلب الأول: شروط التدبُّر بحسب المتدبِّر:

خاطب الله بالتدبُّر جميع البشر؛ عالِمهم وأميِّهم، ومسلمِهم وكافرِهم؛ إذ كلٌّ منهم مأمور بتدبُّر القرآن ليتذكَّر بما فيه من هدايات؛ فالمؤمن مخاطب بالتدبُّر لتعميق الإيمان في قلبه، فإنه بالتدبُّر فيه، والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرةٍ؛ يُدْرِكُ بركته وخيره، والكافر مخاطب بتدبُّر القرآن الكريم ليرشده إلى الله، وإلى تحقيق العبودية الخالصة لله رب العالمين.

ولتحقيق التدبُّر الصحيح لهؤلاء جميعاً شرطان أساسيان هما:

١- تجرُّد العقل لمعرفة الحق.

٢- تهيؤ القلب لقبول الحق.

ويدلُّ لذلك قول الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[ص:٢٩].

فـ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: هم أصحاب العقول المتجرِّدة للحق.

و (المتذكِّرون): هم من قبِلَت قلوبهم ذلك الحق.

وسأتناول الحديث عن الشرطين بمزيد بيان وتفصيل، فيما يلي:

الشرط الأول: تجرُّد العقل لمعرفة الحق.

ويحصُل هذا التجرُّد بسلامة القصد؛ وهو عمل قلبي له أثَره الظاهر في الهداية للحق والصواب؛ من الأقوال والأعمال، وهو سبب في إزالة الكِبْر والجحود.

ويراد بسلامة القصد وحسنه: أن يكون قصد المتدبِّر من تدبُّره؛ أن يعقل عن الله مراده، ويفهم معاني كلامه سبحانه ليهتدي بها، ومن كان هذا حاله؛ حصل منه الانقياد والاستسلام للآيات، والاعتبار بها.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١هـ): (فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنيَّة صادقة على ما يحبُّ الله؛ أفهمه كما يحبُّ، وجعل له في قلبه نوراً)[١].

وهذا يتطلَّب قدراً من الصبر والإصرار، كما قال ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٧هـ): (كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعَّمت به عشرين سنة)[٢].

ومن سلامة القصْد: أن يستمع القرآن ويتدبَّره بهدف الوصول إلى الحق ومعرفته والهداية به، لا أن يتخذ آياته وسيلة لتحقيق أهوائه وأغراضه، والوصول إلى مقاصده الباطلة، فهو يطوِّع القرآن لا يطيعه، ويقوده لا ينقاد له، فإنَّ اتباع الهوى وعدم التجرُّد منه، يعمي صاحبه عن الحق، ويمنعه من قبوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

ومن ذلك: ألا يتدبَّر القرآن لينتصر به لقوله، أو يفسِّر به مذهبه وطريقته، فإنَّ "الذي يتدبَّر القرآن لينصر به قوله.. فهذا على خطر عظيم -والعياذ بالله-، لأنه يكون متَّبعًا للهوى، لكنَّ من تدبَّره متيقنًا أنه إذا دلَّ على شيء فإنه سيأخذ به -ولو خالف رأيه-، فهذا هو الذي يوفَّق، ويتبيَّن له طريق الحق، ولا يمكن أن يخفى عليه أبداً"[٣].

ومن وقع في شِراك الفِرَق وفهْمِها السقيم للنصوص؛ جعل اعتقاده حاكماً على القرآن، وفهمه وتدبُّره حسب ما اعتقَد.

---

[١] تفسير القرطبي (١١/ ١٧٦).

[٢] سبقت إحالته.

[٣] شرح الكافية الشافية - لشيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/ ٥٠٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (لا ينال معانيه، ويفهمه كما ينبغي، إلا القلوب الطاهرة، والقلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه)[١].

ومما يحصُل به التجرُّد لمعرفة الحق: تعظيم القرآن ومعرفة قدر المتكلِّم به.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٨٩هـ): (وينبغى لتالي القرآن العظيم أن يعلَم أنَّ ما يقرأه ليس من كلام البشَر، وأنْ يستحضر عظمة المتكلِّم سبحانه، ويتدبَّر كلامه، فإنَّ التدبُّر هو المقصود من القراءة)[٢].

فإذا عرف العبد قدر هذا الكتاب ومنزلته الرفيعة، تأهَّب للتدبُّر، واستجمع قواه على فهم كلام الله.

ومن التجرُّد لغير المسلم: أن يعرِف أنَّ القرآن كتاب سماوي من عند الله تعالى، فإذا استشعر ذلك، وعظَّمه، وتجرَّد من هواه؛ قاده ذلك إلى الحق، والانتفاع بما يتدبَّر.

ومن سلامة القصد للمسلم: أن يخلِص العمل لله أولاً، "وألا يقصد بتدبُّره توصُّلاً إلى غرض من أغراض الدنيا؛ من مال أو رياسة أو وجاهة، أو ارتفاعاً على أقرانه، أو ثناءً عند الناس، أو صرفَ وجوه الناس إليه، أو نحو ذلك"[٣]، ولا يأتي إلى كتاب الله ليماري به أحداً، أو يعضد به رأيا رآه، أو فكراً جال في خاطره، بل يأتِ للقرآن تاركاً وراء ظهره المدح والثناء من الخلق، معرضاً عن كلِّ ما يحول بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ.

---

[١] إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٧٣) بتصرف يسير.

[٢] مختصر منهاج القاصدين (٥٣).

[٣] انظر: التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (٣٤).

الشرط الثاني: تهيؤ القلب لقبول الحق.

والقلب هو المحلُّ القابل، فإذا تهيَّأ لقبول الحقِّ؛ زالت عنه أمراض الغفلة والإعراض، "فإنَّ القلب إذا كان رقيقاً ليِّناً؛ كان قبوله للعلم سهلاً يسيراً، ورسخ العلم فيه وثبت وأثَّر، وإن كان قاسياً غليظاً كان قبوله للعلم صعباً عسيراً، ولا بد مع ذلك: أن يكون زكياً صافياً سليماً، حتى يزكو فيه العلم ويثمر ثمراً طيباً، وإلا فلو قبل العلم، وكان فيه كدَر وخبث، أفسد ذلك العلم وكان كالدغل في الزرع؛ إن لم يمنع الحبَّ من أن يَنبُت؛ منعه من أن يزكو ويطيب، وهذا بيِّن لأولي الأبصار"[١].

فعلى قدر حياة القلب، يكون تأثُّره وتدبُّره، وصاحب القلب المختوم عليه؛ لا يتدبَّر آيات الله، ولا ينتفع بالمواعظ التي تتلى عليه في القرآن الكريم.

"فصاحب العلْم في حقيقة الأمر هو القلب، وإنما سائر الأعضاء حجَبة له، توصل إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، حتى إنَّ من فقد شيئاً من هذه الأعضاء فإنه يفقِد بفقدِه من العلم ما كان هو الواسطة فيه؛ فالأصمُّ لا يعلم ما في الكلام من العلم، والضرير لا يدري ما تحتوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة، وكذلك من نظر إلى الأشياء بغير قلب، أو استمع إلى كلمات أهل العلم بغير قلب، فإنه لا يعقل شيئاً؛ فمدار الأمر على القلب"[٢]، إذ خصَّه الله تعالى بإنزال القرآن عليه، فكان قلب النبي ﷺ محلاً للقرآن، كما قال سبحانه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤]، فكذلك الحال لمن أراد تفهُّم القرآن وتدبره والانتفاع به؛ يجب أن يكون قلبه محلاً للقرآن؛ بحضوره عند تلاوته وتدبُّره.

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٠-٣١١).

وبهذا تستبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧].

"فقد بيَّن القرآن أنَّ من كان يعقِل، أو كان يسمع: فإنه يكون ناجياً وسعيداً، ويكون مؤمناً بما جاءت به الرسل"(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ) تعليقاً على الآية: (فإنَّ من يؤتَ الحِكمة، وينتفع بالعِلم على منزلتين: إما رجل رأى الحقَّ بنفسه فقبله فاتَّبعه، ولم يحتجْ إلى من يدعوه إليه، فذلك صاحب القلب، أو رجل لم يعقِله بنفسه، بل هو محتاج إلى من يعلِّمه ويبيِّنه له، ويعظه ويؤدِّبه، فهذا أصغى فـ: ﴿أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر القلب ليس بغائبه، كما قال مجاهد: أوتي العلم وكان له ذكرى)(٢).

فكلما كان العبد لقلبه أجمع، وعن الشواغل أبعد، كان أقرب إلى فهم وتدبُّر ما يتلو من كتاب الله، إذ القلب محل تفهم القرآن وتدبره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (والناس ثلاثة: رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حيٌّ مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها، فهو غائب القلب، ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

الثالث: رجل حيُّ القلب مستعد، تليت عليه الآيات، فأصغى بسمعه، وألقى السمع وأحضر قلبه، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، ملقِ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٤٦)، وبنحوه كلام ابن القيم في مدارج السالكين (٣/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١١).

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر، والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه، والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حدق إلى جهة المنظور، وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب، فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور.

فإن قيل: فما موقع " أو " من هذا النظم على ما قررت؟ قيل: فيها سر لطيف، ولسنا نقول: إنها بمعنى الواو، كما يقوله ظاهرية النحاة.

فاعلم أنَّ الرجل قد يكون له قلب وقَّاد، مليء باستخراج العبر، واستنباط الحكم، فهذا قلبه يوقعه على التذكُّر والاعتبار، فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور، وهؤلاء أكمل خلق الله، وأعظمهم إيماناً وبصيرة، حتى كأنَّ الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه... فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نوراً إلى نوره، فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب، فألقى السمع، وشهد قلبه ولم يغب؛ حصل له التذكُّر أيضاً: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:٢٦٥]، والوابل والطلُّ في جميع الأعمال وآثارها وموجباتها، وأهل الجنة سابقون مقرَّبون، وأصحاب يمين، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما) [(١)].

ومما يعين القلب على التهيؤ لقبول الحق: بذل وسائل ذلك، التي سبقت الإشارة إليها، من تفعيل وسائل التدبُّر الإدراكية في النفس، من السمع والبصر، حتى يحضر القلب، ويتهيَّأ لهذا الأمر العظيم[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٤١-٤٤٢).

(٢) سبق الكلام عن تفعيل وسائل التدبُّر الإدراكية في النفس في المبحث الأول من هذا الفصل.

ومما يعين على التهيؤ لقبول الحقِّ أيضاً: وجود قدر من الفهم للغريب، والكلام المقروء أو المسموع، والفهم -كما سبق- قضية نسبية، يقع فيها التفاوت كثيراً، والناس فيها على مراتب، ومن هنا حصل التفاوت بينهم في العلم والفقه.

ولا يطالَب العامي أن يكون فهمه كفهم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وإنما المقصود حصول حدٍّ أدنى من الفهم لما يَقرأ أو يسمع؛ بحيث لا يكون بمنزلة من خُوطِب بلغة لا يعرفها، فإنَّ من خُوطِب بما لا يفهم أصلاً لا يمكن أن يتدبَّر القول، مهما كان قلبه حيًا، وأحضره حال الاستماع أو التلاوة[1].

والمقصود بعد ذلك: أنك متى "أردت الانتفاع بالقرآن؛ فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، وذلك أنَّ تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتض، ومحلٍّ قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمَّنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه، وأدلِّه على المراد، فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أشار إلى ما تقدم من أول السورة الى ههنا، وهذا هو المؤثر، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحلُّ القابل، والمراد به القلب الحيُّ الذي يعقل عن الله كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:٦٩-٧٠]، أي حي القلب، وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجَّه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثُّر بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب حاضر غير غائب، قال ابن قتيبة (٢٧٦هـ): "استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه"[2]، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير؛ وهو سهو القلب وغيبته

---

[1] سبق الكلام عن اللغة والقدر المطلوب منها في المبحث الثاني من هذا الفصل.

[2] غريب القرآن (٣٦٢).

عن تعقُّل ما يقال له، والنظر فيه وتأمُّله، فإذا حصل المؤثِّر وهو القرآن، والمحلُّ القابل وهو القلب الحي، ووجد الشرط وهو الإصغاء، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر؛ وهو الانتفاع والتذكُّر"(١).

قال الزركشيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٤هـ): (واعلم أنه لا يحصل للنَّاظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يَظهر له أسرار العلم من غيبِ المعرفة، وفي قلبه بدعة، أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كِبْر أو هوى أو حبُّ الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق، أو معتمدًا على قول مفسِّـر ليس عنده إلا علم بظاهر، أو يكون راجعاً إلى معقوله، وهذه كلها حجب وموانع، وبعضها آكد من بعض إذا كان العبد مصغياً إلى كلام ربه ملقي السمع وهو شهيد القلب لمعاني صفات مخاطبه، ناظراً إلى قدرته، تاركاً للمعهود من علمه ومعقوله، متبرئاً من حوله وقوته، معظماً للمتكلِّم، مفتقراً إلى التفهم بحال مستقيم، وقلب سليم، وقوة علم، وتمكُّن سمع لفهم الخطاب، وشهادة غيب الجواب بدعاء وتضـرُّع، وابتئاس وتمسكن، وانتظار للفتح عليه من عند الفتاح العليم، وليستعن على ذلك بأن تكون تلاوته على معاني الكلام وشهادة وصف المتكلِّم من الوعد بالتشويق، والوعيد بالتخويف، والإنذار بالتشديد، فهذا القارئ أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وفي مثل هذا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[البقرة:١٢١]، وهذا هو الراسخ في العلم، جعلنا الله من هذا الصنف، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾[الأحزاب:٤]) (٢).

نسأل الله أن يجعلنا من أهل تدبُّر كتابه، وأن يرزقنا العلم والعمل به.

---

(١) الفوائد لابن القيم (٣).

(٢) البرهان (٢/ ١٨٠).

- المطلب الثاني: شروط التدبُّر من حيث المعنى المتدبَّر:

إنَّ المعنى المتدبَّر هو الثمرة التي إذا صحَّت كانت محلاً للقبول والعمل، وصحَّته مرهونة بالسلامة من العوارض التي تقدح فيه وتبطله، وبناءً على ذلك، فيمكن وضع شروطٍ لصحَّة المعنى المتدبَّر وسلامته، أبرزها ما يلي:

الشرط الأول: الارتباط الصحيح بين اللفظ والمعنى المتدبَّر.

الشرط الثاني: سلامة المعنى المتدبَّر من معارض شرعي راجح.

الشرط الثالث: أن يكون التدبُّر مما للرأي فيه مجال.

الشرط الرابع: أن يكون المعنى المتدبَّر مفيداً.

الشرط الخامس: ألا يعدَّ المعنى المتدبَّر تفسيراً للآية مطلقاً، فيقصُر معنى الآية عليه.

وتفصيل ذلك فيما يلي:

الشرط الأول: الارتباط الصحيح بين اللفظ والمعنى المتدبَّر.

ومعنى ذلك: أنْ يكون في لفظ الآية إشعار بالمعنى المتدبَّر، وأن يُستخرج بطريق صحيح؛ بأن يكون بينه وبين لفظ الآية ترابط، بأن تدلَّ عليه الآية بأحد وجوه الدلالة، أو بإعمال ضابط من ضوابط التدبُّر.

فإنَّ مما يسلَّم به أنَّ المعنى المتدبَّر إما أن يكون مرتبطاً بالنصِّ القرآني أو لا، فإن لم يكن مرتبطاً فلا يمكن ادعاء أنَّه تدبُّر قرآني، لأنه مفهوم يلصَق بالقرآن، وليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدلُّ عليه، وما كان كذلك؛ فلا يصح أن ينسب إليه أصلاً؛ إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه، ولا مرجِّح يدلُّ على أحدهما؛ فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم[1].

---

[1] الموافقات للشاطبي (٤/ ٢٣٢)، وانظر: منهج الاستنباط من القرآن للوهبي (٢٦٦).

وعند اختلال هذا الشرط فإنَّه يُحكم بعدم صحَّة ارتباط المعنى بالآية التي استُخرِج منها، ولو صحَّ هذا المعنى من طريق آخر.

مثاله: ما قاله ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤١هـ) تعليقاً على من قال في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة:٢٨٦]: لا يؤخذ أحد بذنب أحد، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا صحيح في نفسه لكن من غير هذه الآية)[١]، ولعلَّه قصد استفادة هذا المعنى من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤]، والله أعلم.

وعند اشتراط صحَّة الارتباط بين اللفظ والمعنى، فإنه يُحترز من أمرين:

أ- التكلُّف في الربط بين المعنى المتدبَّر وبين الآية، ولو كان المعنى صحيحاً في نفسه.

فإنَّ تكلُّف ربط المعنى بالقرآن- ولو كان المعنى صحيحاً في نفسه-؛ خطأ في الاستدلال، وليس من التدبُّر في شيء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وأما الذين يخطؤون في الدليل لا في المدلول؛ فمثل كثير من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم، يفسِّرون القرآن بمعان صحيحة، لكن القرآن لا يدلُّ عليها)[٢].

وقال أيضاً رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إنَّ اللسان له موقع من الدين، والعبارة المَرْضيَّة مندوب إليها، كما أنَّ التعمُّق[٣] منهيٌّ عنه)[٤].

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٣٩٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦٢).

(٣) لعله قصد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتعمُّق التكلُّف، وليس التعمُّق في البحث والاستنباط بطريق صحيح.

(٤) تنبيه الرجل العاقل (١/ ٢٧١).

ب- القياس على أحكام القرآن الكريم، وما استُخرِج بطريق الاعتبار.

فلا يدخُل في التدبُّر إلا ما استُخرج من لفظ القرآن بدلالة صحيحة، أو وِفق ضوابط التدبُّر الصحيح للقرآن.

وبهذا يُعلَم أنَّ ما يستفاد من جهة الاعتبار والقياس، مثل ما يُعرِف بالتفسير الإشاري، مما لم تدلَّ عليه الآية دلالة لفظية؛ ليس من تدبُّر القرآن في شيء، وإنما هو استخراج للمعنى بدليل آخر: هو الاعتبار والقياس[1].

ومن الارتباط الصحيح: ألا يناقضَ المعنى المتدبَّر معنى الآية؛ لأنه تابعٌ لها، مبنيٌ عليها، وهو كالشاهد على المعنى، ولا يصحُّ أن يأتي الشاهد بتجريح ولا تكذيب.

الشرط الثاني: سلامة المعنى المتدبَّر من معارض شرعي راجح.

عند النظر في المعنى المتدبَّر من حيث معارضة وتأييد الشرع له، يتبيَّن أنه لا يخلو من حالات ثلاث:

الأولى: أن يثبت ما يؤيده شرعاً.

الثانية: أن يثبت ما يعارضه شرعاً.

الثالثة: ألا يثبت ما يؤيده أو يعارضه شرعاً.

فالحالة الأولى والثالثة يكون التدبُّر فيها مقبولاً، أما الثانية: فلا يخلو المعارض إما أن يكون راجحاً أو مرجوحاً.

فإن كان المعارض مرجوحاً فالمعنى المتدبَّر صحيح، وإن كان راجحاً فيُحكم بعدم صحة المعنى المتدبَّر، ويكون كذلك إن خالف المعنى المتدبَّر نصاً صريحاً من القرآن أو السنة الثابتة أو الإجماع.

---

(١) انظر: منهج الاستنباط من القرآن للوهبي (٢٦٧-٢٦٩).

وتفصيل هذه الحالات كما يلي:

الأولى: أن يثبت ما يؤيده شرعاً.

وذلك بأن يدلَّ دليل آخر على صحَّة ذلك المعنى المتدبَر، فيزيد المعنى المتدبَّر قوَّة وصحَّة، وسأضرب لتوضيح ذلك أمثلة:

المثال الأول: في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠]:"مدْح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر؛ زال عنهم اسم المدح، ولحقهم اسم الذمِّ، وكان ذلك سبباً لهلاكهم"[(١)].

المثال الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾[النمل:٢٠]:فيه"دليل على تفقُّد الإمام أحوال رعيته، والمحافظة عليهم، فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لمْ يخفَ على سليمان حاله، فكيف بعظام المُلك، ويرحم الله عمر؛ فإنه كان على سيرته، قال: (لو أنَّ سخْلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب ليسأل عنها عمر)[(٢)]، فما ظنُّك بوالٍ تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان"[(٣)].

المثال الثالث: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾[القلم:١٠]: "دليل على أنَّ من أكثر الأيمان؛ هانَ على الرحمن، واتَّضعت مرتبته عند الناس"[(٤)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٧٣).

(٢) ذكره الأصبهاني في سير السلف الصالحين (١٢٥١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٥/ ٢١٥)، وابن الجوزي في المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (١٠/ ١٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٧٨)، وانظر: البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٢٢٣).

(٤) نكت القرآن الدالة على البيان للقصاب (٤/ ٣٨٠).

المثال الرابع: في قوله تعالى: ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد:٣]،"إحدى الدلالات على صحة نبوة النبي ﷺ لأنه أخبر بأنه وامرأته سيموتان على الكفر ولا يسلمان، فوُجِد مَخبره على ما أخبر به، وقد كان هو وامرأته سمعا بهذه السورة، ولذلك قالت امرأته: إن محمداً هجانا، فلو أنهما قالا: قد أسلمنا، وأظهرا ذلك -وإن لم يعتقداه- لكانا قد ردَّا هذا القول، ولكان المشركون يجدون متعلقاً، ولكنَّ الله علم أنهما لا يسلمان لا بإظهاره ولا باعتقاده، فأخبر بذلك، وكان مخبره على ما أخبر به، وهذا نظير قوله لو قال: إنكما لا تتكلمان اليوم، فلم يتكلَّما مع ارتفاع الموانع وصحة الآلة، فيكون ذلك من أظهر الدلالات على صحة نبوته"(١).

فجميع ما سبق تدبُّر لمعانٍ تؤيدها نصوص الشريعة.

الثانية: أن يثبت ما يعارضه شرعاً.

بأن يخالف المعنى المتدبَّر نصاً صريحاً من القرآن أو السنة الثابتة أو الإجماع، أو أصلاً من أصول الشريعة، "فإنَّ ما يخرِم قاعدة شرعية أو حكمًا شرعياً ليس بحقٍّ في نفسه، بل هو إما خيال أو وهم، وإما من إلقاء الشيطان، وقد يخالطه ما هو حق، وقد لا يخالطه، وجميع ذلك لا يصحُّ اعتباره من جهة معارضته لما هو ثابت مشروع"(٢).

"ومن قال في القرآن بما سنح في وهمه، وخطر على باله، من غير استدلال عليه بالأصول؛ فهو مخطيء"(٣).

ولا يخلو المعارض هنا من كونه راجحاً أو مرجوحاً.

فإن كان المعارض مرجوحاً فالمعنى المتدبَّر صحيح، وإن كان راجحاً فيُحكم بعدم صحَّة المعنى المتدبَّر.

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٦٤٧).

(٢) الموافقات للشاطبي (٢/ ٤٥٧)، وانظر: منهج الاستنباط من القرآن للوهبي (٢٥٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٣).

ويمكن التمثيل لتدبُّر عارض النصَّ الشرعي معارضة راجحة بما يلي:

المثال الأول: في قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء:٨٣]، قال بعضهم: (المستنبط هو الذي يلاحظ الغيب أبداً؛ فلا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء)[١].

فنسب علْم الغيب لغير الله تعالى، وهذا واضح الفساد لمعارضته أصول والشريعة، ومخالفته المعلوم من الدين بالضرورة.

المثال الثاني: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا ﴾[آل عمران:٩٦]، قالوا: (المراد به قلب آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لأنه أول بيت وُضع للربِّ في البشر، وهو أيضاً بجسده مدفون تحت عتبة هذا البيت كما أعطاه الكشف، وأما بُنية الكعبة؛ فهو مثال مضروب للقاصرين، ليتذكَّروا به المعنى عند رؤية مثاله)[٢].

فوضع اعتبارات للمعنى الفاسد، ثمَّ جعل الكعبة المبنية مثالاً لاعتباراته الفاسدة، ولا دليل على ذلك.

الثالثة: ألا يَثبت ما يؤيده أو يعارضه شرعاً.

فإن صحَّت الدلالة على المعنى؛ فهو صحيح ومقبول، وإن لم تصحَّ فهو مردود. ومن أمثلة ذلك:

- تدبُّر قول الشيطان يوم بدر: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾[الأنفال:٤٨]، ولم يقل ذلك أو يفعله حين أبى السجود في قصة آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وذلك لأنه قد علِم ما أُعدَّ له من العذاب يوم القيامة، فلما

---

[١] هذا من أقوال أحمد بن عيسى الخراز (٢٧٩هـ) حكاه عنه الشعراني في الطبقات الكبرى (١/ ٧٩).

[٢] هذا من أقوال علي بن محمد وفا (٨٠١هـ) حكاه عنه الشعراني في الطبقات الكبرى (٢/ ٢٨).

رأى الملائكة يوم بدر، ونزولها إلى الأرض؛ توهَّم أنه الوقت المعلوم، وأنه قد حان أجل عذابه، فخاف مما رأى من الأمرِ وهوله، وخاصة لما رأى خرْق العادة ونزول الملائكة للحرب[١].

وهذا تدبُّر محتمَل، لم يثبت ما يؤيده أو يعارضه من النصوص، لكنَّ يظهر -والله أعلم- أنَّ دلالته ليست قوية، لأنَّ يوم القيامة له علامات كثيرة لم تكن قد ظهرت قبل يوم بدر، فظنُّ الشيطان أنها القيامة والوقت المعلوم؛ بعيد، ولعلَّه - والله أعلم — إنما قال ذلك من باب"عادة عدو الله لمن أطاعه، إذا التقى الحق والباطل؛ أسلمهم وتبرَّأ منهم"[٢]، وهي عادته وطريقته الدائمة التي أخبر الله عنها: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[الحشر:١٦].

وهي الحقيقة التي سيفصِح عنها للناس في خطبته يوم القيامة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾[إبراهيم:٢٢].

الشرط الثالث: أن يكون التدبُّر مما للرأي فيه مجال.

تدبُّر القرآن الكريم مجال واسع، شامل لجميع مجالات الشريعة، لدلالة القرآن على الخير كله، وتحذيره من الشرِّ كله.

وقد سبق في أحكام التدبُّر، التدبُّر المحرم[٣]؛ ومنه: تدبُّر ما لا يدركه العقل من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، فالواجب الإيمان بها دون الدخول في اجتهادات عقلية لبيانها، حتى لا يقع الانحراف والزيغ في شرع الله، فإنَّ من الأمور ما يتعدى حدَّ العقول في إدراكها،

---

[١] انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٢/ ٤٢١)، المحرر الوجيز (٢/ ٥٣٩)، إيجاز البيان عن معاني القرآن للنيسابوري (١/ ٣٦)، كشف المعاني في المتشابه المثاني (١٩٢).

[٢] تفسير معالم التنزيل للبغوي (٣/ ٣٦٦).

[٣] انظر: المبحث الأول من الفصل الثالث في الباب الأول.

ولا يمكن للعقل البشري الوصول إلى شيء منها.

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (إنَّ الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون، إذ لو كان كيف كان يكون، فمعلومات الله لا تتناهى، ومعلومات العبد متناهية، والمتناهي لا يساوي ما لا يتناهى)[1].

وهذا هو الأصل المقرر عند العلماء، الذي ساروا عليه في العلم والتأصيل[2].

فتحصَّل من ذلك: أنَّ من شروط التدبُّر: أن يكون مما للرأي فيه مجال، وليس من أمور الغيب التي استأثر الله بعلمه، ولا سبيل لأحد للوصول إليه، كما قال سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[لقمان:٣٤].

ويدخل في ذلك الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، كما قال تعالى عن رسوله محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾[الأعراف:١٨٨]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل:٦٥].

قال الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٧٠هـ): (وهو ﷺ لم يعلم كل غيب، فإنَّ من الغيب ما تفرَّد الله تعالى به؛ كمعرفة كنه ذاته تبارك وتعالى، وكمعرفة وقت قيام الساعة)[3].

---

(١) الاعتصام (٢/ ٨٣١).

(٢) ينظر لذلك أمثلة: كنحو كلام الطبري في تفسيره (٦/ ١٨١) لبيان ما لا حاجة إلى علمه في تفسير مطلع آل عمران، ومثله الجصاص في أحكام القرآن (٣/ ٤٨) في رده على من يدعي العلم ببقاء مدة الدنيا، وكذلك ابن كثير (١/ ١٦١) رداً على من زعم أنَّ الحروف المقطعة دالة على معرفة المدد وأوقات الحوادث، ونحو ذلك كثير.

(٣) روح المعاني (٥/ ١٢٧).

فالتدبُّر حين يتعلَّق بمحاولة معرفة ما استأثر الله بعلمه أو الخوض فيه؛ فإنه باطل مردود غير صحيح، لأنَّ الله لم يجعل لأحد أن يتوصَّل إلى الغيب إلا بطريق الإيحاء من الرسل، وقد بيَّن أنَّ من الغيب ما لا يطَّلع عليه حتى الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فكيف بمن دونهم[1].

الشرط الرابع: أن يكون المعنى المتدبَّر مفيداً.

صيانة لكلام الله تعالى عمَّا لا فائدة فيه من المعاني، وما لا فائدة فيه من المعاني يشمل كلَّ معنى أبطل معنى الآية الظاهر، أو نزل ببيان القرآن العالي، أو حطَّ من إجلاله وتعظيمه الواجب، أو ارتبط بعلوم فاسدة، أو لا فائدة فيها شرعية أو دنيوية[2].

"ومعلوم أنَّ حمل الآية على محمل تبقى الآية معه مفيدة؛ أولى من حملها على محمل تبقى الآية معه مجملة"[3]، وهذا مطَّرد في عامة المعاني المتدبَّرة.

ومن أمثلة ذلك في قوله تعالى لِمُوسَى وَهَارُون فِي حق فِرْعَوْن: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[طه:٤٤]، فصفة هَذَا الْقَوْل اللين فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾[النازعات:١٧-١٨]، "وَمَا ذَاك إِلَّا مُرَاعَاة لِقَلْبِه، حَتَّى لَا ينْصَرف بِالْقَوْلِ الخشن عَن فهم الْخطاب، فَكيف برئيس تقدَّم فِي الْعلم، تطلب فَوَائِده، ويرجى الْخَيْر فِي إِيرَاده، وَمَا تسنح لَهُ خواطره؟ فأحرى بِنَا أَن نذلل لَهُ الْعبارَة، ونوطئ لَهُ جَانب الْجِدَال لتنهال فَوَائده انهيالاً"[4].

الشرط الخامس: ألا يعدَّ المعنى المتدبَّر تفسيراً للآية بإطلاق، وألا يقصُر معنى الآية عليه، بل يتعيَّن اعتقاده من المعاني التابعة للمعنى الأصلي الظاهر للآية، وذلك لصيانة معاني كتاب الله من التحريف.

---

[1] انظر: منهج الاستنباط من القرآن للوهبي (٢٧٦).

[2] انظر: بحث بعنوان: معالم الاستنباط في التفسير- للزميل الدكتور/ نايف الزهراني، منشور في مجلة معهد الإمام الشاطبي – العدد الرابع صـ(٣٩).

[3] تفسير مفاتيح الغيب للرازي (١١/ ٣٠٥).

[4] التحبير شرح التحرير (٧/ ٣٧٢٥).

وقد عدَّ الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ) ذلك من الحسنات، حين ناقش تدبُّر سهل بن عبدالله التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٨٣هـ)في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:٢٢]؛ قال سهل: (فأكبر الأضداد: النفس الأمّارة بالسوء، المتطلِّعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله)[1].

قال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا يشير إلى أنَّ النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد، حتى لو فصل لكان المعنى: فلا تجعلوا لله أنداداً لا صنماً ولا شيطاناً ولا النفس ولا كذا، وهذا مشكل الظاهر جداً؛ إذ كان مساق الآية ومحصول القرائن فيها يدلُّ على أنَّ الأنداد: الأصنام أو غيرها مما كانو يعبدون، ولم يكونوا يعبدون أنفسهم، ولا يتخذونها أرباباً، **ولكن له وجه جارٍ على الصحة، وذلك أنه لم يقل: إنَّ هذا هو تفسير الآية، ولكن أتى بما هو ندٌّ في الاعتبار الشرعي الذي شهِد له القرآن)**[2].

فبهذه الشروط السابقة يَحسُن التدبُّر ويكمُل، وباختلالها تحصل المعاني التي يكتنفها كثير من الخلل والنقص، والله أعلم.

---

(١) تفسير التستري (٢٧).

(٢) الموافقات (٤/ ٢٤٢-٢٤٣).

الفصل الثاني

موانع حصول التدبر وخطورتها

وفيه مبحثان:

* المبحث الأول: أنواع الموانع الحائلة عن التدبُّر، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الموانع الاعتقادية.

المطلب الثاني: موانع سلوكية.

* المبحث الثاني: خطورة الموانع الحائلة دون التدبُّر.

المبحث الأول: أنواع الموانع الحائلة عن التدبُّر

الموانع: جمع مانع، وهو اسم فاعل من منع الشيء: إذا حال بينه وبين مقصوده[١]، والمَنْعُ: أن تحول بين الإنسان وبين الشيء الذي يريده، وهو خلاف الإعطاء، ويقال: هو تحجير الشيء[٢].

وتجدر الإشارة إلى أنَّ ثمَّة تداخل بين موانع التدبُّر، والأسباب المعينة عليه، وشروط التدبُّر، إذ ترك السبب الموصل للتدبُّر هو مانع من التدبُّر في حقيقته، وتخلُّف الشرط أيضاً مانع من نفاذ المشروط.

وكما أنَّ لتدبُّر القرآن وطلب الانتفاع به أسباب، فإنَّ هناك موانع تحول بين قارئ القرآن وبين التدبُّر والانتفاع به،"ومن لم يكن له فهْمُ ما في القرآن، ولو في أدنى الدرجات؛ دخل في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[محمد:١٦]، والطّابع هي الموانع..."[٣].

وقد ذكر القرآن موانع التدبُّر والهداية بالقرآن، مع ذكر شقاء الكفار، وحرمانهم، مما يدلُّ على أنَّ هذه الموانع متى تحققت في أحد من الناس، فإنها تقع حاجزاً بينهم وبين القرآن، وتمنعهم من الاستفادة منه، والاهتداء بهديه[٤].

ويمكن تقسيم هذه الموانع إلى قسمين: موانع اعتقادية، وموانع سلوكية، وعليه فيكون بحث الموانع في مطلبين:

---

[١] انظر: المطلع على ألفاظ المقنع للبعلي (٥٠٢).

[٢] انظر: لسان العرب (٨/ ٣٤٣).

[٣] إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٣)، وقد ذكر أربعة حجُب للفهم.

[٤] انظر: المدخل إلى الدراسات القرآنية لأبي الحسن الندوي (١٢٣).

المطلب الأول: الموانع الاعتقادية.

المطلب الثاني: الموانع السلوكية.

والله أسأل التوفيق في بيانها، والابتعاد عنها.

- المطلب الأول: الموانع الاعتقادية:

١ - الاعتقادات الفاسدة والتعلُّق بالبدع:

من الموانع التي تحول دون تدبر القرآن والانتفاع به هو تعلق القارئ أو السامع ببعض العقائد المنحرفة والبدع الضالة، فمن تعلَّق بالبدع، أو انحرف عن المنهج الصحيح، كان ذلك حائلاً ومانعاً له من فهم آيات القرآن، وتدبُّر معانيها، فأنوار القرآن تُحجب عن قلب صاحب البدعة، أو المتمذهب بمذهب باطل، أو من ارتبط بعقيدة فاسدة، وكلها حُجُب كثيفة تتفاوت فيما بينها في منع التدبر والانتفاع بالقرآن.

وفي ذلك يقول الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٤هـ): (واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي حقيقة، ولا يظهر له أسرار العلم من غيب المعرفة وفي قلبه بدعة، أو إصرار على ذنب، أو في قلبه كبر أو هوى، أو حب الدنيا، أو يكون غير متحقق الإيمان، أو ضعيف التحقيق.... وهذه كلها حجُب وموانع بعضها آكد من بعض)[١].

"إنَّ الطريق الأمثل في فهم القرآن... أن ينفض الإنسان من ذهنه كل تصوُّر سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصوُّرية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرراته كلُّها حسبما يصور القرآن...، ومن ثمَّ لا يحاكم القرآن لغير القرآن، ولا ينفي شيئاً يثبته القرآن ولا يؤوله، ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله، وما عدا المثبت والمنفي في القرآن، فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته"[٢].

---

[١] البرهان (٢/ ١٨٠-١٨١).

[٢] في ظلال القرآن (٦/ ٣٧٣٠).

وإنَّ من موانع التدبُّر: أن يكون للمرء ميل إلى نزعة، أو مذهب، أو نحلة، فيتأوَّل القرآن على وفق رأيه، ويصرفه عن المراد، ويرغمه على تحمله ما لا يساعد عليه المعنى المتعارف، فيجرُّ شهادة القرآن لتقرير رأيه، ويمنعه عن فهم القرآن حقَّ فهمه؛ ما قيَّد عقله من التعصُّب، عن أن يجاوزه، فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه حتى إن لمع له بارق حقّ، وبدا له معنى يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصُّب حملة، فمنعه من التفكير في خلاف معتقده[١].

إنَّ التدبُّر سبب مهم في ترك البدع ومجانبتها، وفي التمسُّك بالبدع حائل عن قبول الحقِّ الناتج عن التدبُّر.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٤١هـ): (ولو تدبَّر إنسان القرآن؛ كان فيه ما يردُّ على كلِّ مبتدع بدعته)[٢].

وقد ضلَّ أقوام عن تدبُّر القرآن بسبب قولهم: أنَّ الأخذ بظاهر القرآن كفر، ومن ذلك ما قاله السنوسي الأشعري (٨٩٥هـ)[٣]: (أصول الكفر ستة:... [وذكر منها]: التمسُّك في أصول العقائد بظواهر الكتاب والسنة من غير بصيرة في العقل، وهو أصل ضلال الحشوية...)[٤].

وبنحوه قال الصاوي المالكي (١٢٤١هـ)[٥]: (ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة،

---

(١) انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ٣١).

(٢) أخرجه الخلال في كتاب السنة (٣/ ٥٤٦).

(٣) **السَّنُوسِي**= محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني، عالم تلمسان في عصره، وصالحها، أشعري المعتقد، وله تصانيف كثيرة، منها: شرح صحيح البخاري، مكمل إكمال الإكمال، والعقيدة الوسطى، وشرح صغرى الصغرى، وغيرها. انظر: الأعلام للزركلي (٧/ ١٥٤).

(٤) شرح أم البراهين (٣١٧).

(٥) **الصاوي**= أحمد بن محمد الصاوي الخلوتي المالكي، من العلماء، ولد في مصر، وتوفي بالمدينة النبوية سنة ١٢٤١هـ، وله تصانيف منها: بلغة السالك لأقرب المسالك في فروع الفقه المالكي، وحاشية على جوهرة التوحيد للقاني، وحاشية على تفسير الجلالين، وغيرها. انظر: معجم المؤلفين (٢/ ١١١).

ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية، فالخارج عن المذاهب الأربعة، ضالٌ مضلّ، وربما أداه ذلك للكفر، لأنَّ الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر)[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) في معرض حديثه عن قصور فهم المعتزلة لكلام الله: (وعلمت بهذا أنَّ بدعتهم الخبيثة حالت بينهم وبين فهم كلام الله كما ينبغي، وهكذا كل صاحب بدعة تجده محجوبا عن فهم القرآن)[٢].

ويدخل في ذلك: **حصر بعض أهل البدع فهم معاني القرآن على أحد مخصوص**، فيعتقدون أنَّ القرآن لا يفسره ولا يشرحه إلا إمام معيَّن.

"إنَّ الدعوة إلى محاصرة العقل، والحجْر عليه، وقصْر الفهم والإدراك والتدبُّر على فهوم السابقين، هو الذى ساهم بقدر كبير فى الانصراف عن تدبُّر القرآن، وأقام الحواجز النفسية المخيفة التى حالت دون النظر، وأبقى الأقفال على القلوب، وصار القرآن تناغيم، وترانيم"[٣].

فقد قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[محمد:٢٤].

قال الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٥هـ): (والمعنى: هلا تأملوا في تفسيره، وتدبَّروا في تأويله، وتفكَّروا في حججه ودلائله، فيُقِرُّوا بعجزهم عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله، إنه كلام رب العالمين، وهذا يبطل قول من زعم من الرافضة: أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول ﷺ أو تفسير الإمام)[٤].

---

[١] حاشية الصاوي على الجلالين (٣/ ٩)، وقد ناقش العلامة الشنقيطي قوله، وردَّ عليه بردٍّ طويل يحسن الرجوع إليه في أضواء البيان (٧/ ٢٦٢)، وأيضاً: ألف الشيخ أحمد بن حجر آل بوطامي في الرد على هذه المقالة كتاباً بعنوان: تنزيه السنة والقرآن عن أن يكونا من أصول الضلال والكفران.

[٢] بدائع الفوائد (١/ ٩٦).

[٣] كيف نتعامل مع القرآن، الغزالي (١٧).

[٤] غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/ ٣٠٠)، وانظر: الإكليل في استنباط التنزيل للسيوطي (٩٥).

ومثل هؤلاء تمنعهم معتقداتهم الباطلة من فهم القرآن فهماً صحيحاً، ويحجبهم التعصُّب للمذهب أو الطريقة عن الاستضاءة بأنوار التدبُّر، التي تُحجب عمَّن علا على قلبه الران، نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ به من الخذلان.

٢- أمراض القلوب:

إنَّ من أعظم ما يمنع من الاستفادة من القرآن والتأثر به والانتفاع من مواعظه وحِكَمه أن يكون القارئ مصاباً ببعض الأمراض القلبية التي تسبب ظلمة تكسو القلب، وتمنع من دخول نور القرآن وهدايته؛ كالرياء، والنفاق، والحسد، والحقد، والعجب، وحب الظهور، وسوء الظن، ونحوها.

ولهذه الأدواء أثر كبير في حجب القلب، ومنعه من التلذذ بالقرآن والتدبُّر لآياته، بدلالة قوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤]، وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[الإسراء:٤٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الحديد:١٦]: (نهى الله المؤمنين أن يتشبَّهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى، لما تطاول عليهم الأمد بدَّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً ونبذوه وراء ظهورهم...؛ فعند ذلك قسَت قلوبهم، فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد)[1].

وقد ذمَّ القرآن أقواماً عايشوا التنزيل، واستمعوا إليه من فِيِّ النبي ﷺ، ولكنهم لم ينتفعوا به، قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[محمد:١٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٠).

ومما يدلُّ على هذا المعنى أنَّ النبي ﷺ قد هيئ لتلقي القرآن الكريم، بأن استخرج من صدره حظُّ الشيطان، كما روى أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: «**هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ**»، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ[1].

فإذا أراد المتدبِّر أن ينتفع بهذا الكتاب العظيم، فليطهِّر قلبه، ويسعى في سلامته من الآفات والعلل، حتى يكون مهيَّأً لإدراك معانيه، والاعتبار بمواعظه.

٣- ضعف الهمة واتباع الهوى:

لقد عاب الله على من آتاه آياته فانسلخ منها؛ أنه كان متَّبعاً لهواه، فأسقطه الهوى في الهاوية، كما قال سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

فالهوى يعمي صاحبه عن الحق، ويطمس نور البصيرة، ويجعل صاحبه يصرُّ على خطئه مهما تبيَّن له الحق، مما يؤدي به إلى ترك العمل بالقرآن وعدم تدبُّره، ولذلك جعله الله عَزَّوَجَلَّ إلهاً يعبد من دونه، فقال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣]، فالهوى يعمي ويصمُّ

---

[1] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٦٢) في كتاب الإيمان، باب باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات.

عن الحق فلا يقبله، وصاحب الهوى في ضلال عن الحقِّ الذي دلَّ عليه القرآن، فلا يعمل به ولا يتبعه، قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

"واتباع الهوى عن طبائع القلب، وطبائع القلب عن عقوبة الذنب، وميراث العقاب الصممُ عن فهم الخطاب، أما سمعته يقول: ﴿لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف:١٠٠] "[١].

لذا عدَّ النبي ﷺ اتباع الهوى من المهلكات، كما في حديث أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاثُ مُهْلِكَاتٍ: شُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِرَأْيِهِ**»[٢].

وقد حذَّر سلفنا الصالح من اتباع الهوى، والانقياد له، وبيان خطر ذلك على صاحبه، في نحو قول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنما أخشى عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل، فإنَّ اتباع الهوى يصدُّ عن الحق، ويذكِّر الدنيا، وطول الأمل ينسي الآخرة)[٣].

لذلك كان اتباع الهوى أحد الموانع التي تحول دون تدبُّر القرآن، والانتفاع بمواعظه وآياته، لحيلولته بين صاحبه، وبين أنوار القرآن، فلا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وربما حمله الهوى على تبرير أخطائه التي تشهد عليها الآيات.

---

[١] قوت القلوب لمكي (١/ ١٥٧).

[٢] **حسن**. أخرجه البزار في مسنده (١٣/ ٤٨٦) برقم: (٧٢٩٣)، والدلابي في الكنى (٢/ ٤٦٩) برقم: (٨٤٧)، والطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ٣٢٨) برقم: (٥٤٥٢)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٠٤) برقم: (٧٣١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٤٥٣).

[٣] أخرجه عنه أبو داود في الزهد (١١٦)، والدينوري في المجالسة (٤/ ١١٦) برقم: (١٢٩٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٧٦)، والبيهقي في الشعب (١٣/ ١٧٢) برقم: (١٠١٢٩).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٢٧هـ): (وصاحب الهوى يعميه الهوى ويصمُّه؛ فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، ولا يطلبه، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، ويكون مع ذلك معه شبهة دين: أن الذي يرضى له ويغضب له أنه السنة، وهو الحق، وهو الدين، فإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن قصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصد الحمية لنفسه وطائفته أو الرياء، ليعظم هو ويثنى عليه)[١]، نعوذ بالله من اتباع الهوى.

٤- قوة التعلُّق بالدنيا، وضعف الإيمان بالآخرة:

إنَّ التعلُّق بالدنيا وضعف الإيمان بالآخرة وعبادة المادة؛ من أشد الموانع عن تدبُّر القرآن الكريم والاستفادة منه؛ ومن أصول القرآن العظيمة: الترغيب والترهيب والمواعظ من أجل الإيمان بالآخرة، وإصلاح العمل لها، وهو كثيراً ما يحذِّر من عواقب الغفلة عن الآخرة، ويطمح في ثوابها ونعمائها، ويقدم المعلومات المهمة لرحلة الحياة القصيرة إلى الدار الآخرة، ويدلُّ على منازلها، ويضيء طريقها، لأجل ذلك فإنَّ الذين يرجون الآخرة، ويؤمنون بها، ويظنون أنهم ملاقوها، أضاء القرآن حياتهم وقلوبهم بأنواره، وانتفعوا بعظيم فوائده ودرره، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[الأنعام:٩٢].

أما الذين لا يؤمنون بالآخرة، أو يؤمنون بها ولكن رانت على قلوبهم الدنيا واستحوذت عليهم المادة، ولا ينظرون في جميع قضايا الحياة إلا بنظرة مادية بحتة[٢]، هؤلاء لا ينفعهم القرآن ولا يؤثِّر فيهم، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾[النجم:٢٩-٣٠].

---

[١] منهاج السنة النبوية (٥/ ٢٥٦).

[٢] **بحتة** = البَحْت: الصِّرْفُ، وعربي بحتٌ، أي مَحْضٌ خالص. انظر: الصحاح للجوهري (١/ ٢٤٣).

إنَّ النظرة المادية المسيطرة عليهم تجعلهم في غشاوة عن الانتفاع بالقرآن، حيث لا تعمل عقولهم في غير الأشياء المادية، بل تتعلق دونها، وينكرون ما وراءها، مما يؤدي إلى غفلتهم عن الآيات، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾[يونس:٧].

"ولا يجتمع الرضا بالدنيا، والغفلة عن آيات الرب؛ إلا في قلب من لا يؤمن بالمعاد، ولا يرجو لقاء ربِّ العباد، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمان بالمعاد؛ لما رضي الدنيا، ولا اطمأن إليها، ولا أعرض عن آيات الله.

وأنت إذا تأملت أحوال الناس وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس، وهم عمار الدنيا، وأقل الناس عدداً من هو على خلاف ذلك، وهو من أشدِّ الناس غربة بينهم، لهم شأن وله شأن، علمه غير علومهم، وإرادته غير إرادتهم، وطريقه غير طريقهم، فهو في واد وهم في واد"(١).

"ولقد أمرنا الله بتدبُّر القرآن، والوقوف طويلاً أمام آياته، وملاحظة إيحاءاتها وتوجيهاتها ومعانيها وحقائقها، ووضع أيدينا على العلة التى تحول بيننا وبين هذا التدبُّر، والداء الذى يعوقنا عن القيام به، وذلك حتى نقضى على تلك العلة، ونزيل ذلك الداء، وهو الأقفال على القلوب، التي توصدها أمام النور والهدى والخير والحياة، وهذه الأقفال هى الشهوات والمعاصى، والإقبال على الدنيا، وملء القلب من كلِّ ذلك، بحيث لا يبقى فيه متسعاً لتدبر أو هدى أو إيمان، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[محمد:٢٤]"(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (لقد أسمع منادي الإيمان لو صادف آذاناً واعية، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوباً خالية، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات

---

(١) الفوائد لابن القيم (١٠٣).

(٢) مفاتيح للتعامل مع القرآن (٢٣).

والشهوات فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة فأغلقت أبواب رشدها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام، وسكرت بشهوات الغي وشهادة الباطل فلم تصغ بعده إلى الملام، ووعِظت بمواعظ أنكى فيها الأسنة والسهام، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة، وأسْر الهوى والشهوة، وما لجرح بميت إيلام)[1].

٥- الغفلة عن عدم حضور القلب أثناء التلاوة:

فالقلب المشغول عن القرآن بغيره لا يتأثر به؛ لانشغاله في أودية الدنيا، وغفلته عن تدبُّر كتاب الله، وكيف يحصل له ذلك، وهو غائب ليس بحاضر.

قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾[الأنبياء: ١-٣]،فالغفلة من أعظم موانع تدبُّر القرآن، لأنَّ حضور القلب وصفاءه يجعل صاحبه يرى معاني القرآن بوضوح، ويحيا بها عملاً وسلوكاً ودعوة وتربية، والقلب الغافل لا يتدبَّر، لأنَّ صاحبه يسمع القرآن بأذنه، دون أن يصل إلى قلبه، وهذا كحال من وصفهم الله مطلع سورة الأنبياء؛ "كلَّما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار، واستمعوه وهم هازلون يلعبون ﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾والقلوب هي موضع التأمل والتدبُّر والتفكير"[2].

"فإنما يفهم القرآن ويتفقَّه فيه: من كان نصب عينه، ووجهة قلبه في تلاوته في الصلاة وفي غير الصلاة؛ ما بينه الله تعالى فيه من موضوع تنزيله، وفائدة ترتيله، وحكمة تدبُّره، من علم ونور، وهدى ورحمة، وموعظة وعبرة، وخشوع وخشية، وسنن في العالم مطردة، فتلك غاية إنذاره وتبشيره"[3].

---

(١) الوابل الصيب (٥٥).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٣٦٧).

(٣) تفسير المنار (١/ ٨).

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧]، فقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: عقل وفهم، أو لمن كان له قلب ينتفع به في التأمل والنظر[١]، ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فاستمع كتاب الله، وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) مبيِّناً أنواع القلوب حال سماع القرآن: (الناس ثلاثة: رجل قلبه ميت....، والثاني: رجل قلبه حي.... لكنه مشغول ليس بحاضر، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى، والثالث: رجل حي القلب مستعد، تُليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع، وأحضر القلب، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه، فهو شاهد القلب، مُلقِ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة)[٣].

فحضور القلب، وعدم انشغاله أثناء التلاوة؛ شرط في الانتفاع والتدبُّر للقرآن الكريم، وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) -أيضاً-: (فإذا حصل المؤثر: وهو القرآن، والمحلُّ القابل: وهو القلب الحي، ووجد الشرط: وهو الإصغاء، وانتفى المانع: وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب، وانصرافه عنه إلى شيء آخر؛ حصل الأثر: وهو الانتفاع والتذكُّر)[٤].

ومن الغفلة أيضاً: قصر حضور القلب على أوقات محددة أو آيات معينة: فإنَّ من الخطأ البيِّن أن يظنَّ بعض الناس أنه لا يحصل التدبر لآيات القرآن ولا التأثر به إلا في أوقات محددة أو آيات معينة؛ كرمضان، أو صلاة التراويح، أو عند خشوع الإمام، أو عند ذكر آيات

---

(١) تأويلات أهل السنة (٩/ ٣٦٦).

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة (٤١٩).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٤١).

(٤) الفوائد (٣).

العذاب والنار، وأهوال يوم القيامة، ونحو ذلك، ثمَّ لا يتدبَّر ولا يخشع في غير ذلك، ويكون بعيداً عن هذه الفوائد والمنافع.

"إنَّ سماع القرآن دون فهم، والنظر دون روية، أمراض تمحَق المواهب البشرية، وتجعل المرء شبحاً لا روحاً، والأشباح لا تصنع شيئاً في دنيا الناس، ولا يرتقي بها شعب من العالم الثالث إلى العالم الثاني بل الأول"[(١)].

ومن تأمل حال النبي ﷺ، وحال من بعده مع القرآن وجد غير ذلك، فقد كان الخشوع والتأثر والتدبُّر والتفكر هو ديدنهم عند قراءة القرآن -كما سبق بيانه-، وذلك في جميع الأوقات والأحوال، ولم يقتصر التدبُّر عندهم على آيات دون آيات، أو أحوال دون أحوال، والنبي ﷺ هو معلمنا الأول، فوجب اقتفاء أثره، واتباع منهجه.

٦- الأمية العقلية، وشيوع التقليد والتبعية:

والمقصود بالأمية العقلية هنا: سطحية العلم والمعرفة المتعلِّقة بالقرآن، والاكتفاء بالحفظ ونحوه، دون التدبُّر والغوص للبحث عن دلالات القرآن وأسراره.

ولعلَّ هذه العقلية هي التي تغلب على كثير من الناس في تعاملهم مع القرآن، وهذا ما نعاه القرآن على أقوام في تعاملهم معه، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة:٧٨]، أي: يعلمونه حفظاً وتلاوة فقط، ولا يعلمون معناه، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حقَّ المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم[(٢)].

---

(١) الحق المر، الغزالي (٨٣).

(٢) انظر: الكشف والبيان للثعلبي (١/ ٢٢٣)، معالم التنزيل للبغوي (١/ ١١٥)، تفسير ابن كثير (١/ ٣١١)، تيسير الكريم الرحمن (٥٦).

"وكذلك تأويل القرآن على قول من قلَّد دينه أو مذهبه؛ فهو يتعسَّف بكل طريق حتى يجعل القرآن تبعاً لمذهبه، وتقوية لقول إمامه، وكلٌّ محجوبون بما لديهم عن فهم مراد الله من كلامه، في كثير من ذلك أو أكثره"(١).

إنَّ السبب وراء سريان داء الأمية والتبعية في الأمة: التأثُّر بأدواء الأمم السابقة، فإنَّ "الأمية العقلية هذه تسود الأمة في حال التقليد والغياب الحضاري، والعجز عن تدبُّر القرآن، والتعامل مع الأحداث، واتخاذ المواقف، واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق، وحسن تسخيرها، ومعرفة كيفية التعامل معها، والنفاذ من منطوق النص وظاهره إلى مقصده ومرماه"(٢).

إنَّ هذه الأمية تعني ذهاب العلم على الرغم من تقدُّم فنون الطباعة، ووسائل النشر، وتقنيات التسجيل، ولعلَّ هذه الأمية هي ما جاءت في حديث النبي ﷺ عن زياد بن لبيد رضي الله عنه، قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «**ذَاكَ عِنْدَ أَوَانِ ذَهَابِ الْعِلْمِ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِّ، وَكَيْفَ يَذْهَبُ الْعِلْمُ، وَنَحْنُ نَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَنُقْرِئُهُ أَبْنَاءَنَا وَيُقْرِئُهُ أَبْنَاؤُنَا أَبْنَاءَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأُرَاكَ مِنْ أَفْقَهِ رَجُلٍ بِالْمَدِينَةِ، أَوَلَيْسَ هَذِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقْرَؤُونَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ، لَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا فِيهِمَا؟!**»(٣).

فالمشكلة ليست في غياب المنهج الصحيح، وإنما في وسائل الفهم الصحيحة لهذا المنهج، وأدوات التوصيل، وكيفية التعامل مع القرآن.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥١).

(٢) كيف نتعامل مع القرآن – محمد الغزالي (١٢).

(٣) **صحيح**. أخرجه الدارمي (١/ ٣٣٣) برقم: (٢٩٦)، وأحمد في مسنده (٢٩/ ١٧) برقم: (١٧٤٧٣)، وابن ماجه في سننه (٥/ ١٧٢) برقم: (٤٠٤٨)، والترمذي في سننه (٥/ ٣١) برقم: (٢٦٥٣) وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في كتاب العلم لأبي خيثمة (٥٢) وقال: رجاله ثقات، رجال الشيخين.

وإنَّ تتبُّع كل سَنَن، وتلبية نداء كل ناعق دون وعي أو إدراك، ودون نظر أو تمحيص، والتبعية الفكرية والثقافية والعلمية، التي تجعل المرء أسيراً لمعتقدات خاطئة؛ كلُّ ذلك من الصوارف العظيمة، والجدُر الحصينة، التي تمنع المرء من فهم القرآن وتدبُّره؛ إذ ما كان للعقل أن ينطلق وهو أسير، أو يبدع وهو مقلِّد متّبع، ولن ينطلق إلا إذا فُك من إساره، وتحرر من عقاله.

إنَّ الصورة السلبية الميِّتة التي غُرِسَت في أذهان كثير من عامة الأمة في أقطار المسلمين، وعلى مدار عقود طويلة من تاريخها الأخير؛ أنَّ القرآن لا يستدعى إلا في حالات المرض الشديد، أو الاحتضار والموت، أو عند العزاء أو زيارة المقابر، أو ذكر الأموات، وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه غالباً، فكانت النتيجة اقتران الصورة الموروثة لقراءة القرآن بحالات من الخوف والاكتئاب، تنفِّر الإنسان منها، ويستعيذ بالله من سماعها، وليتهم أدركوا أنَّ القرآن كتاب حياة لا كتاب موت، وكتاب بناء حياة الإنسان في كلِّ ما يحتاجه منها.

٧- الاستسلام للشبهات الحائلة دون التدبر:

ثمة شبهات تحول دون تدبُّر أصحابها للقرآن الكريم، منها:

أ- دعوى أنَّ فهم القرآن وتدبُّره لا يقدر عليه كل أحد.

فيعتقد أنَّ التدبُّر لا يقدر عليه إلا المتخصصون، وهذا تلبيس من الشيطان، إذ التدبُّر يختلف عن التفسير والاستنباط، وهما اللذان يحرم القول فيهما بدون علم، أما التدبُّر فإنه لكلِّ أحد، ويقدر عليه كلُّ أحد، وإلا لما عاتب الله عليه حتى أهل الكفر والنفاق، كما سبق بيانه.

وفهمَ القرآن نوعان:

النوع الأول: فهمٌ ذهني معرفي.

والنوع الثاني: فهمٌ قلبي إيماني.

فالنوع الأول: وهو تفسير الغريب، واستنباط الأحكام، وأنواع الدلالات هو الذي يختص بأهل العلم -على تفاوت مراتبهم- وهم يغترفون من علومه على قدر ما آتاهم الله تعالى من العلم والفهم. وليس هذا مراداً لنا هنا بل المراد هو النوع الثاني.

النوع الثاني: -وهو الفهم الإيماني القلبي- الذي ينتج عن تأمُّلِ قارئ القرآن لما يمرُّ به من آيات كريمة، يعرف معانيها، ويفهم دلالاتها، بحيث لا يحتاجُ معها أن يراجعَ التفاسيرَ فيتوقف عندها متأملاً؛ ليحرِّكَ بها قلبَه، ويعرضَ نفسه وعملَه عليها، إن كان من أهلِها حمد الله، وإن لم يكن من أهلِها حاسبَ نفسه واستعتبَ.

والفهم الثاني هو الغاية، والأول إنما هو وسيلة لتحقيق تلك الغاية.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ): (العلمُ عِلْمان: علمٌ في القلب فذاك العلم النافع، وعلمٌ على اللسان فذلك حجَّة الله على خَلْقه)[١].

ومن الأمثلة التي توضِّح المقصود: من تدبَّر مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

سيتوقَّف ليتأمَّل ذلك المشهد المهول، فيراجع حسابه مع ذلك اليوم العظيم، وماذا أعدَّ له؟ وماذا لو عرضت عليه صحائف أعماله حسنها وسيئها؟ وكيف يتمنى الكافر أن يكون تراباً ؟.

وهكذا.. من تأمَّلَ القرآنَ، وجد أن القضايا الكلِّيةَ الكبرى واضحةٌ جداً، بحيث يفهمها عامّةُ من يتكلَّمون اللغةَ العربيةَ، كقضايا التوحيدِ، واليومِ الآخرِ بوعدِه ووعيدِه وأهوالِه،

---

[١] آداب الحسن البصـري لابن الجوزي (٤٢)، ورواه ابن المبارك في الزهد (٤٠٧)، والدارمي مرسلاً (١/ ٣٧٣) برقم: (٣٧٦)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٦١) برقم: (١١٥٠)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٠٤).

وأصولِ الأخلاقِ الكريمةِ والرديئة(١).

إنَّ تدبُّر القرآن واضح جليٌ لكلِّ أحد، والقرآن واضح بمجمله، كما قال الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٨٢هـ): (فإنَّ من قرع سمعه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[البقرة:١١٠]، يفهم معناه، دون أن يعرف أن (ما) كلمة شرط، و(تقدموا) مجزوم بها لأنه شرطها، و(تجدوه) مجزوم بها لأنه جزاؤه، ومثلها: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[آل عمران:٣٠]، ومثلها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[النحل:٩٠]، يُفهم من الكلِّ ما أريد منها، من غير أن يعرف أسرار العلوم العربية، ودقائق القواعد الأصولية، ولذا ترى العامة يستفتون العالم ويفهمون كلامه وجوابه، وهو كلام غير معرب في الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه، ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا يعرفون إعراباً ولا غيره مما سقناه، بل ربما كان موقع ما يسمعون في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقَّق قواعد الاجتهاد، وبلغ غاية الذكاء والانتقاد)(٢).

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٤٢٠هـ): (فعليك بتدبُّر القرآن حتى تعرف المعنى، تدبَّر القرآن من أوله إلى آخره؛ من الفاتحة -وهي أعظم سورة في القرآن وأفضل سورة فيه- إلى آخر ما في المصحف ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين.

تدبَّر القرآن واقرأه بتدبر وتعقل، ورغبة في العمل والفائدة، لا تقرأه بقلب غافل، اقرأه بقلب حاضر بتفهُّم وبتعقُّل، واسأل عما أشكل عليك، اسأل أهل العلم عما أشكل عليك مع أن أكثره بحمد الله واضح للعامة والخاصة؛ ممن يعرف اللغة العربية مثل قوله جلَّ وعلا:

---

(١) انظر: مقالاً بعنوان: (تدبر لا تفسير) للدكتور/ عمر المقبل، بموقع الإسلام اليوم على شبكة الانترنت.

(٢) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد (١٥٩).

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦]، وقوله سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [البقرة:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]، فكلُّه آيات واضحات بين الله سبحانه وتعالى فيها ما حرَّم على عباده، وما أحلَّ لهم، وما أمرهم به، وما نهاهم عنه)[١].

ب- اعتقاد صعوبة فهم القرآن:

إنَّ مما يصرف كثيراً من المسلمين عن تدبُّر القرآن، والتفكُّر فيه، وتذكُّر ما فيه من المعاني العظيمة؛ اعتقادهم صعوبة فهم القرآن، وهذا الأمر من تلبيس الشيطان ومكائده ليصرف العقول والقلوب عن تفهُّم معاني القرآن وصرفهم عن الغاية التي لأجلها أنزل القرآن، فهو كتاب هدى ورحمة وتربية للنفس[٢]، ويردُّ ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

والله عَزَّوَجَلَّ يقول في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان:٥٨].

---

(١) مجموع فتاوى الشيخ بن باز (٩/ ٢٥).

(٢) انظر: مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة (٢١-٢٢).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧١ هـ): (أي القرآن يعني بيَّناه بلسانك العربي، وجعلناه سهلاً على من تدبَّره وتأمله، وقيل: أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه)[١].

وجاءت أقوال العلماء محذرة من ادَّعاء صعوبته، والعجز عن تدبُّره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (ومن قال إنَّ له باطناً يخالف ظاهره، وإنَّ له تأويلاً يخالف ما يفهم منه؛ ففي قلبه منه حرج، ومن قال إنَّ له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبِّدين بألفاظه؛ ففي قلبه منه حرج)[٢].

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٠هـ): (فمن حيث كان القرآن معجزاً أفحم الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله؛ فذلك لا يخرجه عن كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب، ميسراً للفهم فيه عن الله ما أمر به ونهى، لكن بشرط الدربة في اللسان العربي)[٣].

إنَّ عدد آيات الأحكام في القرآن خمسمائة آية تقريباً، وعدد آيات القرآن أكثر من ستة آلاف ومائتي آية، ففهم أكثر آيات القرآن من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، والعلم بالله واليوم الآخر، وقصص القرآن؛ لا يشترط له فهم المصطلحات العلمية الدقيقة، من نحو وبلاغة وأصول وفقه، فمعظم القرآن بيِّن واضح ظاهر، يدرِك معناه الصغير والكبير، والعالم والأمي.

إنَّ إغلاق العقول عن تدبُّر القرآن بحجَّة صعوبته، والاكتفاء بقراءة ألفاظه؛ مدخل من مداخل الشيطان على العبد ليصرفه عن الاهتداء بهديه[٤].

---

[١] الجامع لأحكام القرآن (١١/ ١٦٢).

[٢] التبيان في أقسام القرآن (٢٣٠).

[٣] الموافقات (١/ ١٤٤).

[٤] انظر: مفاتح تدبُّر القرآن والنجاح في الحياة (٢٣)، ومما يشهد لما ذكرته هنا ما سبق بيانه في المبحث الثاني من الفصل الأول في هذا الباب، من قصة الأعرابي الذي سمع الأصمعي يقرأ سورة الذاريات، وغير ذلك من القصص والأخبار التي تثبت سهولة القرآن وتيسير فهمه.

ج- حصر الآيات المتلوة فيمن نزلت فيهم، أو من يتكلَّم عنهم السياق:

فمن الشبهات الحائلة عن التدبُّر: توهُّم البعض أنَّ القرآن كان لأناس خلوا، وظروف وأحوال مضت، وأنَّ الواقع لا يدخل تحت ما في القرآن من الهدي والإرشاد؛ ولذا كان هذا صارفاً لكثير من الناس عن إمعان النظر في القرآن، والبحث عن الهدى فيه، وتنزيل آياته على أرض الواقع، وإيجاد الحلول القرآنية للمشاكل الحياتية المعاصرة وغيرها، حيث إنه صالح لكل زمان ومكان، وعصر وآن، وقد قال الله جَلَّجَلَالُهُ في وصفه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:١-٢].

فمن الأسباب المانعة عن فهم كتاب الله؛ أنْ يظنَّ أنَّ ما حكاه الله عن المشركين، وما حكم عليهم ووصفهم به؛ أنه خاص بقوم مضوا، وأناس سلفوا، لم يعقِّبوا وارثاً، وربما سمع بعضهم قول من يقول من المفسرين هذه نزلت: "في عباد الأصنام، هذه في النصارى"، ونحو ذلك، فيظن أنَّ ذلك مختصٌّ بهم، وأنَّ الحكم لا يتعداهم، وهذا باطل غير صحيح، ومما يحول بين القلب وبين فهم القرآن[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته -أي القرآن- وتضمُّنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله! إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شرٌّ منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك)[2].

---

[1] انظر: مدارج السالكين (١/ ٣٥١)، تحفة الطالب والجليس (٦٥).

[2] مدارج السالكين (١/ ٣٤٣).

ذلك أنَّ عدداً غير قليل من الآيات جاءت في سياق الحديث عن الكفار، أو المنافقين، فمن الموانع التي تحول دون الانتفاع بهذه الآيات: أن يقتصر القارىء على تنزيلها عليهم، والموفَّق من خاف على قلبه أن يحال بينه وبين الإيمان، أو يخشى من تقلُّب قلبه وزيغه.

فينبغي لمن أراد الانتفاع بالقرآن أن يجعل القرآن خطاباً موجهاً إليه، وأن يقدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدَّر أنه المنهيُّ والمأمورُ، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أنَّه المقصود بالاعتبار بها، والأخذ من تضاعيفها ما يحتاج إليه، وإذا قُصد بالخطاب جميع الناس فهذا القارئ الواحد مقصود، فما له ولسائر الناس، فليقدِّر أنه المقصود، قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩]، وإذا قدَّر ذلك: لم يتخذ قراءة القرآن عمله، بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمَّله، ويعمل بمقتضاه[١].

"إنَّ النص القرآني معدٌّ للعمل، لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب؛ ولكن كذلك للعمل في كلِّ وسط بعد ذلك، وفي كلِّ تاريخ، معدٌّ للعمل في النفس البشرية إطلاقاً كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة، والبيئات المنوعة؛ بنفس القوَّة التي عمل بها في الجماعة الأولى"[٢].

د- الاعتقاد بأنَّ البقاء على الجهل، خير من معرفة ما يوجب عليهم العمل به إذا عرفوه.

وهذه شبهة أخرى عند بعض الجهَّال؛ وجهلهم لم يعرفوا أنَّ جهلهم بما يجب عليهم مع القدرة على تعلُّمه؛ يوقعهم في الإثم، وأنَّ عِلْمهم ومن ثمَّ عمَلهم بما علموا؛ يقرِّبهم من الله عَزَّوَجَلَّ، ويضاعف أجورهم، ويرفعهم في الجنة درجاتهم.

---

[١] انظر: إحياء علوم الدين (١/ ٢٨٥).

[٢] في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٣٦).

وإنما يعذر بالجهل من لم يقصِّر في التعلُّم، والذي لم تتيسَّر له سبل التعلُّم والفهم، أما المقصِّر عمداً، فهو كالمعرِض، يؤاخذ بجهله، ويحاسب على إعراضه.

وإنَّ من أنواع الكفر الذي استشرى في أمم الأرض؛ كفر الإعراض، وترك المرء الحقِّ لا يتعلمه ولا يعمل به، سواء كان قولاً أو عملاً أو اعتقاداً بسبب ذلك، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾[الأحقاف:٣]، فمن أعرض عما جاء به الرسول ﷺ بالقول، أو بالفعل؛ فأعرض بقلبه عن الإيمان به، وبجوارحه عن العمل فقد كفرَ كُفْر إعراض، والعياذ بالله.

ومن الموانع المتعلِّقة بذلك: السير وراء التصورات الخاطئة عن الدين والقرآن الكريم، حتى أصبح الدين في نظر الكثيرين لا يتجاوز حدَّ التبرك، وإقامة بعض الشعائر، والتوقف عند ذلك.

هـ- الظنُّ بأنَّ الغاية هي تلاوة القرآن فقط، دون فهمه وتدبُّره.

فمن التصوُّرات الخاطئة اعتقاد أنَّ الغاية هي تلاوة القرآن فقط؛ فيردُّ عليهم بقول الله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[البقرة:٧٨]، فإنَّ "ذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، متناول لمن ترك تدبُّر القرآن، ولم يعلم إلا مجرَّد تلاوة حروفه"(١).

٨- عدم التصوُّر الصحيح للقرآن، والفهم الخاطئ لمعانيه:

فلا يمكن لمن لا يتصوَّر حقيقة القرآن أن يتدبَّره تدبُّراً صحيحاً، كما أن عدم تصور ماهية القرآن الكريم أمارة على نقص تعظيمه.

ومما بليت به الأمة في أزمنتها المتأخرة، ظهور مدارس للقراءات المعاصرة للنصِّ(٢)، لم يتصوَّر أصحابها ماهية القرآن على التحقيق، وأحالت على استثمار مناهج النقد الأدبي

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥٦).

(٢) القراءات المعاصرة للنص: هو مصطلح كثر استعماله في السنوات الأخيرة من بعض الكتَّاب؛ ويريدون به: استخدام النظريات الحديثة في التعامل مع القرآن الكريم.

واللسانيات الحديثة، مع افتتان أصحاب هذا المنحى التأويلي بالنموذج الغربي، وجرِّه بعجره وبجره إلى ساحة القرآن.

وإذا كانت القراءة الحداثية للنصّ قد حبَت حبْوتها الأولى في نهاية السبعينات، في كنف أبي القاسم حاج محمد، صاحب كتاب: العالمية الإنسانية الثانية، فإنها بلغت أشدَّها، وأعلنت حضورها البارز في مثل: قراءات محمد أركون، في نقد العقل الإسلامي، وتأويل النصّ الديني، وهي نموذج حي لحداثة القراءة كما يريدها الغرب، ويرضى عنها أهل الاستشراق، من حيث التوسُّع في جلب المناهج الغربية، وتنزيلها كيفما اتَّفق على النصِّ القرآني، بغضِّ النظر عن ربانية مصدره، وقداسة معانيه.

وعلى نفس الطريق؛ سار نصر حامد أبو زيد، في كتابه: مفهوم النص، مسترفداً التأويلية الهرمينوطيقية، والنظريات اللسانية الأنثروبولوجية، منتهياً في نهاية المطاف إلى دعوى: تاريخية النصِّ القرآني.

ثمَّ بلغت فتنة القراءة الحداثية أوجها على يد المهندس محمد شحرور، في كتابه: الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، وهي قراءة تنطلق من منطلقات ماركسية في التأصيل والتنزيل، مع التوسل بمنهج تشطيري تجزيئي في مجال الدرس اللغوي والمعجمي.

وإنَّ هذه القراءات وأمثالها، تشترك في إرساء قواعد القطيعة والابتعاد التام عن منهج التأويل التراثي، وفهوم السلف في فهم القرآن، تمهيداً لنزع القداسة عن القرآن، وإفراغه من ربانيته، الأمر الذي يحول بين القرآن وبين من يريد تدبُّره وفهمه[1].

إنَّ كثيراً من هؤلاء، لم يتصوَّروا -ابتداءً- ماهية القرآن الكريم تصوُّراً صحيحاً، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) انظر: النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر – د/ قطب الريسوني (٢٠٧-٢٠٨)، وقد أفرد مباحث تفصيلية لنقد هذه القراءات المعاصرة نقداً علمياً رصيناً.

١) عرَّف الدكتور هشام جعيط القرآن بقوله: (ومفهوم القرآن ذاته أكثر أهمية، ويصعب تفسيره، إلا أنني ألفت النظر إلى تباينه مع عبارة الكتابات المقدسة أو الكتاب المقدس، المحتوية على التراث اليهودي المسيحي، والمشيرة إلى فكرة المكتوب في صحف، بينما القرآن يشير إلى ما هو شفوي يتلى بالرغم من أنه أيضاً كتاب ليس على شكل المكتوب، ولا حتى على شكل الوحي المكتمل، إذ يصف نفسه بأنه الكتاب من الأول تقريباً، لكن مفهوم الكتاب في العربية القديمة يعبر عن الكتابة والمكتوب معاً، كما ورد في حديث بخصوص معاوية: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ»[(١)]، فإما أن يكون القرآن كلاماً سرمدياً وأركتيباً، وإما أن أي جزء منه يمثل الكتاب كله، وهو الكتاب كله)[(٢)].

والحقيقة أنَّ هذه المقابلة -وإن كانت صحيحة- لسنا بحاجة لها في معرفة القرآن الكريم، فهي سلوك للطرق الضعيفة، توصلاً إلى ماهية القرآن الكريم، مع وجود أوصاف ظاهرة للقرآن تغني عن هذه الطرق؛ كونه منزَّلاً، معجزاً، متعبداً بتلاوته، كلاماً لله تعالى.

"فمن تدبَّر القرآن تبيَّن له أنه كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾[الزمر:٢٣]، يشبه بعضه بعضاً، ويصدِّق بعضه بعضاً، ليس بمختلف ولا بمتناقض: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[النساء:٨٢]"[(٣)].

---

(١) **ضعيف**. أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩١٤) برقم: (١٧٤٩)، والخلال في السنة (٢/ ٤٥٩) برقم: (٧١٢)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٤٣٩) برقم: (١٠٦٦) قال عنه ابن عساكر في معجم الشيوخ (٢/ ١٠٤١): حسن غريب، وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٢٧٣): لا يصحُّ.

(٢) الوحي والقرآن والنبوة (١٧).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٤/ ٤٠٧).

٢) ومن هؤلاء: محمد شحرور، حيث يقول في تعريفه: (القرآن هو كتاب متشابه، يتألَّف من قوانين عامة في كلمات الله القديمة التي لا تبديل لها، ولا يمكن الخروج عنها، وقوانين خاصة في الكون، وأحداث الطبيعة وظواهرها، وأفعال الإنسان بعد وقوعها، وقوانين التاريخ والمجتمعات، التي تحكم نشوء الأمم وهلاكها، وعن غيب الماضي من خلق الكون، وخلق الإنسان، وأنباء الأمم البائدة، وعن غيب المستقبل؛ كقيام الساعة، والنفخ في الصور، والحساب، والجنة والنار)[١].

وهذا التعريف عليه عدَّة مآخذ، منها: أنه يفرِّق بين لفظي القرآن والكتاب، فيجعل الكتاب هو الآيات المحكمة والمتشابهة معاً، والقرآن هو الآيات المتشابهة، فيكون القرآن أخصُّ من الكتاب عنده، ويكفي في بطلان بعض الآراء حكايتها، ومع هذا فإنه يقال: إنَّ العلماء لم يعرِّفوا القرآن بهذا التعريف، ولا يوجد في المعنى اللغوي للقرآن ما يفيد صلته بالتشابه.

وأيضاً: فما ذكره تعريفاً للقرآن هو عبارة عن الإشارة لبعض موضوعات القرآن، مع إغفاله لأمور مهمة في التعريف؛ من أنه كلام الله تعالى، معجز، متعبَّد بتلاوته.

٣) وممن عرَّفوا القرآن أيضاً محمد أركون بقوله: (إنَّ القرآن هو عبارة عن مجموعة من الدلالات والمعاني الاحتمالية، المقترحة على كلِّ البشر، وبالتالي فهي مؤهلة لأن تثير أو تنتج خطوطاً واتجاهات عقائدية متنوعة، بقدر تنوع الأوضاع والأحوال التاريخية التي تحصل فيها أو تتولد فيها)[٢].

وهذا التعريف يغفل أموراً كثيرة حقها أن يشار إليها عند محاولة تعريف القرآن الكريم، وفيه هدم للغاية التي جاء القرآن الكريم لدعوة الناس لتحقيقها؛ وهي توحيد الله تعالى، إذ دلالات

---

[١] انظر كتابه: الكتاب والقرآن (٧٧).

[٢] تاريخية الفكر العربي والإسلامي (١٤٥).

القرآن عنده: (مؤهلة لأن تثير خطوطاً واتجاهات عقائدية متنوعة بقدر تنوع الأوضاع والأحوال التاريخية التي تحصل فيها أو تتولد فيها)، وهذا مؤدَّاه: أنَّ كلَّ الاعتقادات الباطلة نابعة من دلالات القرآن، وهذا قول لم تقله فرقة من الفرق الضالة أصلاً، إذ كلُّ فرقة حرصت على أن تدعي دلالة القرآن الكريم على اعتقاداتها، وإبطاله ما سواها.

ومن عوائق التدبر –أيضاً–: الفهم الخاطئ للقرآن، والجهل بمعاني كتاب الله تعالى، وهو إما عدم العلم بمعناها، أو العلم به على غير وجهه، وكلاهما متحقق في أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنص؛ ويظهر ذلك جلياً في المستويين الآتيين:

المستوى الأول: المستوى النظري، وذلك بانتقاد فهم القرآن الكريم من خلال لغة العرب في الجاهلية، فهم يرون أنَّ لغة العرب لم تعد كافية في فهم القرآن الكريم.

المستوى الثاني: المستوى التطبيقي، فهو كثير عند أفراد مدارس القراءات المعاصرة للنص، ولا عجب؛ فالتنظير الخاطئ لطرق فهم كتاب الله تعالى يوصل إلى التطبيق الخاطئ.

وبهذا يتبيَّن أنَّ الفهم الخاطئ لكتاب الله تعالى؛ من أبرز موانع تدبُّر القرآن عند مدارس القراءات المعاصرة للنص، ومن يتأثَّر بمقالاتهم وأطروحاتهم، من عامة الناس وبسطائهم، والله المستعان.

- المطلب الثاني: موانع سلوكية:

١- الذنوب والمعاصي والإصرار عليها:

وهي من أعظم ما يصدُّ القارئ عن اتعاظ قلبه، وانشراح صدره لمواعظ القرآن وآياته وأسراره، فالمعاصي على اختلافها وتنوعها من تزيين الشيطان للعبد، وإذا استمر العبد على ذلك ألف تلك الخطايا والذنوب، وكان مرتعاً للشيطان، ومحلاً قابلاً لحبائله، فأبعده عن القرآن وتدبُّره والعمل به ليضلَّه كما ضل، قال تعالى: ﴿ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[المجادلة:١٩]، والمعاصي من أسباب

الطبع على القلب، قال تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[المطففين:١٤]، والرَّان: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب فيموت[١].

فلا يدخل النور إلى القلب، وفيه شيء مما يكره الله عَزَّوَجَلَّ، فالإصرار على الذنب من أعظم الأسباب التي تحول دون تدبُّر القرآن وفهم معانيه، خاصة تلك التي لها اتصال مباشر بأدوات ووسائل التدبر: القلب والسمع واللسان والبصر، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت:٥]، فالأكنة: غطاء للقلب، تمنعه من فهم القرآن، والوقر: غطاء للأذن، يمنع من سماع القرآن، والحجاب: غطاء للعين، يمنع من رؤية الحق[٢].

وصاحب القلب المريض بالمعاصي أبعد الناس عن تدبُّر القرآن؛ لأنه حُجب عن طريق العلم وهو التقوى، قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فالتدبُّر في كتاب الله وتفهُّمه علمٌ من الله جَلَّجَلَالُهُ، ولا يُنال العلم بمعصية الله؛ لأنَّ حقيقة العلم نور يقذفه الله في القلب، والذنوب والمعاصي سبب الحرمان من هذا العلم.

قال عبدالله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (إني لأحسب الرجل ينسى العلم يعلمه؛ بالخطيئة يعملها)[٣].

"وليتخلَّ التالي من موانع الفهم....، مثل أن يكون مصراً على ذنب، أو متصفاً بكبر، أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع، فإنَّ ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث

---

[١] هذا قول الحسن ومجاهد وقتادة وغيرهم. انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢٨٧)، تفسير ابن كثير (٨/ ٣٥١).

[٢] انظر: شفاء العليل لابن القيم (٩٣).

[٣] أخرجه عنه ابن المبارك في الزهد (٢٨)، وأبو داود في الزهد (١٦٨)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٩).

على المرآة، فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الأكثرون، وكلما كانت الشهوات أشدُّ تراكماً؛ كلَّما كانت معاني الكلام أشد احتجاباً، وكلَّما خفَّ عن القلب أثقال الدنيا؛ قرب تجلِّي المعنى فيه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة"[١].

إنَّ تطهير أدوات التلاوة التي يتعامل مع القرآن من خلالها، وتنظيفها مما علق بها من معاصٍ وذنوب ومنكرات مهمٌ جداً؛ لأنَّ نظافة وطهارة الوعاء شرط للانتفاع بالمضمون، فإنَّ القرآن كالمطر، فكما أن المطر لا يؤثر في الجماد والصخر، ولا يتفاعل معه إلا التربة المهيأة، فكذلك القرآن لابد أن ينزل على بيئة صالحة ليتفاعل معها، ويؤثر بها، ويحيا من خلالها، وهذه البيئة هي الحواس والقلوب التي تقبل عليه[٢].

وقد تكون بعض الذنوب أبلغ في التأثير على القلب من بعض.

ومن الذنوب التي تحْجب عن التدبُّر، قطيعة الرحم؛ ويدلُّ لذلك: الاقتران في القرآن بين قطيعة الرحم وتدبُّر القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[محمد:٢٢-٢٤].

فالقاطع ما كان ليقطع رحمه لو تدبَّر كلام ربه.

وقد جاء في الحديث القدسي الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ الله تعالى قال للرَّحم: «أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ»، ثمَّ قال أبو

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين للغزالي (١/ ٢٨٤)، مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (٥٣-٥٤).

(٢) انظر: مفاتيح التعامل مع القرآن (٥٢).

هريرة: ﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾ [محمد:٢٢][1].

ومن الذنوب التي تمنع العبد من تدبُّر القرآن أيضاً: الغناء، فإنه سماع أهل الشهوات المحرمة، وكثير منهم يستعيض به عن سماع القرآن، قال تعالى واصفاً أحوالهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان:٦-٧]، فجاء سياقها أيضاً دالاً على أنَّ الغناء مانع من التدبُّر، والتأثر بالقرآن.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الغناء يُنبت النفاق في القلب كما ينبِت الماء الزرع)[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٥١هـ) مبيِّناً بعض آثار الغناء: (فمن خواصه: أنه يلهي القلب ويصدُّه عن فهم القرآن، وتدبُّره، والعمل بما فيه، فإنَّ القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبداً، لما بينهما من التضاد، فإنَّ القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة، ومجتنبة شهوات النفوس، وأسباب الغي، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضدِّ ذلك كلِّه ويحسنه، ويهيِّج النفس إلى شهوات الغي ويثير كامنها، ويزعج قاطنها، ويحرِّكها إلى كلِّ قبيح، ويسوقها إلى وصل كلِّ مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لبان)[3].

فالقلب بيت الربِّ جلَّ جلالُه   حباً وإخلاصاً مع الإحسان

فإذا تعلَّق بالسَّماع أصاره   عبداً لكلِّ فلانة وفلان

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٨٣٠) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ [محمد:٢٢]، وبرقم: (٧٥٠٢) في كتاب التوحيد، باب قول الله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[الفتح:١٥].

[2] أخرجه عنه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٢٩)، والخلال في كتاب السنة (٥/ ٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ١٠٨).

[3] إغاثة اللهفان (١/ ٢٤٨-٢٤٩).

حبُّ الكتاب وحبُّ ألحان الغـنا   في قلب عبـد ليس يجتمعان[1]

٢- الكبر والإعراض:

إنَّ من أقوى أسباب حرمان نعمة التدبُّر؛ الكبر المنتفخ، والعزَّة الكاذبة، والاعتداد الأجوف بالنفس.

وقد عرَّف النبي ﷺ الكبْر بأنه: «**مَن بَطرَ الحَقَّ، وغَمِطَ النَّاسَ**»[2].

وهو: الارتفاع على الناس واحتقارهم، ودفع الحق وإنكاره تجبُّراً وترفعاً، ومن معانيه: تسفيه الحق، والاستهانة والاستحقار للناس[3].

وهو خصلة ذميمة، وسلوك معوجّ، ومن أهمِّ الصوارف المانعة من التأثر بالقرآن والتدبر لآياته، وحائل دون الانتفاع به، والنهل من معينه الصافي، لأنه يمنع من قبول الحق، ويورث العُجْب بالنفس، فلا تأتمر لآمر ولا تنتصح لناصح، لما يجعله من الغشاوة على عيني صاحبه، فلا يبصر إلا نفسه، ولا يشعر إلا بذاته.

إنَّ الاستكبار يمنع من قبول الحق والإذعان له مباشرة، لأنَّ الحقَّ يدعو إلى التخلي عن كثير من التقاليد والفوائد المادية الظاهرة، ويدعوه لمخالفة حياة الهوى والحرية الكاملة، والتقيد والالتزام بالحدود والأحكام والضوابط الشرعية[4].

وقد قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ

---

(١) متن نونية ابن القيم (٣٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٩١) في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٩١)، لسان العرب (٧/ ٣٦٤) مادة: (غمط).

(٤) انظر: المدخل إلى الدراسات القرآنية لأبي الحسن الندوي (١٢٣).

﴿سَبِيلًاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:١٤٦]، قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٩٨ هـ): (أنزع عنهم فهم القرآن)[١]، فلمَّا لم يتدبَّروا الْقُرْآن فكأنهم عَنهُ غافلين[٢].

فالكبر حجاب بين العبد وبين الانتفاع بآيات ربه؛ لأنَّ المتكبِّر مطبوع على قلبه، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

والكِبْر من أصول الخطايا التي بسببها يحرم العبد الانتفاع بالقرآن، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (أصول الخطايا كلها ثلاثة: الكبر؛ وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره، والحرص؛ وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد؛ وهو الذي جرَّأ أحد ابني آدم على أخيه، فمن وقي شرَّ هذه الثلاثة فقد وقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد)[٣].

إنَّ المستكبرين عن الحق؛ يتعلَّلون بعلل واهية حتى لا يتبعوا الحقَّ، ويتواضعوا لقبوله، فتارة يمنعه الكبر عن قبول الحق متعللاً بقلَّة ذات اليد للأنبياء والصالحين، كما قال تعالى عن فرعون، وهو يستكبر عن قبول رسالة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥٢-٥٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كفَّار قريش: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١].

وأحياناً يعتذرون مستكبرين عن قبول الحقّ بحالة أتباعه الاقتصادية الضعيفة، ومهانة حرفهم، وضعة أنسابهم، ويجعلون هذا هو تالمانع لهم من قبول الحقِّ والإذعان له، كما قال تعالى:

---

[١] أخرجه عنه الطبري في تفسيره (١٣/ ١١٢)، وابن أبي حاتم (٥/ ١٥٦٧).

[٢] انظر: تفسير السمعاني (٢/ ٢١٥).

[٣] الفوائد (٥٨).

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود:٢٧].

وربما تعلَّلوا ببشرية النبي المرسل إليهم بالحق، كما قال الله عنهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن:٦].

وأياً كان سبب الاستكبار ودوافعه، ومهما كانت أشكاله ومظاهره، فإنه يقع سداً منيعاً، وحاجزاً متيناً، دون التمتُّع بالقرآن والاستفادة منه.

إنَّ من شروط قبول تعاليم القرآن وتدبُّرها، وتطبيقها على النفس، وتحكيمها في الحياة، وفي الإذعان لقيادة الأنبياء وهدايتهم؛ التواضع، والتسليم، والرضا والإيثار، يقول تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥][1].

قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون:٦٨]: (الهمزةُ لإنكار الواقع واستقباحه، والفاء للعطف على مقدَّر ينسحب عليه الكلام؛ أي افعلُوا ما فعلُوا من النُّكوصِ والاستكبارِ والهجرِ، فلم يتدبَّروا القُرآنَ ليعرفُوا بما فيه من إعجازِ النَّظمِ، وصحَّةِ المدلُول، والإخبار عن الغيبِ أنَّهُ الحقُّ مِن رَّبِّهِمْ فيؤمنُوا به)[2].

٣- الجدال بالباطل:

المجادلة بغير علم ولا بصيرة، من موانع الهداية بالقرآن، والاستفادة منه، فتحرم الإنسان من التلذذ بالقرآن، وتحول بينه وبين الحياة السعيدة مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) انظر: المدخل إلى الدراسات القرآنية لأبي الحسن الندوي (١٢٣-١٢٦).

(٢) إرشاد العقل السليم (٦/ ١٤٣).

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[الأنعام:٢٥].

أي بلغ عنادهم إلى وقت مجيئهم إليك مجادلين منكرين الحق، حيث يقولون: ما هذا الذي جئتنا به، إلا أباطيل السابقين وخرافاتهم: نقلتها إلينا من كتبهم، فلم يكن مجيئهم للنبي ﷺ، طلبًا للحق، أو تعرُّفًا على خير، بل للمحاكة والمجادلة، لأنهم لم يتقبلوا ما في القرآن من أنباء الغيب، إلا على أنها حكايات وخرافات، تُسَطَّرُ وتُكْتَبُ كغيرها[1].

إنَّ الجدال والمراء في القرآن بغير ما دليل وبرهان، ومغالبته بذلاقة اللسان، وسلاطة البيان، والإدلاء بالآراء فيه من غير حجَّة ولا سلطان؛ يحرم من هدايته، ويمنع من رِفده وفيضه، وينمُّ عن كِبر مستور في الصدور، قال تعالى في صفة المجادلين: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[غافر:٣٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (أي الذين يدفعون الحق بالباطل، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله، فإنَّ الله يمقت على ذلك أشد المقت، والمؤمنون أيضاً يبغضون من تكون هذه صفته، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً، ولا ينكر منكراً)[2].

ثمَّ قال تعالى عن المجادلين في آيات الله بالباطل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[غافر:٥٦].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط- مجمع البحوث (٣/ ١٢٢١).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ١٤٤).

فمن أراد أن يفتح الله عليه في فهم القرآن وتدبُّره، فعليه أن يعظم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في نفسه، وأن يترك الجدال والمراء فيه، فهو سبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والاخرة.

٤- هجر تلاوة القرآن:

إنَّ تلاوة القرآن الكريم مقدمة مهمة لتدبُّره، والانتفاع بهديه، لذلك كثرت الآيات التي تدعو إلى قراءة القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾[المزمل:٢٠]، وأول آية نزلت على الإطلاق أمرت بالقراءة، في قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[العلق:١].

فلابد أن يضمَّ المؤمن إلى جانب إيمانه بالقرآن؛ إقبالاً عليه بالتلاوة والاستماع والتدبُّر والتفكُّر، والعمل والتحكيم والاستشفاء، ولا يكتفي بأصل الإيمان به، ثمَّ يهجره كما هجر أهل الكتاب كتبهم.

إنَّ الإعراض عن التلاوة وقصرها على زمان أو حوادث معيَّنة؛ سبب رئيس لهجر تدبُّر القرآن، ومانع أساس في عدم الانتفاع بالقرآن.

وهذا الإعراض قد يكون بسبب انشغال المرء بدنياه عن آخرته، وقد يكون بسبب انشغاله بشيء من أمور الآخرة؛ كطلب العلم، والدعوة إلى الله وغير ذلك، ومهما كانت الأسباب فلا شكَّ أنَّ من أعرض عن تلاوة القرآن الكريم قد غبن نفسه وحرمها من خير كثير، ولا شك كذلك أن إعراضه هذا استزلال من الشيطان له ببعض ما كسب، حتى وإن لبَّس ليه الشيطان بأنَّ ذلك بسبب الانشغال بالدعوة أو العلم، لأنَّ الشيطان إن عجز عن صرف العبد عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بالكلية، صرفه عن فاضلها إلى مفضولها، ولا يعني ذلك أن طلب العلم والدعوة إلى الله مفضولة عن التلاوة في كل حال ووقت، ولكنها تكون كذلك في الوقت الذي ينبغي أن يكون لتلاوة القرآن الكريم، فلابد أن يكون للمرء حزبه الذي يتعاهد فيه القرآن؛ تلاوة وتدبراً، كما كان حال سلف الأمة، وإنَّ من أجلِّ العلم؛ العلم

بكتاب الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[العنكبوت:٤٩].

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) أنواع هجر القرآن، وذكر منها: (هجر تدبُّره وتفهُّمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه)[١].

ومن أهم الأسباب التي أدَّت إلى الإعراض عن تلاوة القرآن وهجره: جهل كثير من أبناء المسلمين فضل تلاوة القرآن الكريم، والثواب المترتِّب عليه، ولو علم المرء ما في القرآن من الفضل العظيم، والثواب الجزيل، ومنزلة قارئه في الدنيا والآخرة؛ لجعله أنيسه آناء الليل وأطراف النهار، وما غفل عنه طرفة عين.

وحسب القارئ حثًّا له على التلاوة أن يعرف حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِّ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ** ﴿الٓمٓ﴾ **حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ**»[٢].

فهذا الثواب عظيم، لا يعدله شيء من متاع الدنيا وزينتها.

ولقد كان لتلاوة القرآن نصيب عظيم في حياة النبي ﷺ وأصحابه الكرام، والصالحين من هذه الأمة.

ولا زال الشيطان يكيد للعباد، ويصرفهم عن تلاوة القرآن، والعيش معه، والمداومة عليه، حتى يأتي نبينا ﷺ يوم القيامة يخاصم أقواماً من أمته بقوله: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠].

---

[١] الفوائد (٨٢).

[٢] **صحيح**. أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ١٥٧) برقم: (٢٩١٠)، وقال عنه: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في تخريج الطحاوية (١٣٩)، والمشكاة (٢١٣٧).

وفي الآية: كراهة هجر المصحف، وعدم تعهده بالقراءة فيه[1]، وأنه ينبغي لمن كان عنده مصحف أن يقرأ فيه كلَّ يوم آيات يسيرة، لئلا يكون مهجوراً[2].

٥- الورع البارد:

ذلك أنَّ بعضهم ربما ترك التدبر تورُّعاً من القول على الله بلا علم، معتقداً أنَّ مهمة القارئ تنحصر في القراءة دون التدبر، فيصرف همَّته إلى القراءة فقط، ولا يُعنى بالتدبر والوقوف مع الآيات أمراً ونهياً وحلالاً وحراماً، فيخرج من التلاوة كما دخل.

ولا ريب أنَّ هذه مكيدة من مكايد الشيطان، حتى يصرف الناس عن الانتفاع بتدبُّر آيات القرآن.

وقد بيَّن ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٦٠هـ) ذلك بقوله: (من مكايد الشيطان: تنفيره عباد الله من تدبر القرآن لعلمه أنَّ الهدى واقع عند التدبُّر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلَّم في القرآن تورُّعاً)[3].

فهو مدخل عظيم من مداخل الشيطان على الإنسان، فقد يفتح الله عَزَّوَجَلَّ على متدبِّر بما لم يكن لأحد من العلماء السابقين، فعلم القرآن ليس حِكْراً على قوم دون قوم، وكم من أناس فتح الله عليهم بما لم يفتح به على أكابر آخرين.

وقد فنَّد الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٩٣هـ) هذه الشبهة بقوله: (قول بعض متأخري الأصوليين: إنَّ تدبر القرآن العظيم وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، قول لا مستند له من دليل شرعي أصلاً، بل الحق الذي لا شك فيه أن

---

[1] انظر: الإكليل في استنباط التنزيل (١٩٧).

[2] انظر: الآداب الشرعية (٢/ ٣٠٠)، وعزاه لابن الجوزي ولم أقف عليه في مصنفاته.

[3] نقله عنه ابن رجب الحنبلي في ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ١٥٦).

كل من له قدرة من المسلمين على التعلُّم والتفهُّم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه تعلمهما، والعمل بما علم منهما.

ومما يوضح ذلك: أنَّ المخاطبين الأولين به الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار، وليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة، فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع به والاهتداء بهديه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه، ولما أقام عليهم الحجة به)، ثمَّ فصَّل رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول في الرد على ذلك[1].

إنَّ من حرم نفسه من عبادة التدبُّر خوفاً من القول على الله بغير علم؛ لم يعلم أن تفسير مراد الله، واستنباط الأحكام الشرعية، هي منزلة خاصة بالعلماء والمفسرين، وهناك درجات ومنازل من الفهم، والاعتبار، والتذكر، والادكار، والاتعاظ، ومحاسبة النفس، لا عذر له في تركها، وهي أقلُّ من القول في التفسير.

وهناك فرق —كما سبق بيانه- بين التدبُّر، وبين تفسير مراد الله واستنباط الأحكام الشرعية- والتي هي مهمَّة العلماء الراسخين، وهناك درجات ومنازل من الفهم، والاعتبار، والتذكر، والادكار، والاتعاظ، ومحاسبة النفس، لا يعذر أحدٌ في تركها[2].

٦- الانشغال بالتلاوة والتجويد والحفظ عن التدبر:

بحيث تنصرف الهمَّة إلى الحفظ وتحقيق الحروف، والتكلُّف في إخراجها، والمبالغة في تطبيق التجويد، واعتماده على ذلك فقط، وقد يكون كل هم الإنسان أن يستكثر من التلاوة أو الحفظ، دون أن يلقي بالاً لتدبُّر ما يقرأ.

وفي قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧]، دليل على أنّ العناية بحفظ ألفاظه لا يمنع من فهم معانيه، فكما سهّل الله ألفاظه للتّلاوة والحفظ؛ سهّل

---

(١) أضواء البيان (٧/ ٢٥٨-٢٦١) بتصرف كثير.

(٢) انظر: هجر القرآن العظيم- د/ محمود الدوسري (٥٤١-٥٤٣).

معانيه للفهم والتّدبّر، فكلّ من قصده يسّر الله عليه طُلبته، وقد جاء في تفسير هذه الآية عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٨هـ) قوله: (هلْ من طالبِ خيرٍ يُعان عليْه)[١].

ومثله الاجتهاد في نَيْل الخيريّة الواردة في قول النبي ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[٢]، والاكتفاء منها بالتعلُّم والتَّعليم، وقصره على تعلّم التّلاوة دون الفهم والتدبُّر.

وقد يتَّجه البعض إلى حفظ القرآن، دون التدبُّر والوقوف على المعاني؛ "فمن رضي بالاقتصار على حفظ حروفه كان كمن له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نتوج لا يستولدها، وكان جديراً بأن يضيَّع حدوده فيخْسَر خسراناً مبيناً"[٣].

والواجب التوازن بين الحفظ والفهم والتدبُّر.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٧هـ) مبيِّناً ذلك: (ولو تفكَّروا لعلموا أنَّ المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه، ثمَّ فهمه، ثمَّ العمل به، ثمَّ الإقبال على ما يُصلح النفس ويُطهر أخلاقها، ثمَّ التشاغل بالمهمِّ من علوم الشرع، ومن الغبن الفاحش تضييع الزمان فيما غيره الأهم)[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٢٧هـ): (وأما طلب حفظ القرآن: فهو مقدَّم على كثير مما تسميه الناس علماً: وهو إما باطل أو قليل النفع، وهو أيضا مقدَّم في التعلم في حقِّ من يريد أن يتعلَّم علم الدين من الأصول والفروع، فإنَّ المشروع في حقِّ مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن فإنه أصل علوم الدين،... والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه هِمَّة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين)[٥].

---

[١] أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٨٤).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٢٧) في كتاب فضائل القرآن، باب «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**».

[٣] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٦/ ٣٧٥)، وانظر: تدبُّر القرآن الحكم والحكمة، د/ أحمد الفريح (٢١٠)، ضمن أبحاث مؤتمر فهم القرآن مناهج وآفاق.

[٤] تلبيس إبليس (١٠١).

[٥] مجموع الفتاوى (٢٣/ ٥٤-٥٥).

وكذلك: فإنَّ مراعاة أحكام التجويد أمرٌ مطلوب، وهو زينة القراءة وحلْيتها، بشرط ألا يؤثر على المقصود الأعظم من التلاوة وهو التدبُّر لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٢٧هـ):(ولا يجعل همَّته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن؛ إما بالوسوسة في خروج حروفه، وترقيقها وتفخيمها وإمالتها، والنطق بالمد الطويل، والقصير، والمتوسط، وغير ذلك، فإنَّ هذا حائل للقلوب، قاطع لها عن فهم مراد الربِّ من كلامه...، وكذلك مراعاة النغم وتحسين الصوت، وكذلك تتبع وجوه الإعراب واستخراج التأويلات المستكرهة التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالبيان)[١].

فإنَّ من موانع تدبر القرآن: "أن يكون الهمُّ منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وُكِّل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف، يُخيَّل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف، فأنى تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس"[٢].

"والمقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب عند القراءة، لا مجرَّد إخراج الحروف من الحلقوم بتعويج الوجه والفم، وألحان الغناء، كما يعتاده قراء هذا الزمان من أهل مصر وغيره، في مكة المكرمة وغيرها، بل هو بدعة أحدثها البطالون الأكالون، والحمقاء الجاهلون بالشرائع وأدلتها الصادقة، وليس هذا بأول قارورة كسرت في الإسلام"[٣].

والسبب في ذلك: عدم العناية والترتيب بين الغاية والوسيلة، فالقراءة وهي وسيلة الفهم؛ أصبحت عند هؤلاء هي الغاية والمبتغى، وصار مبلغ علم أولئك هو تجويد القرآن، فكان الاهتمام بالشكل على حساب المضمون.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٠).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٣٣٥).

(٣) فتح البيان في مقاصد القرآن- لصديق حسن خان (١٤/ ٣٨٢).

وربما من الناس من ترك تعلم التجويد أبداً، وإذا قرأ لا يحسن القراءة، ويلْحَن لحنًا جليًا يحيل المعنى، ويحتجُّ بمثل هذا الكلام، والتوسط والاعتدال هو تعلُّمها بما يعين على إقامة اللسان، وعدم الوقوع في الخطأ، ثم جعل الهمَّة منصرفة في تفهم معانيه.

ومن الموانع التي تُلحق بذلك أيضاً: **الانشغال بالمقامات والألحان عن التدبُّر**، فمن أشغله الصوت والمقام واللحن الذي يقرأ القارئ عليه، كان تركيزه على اللحن لا على المعنى المتدبَّر، وهذا معروف مجرَّب.

مسألة: أداء القرآن بالمقامات والألحان الغنائية:

هذه المسألة محلُّ نزاع بين المتقدمين والمتأخرين.

وسأورد هنا كلام بعض أهل العلم فيها لأهميته، والحاجة إليه.

قال أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٥٦هـ) في مسألة قراءة القرآن بالألحان: (وقد أجاز ذلك أبو حنيفة وجماعة من السلف، وقال بجوازه الشافعي في التحزين وكرهه مالك وأكثر العلماء، ولا يشك في أن موضع الخلاف في هذه المسألة إنما هو فيما إذا لم يغير التلحين لفظ القرآن بزيادة أو نقصان، أو ينبهم معناه بترديد الأصوات، والتقطيعات، وتكرر النغمات، حتى لا يفهم السامع ما يقرؤه القارئ، فهذا مما لا يشك فيه أنه حرام فأما إذا سلم من تلك الأمور، وحذا به حذو أساليب الغناء والتطريب، والتحزين فهو الذي اختلف فيه، فنقول: إن ذلك لا يجوز لوجهين:

أحدهما: أنَّ كيفية قراءة القرآن نقلت إلينا نقلاً متواتراً، وليس فيها شيء مما يشبه التلحين، ولا أساليب إنشاد الأشعار، فينبغي ألا يجوز غيرها، وإنما قلنا ذلك، لأنا قرأنا القرآن على مشايخنا، وهم العدد الكثير، والجم الغفير، ومشايخنا على مشايخهم، وهكذا إلى العصر الكريم، وتلقينا عنهم كيفية قراءاته بالمشافهة، فلو كان التلحين فيه مشروعاً لتعلَّموه من مشايخهم، ولنقلوه عنهم، كما نقلوا عنهم المد والقصر وما بين اللفظين والإمالة والفتح

والإدغام والإظهار، وكيفية إخراج الحروف على مخارجها، فإنه لما نقله الخلف عن السلف وعلموا عليه اتصل ذلك لنا وتلقَّاه عنهم، وهذا جاء مع توفر الدواعي على النقل وكثرة المتعمِّقين من القراء الغالين في كيفية قراءته، ومع ذلك فلم ينقل عن أحد من القراء المشاهير ولا عن الرواة عنهم شيء من ذلك، فدلَّ ذلك على أنَّ تلحين القرآن ما كان معروفاً عندهم، ولا معمولاً به فيما بينهم، فوجب ألا يعمل به، ولا يعرَّج عليه، فإنه أمر محدث، و«كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1]، كما قاله ﷺ)[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (فلا يسوغ أن يقرأ القرآن بألحان الغناء، ولا أن يقرن به من الألحان ما يقرن بالغناء من الآلات وغيره)[3].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وفصل النزاع، أن يقال: التطريب والتغني على وجهين، أحدهما: ما اقتضته الطبيعة وسمحت به من غير تكلف ولا تمرين ولا تعليم، بل إذا خلي وطبعه، واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين فذلك جائز، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين كما قال أبو موسى الأشعري للنبي ﷺ: (لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْمَعُ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا)[4]، والحزين ومن هاجه الطرب والحبُّ والشوق، لا يملك من نفسه دفع التحزين والتطريب في القراءة، ولكن النفوس تقبله وتستحليه لموافقته الطبع، وعدم التكلُّف والتصنع فيه فهو مطبوع لا متطبَّع، وكلف لا متكلّف، فهذا هو الذي كان

---

[1] **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٢٣/ ٢٣٤)، وأبو داود في سننه (٤/ ٢٠٠) برقم: (٤٦٠٧)، وابن ماجه (١/ ١٨) برقم: (٤٦)، والنسائي (٣/ ١٨٨) برقم: (١٥٧٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٦٠٧).

[2] كشف القناع عن حكم الوجد والسماع (٥٩-٦٠).

[3] الاستقامة (١/ ٢٤٦).

[4] سبق تخريجه.

السلف يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوح المحمود، وهو الذي يتأثَّر به التالي والسامع، وعلى هذا الوجه تحمل أدلة أرباب هذا القول كلها.

الوجه الثاني: ما كان من ذلك صناعة من الصنائع، وليس في الطبع السماحة به، بل لا يحصل إلا بتكلُّف وتصنُّع وتمرُّن، كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة، والمركبة على إيقاعات مخصوصة، وأوزان مخترعة، لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وذموها ومنعوا القراءة بها وأنكروا على من قرأ بها، وأدلة أرباب هذا القول إنما تتناول هذا الوجه، وبهذا التفصيل يزول الاشتباه، ويتبين الصواب من غيره، وكل من له علم بأحوال السلف يعلم قطعا أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة، التي هي إيقاعات وحركات موزونة معدودة محدودة، وأنهم أتقى لله من أن يقرءوا بها ويسوغوها ويعلم قطعا أنهم كانوا يقرءون بالتحزين والتطريب ويحسنون أصواتهم بالقرآن، ويقرءونه بشجى تارة، وبطرب تارة، وبشوق تارة، وهذا أمر مركوز في الطباع تقاضيه ولم ينه عنه الشارع مع شدة تقاضي الطباع له، بل أرشد إليه وندب إليه وأخبر عن استماع الله لمن قرأ به، وقال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ»[(١)]، وفيه وجهان: أحدهما: أنه إخبار بالواقع الذي كلنا نفعله، والثاني: أنه نفي لهدي من لم يفعله عن هديه وطريقته ﷺ)[(٢)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٥هـ): (قراءة القرآن بالألحان، بأصوات الغناء وأوزانه وإيقاعاته؛ عَلَى طريقة أصحاب الموسيقى، فرخّص فيه بعض المتقدمين إذا قصد الاستعانة عَلَى إيصال معاني القرآن إِلَى القلوب؛ للتحزين والتشويق، والتخويف والترقيق. وأنكر ذلك أكثر العُلَمَاء. ومنهم من حكاه إجماعًا ولم يثبت فيه نزاعًا، منهم أبو عُبيد وغيره من الأئمة.

وفي الحقيقة هذه الألحان المبتدعة المطربة، تهيج الطباع. وتُلهي عن تدبُّر ما يحصل له من الاستماع، حتى يصير الالتذاذ بمجرد سماع النغمات الموزونة والأصوات المطربة، وذلك

---

(١) سبق تخريجه في المجلد الأول ص(١٦٦).

(٢) زاد المعاد (١/ ٤٧٥).

يمنع المقصود من تدبُّر معاني القرآن، وإنما وردت السنة بتحسين الصوت بالقرآن، لا بقراءة الألحان، وبينهما بون بعيد)[1].

وقد ورد عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه سمع رجلاً يقرأ القرآن بهذه الألحان التي أحدث الناس، فأنكر ذلك ونهى عنه[2].

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ (٧٧٤هـ) معلِّقاً: (هذه طرق حسنة في باب الترهيب، وهذا يدلُّ على أنه محذور كبير، وهو قراءة القرآن بالألحان التي يسلك بها مذاهب الغناء، وقد نصَّ الأئمة ﷺ، على النهي عنه، فأما إن خرج به إلى التمطيط الفاحش الذي يزيد بسببه حرفاً أو ينقص حرفاً، فقد اتفق العلماء على تحريمه، والله أعلم)[3].

وخلاصة القول في هذه المسألة بعد النظر في كلام أهل العلم، أنَّ الذي تطمئن له النفس، وتقرّ به العين، هو القول بعدم الجواز. لأمور منها:

أولاً: أن ذلك ليس من هدي النبي ﷺ، والسلف الصالح رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، والأمر هنا تعبّدي محض فلا بدّ من دليل على الإباحة وإلا فالأصل المنع، لأنَّ الأصل في العبادات المنع حتى يرد الدليل، وهنا لادليل، وهذا يعني عدم الجواز.

ثانياً: الأمر أقلّ مايقال فيه أنه شبهة، والمسلم العاقل ينأى بنفسه عن منزلق الشبهات، فمن حام حول الحمى أوشك أن يرتع فيه.

ثالثاً: قدر كتاب الله في نفوسنا، وجلالته وعظمته ومنزلته في ديننا، يدفعنا لصون كتاب الله عن ألحان أهل الفسق والمجون، إذ كيف يُعقل الجمع بين نقيضين.

---

(١) مجموع رسائل ابن رجب (٢/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه ابن كثير في فضائل القرآن (١٩٨).

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٦٥).

رابعاً: إن كان في قراءة القرآن على تلكم المقامات مصلحة، فتركها أولى لما يترتَّب عليها من مفاسد كثيرة، ودرء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح، والمفاسد المترتبة كثيرة منها: أنَّ القارئ ينبغي عليه أن يتعلم تلك المقامات الموسيقية وتلك الألحان، كي يستطيع بعد ذلك القراءة على نفس المقام، بل قد وصل الحدُّ ببعضهم أن يستمع الأغاني ويتطرّب بها ويلتذّ، بزعم أنه يتعلَّم المقامات ليقرأ القرآن بها، وهذا أمر مشاهد، وواقع محسوس، لامجال لإنكاره، ولا سبيل لإغفاله، وكفى به مفسدة للقول بالمنع، والله أعلم.

٧- أن يكون همُّ القارئ آخر السورة:

فيقبل على كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قراءة وتلاوة، ويسرع في التلاوة، لتكثير عدد الختمات، وليس له همٌّ إلا آخر السورة فقط، دون وقوف مع الفوائد والعوائد، والاتعاظ بالأوامر والزواجر.

وهذا المسلك غير حميد؛ لمخالفته المقصود الأسمى لنزول القرآن، ومخالفته أيضاً منهج النبي ﷺ والسلف الصالح في تعاملهم مع القرآن الكريم.

إنَّ العَجِل لاحظ له من فهمه وفقهه، وقد نهى الله تعالى نبيه ﷺ عن العجلة في أخذ القرآن وقراءته فقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٨].

وقد نبَّه على ذلك عبدالله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بقوله: (لَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقْلِ، وَلَا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ)[1].

---

(١) أخرجه أبو يوسف في الآثار (٤٦)، والمروزي في مختصر قيام الليل (١٣٢)، والآجري في أخلاق أهل القرآن (٣٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٢٠)، وفي شعب الإيمان (٣/ ٤٠٧)، وذكره البغوي في تفسيره (٨/ ٢٥١)، وابن كثير (٨/ ٢٥٠).

وقد يفعل ذلك البعض عملاً بالأحاديث التي صحَّت في فضل الإكثار من التلاوة، ولكنهم هجروا آيات وأحاديث صريحة في الحثِّ على التدبُّر، والتأثُّر بالمعاني والعظات.

ويعضد ذلك اقتصار كثير من الوعاظ على الروايات المنقولة عن السلف في كثرة القراءة، وعدد الختمات في وقت وجيز، والإعراض عن نقل نهيهم عن سرعة القراءة والعجلة في التلاوة، أو ما نقل عنهم في تعظيمهم شأن التدبُّر والحضِّ عليه، أو ما روي من تدبُّرهم، ووقوفهم عند المعاني، حيث كان بعضهم يقف مع الآيات ويكررها، وربما أمضى ليلة كاملة مع آية واحدة، كما سبق بيانه في أحوال السلف مع التدبُّر[1].

ففي الحثِّ على التدبُّر آيات، وأحاديث، وأحوال السلف، أكثر عدد من مثيلاتها الدالة على فضل القراءة، بل أقوى حجَّة وأعمق أثراً، لو تأملها الناس لما اقتصروا على التلاوة، ولما هجروا تدبر القرآن[2].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٧٦هـ): (ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع؛ فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر)[3].

فاستحباب كثرة التلاوة لا ينبغي أن يؤدي إلى ترك التدبُّر، ولذا جاء النهي عن قراءة القرآن في أقلِّ من ثلاث؛ من أجل التدبر والتأثر والانتفاع بالآيات.

فكثرة التلاوة المؤدية إلى هجر التدبُّر ليست بحالة محمودة، بل هي من تلبيس إبليس على الناس، وفي ذلك يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٩٧هـ): (وقد لبِّس على قوم بكثرة التلاوة

---

[1] سبق تفصيلاً في المبحث الثاني من الفصل الثاني في الباب الأول.

[2] انظر: هجر القرآن العظيم- د/ محمود الدوسري (٥٤٥).

[3] الأذكار (١٠٧).

فهم يهذُّون هذًّا، من غير ترتيل ولا تثبت، وهذه حالة ليست بمحمودة)[1].

وقال أيضاً: (وقد رأيت من يجمع الناس، ويقيم شخصاً، ويقرأ في النهار الطويل ثلاث ختمات؛ فإن قصر عِيب، وإن أتمَّ مُدح، وتجتمع العوام لذلك ويحسنونه، ويريهم إبليس أنَّ في كثرة التلاوة ثواباً، وهذا من تلبيسه؛ لأنَّ القراءة ينبغي أن تكون لله تعالى لا للتحسين بها، وينبغي أن تكون على تمهُّل، وقال تعالى: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[الإسراء:١٠٦]، وقال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤])[2].

٨- التلهِّي والانشغال عن القرآن وتدبُّره؛ بتقنيات وعلوم وأمور أخرى:

من نعم الله على عباده في الأزمنة المتأخرة؛ ما أفاء الله به عليهم من تقدُّم علمي، وتقني كبير، جعل سكان العالم وكأنهم يعيشون في قرية واحدة، وتمكن البعض من استخدام هذه التقنية ومواقع الانترنت في خدمة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، والدعوة إلى الله بمختلف الطرق وشتى الأساليب.

وكثير من الناس لا يحسنون التعامل معها، حتى ربما أشغلت أحدهم عن عباداته وصلاته، وألهته عن قراءة القرآن وتدبُّره، وصار همُّه متابعة هذه التقنيات من حين أن يصبح وحتى يمسي، فأهدرت أموال وساعات، وضاعت أعمار وطاقات، حتى تحولت هذه النعم عند هؤلاء إلى صوارف عن عبادات ومعاملات كثيرة؛ أبرزها: تلاوة القرآن وتدبره والعيش مع كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

وعلاج ذلك يستلزم تنظيماً في الأوقات، وترتيباً للأولويات، بتوازن تام، يعين المرء على المحافظة على الأسس التي تربطه بالله عَزَّوَجَلَّ، وعدم التفريط بشيء منها، مع الإفادة من هذه التقنيات في خدمة القرآن وتنويع أساليب العرض وتحديثها، بما يحمل طابع التشويق والجِدة والإثارة.

---

[1] تلبيس إبليس (١٢٨).

[2] المصدر نفسه (١٠٢).

قال علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: (إنَّ الفقيه حق الفقيه؛ من لم يقنِّط الناس من رحمة الله، ولم يرخِّص لهم في معاصي الله، ولم يؤمِّنهم من عذاب الله، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، إنه لا خير في عبادة لا علْم فيها، ولا علْم لا فهم فيه، ولا قراءة لا تدبُّر فيها)[1].

فقوله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره)، يدخل فيه كلَّ المشغلات التي أشغلت عن القرآن، سواء كانت تقنية أو ورقية، وسواء كانت مجالس وأحاديث لا طائل من ورائها، فكلُّ ذلك سبب لترك القرآن، وهجر تدبُّره.

(ولا قراءة لا تدبُّر فيها) يعني أنَّ الخير المرتب على التدبر لا يأتي إلا معه، وأما قراءة الحروف فتتمُّ مع غير التدبر.

إنَّ مما يحفز الهمم في عدم الانشغال بعلوم أو أمور تلهي وتبعد عن تدبُّر القرآن الكريم: قول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ (٦٢٧هـ) في آخر حياته، حين قال: (وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن)[2].

فعلى رغم أنَّ الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ، ورَّث ثروة علمية هائلة، وأمضى عمره فيها، إلا أنه تندَّم آخر حياته على إشغال أكثر وقته بغير القرآن، وما ذاك إلا لعظيم الأثر واللذة التي وجدها مع القرآن وتدبُّره.

٩- فضول المباحات (الطعام والشراب والكلام والخلطة والنوم والنظر):

التقليل من فضول الطعام، والنظر، والسماع، والخلطة مع الناس، وغير ذلك من أعظم الأمور المعينة على التدبُّر، لما يترتَّب عليها من صفاء القلب والذِّهن.

---

(١) أخرجه عنه الدارمي في السنن (١/ ٣٣٨) برقم: (٣٠٥)، وابن الضريس في فضائل القرآن (٤٩).

(٢) العقود الدرية- لابن عبد الهادي (٤٤).

(٣) العقود الدرية- لابن عبد الهادي (٤٤).

فإنَّ فضول هذه الأشياء تجعل الفِكْر راكدًا خاملًا، لا يكاد يَتَفَطَّن للأشياء، إلَّا بصعوبة بالغة، ومشقَّة شديدة، فيقتصر المسلم في طعامه وشرابه على مايعينه على أداء عبادته وعمله، ولا يسرف في طعامه وشرابه، لقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

ولقول النبي ﷺ: «**كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالبَسُوا وَتَصَدَّقُوا، فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلاَ مَخِيلَةٍ**»[١].

ولقد حرص السلف الصالح على ذلك، وأخبارهم مشهورة مستفيضة فيه، ومنها:

قال مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٣هـ): (خصال ثلاث يحبُّها الله عَزَّوَجَلَّ، وثلاث يبغضها الله عَزَّوَجَلَّ، فأما اللاتي يحبُّها: فقلَّة الأكل، وقلَّة النَّوم، وقلَّة الكلام، وأمَّا اللاتي يبغض: فكثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرة النَّوم، فأمَّا النَّوم، فإنَّ في مداومته طول الغفلة، وقلَّة العقل، ونقصان الفِطْنَة، وسهوة القلب)[٢].

وإنَّ قلَّة الطعام سبب في فطنة صاحبها وحسن فهمه، وفي ذلك يقول محمد بن واسع رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٣هـ): (من قلّ طُعمه فَهِم وأفهَم، وصفا ورقّ، وإن كثرة الطعام لثقل صاحبه عن كثير مما يريد)[٣].

"والبِطْنَة تُذْهِب الفِطْنَة، وتجلب أمراضًا عَسِرة، ومقام العدل أن لا يأكل حتى تُصدَّ الشَّهوة، وأن يرفع يده، وهو يشتهي الطعام"[٤].

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٦٢هـ): (من ضبط بطنه ضبط دينه، ومن ملك جوعه

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب اللباس، باب قول الله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾[الأعراف:٣٢].

[٢] ذكره عنه أبو طالب المكي في قوت القلوب (١/ ١٧٥).

[٣] أخرجه عنه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٥١).

[٤] غذاء الألباب للسفاريني (٢/ ١١٦).

ملك الأخلاق الصالحة)[1].

وروي عن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٤هـ) أنه قال: (ما شبعت منذ ستَّ عشرة سنة، إلا شبعة اطَّرحتها، يعني فطرحتها؛ لأنَّ الشِّبَع يثقل البدن، ويقسِّي القلب، ويزيل الفِطْنَة، ويجلب النَّوم، ويُضعف صاحبه عن العبادة)[2].

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١٥هـ): (إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها، فإنَّ الأكل يغيِّر العقل)[3].

"فالشِّبَع يثقل البدن ويقسِّي القلب، ويزيل الفِطْنَة، ويجلب النَّوم، ويُضعف صاحبه عن العبادة"[4]، و"الجوع إِذَا ساعدته القناعة، فَهُوَ من مزرعة الفِكْر، وينبوع الحِكْمة، وحياة الفِطْنَة، ومصباح القلب"[5].

ومن فضول الخلْطة: مجالسة أهل الدنيا، والخوض معهم فيها، فإنَّ مخالَطتهم، والطّمَع بما في أيديهم، وأخذ شيء منهم؛ فإنَّهم إنْ أعطوه أخذوا من دينه أكثر، لذلك قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٩٨هـ): (قد كنتُ أوتيتُ فهْمًا في القرآن، فلمّا أخذتُ من مالِ أبي جعفرٍ[6] حُرمتُ ذلك)[7].

---

(١) ذكره عنه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٧٣).

(٢) آداب الشافعي ومناقبه للرازي (٧٨).

(٣) أخرجه عنه ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع (٧٤).

(٤) إحياء علوم الدين (١/ ٢٤).

(٥) الرسالة القشيرية (١/ ١٢٧).

(٦) **أبو جعفر المنصور**= الخليفة العباسي، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، كان من أفراد الدهر حزماً ودهاء وجبروتاً، وكان شجاعاً مهيباً، فيه عدل وله حظ من صلاة وعلم وفقه؛ توفي محرماً على باب مكة في سادس ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة. انظر: تاريخ دمشق (٣٢/ ٣٤٤)، فوات الوفيات (٢/ ٢١٦).

(٧) ذكره عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية (١/ ٢٢١).

وكذلك: مجالس اللغو فإنها تفسد على المرء دينه، فالابتعاد عنها أدعى لتدبر القرآن، وقد أدرك المشركون خطورة القرآن وأثره على الناس، قالوا كما أخبر عنهم العليم الخبير: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

فكان مشركوا قريش يلغون بالمكاء والصفير، والتخليط في المنطق على رسول الله إذا قرأ القرآن، إضافة إلى جحوده وإنكاره، وهذا حال أولئك الجهلة، ومن سلك مسلكهم ممن جاء بعدهم[١].

والمقصود: البعد عن مجالس اللهو واللغو، لما فيها من إضاعة للأعمار، واجتماع على غير طاعة لله، وحجْب للقلب عن تدبُّر معاني القرآن وفهمها.

ومن الصوارف المؤثرة: التقليد الأعمى، والجمود، والتسليم المطلق للبشر، والجري وراء آرائهم والاهتمام بها، والإنصراف بذلك عن القرآن الكريم.

١٠ - **الجهل والتقصير في تعلُّم العلوم الموصلة للتدبُّر**: والتي أبرزها:

أ- اللغة العربية: فهي أفصح اللغات وأبينها، وأوسعها، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ لذا أنزل القرآن بها، فإذا كان القارئ لا يعرف شيئاً من لغة العرب، ولا يدرك أساليب الكلام، فيصعب عليه تدبُّر خطاب القرآن، فإن جزءاً كبيراً من معاني ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه لا يؤدَّى إلا باللسان العربي، ولا يُفهم إلا به.

والمقصود الأعظم من تعلُّم اللغة العربية هو معرفة مقصود كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ، ومن فاته تحقيق هذا المقصد فقد أمضى عمره في غير طائل، بل ربما كان تعلُّمه حجَّة عليه، ومن جهل العربية؛ صعب عليه فهم ألفاظ القرآن، وفاتته الغاية العظمى من تلاوة كتاب الله؛ تدبُّره والانتفاع به[٢].

---

[١] انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ١٧٤).

[٢] وقد سبق بيان أهمية اللغة العربية وأثرها على التدبر الصحيح، وبيان كثير من المفاسد المترتبة على الجهل بها، في المبحث الثاني، من الفصل الأول في هذا الباب صـ(٦٥٢) بمزيد تفصيل.

وإنَّه لما عظُم الجهل باللغة العربية؛ شاعت العامية بين أفراد المجتمعات، وغلبت في التخاطب بين الناس، فأسهم ذلك في تولّد صعوبات في فهم القرآن مقارنة بما كان عليه الحال زمن الرّعيل الأوّل، وأدى إلى عدم فهم معاني القرآن وعدم التأثّر به أو الانفعال بآياته، فتعذَّر على الكثير من المسلمين فهم القرآن، أو حسن قراءة ألفاظه، ويعظم الخطْب إذا وجد من المعلِّمين في دور العلم، والأساتذة في الجامعات، من يتخاطبون مع طلابهم بالعامية، مما أعظمَ غربة هذا الجيل بالفصحى وصعوبة التحدُّث بها، مما نتج عنه غرابةَ كثيرٍ من ألفاظ القرآن، فصعبَ الوقوف على معانيه وتدبُّره بعد ذلك.

إنَّ من جهل أصول اللغة العربية وقواعدها، ولم يميِّز الفاعل من المفعول مثلاً، ونحو ذلك؛ مما يتوقَّف عليه فهم سياق الآيات- من جهل ذلك كله- لن يفهم آياته التي تحتاج إلى معرفة لغوية، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[فاطر:٢٨].

إنَّ علاج تفشِّي العامية، وغربة اللغة العربية، محاولة الالتزام بالفصحى ولو لوقت محدد، سواء في الأسرة، أو داخل قاعات الدرس، حتى تتعوَّد الألسن على لغة القرآن، وسهولة التخاطب بها، مما ييسر عملية التدبُّر والوقوف على أسرار القرآن ومعانيه.

ب- **علوم القرآن**: ومن أهمّها العلم بأسباب النّزول وأحواله؛ إذ نظْم القرآن فضلًا عن معرفة مقاصد كلام العرب إنّما مداره على معرفة مقتضيات الأسباب، ومعرفةُ ذلك من المهمّات في فهم الكتاب، ومعنى معرفة السّبب هو معنى معرفة مقتضى الحال، كما أنَّ الجهل بأسباب التّنزيل مُوقِع في الشُّبَه والإشكالات، ومُورد للنّصوص الظّاهرة مَورد الإجمال، حتّى يقع الاختلاف، وذلك مظنّة وقوع النّزاع[1].

---

(١) انظر: الموافقات للشاطبي (٤/ ١٤٦).

وقد فهِم قدامة بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣]: إباحة شرب الخمر، حتَّى بيَّن له ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سبب نزولها، فقال: (إنَّ هؤلاء الآيات أنزلن عذراً للماضين، وحجَّة على الباقين، فعذَر الماضين بأنَّهم لقوا الله قبل أن تحرَّم عليهم الخمر، وحجَّة على الباقين؛ لأن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠])[١].

وروى البراءِ بن عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (ماتَ رجالٌ منْ أصْحابِ النّبيّ ﷺ قبْلَ أنْ تُحَرَّمَ الخمرُ، فلمَّا حُرِّمَت الخمْرُ قال رجالٌ: كيفَ بأصْحابنا وقدْ ماتوا يَشْربون الخمرَ؟ فنزلتْ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:٩٣])[٢].

فلولا بيان سبب النُّزول لربما ظلَّ النَّاس يبيحون تناولَ المسْكرات وشربَ الخمرِ أخذًا بفهْم ظاهر الآية؛ فالغفلةُ عن أسباب التّنزيلِ تؤدِّي إلى الخروج عن المقصود بالآيات[٣].

ج- **علم التفسير**: فمن هجر كتب التفسير ولم يطالعها ويدارسها، ولم يعرف المعنى الإجمالي للآيات، فلن يحصل له التدبر المطلوب للقرآن الكريم.

وقد تعجَّب الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (٣١٠هـ) من هؤلاء بقوله: (إني أعجب ممن قرأ القرآن، ولم يعلم تأويله، كيف يلتذُّ بقراءته)[٤].

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٥/ ١٣٧) برقم: (٥٢٦٩)، والبيهقي في السنن (٨/ ٥٦٦) برقم: (١٧٥٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٥/ ٢٥٤) برقم: (٣٠٥٠)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) انظر: البرهان للزركشي (١/ ٢٨)، الإتقان للسيوطي (١/ ١٠٨)، مباحث في علوم القرآن د.صبحي الصالح (١٣١).

(٤) تفسير الطبري (١/ ١٠).

وليس من شرط التدبُّر أن يكون تفصيلياً لكلِّ كلمة، بل قد يكفي فيه إدراك المعنى الإجمالي، وعقْل الكليات المرادة بالآية، وهذا من أعظم أسباب تدبُّر القرآن الكريم، فإنَّ القرآن كثيراً ما يذكر في القصص مواطن العبرة، ويترك للفؤاد والعقل مطلق التأمُّل والتدبُّر.

ومن ابتعد عن كتب التفسير لا يسلم -غالباً- من الخطأ في فهم الآيات، والاستدلال بها، أو الخطأ في تطبيقها والعمل بها.

عن أبي عمران التجيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [1] قال: (كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل عليهم فصاح الناس، وقالوا: سبحان الله! يلقي بيديه إلى التهلكة! فقام أبو أيوب الأنصاري، فقال: (يا أيها الناس إنكم لتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعزَّ الله الإسلام، وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله ﷺ: (إنَّ أموالنا قد ضاعت، وإنَّ الله قد أعزَّ الإسلام، وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها)، فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه ﷺ يردُّ علينا ما قلنا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتَرْكنا الغزو)، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم)[2].

---

[1] **أبو عمران التجيبي**= أسلم بن يزيد، أبوعِمْران التجيبي، المِصْرِي. روى عن: أبي أيوب خالد بْن زيد الأَنْصارِيّ، وعبد الله بْن عَمْرو بْن العاص، وصفية بنت حيي وأم سلمة. وثقه النسائي. ولم أقف على وفاته. انظر: تهذيب الكمال (٢/ ٥٢٨).

[2] أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٦٢) برقم: (٢٩٧٢)، والنسائي في السنن (١٠/ ٢٨) برقم: (١٠٩٦٢)، وابن حبان في صحيحه (١١/ ٩) برقم: (٤٧١١).

فإذا كان بعض التابعين تأوّل الآية على غير مراد الله تعالى، وهم من أفضل القرون، وأقرب إلى عصر التنزيل، فكيف بمن بعدهم؟!.

مما يؤكِّد ضرورة الرجوع لكتب التفسير المعتمدة والنظر فيها؛ ليحصل الفهم الصحيح لكلام الله تعالى، وويحصل تدبُّره، والانتفاع به[1].

١١- الخلل والتقصير في طرق التلقي والتعليم.

لقد أمرنا الله في كتابه باكتساب ملكات ومهارات، بالسير في الأرض، وإعمال الفكر بالتأمل والتدبُّر، للكشف عن السنن والقوانين التي أمر القرآن الكريم باكتسابها وتطويرها وتنميتها، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت:٢٠].

ومنذ أن دخلت المجتمعات المسلمة عصور التقليد والجمود، حدث الخلل في البحث العلمي، واقتصرت الخبرات التربوية على التلقين النظري، وانحصر التدريس في التلقين والتسميع والتحفيظ دون محاولة ممارسة التفاعل مع الخبرات الكونية والاجتماعية، الأمر الذي ترتَّب عليه خلو العقلية المعاصرة في الأعم الأغلب من المنهج العلمي في التفكير والإبداع.

وبهذا باتت العقليات المسلمة شبه خالية من التفاعل الإيجابي مع الواقع، أو محاولة تقديم حلول لمشاكل مجتمعاتها، فالثقافة والدراسات المعاصرة لا تبثَّ -غالباً- اكتساب ملكة البحث والدرس وكشف السنن والقوانين.

إنَّ معلِّم القرآن الكريم، ومدرِّس العلوم الشرعية؛ ينبغي أن ينمِّي ملكة التدبُّر عند طلابه، ويوقظ فيهم حسَّ النَّظر والتأمل، وليبدأ بنفسه أولاً، فينمي لديه ملكة التدبُّر والنظر في الآيات، وحسن فهمها وتدبُّرها، لأنَّ فاقد الشيء لا يعطيه[2].

---

[1] انظر: هجر القرآن العظيم- د/ محمود الدوسري (٥٤٣).

[2] انظر بحث: تدبر القرآن بين النظرية والتطبيق.د/ رقية العلواني (٣٢).

قال ابن الهائم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨١٥هـ)[١]: (فإنَّ من أعظم ما امتنَّ به الرحمن على الإنسان؛ تعليمه القرآن العظيم الشأن، وإنّ شكر النعمة يزيدها ويستوجب مزيدها، وإنَّ من حقِّ من أتحف بنعمة تعليم القرآن أن يعتني بتفهُّمه وتدبُّره حسب الإمكان، وأدنى مراتبه أن يعرف معاني الألفاظ الغريبة ليتأتى له تدبُّر آياته العجيبة، ليترقَّى بذلك عمَّن يحفظه كالرُّقى الشّبيهة بالمهمل، فإنه يقبح بالمحصِّل أن يسأل عن مدلول ما يحفظه فيجهل)[٢].

إنَّ الطريقة التقليدية في التعليم لا تصنع جيلاً متدبِّراً، بل لابدَّ من إثارة الحوار، والمناقشة، لتنمية ملكة التدبُّر، والتنقيب لاستخراج معاني القرآن وكنوزه.

وفي هذا يقول ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٠٨هـ): (وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللّسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلميّة، فهو الّذي يقرّب شأنها، ويحصّل مرامها، فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلميّة سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة التّصرّف في العلم والتّعليم، ثمّ بعد تحصيل من يرى منهم أنّه قد حصّل، تجد ملكته قاصرة في علمه؛ إن فاوض أو ناظر أو علّم، وما أتاهم القصور إلّا من قبل التّعليم وانقطاع سنده، وإلّا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدّة عنايتهم به، وظنّهم أنّه المقصود من الملكة العلميّة وليس كذلك)[٣].

---

[١] **ابن الهائم** = أَحْمد بن مُحَمَّد بن عماد بن عَليّ الْمصْرِيّ، شهَاب الدّين ابْن الهائم، مهر فِي الْفَرَائِض والحساب مَعَ حسن الْمُشَارِكَة فِي بَقِيَّة الْعُلُوم وله تصانيف، وصاحب محاسن كَثِيرَة وديانَة متينة، توفّي بالقدس سنة خمس عشرَة وَثَمَانِمِائَة. انظر: ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد (١/ ٣٩١)، طبقات الشافعية (٤/ ١٧).

[٢] التبيان في تفسير غريب القرآن (٤٣).

[٣] تاريخ ابن خلدون (٥٤٥).

وحريٌّ بمعلِّم القرآن وعلومه أيضاً: أن يكون ملمَّاً بأحوال طلابه، عارفاً بالفروق الفردية بينهم، فيعطي كلَّ واحد ما يناسبه، ويمرِّنه على التدبُّر بالطرق المناسبة له، حتى يعيش مع القرآن دهره، وليحتسب في ذلك أجره.

وبعد.. فإنَّ كلَّ من قرأ القرآن، ولم يتذوق حلاوته، ولم يجد في قلبه إقبالاً على الطاعة، وحبًا لها، ولم يفهم مراد الله حقَّ الفهم، فليعلم أنَّ على قلبه أقفالاً، وأنه قد حيل بينه وبين كنز عظيم، فليتفقَّد نفسه، وليراجع واقعه، وليتخلَّص من قيود الأقفال التي قال الله عنها: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، والله أعلم.



المبحث الثاني: خطورة الموانع الحائلة دون التدبُّر

ما سبق من الموانع أمور تحول بين المرء وقلبه وبين عبادة التدبُّر، وكلما ابتعد المسلم عن التدبُّر؛ قسى قلبه، وقلَّ علمه، وزاد جهله، وخرج من الدنيا ولم يتذوَّق طعم طاعة من أجلِّ الطاعات، وقربة من آكد القربات.

إنَّ جميع الآثار السلبية المترتبة على هجر التدبُّر في حياة الفرد والأمة، هي من مخاطر الاستسلام للموانع، والوقوع فيها.

وثمَّة أمور عظيمة، تعدُّ من مخاطر الحيلولة دون التدبُّر، وهي بمثابة المهلكات للفرد والأمة، إذا تحققت وحلَّت بها، ومن ذلك:

١-زوال العلم وارتفاعه:

من مخاطر الموانع التي تحول عن التدبُّر: زوال العلم وارتفاعه، فإنَّ القرآن الكريم هو كتاب العلم بالله، ومتى حيل بينه وبين الناس؛ حلَّ الجهل مكان العلم، مصداق ذلك حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهَّ ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ»، فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا القُرْآنَ؟! فَوَاللهَّ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ المَدِينَةِ هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟**»، قَالَ جُبَيْرٌ: (فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، قُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لَأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ؟ الخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلَا تَرَى فِيهِ رَجُلًا خَاشِعًا)[١].

---

(١) سبق تخريجه في المبحث السابق.

وزوال العلم يكون بعدم وجود من يقوم به، ويفهمه حقَّ فهمه، وهو ذهاب أوعيته، ويكون بعدم العمل به، فمن لم يعمل بما علم فلا فائدة في علمه، وقد أخبر النبي ﷺ بأنَّ العلم يرتفع من الناس مع أنَّ أصله موجود، لكن لما لم يستفد الناس منه، ويفهموه حقَّ فهمه؛ كان كأن لم يكن.

ومن زوال العلم المترتِّب على ذلك أيضاً: قلَّة العلماء العارفين بكتاب الله، فإذا هُجِر التدبُّر، وحيل بينه وبين الناس بأمور وعوائق، وانشغلوا بغيره من العلوم والمعارف؛ «اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

٢- الوقوع في الشرك بالله تعالى، والتعرُّض لدخول النار:

جاء في الحديث، أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَتُنْقُضَنَّ عُرَى الإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا**»[2].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية)[3].

"فذلك أنه إذا لم يعرف من الشرك ما عابه القرآن وما ذمَّه وقع فيه، وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية أو فوقه أو دونه أو شرٌّ منه، فَتُنْقَضُ بذلك عرى الإسلام، ويعود المعروف

---

[1] **جزء من حديث** أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٠٠) في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٦٧٣) في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

[2] **صحيح**. أخرجه أحمد في مسنده (٣٦/ ٤٨٥) برقم: (٢٢١٦٠)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٤١٥)، والطبراني في الكبير (٨/ ٩٨) برقم: (٧٤٨٦)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١٠٤) برقم: (٧٠٢٢)، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٧٥)، وفي صحيح الترغيب (٥٧٢).

[3] ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ٣١٠)، وابن القيم في الفوائد (١٠٩).

منكراً والمنكر معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفَّر الرجل بمَحْضِ الإيمان، وتَجْرِيد التوحيد، وَيُبَدَّعُ بمتابعة الرسول، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"[1].

فالتدرُّج في الذنوب والمعاصي، مع البعد عن كتاب الله وتدبُّره، ومعرفة حلاله وحرامه، ربما أوقع صاحبه في الشرك بنوعيه، فتزلَّ قدم بعد ثبوتها، نسأل الله العافية والسلامة من الشرك أكبره وأصغره.

وإنَّ الغفلة الشديدة عن القرآن، والذّهول عن تدبُّره، إذا أوقعت صاحبها في عظائم الأمور، وكبائر الذنوب، وربما أوقعته في الشرك بالله، فتخبَّط في هذه الحياة، كان مستحقاً في الآخرة لدخول النار، عياذاً بالله.

قال سبحانه مبيِّناً خطر الغفلة التي توصل أصحابها إلى النار: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقال عن أصحاب النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٨٩هـ): (قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ﴾ أي: نسمع سماع من يميز ويتفكر، ونعقل عقل من يتدبَّر وينظر: ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، والمعنى: أنا لم نسمع الحق ولم نعقله، أي: لم ننتفع بأسماعنا وعقولنا)[2].

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف:٢٦].

---

[1] الجواهر المضية، للشيخ محمد بن عبد الوهاب (٤٦).

[2] تفسير السمعاني (٦/ ١٠).

"أخبر أنه جعل لهم آلات الفهم، فلم يتدبَّروا بها، ولم يتفكّروا فيما يدلُّهم على التوحيد، قال المفسرون: والمراد بالأفئدة: القلوب وهذه الآلات لم ترُدَّ عنهم عذابَ الله"[1].

وأخبر سبحانه عن الظالم الذي يندم في ساعة لا ينفع فيها الندم: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

فالذِّكر هو القرآن، فقاده هجره وإضلال خليله، وإبعاده عنه؛ للعذاب الأليم.

٣- ابتلاء الله للعبد بالانصراف عن القرآن، والانشغال عنه بغيره.

إن من أعرض عن تدبُّر القرآن والعمل به، يبتليه الله تعالى بالانشغال والانصراف عنه إلى غيره؛ فإنَّ الله أخبر في كتابه أنَّ من جاءه العلم ثمَّ أعرض عنه وهجره، فإنه يورِّثه جهلاً، ويصرف قلبه عن فهم العلم، والتعلُّق به، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ [البقرة:١٠١- ١٠٢].

فهؤلاء اليهود لما جاءهم كتاب الله على لسان رسول الله الذي يعرفون وصفه ونعته كما يعرفون أبناءهم، فتركوه وأعرضوا عنه، ابتلاهم الله جلَّ وعلا باتباع أرذل الكتب وأكذبها وأضرِّها، وهو ما تتلوه الشيطان على ملك سليمان، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الروم:١٠]، فعاقبهم الله لما فعلوا

---

[1] زاد المسير (٤/ ١١١).

الأمور السيئة، وارتكبوا الأحوال الشنيعة بالتكذيب والاستهزاء، ولو أنهم أصلحوا واستجابوا لجعل الله في قلوبهم التصديق والاتباع.

ومن انصرف عن التدبُّر لأي سبب كان، وحيل بينه وبينه، وانشغل بغيره؛ فإنه يفقد الهدف الذي يعيش من أجله.

ولقد أوضح الشيطان هدفه جداً، من إضلال بني آدم عن الطريق المستقيم في قوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[النساء:١١٩]، وسعى في تحقيق ذلك بكل وسيلة: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

وكذلك الذين كفروا، والذين نافقوا لهم أهداف يسعون في تحقيقها، كما قال الله عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٣٦].

والمسلم متى فقد البوصلة التي تدلُّه على الهدف؛ فقد معها الهدف، والوجهة التي يقصدها.

٤- الخلاف والشقاق، واختلاف القلوب:

الذي يؤدِّي إلى الافتراق والاقتتال بين الناس، وقد ضرب الله لنا مثلاً بالنصارى الذين نسوا كتاب الله وعهده، فقال سبحانه عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾[المائدة:١٤].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٨هـ): (نسوا كتاب الله بين أظهرهم، وعهدَ الله الذي عهده إليهم، وأمرَ الله الذي أمرهم به)[١].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٣٥) برقم: (١١٥٩٦).

ولذلك؛ حين خلا عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ذات يوم فجعل يحدِّث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فقال: (كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد؛ وقبلتها واحدة؟)، فقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلّمنا فيم نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا)[1].

٥- التخلُّف والجهل العام في الأمة.

وذلك أنَّ القرآن الكريم هو أساس العلم، والنظام، وبناء الحياة السليمة، ومتى حالت الحوائل بين تدبُّره وفهمه، وبين أفراد الأمة؛ فشا الجهل، وعمَّت الأمية، وانتشرت الخرافات، فانحدرت الأمة فكرياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً.

إنَّ ارتقاء الجيل الأول، وسيادته للدنيا كان بحسن فهم القرآن وتدبُّره، وتطبيقه واقعاً عملياً في الحياة، فلما حالت الحوائل النفسية والفكرية بين القرآن وبين أفراد الأمة؛ رجعوا إلى الجاهلية الأولى، والتخلُّف القديم.

ومن التخلُّف والجهل: أن تحلَّ السيئة محلَّ الحسنة، والجهل مكان العلم، والظلمة بدل النور، وما أخطر هذه الأمور إن هي وقعت واستشرت في جسد الأمة.

لقد وصف الله سبحانه في كتابه هذا الطريق بأنه النور الذي يخرج به الناس من ظلمات الحياة، إلى نور اليقين، والسعادة الأدبية في الدارين، تدبَّر قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[البقرة:٢٥٧]، وقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[الأنعام:١٢٢].

---

[1] أخرجه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (١٠٣)، وسعيد بن منصور في التفسير (١/ ١٧٦) برقم: (٤٢)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ٣٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٥٤٢) برقم: (٢٠٨٦).

فكيف يمكن لمن رُزق النور أن يسير في طريق الظلمات بعد ذلك.

والأمة بمجموعها إذا لم تحقق التدبُّر الصحيح للقرآن، والتمسُّك بهديه، فإنها توشك أن تعيش فراغاً روحياً كبيراً، يجعل منها تابعاً ذليلاً للأمم الأخرى، وإذ بها تشرِّق وتغرِّب بحثاً عن الهوية والمنهج الذي يخرجها من أزماتها، مما سيؤدي بها إلى انبهار بأمم أخرى، وثقافات وافدة، ولن تجد فيها بغيتها، فتظلُّ من تيه إلى تيه، ومن ضياع إلى أضيع: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠].

٦- تسلُّط الأعداء على الأمة.

إنَّ من أشدِّ المخاطر للحيلولة دون تدبُّر القرآن: تسلُّط أعداء الأمة عليها، وتمكُّنهم من النيل من المسلمين بكلِّ وسيلة، دون حركة أو مقاومة أو قوة، لأنَّ قوتهم وعزَّتهم في هذا الكتاب العظيم، الذي متى شغلوا بغيره عنه، أذلَّهم الله.

فلقد بيَّن القرآن الكريم أسباب القوَّة والضعف، ووضَّح وفصَّل كيد الأعداء وخطط المجرمين ومكائدهم ضدَّ الإسلام وأهله(١)، ومتى ما انفصلت الأمة عن كتابها الذي هو سرُّ نهضتها وقوتها وحضارتها، تمكَّن الأعداء من رقاب أبنائها وأموالهم وأعراضهم.

نسأل الله السلامة والعافية من عذابه وعقابه، وأن يجعلنا من أهل القرآن، المرتقين به أعالي الجنان، آمين.



(١) سبق بيان تفصيل الكلام عن مخططاتهم وكيدهم في إبعاد المسلمين عن القرآن وتدبُّره في القديم والحديث. في الآثار السلبية المترتبة على هجر التدبُّر.




الباب الثالث

ضوابط التدبر الصحيح للقرآن الكريم وطريقته

وفيه مدخل وفصلان:

مدخل:

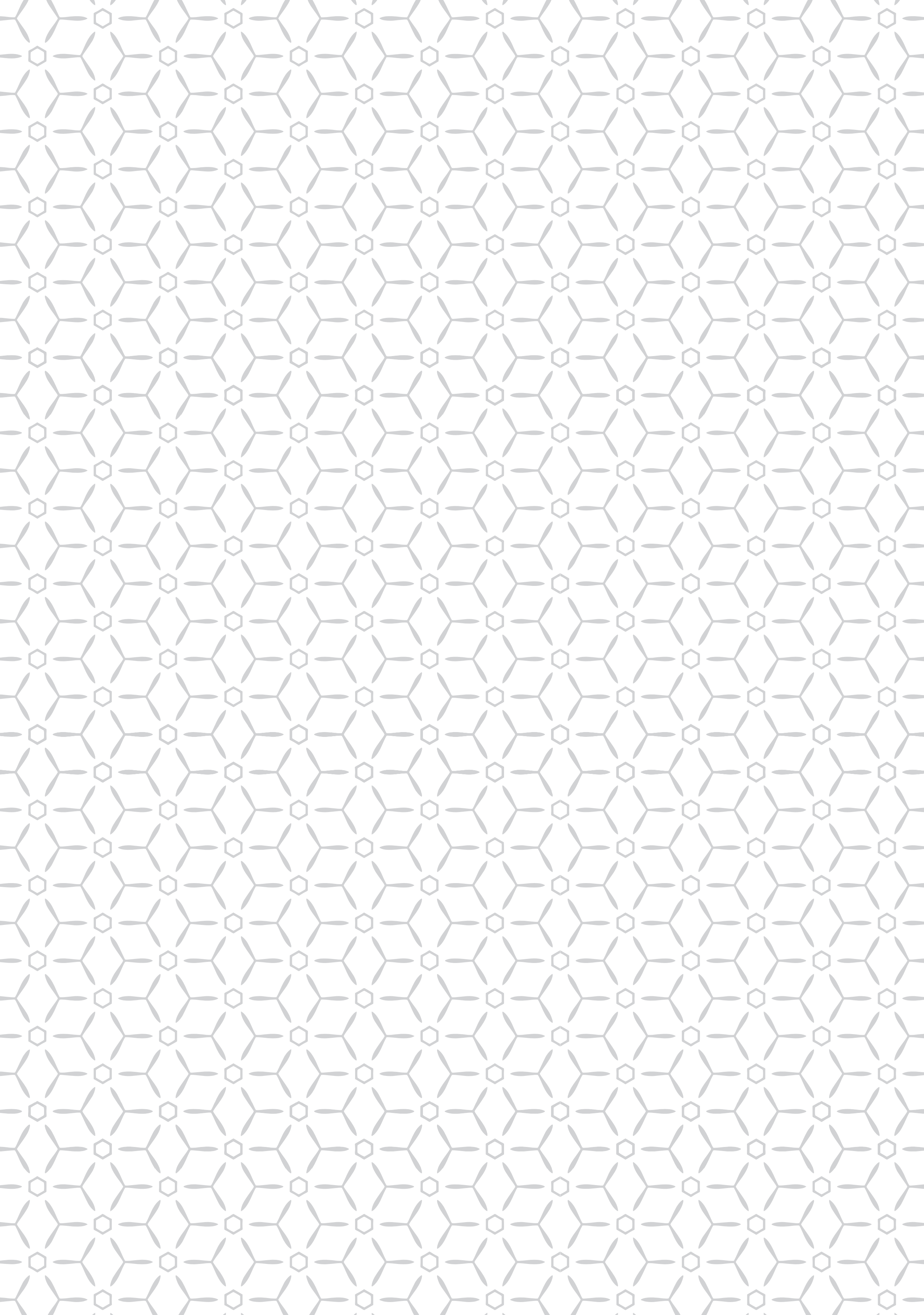
في دراسة الضوابط والقواعد المعينة على التدبُّر

الفصل الأول:

ضوابط التدبر الصحيح لكتاب الله الكريم

الفصل الثاني:

أدوات التدبُّر الصحيح لكتاب الله وطريقته



مدخل: في دراسة الضوابط والقواعد المعينة على التدبُّر

مما سبقت دراسته وبحثه؛ يتبيَّن أنَّ التدبُّر ليس كالتفسير ولا الاستنباط، وبالتالي فليس له ذات الضوابط والقواعد التي وضعها العلماء للتفسير والاستنباط.

ولما كان موضوع ضوابط التدبُّر موضوعاً جديداً في بحثه وطرحه بالطريقة التي انتهجتها في هذا البحث؛ كانت الحاجة قائمة إلى المزيد من العمل فيه بتفصيل وتدقيق، ليفتح أمام الدارسين آفاقاً واسعة من البحث، ومزيداً من التعمُّق في مشروع التدبُّر.

وبالنظر في الكتابات التي كُتبت حول القواعد والضوابط للتدبُّر -على قلَّتها-؛ نجد أكثرها في بيان أسباب التدبُّر ووسائله وطريقته، أو سننه وآدابه، وتقدَّمُ على أنها قاعدة من قواعد التدبُّر، ويرجع سبب ذلك -في نظري- لأمرين:

الأول: أنَّ الكتابة في هذا الموضوع لا تزال في أطوارها الأولى، ولم تصنَّف فيها المصنَّفات التي عنيت بتحديد ذلك وتبيينه.

الثاني: أنَّ الكتابة في ضوابط التدبُّر فرعٌ عن تحرير معنى التدبُّر، فلمَّا اختلفت نظرات المعاصرين لتحرير المعنى؛ اختلفت عباراتهم وتقسيماتهم تبعاً لذلك.

ومن المهمِّ معرفته: أنَّ الضوابط محلَّ البحث في هذا الباب؛ هي معينة للمتدبِّر على تدبُّره، ومعرفتها واستحضارها يعينُ المتدبِّر -أيا كان نوعه ودرجته- على فهم القرآن فهماً صحيحاً، وتزيل عنه الكثير من اللبس أو الإشكالات، وتأخذ بيده، وتفتح أمامه آفاقاً واسعة للتدبُّر، والتلذذ به، وليست كقواعد الترجيح بين المفسرين، أو قواعد التفسير، إذ تلك ضوابط محكمة في غالبها، ولها طابَع العلمية المتخصصة.

والضوابط التي سأتناولها بالبحث، لا أزعم أنها جامعة لكلِّ ما يفتح الطريق أمام المتدبِّر، وإنما هي مفتاح تتضمَّن أهمَّ ما يؤثِّر في فهم المتدبِّر، ويعينه على الفهم الصحيح، ويمنعه بإذن الله من الوقوع في الخلل والزلل في تدبُّره، إذا أسسه على تصوُّر صحيح، وضوابط منهجية صحيحة.

ولا أدَّعي الإحاطة بجميع الضوابط التي يمكن أن تعين المتدبِّر على تدبُّره؛ ولكنها أقرب ما تكون لنماذج وأمثلة، تحرَّيت فيها الدقة ما استطعت، وجمع أقصى ما أمكنني جمعه ودراسته من الضوابط المعينة على التدبُّر والفهم لهذا الكتاب العظيم.

وقبل استعراض الضوابط وبحثها؛ يجدر التأصيل المختصر لمعنى الضوابط والقواعد، فأقول مستعيناً بالله:

أولاً: الضوابط: جمع ضابط، و"الضَّادُ وَالْبَاءُ وَالطَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ". ضَبَطَهُ يَضْبُطه ضَبْطاً وضَبَاطَةً فَهُوَ ضَابِطٌ، أَي حازِمٌ. والضَّبْط: لُزُوم شَيْء لَا يُفَارِقهُ، يقال ذلك فِي كل شَيْء، يقال: رجل ضَابِط: شَدِيد الْبَطْش، وَالْقُوَّة والجسم، وَيُقَال للْمَرْأَة: ضبطاء، وَكَذَلِكَ كل عَامل يعْمل بيدَيْهِ جَمِيعًا، وَيُقَال: فلَان لَا يضْبط عمله، إِذا عجز عَن ولَايَة مَا وليه، وَرجل ضَابِط: قوي على عمله[1].

فالضَّبْط يدور على الإتقان والحزم، وجمع أفراد ما يضبط، وهو عند علماء الحديث: "من كان نَقْله للمرويِّ مطابقاً لما تلقَّاه عن شيخه (لفظاً أو معنى)"[2].

وأما في الاصطلاح: فهو حكْم كلِّي، ينطبِق على جزئياته[3].

ثانياً: القواعد: جمْع قاعدة، وأصلها اللغوي يعود إلى مادة (قَعَدَ) والْقَافُ وَالْعَيْنُ وَالدَّالُ أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُنْقَاسٌ لَا يُخْلَفُ، وَهُوَ يُضَاهِي الْجُلُوسَ وَإِنْ كَانَ يُتَكَلَّمُ فِي مَوَاضِعَ لَا يُتَكَلَّمُ فِيهَا بِالْجُلُوسِ. يُقَالُ: قَعَدَ الرَّجُلُ يَقْعُدُ قُعُودًا.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهري (١١/ ٣٣٩)، مقاييس اللغة لابن فارس (٣/ ٣٨٦)، النهاية لابن الأثير (٣/ ٧٢)، لسان العرب (٧/ ٣٤٠) مادة: ضبط، تاج العروس (١٩/ ٤٣٩) ضبط.

(٢) خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل- د.حاتم العوني (١٥).

(٣) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/ ٥١٠)، المعجم الوسيط (١/ ٥٣٣)، معجم لغة الفقهاء (٢٨١).

والقاعدُ وَالْقَاعِدَة أصل الأسِّ، وَقَوَاعِدُ الْبَيْتِ: أَسَاسُهُ، ومنه قَول الله جلّ وعزّ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾ [البقرة:١٢٧]، الْقَوَاعِد: الأساس، واحدتها قَاعِدَة، وقال سبحانه: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل:٢٦]، الْقَوَاعِد: أساطين الْبناء الَّتِي تَعَمَّده، وقواعد الهودج: خشبات أَربع، مُعْتَرِضَة فِي أَسْفَله[1].

وعلى هذا فقاعدة الباب: الأصل الذي تنبني عليه مسائلُه، وفروعُه.

أما تعريف القاعدة اصطلاحاً: فهي: "قَضِيَّة كُلية منطبقة على جزئياتها"[2].

ومعظَم العلماء المتقدِّمين، وبعض المتأخِّرين؛ استعملوا القاعدة والضابط بمعنى واحد، مثل الفيومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٠هـ) حين قال: (والقاعدة في الاصطلاح بمعنى الضابط؛ وهي: الأمر الكليِّ المنطبقِ على جميع جزئياته)[3].

وقال التهانوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٥٨هـ): (القاعدة: مرادف الأصل والقانون والمسألة والضابطة والمقصد، وعرّف بأنّها أمر كلِّي، منطبق على جميع جزئياته، عند تعرُّف أحكامها منه)[4].

غير أنَّ أكثر المتأخرين يفرِّقون بين القواعد والضوابط، ومن هؤلاء:

قال السُّبكِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧١هـ): (والغَالِب فيما اختصَّ ببابٍ، وقُصِدَ به نظم صُوَرٍ متشابهة، أن تسمَّى ضابطاً)[5].

وقال ابن نُجيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٩٧٠هـ): (والفرْق بين الضابط والقاعدة: أنَّ القاعدة تجمَع

---

[1] انظر: مادة: (قعد)، العين للخليل بن أحمد (١/ ١٤٢)، تهذيب اللغة (١/ ١٣٦)، مقاييس اللغة (٥/ ١٠٨)، المحكم والمحيط الأعظم (١/ ١٦٩).

[2] انظر: التعريفات للجرجاني (١٧١)، تيسير التحرير (١/ ١٤).

[3] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (٢/ ٥١٠)، وانظر: المعجم الوسيط (١/ ٥٣٣).

[4] كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ١٢٩٥).

[5] الأشباه والنظائر للسبكي (١/ ١١).

فروعاً من أبواب شتى، والضابط يجمَعها من باب واحد، هذا هو الأصل)[1].

ومن خِلال المُقارنة بين تعريف القاعدة والضابط؛ تظهر أنَّ العلاقة بينهما هي: أنهما يشتركان في أنَّ كُلًّا منهما ينطبق على عدد من الأبواب، ويختلفان في أنَّ القاعدة تشمل فروعًا من أكثر من باب، بينما الضابط يشمل فروعًا من باب واحد فقط.

والذي سأسير عليه في هذا البحث، هو عدم التفريق بين القاعدة والضابط، لأنَّ المقصود في ضوابط التدبُّر بيان أمور وقواعد تعين المتدبِّر على فهم كلام الله وتدبُّره، وليس العمل فيه كالعمل مثلاً في أبواب الفقه.

ويظهر لي مما سبق: **أنَّ ضوابط تدبر القرآن الكريم: هي المسائل الكلِّية الأغلبية التي تقرِّب المتدبِّر بمعرفتها، وتوصله إلى تدبُّر القرآن الكريم وإتقانه وفهمه، بعد تحقيق الشروط والوسائل، وترك الموانع.**

وتجدر الإشارة إلى أنه ربما اتفقت بعض ضوابط التدبُّر -التي سأتناولها بالبحث هنا- وقد تتداخل مع شيء مما كتب في قواعد التفسير أو قواعد الترجيح، ولا غرو في ذلك، فإنَّ ما يجمع بينها القرآن الكريم، وهو محلُّ البحث الذي تخدمه كلُّ تلك العلوم، وهو حمَّال وجوه، وفيه من العظمة والبرهان ما يجعله متجدداً مع علومه وفنونه.

وقد راعيت في انتقاء هذه الضوابط أن تكون يسيرة الفهْم لجميع المتدبِّرين عامَّتهم وعلمائهم، فابتعدْت قدر الجهد عن العبارات العلمية المعقَّدة، أو الأصولية التي تحتاج إلى شرح وبيان لوازم ونحو ذلك، ومثَّلت لما أمكن التمثيل له من الضوابط، سواء من تدبُّر العلماء الذي وقفت عليه، أو مما فتح الله به من تدبُّر وتأمُّل في كتاب الله تعالى.

ومن الله وحده أستمدُّ العون والتوفيق والسداد..

---

[1] الأشباه والنظائر لابن نجيم (١٣٧)، وانظر: الكليات للكفوي (٧٢٨)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (٢/ ١١١٠).

الفصل الأول

ضوابط التدبر الصحيح لكتاب الله الكريم

وفيه خمسة مباحث:

* المبحث الأول: الضوابط المتعلِّقة بنزول القرآن المعينة على التدبُّر.
* المبحث الثاني: ضوابط علوم القرآن المعينة على التدبُّر.
* المبحث الثالث : الضوابط اللغوية المعينة على التدبُّر.
* المبحث الرابع : ضوابط الاستنباط المعينة على التدبُّر.
* المبحث الخامس: ضوابط عامة تعين على التدبُّر.

المبحث الأول: الضوابط المتعلِّقة بنزول القرآن المعينة على التدبُّر

المقصود بنزول القرآن ما يتعلَّق بالسبب والزمان والمكان الذي نزل فيه القرآن، فيدخل فيه ضوابط التدبُّر التي تستفاد من أسباب النزول، والمكي والمدني، ومعرفة أول ما نزل وآخر ما نزل، وما تكرَّر نزوله، ونحو ذلك.

وقد جعلت كل ضابط في مطلب مستقل، وتفصيلها ما يلي:

- المطلب الأول: أسباب النزول موقوفة على النَّقل الصحيح والنصِّ الصريح، وإذا صحَّ سبب النزول؛ وجب الاعتماد عليه في تدبُّر الآية:

معنى سبب النزول: هو السؤال أو الحدث الذي نزلت الآية أو الآيات متحدِّثة عنه، أو مبيِّنة لحكمه أيام وقوعه[1].

والمعنى: أن تقع حادثة زمن النبي ﷺ، أو يوجَّه له سؤال؛ فتتنزَّل الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ): (ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ آية إلا وهو يحبُّ أن يُعلم فيم أنزلت، وما أراد بها)[2].

وسبق الكلام على أثر معرفة أسباب النزول على المتدبِّر[3].

والمقصود هنا بهذا الضابط: معرفة أنَّ سبب النزول يتوقَّف ثبوته على أمرين:

---

(١) انظر: مناهل العرفان للزرقاني (١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن (٩٧)، والمستغفري في فضائل القرآن (١/ ٢٧٦).

(٣) انظر: المبحث الرابع في الفصل الثاني من الباب الثاني.

١- النقل الصحيح، بحيث يكون الحديث الوارد في سبب النزول حديثاً صحيحاً، وأن تكون الرواية فيه ممن شهدوا عصر التنزيل، ووقفوا على الأسباب وعرفوها، فإذا صحَّ سبب النزول؛ وجب الاعتماد عليه في تدبُّر الآية.

ومن أمثلة سبب النزول الصحيح: عن البراء، قال: (كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩])[١].

٢- النصُّ الصريح، بحيث يكون النصُّ صريحاً بسبب النزول، وأشهر الصيغ في أسباب النزول هي العبارات التي تأتي بعد فاء السببية: (فنزلت، أو فأنزل الله.. ونحوها)، أو عبارة: (نزلت الآية في كذا، أو أُنزِلت في كذا).

وورود كلمة النزول قرينة قوية في إرادة ذكر سبب النزول، وليست أصلاً يُحكَم به على أنَّ ورودها في الأثر يدلُّ على أنه هو سبب النزول المباشر، إذ قد يكون هناك ما يدلُّ على أنه ليس المراد بها سبب النزول المباشر، وإنما التفسير والبيان[٢].

مثال ذلك: في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٢٧٤]، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا فيها: (هم الذين يعلِفون الخيل في سبيل الله)[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٨٠٣) في أبواب العمرة، باب قول الله: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾ [البقرة:١٨٩]، وبرقم: (٤٥١٢) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١٨٩]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٣٠٢٦) في كتاب التفسير.

(٢) انظر: المحرر في علوم القرآن (١٢٨)، الموسوعة القرآنية المتخصصة (٥٩).

(٣) أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٥٤٣) برقم: (٢٨٨١).

وقال قتادة (١١٧هـ): (هؤلاء قوم أنفقوا في سبيل الله التي افترض وارتضى، في غير سَرَف ولا إملاق ولا تَبذير ولا فَساد)[١].

فليس المراد من كلامهما أن هذا سبب النزول، وإنما هو تفسير صحيح للآية، فهي تتضمَّن هذا وذاك، ولا منافاة بينهما.

ومن ذلك أيضاً: حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾[إبراهيم:٢٧]، قَالَ: «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ»[٢].

ففسَّر ﷺ الآية بأنَّ الثبات والضلال المقصود في الآية ما يكون من عذاب القبر، فهي لم تنزل لواقعة أو حدث.

والمقصود: أنَّ ما كان صحيحًا صريحاً وجب اعتماده والرجوع إليه في التدبُّر، وما فقد أحد هذين الأمرين لم يكن كذلك.

ومن الأمثلة التي تبيِّن أثر معرفة سبب النزول الصحيح الصريح في إزالة إشكالات الفهم والتدبُّر.

من أمثلة ذلك: أنَّ مروان بن الحكم رَحِمَهُٱللَّهُ (٦٥هـ) تدبَّر قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[آل عمران:١٨٨]، فأشكَلت عليه، فبعثَ إلى ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يسأله: (لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحبَّ أن يُحمَد بما لم يفعل معذَّباً، لنُعذبنَّ أجمعون؟!)، فقال ابن

---

(١) أخرجه عنه الطبري في تفسيره (٥/ ٦٠١) برقم: (٦٢٣٣)، وابن المنذر في تفسيره (١/ ٤٩) برقم: (٢٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٣٦٩) في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٨٧١) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه، وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه.

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (وما لكم ولهذه، إنما دعا النبي ﷺ يهود، فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره، فأروه أن قد استحمدوا إليه، بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم)، ثم قرأ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٨٧-١٨٨][1].

فتبيين ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أزال الإشكال عن فهم مروان آنذاك.

وبمعرفة سبب النزول في الآية يصحُّ تدبُّر من قال فيها: "إنَّ من باشر رؤية الخلق قلبه، ولاحظهم بسرِّه؛ فلا تظننّ أنَّ عقوبتهم مؤخَّرة إلى يوم القيامة، بل ليسوا من العذاب- في الحال- بمفازة، وأيُّ عذاب أشدُّ من الردِّ إلى الخلق، والحجاب عن الحق"[2].

ومن ذلك: قد يفهم المتدبِّر لقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، أنَّ المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة سفراً ولا حضراً، لكن حين يعرف سبب نزولها: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ مُقْبِلٌ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى رَاحِلَتِهِ حَيْثُ كَانَ وَجْهُهُ، قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥][3]؛ علم أنَّ ذلك في نافلة السفر، أو فيمن صلَّى باجتهاد وبان له الخطأ على اختلاف في ذلك[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٥٦٨) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ [آل عمران:١٨٨]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٧٧٨) في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

(٢) لطائف الإشارات للقشيري (١/ ٣٠٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٠٠) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز صلاة النافلة على الدابة في السفر حيث توجهت.

(٤) انظر: الإتقان (١/ ١٠٩).

- المطلب الثاني: قد يكون سـبب النزول واحداً والآيات النازلة متفرِّقة والعكس:

وهذا واضح المعنى، فإنَّ الموضوع الواحد قد تنزل فيه عدة آيات من القرآن، والآية الواحدة قد تنزل في موضوعات متعددة، "وقد ينزَّل الشيء مرَّتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه"[1].

وفائدة معرفة هذا الضابط للمتدبِّر؛ توسيع مداركه، وفتح مجالات أرحب من التأمل والتدبُّر والفهم، ويتَّضح ذلك بالأمثلة.

١) مثال ما اتَّحد سببه ونزلت فيه عدة آيات:

أ- قالت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث، فنزلت: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء:٣٢]، ونزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٣٥][2].

---

(١) البرهان للزركشي (١/ ٢٩).

(٢) **صحيح**. أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٤/ ١٢٣٦) برقم: (٦٢٤)، والترمذي في سننه (٥/ ٢٣٧) برقم: (٣٠٢٢)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٣٩٣) برقم: (٦٩٥٩)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١٣/ ١٢٠) برقم: (١٧٦٤٦)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٢٢).

ب- وقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَا أَسْمَعُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الْهِجْرَةِ بِشَيْءٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٖ﴾[آل عمران:١٩٥] الْآيَةَ[١].

ويستفاد من ذلك عند التدبُّر: أنَّ المرأة مخاطبة بأصول الشريعة وفروعها كالرجل، ولها من الأجر الكبير على العمل اليسير ما ليس للرجل، فهي إن قامت بما يمكنها من الطاعات مما يتناسب مع طبيعتها؛ كُتب لها من الأجر مثل ما للرجل فيما يتناسب مع طبيعته وخلقته، ولو كان عمل الرجل أشدُّ وأتعب.

ويفهَم هذا من تدبُّر سبب النزول، وسؤال أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن الأجر والفضل.

٢) مثال ما تعددت أسبابه والنازل فيه واحد:

قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة:١١٣].

جاء في سبب نزولها:

أ- لما حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي طَالِبٍ: «**يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ، وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ

---

[١] **صحيح**. أخرجه الحميدي في مسنده (١/ ٣١٠) برقم: (٣٠٣)، وسعيد بن منصور في سننه (٣/ ١١٣٦) برقم: (٥٥٢)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٢٩٤) برقم: (٦٥١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥١) برقم: (٣٥٦٠)، والترمذي في سننه (٥/ ٢٣٧) برقم: (٣٠٢٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٣٩١) برقم: (٦٩٥٨)، والبيهقي في معرفة السنن والآثار (١٣/ ١٢٠) برقم: (١٧٦٤٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٢٣).

مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ، وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَا وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ»، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣][1].

ب- عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان، فقلت: (تستغفر لأبويكَ وهما مشركان؟)، فقال: (أليس قد استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك؟)، قال: فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وإلى آخر الآيتين[2].

ويستفاد من تدبُّر الآية والسببين: أنَّ "أصل الدين التبرِّي من الأعداء، والتولِّي للأولياء، والولي لا قريب له ولا حميم، ولا نسيب له ولا صديق، إن والى فبأمْر، وإن عادى فلزجْر"[3].

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٣٦٠) في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: (لا إله إلا الله)، وبرقم: (٣٨٨٤) في كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، وبرقم: (٤٦٧٥) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣]، وبرقم: (٤٧٧٢) باب قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٤) في كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله.

[2] حسن. أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٢٨) برقم: (١٠٨٤)، والترمذي في سننه (٥/ ٢٨١) برقم: (٣١٠١)، والبزار في مسنده (٣/ ١٠٨) برقم: (٨٩٤)، وأبو يعلى في مسنده (١/ ٤٥٧) برقم: (٦١٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٣٦٥) برقم: (٣٢٨٩)، والبيهقي في الشعب (١٢/ ١٣) برقم: (٨٩٣٣). وحسَّنه الألباني في أحكام الجنائز (١٢٣).

[3] انظر: لطائف الإشارات (٢/ ٦٨).

- المطلب الثالث: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب:

كلام الشارع لا يخلو من حالين:

- الحال الأول: أنْ يرد اللفظ ابتداءً من الشارع:

* فيكون اللفظ الوارد عاماً: مثل قول الله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [القصص:٨٤].

* أو يكون اللفظ الوارد خاصاً: مثل قوله سبحانه: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب:٥٠]، فقد دلَّت هذه الآية على أنه لا تحلُّ الموهوبة لغير النبي ﷺ.

- الحال الثانية: أن يرد اللفظ على سبب خاص: كوقوع حادثة أو سؤال سائل فالسبب هنا لا يقصد به الموجب للحكم ولا ما يولِّد الفعل، وإنما هو: الداعي إلى الخطاب بذلك القول والباعث عليه، سواء أكان ذلك سؤالاً أجاب عنه الشارع، أو حادثةً وقعت فجاء الشارع في بيانها.

فمقصود الضابط هنا: أنَّه إذا صحَّ للآية سبب نزول، وجاءت ألفاظها أعمَّ من سبب نزولها، حملَت على العموم، لا على خصوص السبب.

وهذا ضابط مهم، وقاعدة نفيسة مهمَّة، تعين على التدبُّر الصحيح لكتاب الله تعالى، لأنَّها تجعل دلالات النصوص واسعة عميقة، وفوائد تدبُّرها مميزة دقيقة، ما كان ذلك في إطار المعاني الصحيحة.

وقد قرَّر النبي ﷺ هذه القاعدة قولياً؛ في حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجُلاً أصابَ مِن امرأةٍ قُبْلةً، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَه، فأنزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا

﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]، فقالَ الرَّجلُ: يا رسولَ الله! أَلِي هذا؟ قالَ: «**لجميعِ أمَّتي كلِّهِم**»، وفي روايةٍ: «**لمن عمل بها من أمَّتي**»[١].

وقرر ذلك عملياً؛ في حديث عَلِيِّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيْلَةً، فَقَالَ: «**أَلَا تُصَلِّيَانِ؟**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: «﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف:٥٤]»[٢].

فمساق هذا الجزء من الآية؛ عن الكفار الذين يخاصمون في الله ويجادلون فيه، ومع ذلك عمَّم حكمها رسول الله ﷺ، حتى شمِلت علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمخاصمته في هذا الموطن، ولا يعني أبداً اتصافه بالصفات الأخرى التي جاءت في الآيات، فتقرَّر بذلك أنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ [المجادلة:٢]؛ فاللفظ عام وسببها خاص، وهو: قصَّة أوس بن الصامت مع زوجته

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٢٦) في كتاب الصلاة، باب الصلاة كفارة، وبرقم: (٤٦٨٧) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود:١١٤]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٧٦٣) في كتاب التوبة، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود:١١٤].

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١١٢٧) في كتاب التهجد، باب تحريض النبي ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، وبرقم: (٧٣٤٧) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف:٥٤]، وبرقم: (٧٤٦٥) في كتاب التوحيد، باب المشيئة والإرداة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان:٣٠]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٧٧٥) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح.

خولة بنت ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حين ظاهَرها، وكانت أول حادثة ظهار في الإسلام، فذهبَتْ خولةُ إلى النبي ﷺ تشكو إليه ظِهار زوجها، وأنه لم يذكر طلاقًا، وأخذت تجادل النبي ﷺ حتى أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١][(١)]، وأفتى النبي ﷺ بمضمون هذا الحكم سلمة بن صخر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)] حين ظاهر من امرأته[(٣)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٧٤هـ) بعد ذكر قصة أوس بن الصامت وزوجته خولة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أُمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام)[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه في الفصل الأول من الباب الثاني.

(٢) **سلمة بن صخر**= بن سَلْمَانَ بْنِ الصِّمَّةِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ خُبَيْبِ بْنِ حَارِثَةَ البياضي الأنصاري، سكن المدينة، وهو أحد البكائين الذين أرادوا الذهاب مع النبي ﷺ إلى تبوك، ولم يُعرف له حديث مسند إلا حديث الظهار، وليس له عقِب. انظر: التاريخ الكبير (٤/ ٧٢)، معجم الصحابة للبغوي (٣/ ١١٧)، ومعرفة الصحابة لابن منده (٧٠٣)، ولأبي نعيم (٣/ ١٣٤٦).

(٣) والقصة: أنه وقع على امرأته بعد أن ظاهرها، فسأل رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: "أنتَ بذاكَ يا سلمة؟" قلت: أنا بِذَاكَ يا رسول الله، مرتين، وأنا صابرٌ لأمرِ الله عَزَّوَجَلَّ، فاحكم فيَّ ما أراك الله، قال: "حرِّر رقبةً"، قلت: والذي بَعَثَكَ بالحق ما أملِكُ رقبةً غيرها، وضربتُ صفحة رقبتي، قال: "فصُمْ شهرين متتابعين"، قال: وهل أصبتُ الذي أصبتُ إلا مِن الصيام؟ قال: "فأطعم وسقاً مِن تمر بين ستين مسكيناً" قلتُ: والذي بعثكَ بالحق، لقد بتنا وحشينِ، ما لنا طعامٌ، قال: "فانطلِقْ إلى صاحِب صَدَقةِ بني زُرَيقٍ، فليدفعها إليك، فأطعِم ستينَ مسكيناً وسقاً من تمر، وكل أنت وعيالُك بقيتها"، فرجعت إلى قومي، فقلت: وجَدتُ عندكم الضيقَ، وسوء الرأي، ووجدتُ عندَ النبي ﷺ السعةَ، وحُسنَ الرأي، وقد أمرني، أو أمَرَ لي بِصَدَقتكم. والحديث أخرجه أحمد في مسنده (٣٩/ ١٠٥) برقم: (٢٣٧٠٠)، وابن ماجه في سننه (١/ ٦٦٥) برقم: (٢٠٦٢)، وأبو داوود (٢/ ٢٦٥) برقم: (٢٢١٣)، والترمذي (٣/ ٤٩٦) برقم: (١٢٠٠)، وحسنه الألباني في صحيح ابي داوود (٢٢١٣).

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٣٦).

فصار بذلك حكم الآية عاماً لكلِّ من ظاهر من زوجته.

وقرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٢٧هـ) أنّ الآية التي نزلت في شخص تختصُّ بنوعه لا بشخصه بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلم يقلْ أحد من علماء المسلمين: إنَّ عمومات الكتاب والسنة تختصُّ بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختصُّ بنوع ذلك الشخص فيعمُّ ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ.

والآية التي لها سبب معين، إنْ كانت أمراً ونهياً فهي متناولة لذلك الشخص ولغيره ممن كان بمنزلته، وإن كانت خبرًا بمدْح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضًا)[1].

ومن أدلة ذلك: أنَّ الحجَّة في لفظ الشارع لا في السبب، فيجب اعتباره بنفسه في خصوصه وعمومه، ولا يقتصر فقط على ما نزل من أجله إلا بقرينة تخصِّصه.

وكذلك: فإنَّ أكثر الأحكام الشرعية نزلت على أسباب خاصة، كنزول آية الظهار واللعان ونحو ذلك، ولو كان السبب الخاص يقتضي اختصاص العام به لما عمَّت هذه الأحكام، وهذا باطل بإجماع الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، واتفاقهم على تعميم أحكام تلك النصوص على من نزلت فيه، وعلى من جاءت في حقه من غيرهم.

وما أحسن كلام السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ) حين قال: (فهذه القاعدة نافعة جداً، بمراعاتها يحصل للعبد خيرٌ كثير، وعلمٌ غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علمٌ كثير، ويقع الغلط والارتباك الخطير... والله تعالى قد أمرنا بالتفكر والتدبُّر لكتابه، فإذا تدبَّرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أنَّ معناها يتناول أشياء كثيرة، فلأي شيء نُخرج بعض هذه المعاني، مع دخول ما هو مثلها ونظيرها فيها؟...، فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على

---

[1] مقدمة في أصول التفسير (١٦).

رسوله والقيام بها، والقرآن قد جمع أجلَّ المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣])[1].

ولا يفهم من معنى هذه القاعدة: التغافل عن السبب؛ لأنَّ صورة السبب قطعية الدخول، وما عداها فدخوله ظني؛ فالعامُّ يشمل صوراً متعددة، وصورة السبب التي نزلت الآية من أجلها قطعية الدخول[2].

ويتجاوز البعض في تطبيق هذه القاعدة، فيقتطعون من الآية جملة، ويجرِّدونها عن سياقها، ويفهمون منها معنى عاماً، أو معنى خارجاً عما وردت له في السياق كلياً، مع أنَّ الجملة لم تأتِ على أنها قاعدة كلِّية، وما جاء في النصِّ بعض تطبيقاتها أو بعض أفرادها، فيتوهَّمون بهذا التجاوز أنَّ سياق النصِّ هو خصوص السبب، فيقطعون النصَّ عن سياقه، بهذه الحجَّة، مع أنَّ النصَّ كلَّه وحدة متماسكة، وليس بعضه سبباً لبعض، ويؤثِّر الاقتطاع في فهم دلالاته؛ لذلك لا يصحُّ أن تجزَّأ كلُّ فكرة وردت في جملة من الآية، ما لم يكن في إيرادها في الآية بوصفها قاعدة عامة، وما جاء في الآية مما استدعاها مندرج في عمومها.

وكثيراً ما يلاحظ في الآيات ارتباط مجموعة منها في موضوع جزئي من السورة، فاقتطاع بعض منها وفهمه على أنه نصٌّ منفصل، قد يجنح بالمتدبِّر عن فهم المعنى المراد، أو يوقع في الخطأ، أو يضعف من كمال دلالات النصّ[3].

لذلك قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٠٢هـ): (ويجب أن تتنبَّه للفرق بين دلالة السياق والقرائن الدالة على تخصيص العام، وعلى مراد المتكلِّم، وبين مجرَّد ورود العام على سبب، ولا تجريهما مجرى واحداً، فإنَّ مجرَّد ورود العام على السبب لا يقتضي التخصيص به، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، بسبب سرقة رداء صفوان،

---

(١) القواعد الحسان للسعدي (١١-١٢) بتصرُّف.

(٢) انظر: التعليق على القواعد الحسان لشيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨).

(٣) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٢٠٣-٢٠٥).

وأنه لا يقتضي التخصيص به بالضرورة والإجماع، أما السياق والقرائن: فإنها الدالة على مراد المتكلِّم من كلامه، وهي المرشِدة إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات، فاضبط هذه القاعدة، فإنها مفيدة في مواضع لا تحصى)[1].

إنَّ سوء فهم هذه القاعدة كان سبباً في ضلال من فهموا منها إهمال أسباب النزول، لأنَّ العبرة بعموم اللفظ، فلا فائدة من السبب الخاص الذي نزلت به الآية، وبذلك أنزلت بعض الفرق على الموحدين نصوصاً نزلت بشأن الكفار، فسفكوا دمائهم، واستحلُّوا أموالهم وأعراضهم.

ومن الأمثلة التي تبيِّن أثر هذا الضابط على التدبُّر: في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. جاءت الآية في سياق الكلام عن عفَّة نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين همَّت به امرأة العزيز، فيدخل فيها بالعموم من حذا حذوه في العفَّة، وانتهج نهجه في الإخلاص والصلاح.

فمن الفوائد التي تستفاد عند تدبُّرها: أنَّ من أعظم أسباب العشق: "إعراض القلب عن الله، فإنَّ القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له لم يكن عنده شيء قطُّ أحلى من ذلك ولا ألذَّ ولا أطيب، والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحبَّ إليه منه، أو خوفاً من مكروه، فالحبُّ الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحبِّ الصالح؛ أو بالخوف من الضرر... والله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصور والتعلُّق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه، انقهر له هواه بلا علاج"[2]، والله أعلم.

---

[1] إحكام الأحكام (٢/ ٢١).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٧-١٨٨) بتصرُّف.

- المطلب الرابع: معرفة المكي والمدني أصل في تدبُّر القرآن الكريم:

المكي والمدني مصطلحان يرتبطان بالزمان والمكان، ومن أحسن التعريفات للمكي والمدني وأضبطها، تعريف يحيى بن سلام البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٠هـ): أنَّ "ما نزل بمكة، وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدني"[1].

ويتميَّز المكِّي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع.

أ- أما من حيث الأسلوب:

١- الغالب في المكي قوة الأسلوب، وشدَّة الخطاب، لأنَّ غالب المخاطبين معرِضون مستكبِرون، ولا يليق بهم إلا ذلك، كما في سورتي المدثر، والقمر.

أما المدني: فالغالب في أسلوبه اللين، وسهولة الخطاب، لأنَّ غالب المخاطبين مقبِلون منقادُون، كما في سورة المائدة، ومخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم للإسلام.

٢- الغالب في المكِّي قصر الآيات، وقوة المحاجة، لأنَّ غالب المخاطبين معاندون مشاقون، فخوطبوا بما تقتضيه حالهم، كما في سورة الطور.

أما المدني: فالغالب فيه طول الآيات، وذكر الأحكام مرسَلة بدون مُحاجة، لأنَّ حالهم تقتضي ذلك، كما في آية الدين من سورة البقرة.

ب- وأما من حيث الموضوع:

١- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصاً ما يتعلَّق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث، لأنَّ غالب المخاطبين ينكرون ذلك.

---

[1] تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (مختصر تفسير يحيى بن سلام) (١/ ١١٣).

أما المدني: فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات، والحدود، ونظام الأسرة، والمواريث،وقواعد الحكم، ومسائل التشريع، وذلك لأنَّ المخاطبين قد تقرَّر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، ولحاجتهم لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال، ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر النفاق، فكانت الحاجة للكشف عن سلوك المنافقين، وتحليل نفسياتهم، وبيان خطرهم على الدين أمرٌ تقتضيه الحاجة، بخلاف المكي[١].

وقد ذكر بعض أهل العلم ضوابط قياسية للسور المكية والمدنية، وكثير منها يحتاج إلى تحرير، ومن ذلك:

- كلُّ سورة فيها لفظ: ﴿كَلَّآ﴾فهي مكية - وهي كلمة ردع وزجر، تكون للمعاند المستكْبِر، فكانت مناسبة لمخاطبة المشركين في مكة- في خمس عشرة سورة، من النصف الأخير من القرآن.

- كلُّ سورة مبدوءة بقَسَم فهي مكية.

- كلُّ سورة فيها سجدة فهي مكية.

- كلُّ سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة.

- كلُّ سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية، سوى البقرة وآل عمران.

- كلُّ سورة فيها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وليس فيها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾فهي مكية.

- كلُّ سورة فيها ذكر الحدود والفرائض فهي مدنية.

---

[١] انظر: مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (٦٤)، أصول في التفسير، لشيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٥).

- كلُّ سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية، سوى العنكبوت، فإنها مكية.

- كلُّ سورة فيها الإذن بالجهاد أو الأمر به وأحكامه والصلح والمعاهدات فهي مدنية.

- كلُّ سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهي مدنية[١].

ولا يسلَّم بهذه الضوابط على إطلاقها، إذ من الأصول المهمة: أنَّ السورة التي تثبت مكيتها تكون جميع آياتها مكية، ولا يقبل الادعاء بأنَّ شيئاً من آياتها مدني إلا بدليل يجب الرجوع إليه، كما أنَّ السورة التي ثبتت مدنيتها؛ يُحكم لجميع آياتها بأنها مدنية إلا ما دلَّ الدليل على استثنائه[٢].

وكثير من العلماء يبني حكمه بالمكي والمدني بما يظهر له من معاني الآيات، فإن وجد في سورة مكية إشارة إلى أهل الكتاب حكم بأنَّ الآية مدنية، ونحو ذلك، وهذا مسلك غير صحيح، فينبغي العدول عن الحكم على الآية بأنها مكية أو مدنية بناءً على ما تتضمَّنه من معنى.

وما ذكره بعض أهل العلم -مما سبق- من ضوابط المكي والمدني هي أغلبيَّة، ويتوقَّف تحرير صحَّته على أمرين:

الأول: أن يكون الاستقراء تاماً، ويمكن أن يستثني سورة أو سوراً بعينها.

الثاني: أنَّ يكون مبناه النقل والخبر دون الاجتهاد والنظر؛ وإلا كان مردوداً لا يصحُّ الاعتماد عليه بمجرَّد الاجتهاد، كأن يُحكم مثلاً بأنَّ كلَّ سورة فيها ذكر أهل الكتاب فهي مدنية، دون نصّ يدلُّ على ذلك، وإنما لأنَّ أهل الكتاب وُجدوا في المدينة[٣].

---

(١) انظر: البرهان (١/ ١٨٩)، الإتقان (١/ ٦٨)، المدخل لدراسة القرآن لأبي شهبة (٢٢٦)، مباحث في علوم القرآن لمناع القطان (٦٢-٦٣).

(٢) وقد قام الباحثان د/ عبد الرزاق حسين أحمد، ود/ عمر بن عبد العزيز الفالح، بدراسة المكي والمدني وما قيل فيه، في رسالتي دكتوراه بالجامعة الإسلامية، مطبوعتان.

(٣) انظر: قواعد التفسير (١/ ٧٧-٧٨).

فمعرفة ما سبق يعينُ المتدبِّر على الفهم، والعيش مع القرآن، وتفتح أمامه أفقاً من التدبُّر الواسع، والفهم العميق.

إنَّ تصوُّر الظرف الزماني والمكاني لنزول الآيات يقدِّم نفعاً جليلاً للمتدبِّر، ويهديه إلى مفاهيم أكثر دقة، وأقرب إلى المراد، لأنَّ من الأساليب البيانية ما يلائم ظرفاً من الظروف الزمانية أو المكانية، في حين أنه قد لا يلائم ظرفاً آخر، فما يلائم مواسم الأعياد قد لا يلائم في أوقات التحريض على الجهاد، وما يلائم في مواطن تأدية النسك قد لا يلائم في أسواق البيع والشراء، وهكذا.

وبنظرة عامة فإنَّ الآيات في العهد المكي كانت تتنزَّل على أسلوب المنتقى من المتداول من كلام بلَغاء العرب وفصحائهم وخطبائهم، إذ كان يعجبهم الإيجاز الذي يكشف الذكاء دلالاتِه، والكنايات الإشارية الدالة على معانٍ غير مدلول عليها ولا معبَّر عنها بألفاظ صريحة، والاكتفاء من الموضوع بذكر بعض العناصر البارزة، كاسم القوم، أو اسم طاغيهم، واسم رسولهم، والإشارة إلى مساكنهم، والاكتفاء بأنهم كذبوا الرسول الذي دعاهم إلى الإيمان بربِّهم، وذكر إهلاكهم بنحو الريح أو الغرق ونحوه، مع توجيه العظة للمخاطَبين بما جرى للسابقين، وحين يكون المقصود توجيه الخطاب لأحد أئمة الشرك الذين واجهوا النبي ﷺ والدعوة مواجهة صريحة؛ يأتي بطريقة التعريض بهم، وذكر صفاتهم دون التصريح بالاسم، حتى ينطبق ذلك على الطغاة في كلِّ زمان، لأنَّ المتشابهين في قلوبهم ونفوسهم، تتشابه أعمالهم وأقوالهم وتصرفاتهم.

وفي العهد المدني: اختلف الأسلوب عن المكي، فجاءت الآيات الطوال بياناً وتفصيلاً لما أُجمِل في العهد المكي، وجاء الخطاب مراعياً للبيئة المدنية، ومخاطبة أهل الكتاب فيها بما يتناسب معهم، ومع تاريخهم وحضاراتهم بخلاف ما كان في العهد المكي.

كما راعت الآيات ما حصل من وقائع وغزوات وأحداث اجتماعية، في بيئة العهد المدني بالتوجيه والتعليم والموعظة والترغيب والترهيب، والأمر والنهي.

إنَّ مراعاة هذه الأمور ومعايشتها مع مراحل التنزيل؛ تكشف من صور التلاؤم بين النصِّ القرآني والبيئة التي نزل فيها؛ ما لا يمكن استيفاؤه بنظرات عامة، وعناصر محددة، وهي فتح من الله للمتدبِّر بآفاق ما كان ليعلمها لولا ذلك[1].

ومن الأمثلة التي تبيِّن أثر ذلك على التدبُّر:

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رجلاً من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرءونها، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: أي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، قال عمر: (قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة)[2].

فمن الفوائد التدبُّرية للآية بناءً على ما سبق: أنَّ هذا اليهودي عرف ما لم يعرفه كثير من المسلمين من عظمة هذا الدين وكماله وتمام النعمة به.

وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يدفعه كلام اليهودي أن يجعل الزمان عيداً، أو المكان مزاراً، لأنَّه يعلم أنَّ ذلك توقيفي لابدَّ فيه من نصٍّ شرعي.

وفيه أيضاً: التعبير عن الدين بالكمال، وعن النعمة بالتمام: لأنَّ الكمال لا زيادة عليه، فلا زيادة في الدين، أما التمام في النعمة، فيقبل الزيادة ليصل إلى الكمال، والله أعلم.

---

[1] قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٥٤-٥٧) بتصرف.

[2] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٥) في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، وبرقم: (٤٤٠٧) في كتاب المغازي، باب حجة الوداع، وبرقم: (٧٢٦٨) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٣٠١٧) في كتاب التفسير.

- المطلب الخامس: ينزَّل المدني في الفهْم على المكّي، وكذا المكي بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل:

لما كانت الشرائع والرسالات بمثابة لِبنات يرتبط بعضها ببعض لتشكِّل بناءً شامخاً لهداية البشرية وإسعادها، وجاءت شريعة الإسلام متممة لمكارم الأخلاق، ومُصْلحة لما أفسده الناس من ملَّة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ كان من الأولى أن تكون هذه الشريعة كذلك بعضها مع بعض في توجيهاتها وأحكامها؛ المتأخِّر مبني على المتقدِّم ومبيِّن له ومتمم.

فمعنى الخطاب المدني في الغالب مبنيٌّ على المكِّي، كما أنَّ المتأخِّر من كل واحد منهما مبني على ما قبله، وهذا معلوم من الاستقراء.

ومن شواهد ذلك وأمثلته: تنزيل سورة الأنعام؛ فإنها نزلت مبينة لقواعد العقائد وأصول الدين، وقد خرَّج العلماء منها قواعد التوحيد والعقائد، ثم لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة كان من أول ما نزل عليه سورة البقرة، وهي التي قررت قواعد التقوى المبنية على قواعد سورة الأنعام؛ فإنها بيَّنت من أقسام أفعال المكلفين جملتها، كالعبادات، والعادات، والمعاملات، والجنايات، وحفظ الدين، وحفظ النفس والعقل والنسل والمال، وما خرج عن المقرر فيها؛ فبحكم التكميل، فغيرها من السور المدنية المتأخرة عنها مبني عليها، كما كان غير الأنعام من المكيِّ المتأخر عنها مبنياً عليها، وهكذا سائر السور بعضها مع بعض في الترتيب؛ حذو القذة بالقذة[1].

وأما النصوص الخبرية عن الكون والخلْق، والمبينة للعقائد وأصول الدين فيضمُّ اللاحق منها للسابق، وتُفهم بدلالة واحدة، كأنها أُنزلت في وقت واحد، فهي متكاملة في دلالاتها،

---

(١) انظر: الموافقات (٤/ ٢٥٧-٢٥٨)، قواعد التفسير (١/ ٨٠-٨١).

يكمِّل بعضها بعضاً، لأنها حقائق لا تكاليف، والمرحلية فيها مرحلية بيان تعليمي، يتضمَّن حِكَماً جليلة كثيرة.

أما النصوص المتأخرة نزولاً في الأحكام والتشريعات، فإن كانت معارضة تماماً لما نزل قبلها فهي الأحقُّ أن تكون عمدة الأحكام والتشريعات النهائية، وإن لم تكن متعارضة فهي متممة ومبينة لما قبلها من نصوص.

وكثيراً ما تكون النصوص المتأخرة مبينة للمراد، أو مقيِّدة لمطلق، أو مخصصة لعموم، أو مثبتة لحُكْم لم تثبته السابقة، أو ناسخة لحكم سبقها، أو مكمِّلة لأحكام ودلالات لم تستوفها السابقة عن قصد التدرُّج في التشريع، وفي التربية والتعليم، مراعاة لظروف الناس وأحوالهم، وفهومهم وأذهانهم.

والتدبُّر بمراعاة مراحل التنزيل؛ يهدي المتدبِّر إلى مفاهيم جليلة تتصل بحكمة التدرُّج، ويحمي من فهم خاطئ للنصوص، فقد يأتي بحادثة مكية فيجعلها سبباً لنزول نصٍّ مدني لا علاقة له بهذه الحادثة، أو العكس، ثمَّ يبني تدبُّره للنصِّ بناءً على هذا الخطأ، فيوقعه ذلك في أمور أشد خطئاً[1].

ومن الأمثلة التي تبيِّن ذلك وتوضحه: التدرُّج في تحريم الربا بين العهد المكي والمدني.

فلو تدبَّر متدبِّر قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[الروم:٣٩] واستشهد بها على أنه لا بأس باليسير من الربا، وأنَّ المقصود في الآيات التي نصَّت على التحريم الربا الفاحش الكثير، الذي يكون مشتهراً بين الناس في تعاملهم واقتصادهم؛ لكان تدبُّراً فاسداً مبنياً على

(١) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (١٥١-١٥٣).

جهل بالمكي والمدني من النصوص؛ فإنَّ سورة الروم- الرابعة والثمانين نزولاً -؛ جاءت فيها هذه الآية للتلميح بأنَّ الربا لا يبارَك فيه، ولا يحمَد فاعليه، وهو تمهيدٌ لما جاء بعده من بيان أكثر وضوحاً، وإنذارٌ بأنه سيحرَّم تحريماً قاطعاً.

ثمَّ في أوائل العهد المدني، وفي سورة آل عمران — التاسعة والثمانين نزولاً- جاء النصُّ بالنهي الصريح الذي كان معروفاً في الجاهلية في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[آل عمران:١٣٠]، ولكنه لم يكن نصَّاً صريحاً في تحريم كلِّ الربا وإن قلَّ.

ثمَّ في سورة النساء -الثانية والتسعين نزولاً- أنزل الله ذمَّ اليهود بأكلهم الربا وقد نهوا عنه، كمرحلة من التبغيض فيه، والتحذير منه، فقال تعالى: ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴾[النساء:١٦٠-١٦١]، فكان هذا النصُّ تمهيداً للتحريم القطعي، وإنذاراً للمخالفين بأنهم سيصيبهم ما أصاب يهود، حتى أنزل الله تعالى في سورة البقرة؛ النصَّ الأخير القاطع بتحريم الربا كلِّه قليله وكثيره، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو

عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥-٢٨١][1].

فما كان لأحد بعد هذا النصِّ أن يقول في جواز الربا قليله قبل كثيره شيئاً، والله أعلم.



(١) أخرج البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب البيوع، باب موكل الربا، لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٨١]، قال ابن عباس: (هذه آخر آية نزلت على النبي ﷺ).

المبحث الثاني: ضوابط علوم القرآن المعينة على التدبُّر.

وفيه مطالب:

- المطلب الأول: استعراض موضوعات السورة جزء من تدبرها.

والكلام عن الموضوعات يتضمَّن اعتبارين:

الاعتبار الأول: أنَّ الجملة القرآنية ترتبط بموضوع السورة، وترتبط ارتباطاً موضوعياً بما تفرَّق في القرآن الكريم.

فيبحث المتدبِّر عن ارتباط المعنى المستفاد من جملة قرآنية؛ بما تفرَّق في القرآن من معانٍ تجتمع معه في موضوع واحد، وبمعاني الآية التي هي منها، والسورة التي هي فيها، فإنَّ كل معنى جزئي مستفاد من جملة قرآنية له ارتباط بما تفرَّق في القرآن من معانٍ تلتقي معه في موضوع واحد، وله ارتباط آخر وثيق بمعاني الجمل الأخرى التي اشتملت عليها الآية، والآية لها ارتباط وثيق بوحدة موضوع السورة.

وإهمال مراعاة هذا الأمر العظيم، وعدم وضعه موضع العناية التامة، والملاحظة المستمرة، يفوِّت على المتدبِّر لكلام الله خيراً كثيراً، ومعاني جمَّة، ويخفي عنه وجوه إعجاز جليلة، وقد يجنح به عن فهم المراد من الجملة أو الآية التي يتدبَّرها.

ومن الأمثلة التي تبيِّن المقصود بهذا الضابط:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[الأنعام:٦٨].

جاء الخطاب في الآية موجَّهاً للنبي ﷺ ولكلِّ الذين اتبعوه؛ فكانت المؤاخذة والمحاسبة تلاحق كلَّ مسلم خالف مضمون هذا النص، ولم يُعرِض عن الذين يخوضون في آيات الله

من الكافرين أو المنافقين، ثمَّ ظهر ذلك وفشا حين وُجد المنافقون في العهد المدني، وكانت منهم موالاة لطائفة من الكافرين، فأنزل الله في سورة النساء المدنية آيات تذكِّرهم بآية الأنعام المكية، وتحذِّر من عاقبة المنافقين، في قوله سبحانه: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء:١٣٨-١٤٠].

فظهر الترابط الفكري والموضوعي بين النصِّين، في سورتين مختلفتين، كما أنَّ لكل آية منهما ارتباط بموضوعات السورة التي هي فيها[١].

أما الاعتبار الثاني: وجود وحدة موضوعية تربط بين موضوعات السورة الواحدة.

وسور القرآن تختلف من حيث طولها وقصرها، وغالباً ما تكون السورة القصيرة ذات موضوع واحد، وغالباً ما يكون اسم السورة أيضاً يدلُّ على ذلك الموضوع، مثل سورة الصمد، موضوعها: الإخلاص، وهذا ظاهر في مثل قصار المفصَّل من جزء عمَّ.

وإذا طالت السورة: فقد يكون موضوعها واحداً يتعدد طرحه من خلال سياقات متنوعة مثل: سورة النبأ؛ فموضوعها البعث، وقد تعدد طرحه من خلال سياقات الآيات.

وقد تكون ذات موضوعات متعددة، مثل سورة: عبس، وهي سورة قصيرة، تضمَّنت موضوعات متعددة: مثل التعامل مع المقبل على الدين والعلم، وبيان منزلة القرآن، وبيان كفر الكافر، والاستدلال على البعث، وأحوال الناس يوم القيامة.

---

(١) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (١٣-١٩).

أو سورة طويلة كسورة البقرة، بموضوعاتها الكثيرة المتعددة[1].

وقد يظهر لبعض المتدبِّرين لمثل هذه السور التي تتعدد موضوعاتها خيط رفيع يجمعها في موضوعٍ واحدٍ، وهو ما اصطلح المعاصرون على تسميته بالوحدة الموضوعية، وما قال عنه أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٣هـ): (ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، متَّسِقة المعاني، منتظمة المباني= علْم عظيم)[2].

وهو موضوع شائقٌ، إلا أنه مظنَّة للتكلُّف، والقول على الله بغير علم، إن لم يضبط بضوابط دقيقة، ويعتنى فيه بالتدبُّر والتأمل[3].

وعلى المتدبِّر أن يحرص على معرفة الموضوع الذي تدور حوله السورة القرآنية، فيبحث بأناة وتفكير عميق بحثاً كلياً شاملاً للسورة، ويتتبع ارتباط آياتها، ومعاني جمَلها، وعلاقتها بهذا الموضع أو بما تفرَّع عنه من عناصر، وما اتصل به من موضوعات جزئية، وأحكام وشواهد.

وهذا البحث له فوائد جمَّة، يتوصَّل إليها ذوو الأهلية والكفاية لهذا العمل من أهل التدبُّر والاستنباط، وباكتشاف الترابط قد تصحَّح مفاهيم، وترجَّح تفسيرات.

ولدى البحث الدقيق يلاحظ أنَّ السورة القرآنية تشتمل على وحدات معانٍ متماسكة، تشبه حلقات مترابطات، مشمولات بحلقة أكبر منها، هي داخلة فيها، ومتعلِّقة بها، ولا

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٤١)، والموافقات للشاطبي (٤/ ٢٥٧) في ذكرهما موضوعات سورة البقرة، ومن العلماء الذين اعتنوا بذكر موضوعات السور: الفيرز أبادي في كتابه بصائر ذوي التمييز، والبقاعي في مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير.

[2] من كلام ابن العربي المالكي، نقله عنه الزركشي في البرهان (١/ ٣٦) وعزاه إلى كتابه: سراج المريدين، ولم أقف عليه مطبوعاً.

[3] انظر: المحرر في علوم القرآن (٢٠٩-٢١٠).

يشترط في كلِّ حلقة موجودة على مسير خط النصِّ أن تكون مرتبطة بالتي قبلها مباشرة، بل قد يكون الارتباط بأساس الموضوع، أو بحلقة دونها.

إنَّ السورة القرآنية من الناحية البيانية والمعاني والدلالات التي اشتملت عليها= بمثابة حلَّة أدبية رائعة، وهي ذات موضوع واحد كلِّي، وقد لا يظهر أو يستبين الارتباط بين الآية وموضوع السورة؛ بالنظرة الجزئية أو السريعة للنصِّ، وحينها يحتاج المتدبِّر لمضاعفة الجهد، وزيادة النظر والتأمل، حتى تظهر له الوحدة الموضوعية.

ومن الأمثلة التي تظهر بالتدبُّر في موضوعات السور: تدبُّر سورة العلق، فموضوعها الكليِّ عند التدبُّر: بيان حاجة الإنسان إلى الدين، وما يجب عليه اتجاهه، وعرض لأقسام الناس وأحوالهم مع الدين.

وموضوعاتها الجزئية أربعة موضوعات هي:

أ- الأمر بالتعلم والتفكُّر: في مقطع السورة الأول: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥]، حيث جاء الأمر بوسيلة مهمة من وسائل التعلُّم، وهي القراءة، والاستعانة بالله على ذلك: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، ثمَّ التوجيه للاستدلال على الربِّ الخالق بظاهرة خلق الإنسان: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾، ثمَّ الأمر بتكرير القراءة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ لما في التكرار من فتح أبواب تدبُّر المعاني وفهمها، مع الأجر العظيم لتالي القرآن المنزَّل، أشار إلى ذلك قوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، ثم التوجيه لكتابة المعارف والعلوم، والامتنان بذلك لرب العالمين ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

ب- التحذير من الدنيا، والتذكير بالآخرة في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق:٦-٨]، فإنَّ الانشغال بالدنيا، وتطلُّب الغنى فيها، والشعور بالاستغناء عن مدد الله وعونه؛ يبعِد الإنسان عن العلم والدين، ويورثه الطغيان، والبعد

عن مراد الله من خلقه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾، والإنسان ممتحنٌ في الدنيا، والآخرة هي دار الجزاء: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾.

ج- بيان أقسام الناس في مواجهة الدين في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٣]، فبيَّن أنهم أربعة أقسام:

- الكافر الداعي إلى الكفر، الذي ينهى عباد الله عن الإيمان بالله أو عن عبادته: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ وهذا صنف أئمة الضلال.

- مؤمن في نفسه مهدي: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ﴾.

- مؤمن في نفسه مهدي، ويأمر عباد الله بالتقوى: ﴿أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ﴾،وهذا صنف الدعاة إلى الله.

- كافر في نفسه، غير داع إلى الكفر، اكتفى بالتكذيب والإعراض عن الدين: ﴿أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

د- توجيه الكافر وزجره وتحذيره، وزجر من شكَّ أو أراد أن يطيع الكافر الداعي إلى الكفر من طاعته واتباعه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾[العلق:١٤-١٩].

فوجَّه الكافر وعرَّفه بأنَّ الله يراه، ويعلم ما يكسب، وسيحاسبه على كفره وعمله، ويجازيه بحكمته عدله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، كما زجر الكافر الداعي إلى الكفر، وهدده بالعذاب والعقاب: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، ثمَّ زجر من شكَّ أو أراد أن يطيع الكافر، ونهاه عن ذلك بقوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب۩﴾.

وبهذا اتَّضح ترابط السورة في موضوعاتها الجزئية، وموضوعها الكلي عند التدبُّر(١).

---

(١) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٢٧-٤٤).

- المطلب الثاني: يراعى في التدبُّر النَّظر إلى سياق الآية؛ سباقها ولحاقها:

من المنهجية اللازمة في التدبُّر: مراعاة السياق الذي ورد فيه المعنى من النصِّ؛ فلا يُعزل جزء من الآية -مثلاً- عن سائر الآية، أو الآيات الواردة في سياق الحديث عن أمر ما، أو موضوع ما، فقد يجرُّ ذلك إلى فهم غير صحيح، أو إلى تعطيل دلالة النصّ، وصرفه عن المعنى المراد الذي لا يُفهَم إلا بإبقاء النظم القرآني على حاله، "فإنَّ الدلالة في كل موضع بحسب سياقه، وما يحفُّ به من القرائن اللفظية والحالية"(١).

و"السياق يرشد إلى بيان المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته"(٢).

فينبغي فهم الآية القرآنية وفق ترتيب نظمها وسياقها، ومقتضى الحال، والنَّظر في قرائن الكلام، وضمِّ النظير إلى نظيره.

قال العزُّ بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٦٠هـ): (السياق مرشد إلى تبين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعرف الاستعمال، فكلُّ صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحاً، وكلُّ صفة وقعت في سياق الذم كانت ذماً، فما كان مدحاً بالوضع فوقع في سياق الذمِّ صار ذماً واستهزاء وتهكماً بعرف الاستعمال، مثاله: ﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾ [الدخان:٤٩]، أي الذليل المهان لوقوع ذلك في سياق الذم، وكذلك قول قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ [هود:٨٧]، أي: السفيه الجاهل لوقوعه في سياق الإنكار عليه)(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٤).

(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٩)، وانظر: تفسير السعدي (٣٤).

(٣) الإمام في بيان أدلة الأحكام (١٥٩-١٦٠).

"فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره، إلا بحجَّة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل، أو خبر عن الرسول ﷺ تقوم به حُجَّة"[1]، وذلك لأنَّ "توجيهُ الكلام إلى ما كان نظيرًا لما في سياق الآية، أولى من توجيهه إلى ما كان مُنعدِلا عنه"[2].

ومراعاة السياق مهمة أيضاً حتى في بيان معاني المفردات، وقد تميَّز الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٠٢هـ) بذلك، فقال عنه الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٩٤هـ): (وهذا يعتني به الراغب كثيراً في كتاب المفردات؛ فيذكر قيداً زائداً على أهل اللغة في تفسير مدلول اللفظ لأنه اقتنصه من السياق)[3].

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط في التدبُّر: في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٦-٧]، قد يستدلُّ بها بعض الناس بأنَّ الإسلام يتَّجه إلى ذمِّ العلم بأمور الدنيا وعدم العناية بها، ويحكُم بالترغيب شرعاً في الانصراف عن ذلك، معتمداً على هذه الآية.

وهذا استدلال خاطئ، لعدم النظر إلى سباق الآية ولحاقها؛ أي ما قبلها وما بعدها، والتحقق من مدلولها والمراد بها، والذي هو: ذمُّ العناية بأمر الدنيا وعلومها، مقابل إغفال أمر الآخرة، وإغفال العلم الشرعي بها، والغفلة عنه، فالمذموم هو الجمع بين هذين المعنيين، فالمرء مأمور بالعناية بالأمرين، ومتى أخذ بأحدهما على حساب الآخر؛ فقد أخطأ حكم الشرع[4].

---

[1] تفسير الطبري (٩/ ٣٨٩).

[2] تفسير الطبري (٦/ ٩١).

[3] البرهان (٢/ ١٧٢)، وانظر: قواعد التفسير (٢/ ٦٥٣-٦٥٤).

[4] انظر: تدبُّر القرآن وقفات ولفتات- أ.د/ عبدالله الرحيلي (٨٠).

ومن الضوابط المهمَّة المتعلِّقة بالسياق:

- **إذا جاء سياق الآيات في أمور خاصة، وأراد الله أن يحكم عليها، وذلك الحكم لا يختصُّ بها، بل يشملها ويشمل غيرها، جاء الله بالحكم العام**. وهذا من أسرار القرآن وبدائعه، ومن أكبر أدلة إحكامه وانتظامه العجيب.

ومن أمثلة ذلك: أنَّ الله لما ذكر المنافقين وذمَّهم، واستثنى منهم التائبين، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[النساء:١٤٦]، فلما أراد الله أن يحكم لهم بالأجر لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، بل قال: ﴿وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١٤٦]، ليشملهم وغيرهم من كلِّ مؤمن، ولئلا يظنَّ اختصاص الحكم بهم.

ولما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١]، فلم يقل: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ﴾، للحكمة ذاتها[١]، والله أعلم.

- المطلب الثالث: الأصل حمل النصوص في تدبرها على العموم إلا بدليل يخصصها:

وتوضيح ذلك: أنه إذا كان ظاهر النصِّ دالاً على العموم، فإنه يتعيَّن حمله عليه في المعنى، فأصل التشريع جاء عاماً، ولا يجوز أن يكون المعنى أضيق من دلالة اللفظ إلا بدليل يدلُّ على ذلك[٢].

فالمنهج الأمثل للمتدبِّر: أن يحمل اللفظة أو الجملة القرآنية على دلالتها الكلية، ومعناها

---

[١] انظر: القواعد الحسان (١٢٢).

[٢] انظر: التمهيد لابن عبد البر (١/ ٣٠٤)، المسودة في أصول الفقه لابن تيمية (١١١)، قواعد التفسير (٢/ ٥٩٩).

الشامل، حتى تدلَّ كلُّ الجزئيات والأفراد والصور التي يمكن أن تكون مشمولة بها، ما لم يقم الدليل على التخصيص ببعض هذه الجزئيات أو الأفراد أو الصور دون بعض.

ويفيد معرفة ذلك للمتدبِّر: أنه حين ينظر في تفسير بعض المفردات أو الآيات، سيجد عدة وجوه في تفسيرها، وعند النظر والتمحيص سيظهر له إمكان الجمع بينها جميعاً، لأنَّ الآية عامة، يصلح أن تدلَ عليها دون تعارض، فتكون تلك الوجوه إنما هي تفسير للنصِّ ببعض ما يدلُّ عليه من جزئيات وأفراد[1].

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط في التدبُّر:

في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]، ذكر بعض العلماء في تفسيرها معانٍ تدور بين كون الأهلة مواقيت للصوم والإفطار، والحج والمناسك، والطلاق والحيض، ونحو ذلك.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١٠هـ) بعد استعراض الأقوال فيها: (مواقيتَ لكم ولغيركم من بني آدم في معايشهم، ترقبون بزيادتها ونقصانها ومحاقِها واستسرارها وإهلالكم إياها، أوقات حَلِّ ديونكم، وانقضاء مدة إجارة من استأجرتموه، وتصرُّم عدة نسائكم، ووقت صومكم وإفطاركم، فجعلها مواقيت للناس)[2].

فحمَل المعنى على العموم، ولم يخصصه بشيء بعينه.

وعند التدبُّر: يظهر أنَّ النصَّ القرآني لم يقصِر التوقيت بها، وإنما جعلها من العلامات التي يكون بها التوقيت، فجاء بها بالتنكير الذي لا يفيد الحصْر ولا القصر: ﴿هِىَ مَوَٰقِيتُ

---

(١) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٥٩-٦٠).

(٢) تفسير الطبري (٣/ ٥٥٥).

﴿لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٩]، ولم يقل: (هي المواقيت للناس)، فإنَّ الشمس أيضاً فيها مواقيت؛ بشروقها وغيابها وشفقها، ونحو ذلك[١].

ومن الضوابط المفيدة للمتدبِّر المتعلِّقة بالعموم: **أنَّ الخطاب لواحد من الأمة يعمُّ غيره إلا لدليل يخصصه به.**

فالخطاب لواحد من المكلفين، يعمُّ غيره، وإن لم يشركهم فلا، كما في قوله تعالى لأهل بدر: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ [الأنفال:٦٩] ، ولأهل أحد: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾[آل عمران:١٢٢]، فإنَّ ذلك لا يعمُّ غيرهم[٢].

ومن أمثلته عند التدبُّر: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب:٥٣]، يستفاد منه: أنَّ الحكم المذكور في الآية يشمل جميع النساء، وليس مخصوصاً بأزواج النبي ﷺ،"فإنَّ تعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[الأحزاب:٥٣]، قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم؛ إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين؛ إنَّ غير أزواج النبي ﷺ لا حاجة إلى أطهرية قلوبهن، وقلوب الرجال من الريبة منهنَّ، وقد تقرر في الأصول أنَّ العلَّة قد تعمم معلولها،.... ففي هذه الآية الكريمة الدليل الواضح على أنَّ وجوب الحجاب حكْم عام في جميع النساء، لا خاص بأزواجه ﷺ، وإن كان أصل اللفظ خاصا بهنَّ؛ لأنَّ عموم علَّته دليل على عموم الحكم فيه، ومسلك العلة الذي دلَّ على أن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣]، هو علَّة قوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[الأحزاب:٥٣]، هو المسلك المعروف في الأصول بمسلك الإيماء والتنبيه"[٣].

---

[١] انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٦٤-٦٥).

[٢] انظر: البحر المحيط للزركشي (٤/ ٢٦٩)، المختصر في أصول الفقه (١١٤)، مختصر التحرير لابن النجار (٣/ ٢٤٦).

[٣] أضواء البيان (٦/ ٢٤٢).

ومن الضوابط المتعلِّقة بالعموم أيضاً: **أنَّ عموم الأشخاص يستلزم عموم الأحوال والأزمنة والبقاع والمتعلَّقات**[1].

وتوضيح ذلك: الأصل أنَّ صيغة العموم الواردة على الذوات أو الأفعال؛ ينجرُّ العموم فيها ليشمل الأحوال والأزمنة والبقاع والمتعلَّقات، وهذا من مقتضى العموم[2].

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٠٢هـ): (أولع بعض أهل العصر - وما يقرب منه - بأن قالوا: إنَّ صيغة العموم إذا وردت على الذوات مثلاً أو على الأفعال، كانت عامة في ذلك، مطلقة في الزمان والمكان، والأحوال والمتعلقات. ثمَّ يقولون: المطلق يكفي في العمل به صورة واحدة، فلا يكون حجة فيما عداه، وأكثروا من هذا السؤال فيما لا يحصى من ألفاظ الكتاب والسنة، وصار ذلك ديدناً لهم في الجدال، وهذا عندنا باطل، بل الواجب: أنَّ ما دلَّ على العموم في الذوات - مثلاً - يكون دالاً على ثبوت الحكم في كل ذات تناولها اللفظ، ولا تخرج عنها ذات إلا بدليل يخصه، فمن أخرج شيئاً من تلك الذوات، فقد خالف مقتضى العموم)[3].

ومن أمثلة إعمال ذلك في التدبُّر: في قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا﴾ [الإسراء:٢٣]، يُفهم منه عند التدبُّر مع إعمال هذا الضابط: أنه لا يجوز أن يتأفَّف المرء من والديه في جميع ظروفها، ومراحل حياتهما، فاللفظ وإن نصَّ على الكبر والكهولة -لمظنة عجز أحدهما عن خدمة

---

[1] انظر: المختصر في أصول الفقه لابن اللحام (١٠٦)، تشنيف المسامع للزركشي (٢/ ٦٥٥)، الغيث الهامع (٢٧٤)، غاية الوصول (٧٤)، مختصر التحرير لابن النجار (٣/ ١١٥)، وممن أعمل هذا الضابط كثيراً في تفسيره ابن عاشور في التحرير والتنوير، انظر مثلاً: (٢/ ٢٠١)، (١٩/ ٢٢)، (٢١/ ٢٧)، (٢٩/ ٤١٣).

[2] انظر: قواعد التفسير (٢/ ٦٠٦).

[3] إحكام الأحكام (١/ ٩٨).

نفسه، وخروجه عن مقتضى العقل أحياناً، وحصول ما يوجب التذمُّر-؛ إلا أنه يعمُّ جميع الأحوال والأوقات من باب أولى.

ومن أمثلته أيضاً: في قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾[البقرة:٢٣٩]، لا يفهم منها عند التدبُّر جواز صلاة راجل ماشياً، ولا صلاة راكب مسايفاً أو طاعناً؛ لأنَّ الآية اقتضت عموم الأحوال لا عموم الرّكبان والرّجال، والمراد الخوف من العدوِّ، أو ما يقوم مقام العدوِّ ممَّا فيه تلف النّفس[١]، والله أعلم.

- المطلب الرابع: الأصل في تدبُّر الأمر اعتبار الوجوب، وفي النهي اعتبار التحريم:

فإذا ورد شيء من نصوص الوحي بصيغة أمر مجرَّدة عن القرائن فتحمل على الوجوب، وإذا وردت صيغة نهي مجرَّدة عن القرائن؛ حُمِلَت على التحريم، أما إذا اقترنت قرينة أو دليل يدلُّ على خلاف الأصل، فتحمل النصوص على ما دلَّت عليه القرينة أو الدليل.

وتعريف الأمر عند الأصوليين هو: استدعاء الفعل بالقول على جهة الاستعلاء[٢].

والنهي: اقتضاء أو استدعاء الترك بالقول ممن هو دونه[٣].

وصيغ الأمر الصريحة أربع[٤]:

١ - فعل الأمر، مثل: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[العنكبوت:٤٥].

٢ - اسم فعل الأمر، مثل: حيَّ على الصلاة.

---

[١] درج الدرر في تفسير الآي والسور (١/ ٣٣٦).

[٢] انظر: العدة في أصول الفقه لأبي يعلى (١/ ١٥٧)، الورقات (١٣)، الإحكام للآمدي (٢/ ١٤٠)، الأنجم الزاهرات على حل ألفاظ الورقات (١١٥)، التحبير شرح التحرير (٥/ ٢١٦٧).

[٣] انظر: العدة في أصول الفقه (١/ ١٥٩)، الورقات (١٥).

[٤] انظر: الأصول من علم الأصول لشيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٣).

٣ – المصدر المؤكِّد لعامله، النائب عن فعل الأمر، مثل: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾[محمد:٤].

٤ – المضارع المقرون بلام الأمر، مثل: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[الفتح:٩].

ومن صيغ الأمر: الإخبار بأنَّ الفعل مكتوب على المخاطبين، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[البقرة:١٨٣].

ومنها: الإخبار بأنَّ الفعل على الناس عامة أو على فئة منهم خاصة، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾[آل عمران:٩٧].

ومنها: الوصية بالفعل، كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾[النساء:١١].

وصيغة الأمر (افعل) تستعمل في أمور عديدة منها:

الإيجاب، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣].

والندب كقوله: ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾[النور:٣٣].

وللإرشاد كقوله: ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾، ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾[البقرة:٢٨٢]، والفرق بين الندب والإرشاد: أن الندب لثواب الآخرة، والإرشاد لمنافع الدنيا، فإنه لا ينتقص الثواب بترك الاستشهاد في المداينات ولا يزيد بفعله.

وللإباحة مثل قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾[البقرة:٦٠].

وللتهديد مثل قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ﴾[الإسراء:٦٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[فصلت:٤٠].

وللامتنان مثل: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا﴾[النحل:١١٤].

وللإكرام: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[الحجر:٤٦].

وللتسخير: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[البقرة:٦٥].

وللتعجيز: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾[البقرة:٢٣].

وللإهانة: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾[الدخان:٤٩].

وللتسوية: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾[الطور:١٦].

وللدعاء: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾[الأعراف:١٥١].

وللاحتقار كقوله تعالى: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾[يونس:٨٠].

وللتكوين: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[البقرة:١١٧].

وجعل بعضهم من المعاني: الإذن، نحو قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾[المؤمنون:٥١]، والخبر نحو: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾[التوبة:٨٢]، والتفويض نحو: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[طه:٧٢]، والمشورة كقوله: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾[الصافات:١٠٢]، والاعتبار نحو: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾[الأنعام:٩٩]، والتكذيب نحو: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾[البقرة:١١١]، والتلهيف نحو: ﴿قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡ﴾[آل عمران:١١٩]، والتصبير نحو: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ﴾[الزخرف:٨٣]، وغير ذلك[1].

وصيغة الأمر الصريحة حقيقة في الوجوب ظاهرة فيه، وذلك كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾[الإسراء:٧٨]، فهي عند الإطلاق تقتضي: وجوب المأمور به، والمبادرة بفعله فوراً، بدليل العقل والنقل، ومن أدلة ذلك ما يلي:

---

[1] انظر: المحصول للرازي (٢/ ٣٩)، إرشاد الفحول (١/ ٢٥٥).

١- أما العقل، فإنا نعلم من أهل اللغة، قبل ورود الشرع، أنهم أطبقوا على ذمِّ عبد لم يمتثل أمر سيده، وأنهم يصفونه بالعصيان، ولا يذم ويوصف بالعصيان إلا من كان تاركاً لواجب عليه.

٢- وأما المنقول: فقد تكرر استدلال السلف بهذه الصيغة مع تجرُّدها عن القرائن على الوجوب، وشاع ذلك وذاع بلا نكير، فأوجب العلم العادي باتفاقهم على أنه له.

٣- قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]، فحذَّر الله المخالفين عن أمر الرسول ﷺ أن تصيبهم فتنة، وهي الزيغ، أو يصيبهم عذاب أليم، والتحذير بمثل ذلك لا يكون إلا على ترك واجب؛ فدلَّ على أنَّ أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأمْر رسوله ﷺ المطلق؛ يقتضي وجوب فعل المأمور.

٤- قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[البقرة:١٤٨]، [المائدة:٤٨]، والمأمورات الشرعية خير، والأمر بالاستباق إليها دليل على وجوب المبادرة.

٥- قوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[الأعراف:١٢]، وليس المراد منه الاستفهام بالاتفاق، بل الذم، وأنه لا عذر له في الإخلال بالسجود بعد ورود الأمر به له في ضمن قوله سبحانه للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[البقرة:٣٤]، فدلَّ ذلك على أنَّ معنى الأمر المجرَّد عن القرائن الوجوب، ولو لم يكن دالاً على الوجوب لما ذمَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على الترك، ولكان لإبليس أن يقول: إنك ما ألزمتني السجود.

٦- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾[المرسلات:٤٨]، فذمَّهم على ترك فعل ما قيل لهم افعلوه، ولو كان الأمر يفيد الندب لما حسن هذا الكلام، كما أنه لو قال لهم: الأولى أن تفعلوا ويجوز لكم تركه فإنه ليس له أن يذمهم على تركه.

٧- قوله تعالى: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه:٩٣]، أي تركت مقتضاه، والأمر الذي أمره به هو قوله تعالى: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ [الأعراف:١٤٢]، وهو أمر مجرَّد عن القرائن، فدلَّ على أن تارك المأمور به عاص، وكل عاص متوعَّد، وهو دليل الوجوب لهذه الآية، ولقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن:٢٣].

٨- أنَّ الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يستدلُّون بالأوامر على الوجوب، ولم يظهر مخالف منهم، ولا من غيرهم في ذلك فكان إجماعاً[١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وكلُّ فعل عظمه الله ورسوله، ومدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرحه به، أو أحبه، أو أحب فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب أو البركة أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبته، أو لثواب عاجل أو آجل، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو لمغفرة ذنبه وتكفير سيئاته، أو لقبوله أو لنصرة فاعله، أو بشارة فاعله بالطيب، أو وصف الفعل بكونه معروفاً، أو نفي الحزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب) [٢].

وهذا الضابط مهمٌّ للمتدبِّر، إذ يعرف به حقيقة الأمر الذي يعرض لتدبُّره في القرآن، ومعرفة صيغ الأمر ودلالاتها، يجعل تدبُّره صحيحاً سليماً.

ومن أمثلة إعمال ذلك:

---

[١] انظر: إرشاد الفحول (١/ ٢٤٧-٢٥٢).

[٢] بدائع الفوائد (٤/ ٤).

- قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [النساء:١٩]، يفيد عند تدبُّره: أنَّ الواجب أن يطأ الرجل زوجته حسب المعروف والحاجة، لأنه من أعظم المعاشرة الداخلة في معنى الآية، وليس كما فهمَ بعض الفقهاء من قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٍ﴾ [البقرة:٢٢٦]؛ أنه لا يجب عليه ذلك إلا في كلِّ ثلث سنة مرَّة، فمفْهومها يدلُّ على خلاف ذلك، وهو حكْم خاص بالمولي، فمن آلى زوجها منها فله أربعة أشهر لا تملك المطالبة، إلا أن يتبيَّن أنه قصده الضرار، فيمنع من ذلك[1].

ومما يدخل تحت هذه القاعدة بخصوص الأمر، ضابط آخر، هو:

- **أنَّ الأمر لجماعة يقتضي وجوبه على كلِّ واحد منهم إلا لدليل**[2].

ومعنى ذلك: "أنَّ الأمر المتوجِّه إلى جماعة؛ إما أن يكون بلفظ يقتضي تعميمهم به، أو لا يكون، فإن كان بلفظ يقتضي تعميمهم، نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة:١١٠]؛ فإما ألا يعترض عليه دليل يدلُّ على اختصاص الخطاب ببعضهم، أو يعترض دليل على ذلك، فإن لم يعترض على العموم دليل، اقتضى وجوبه على كل واحد منهم؛ لأنَّ الواو في (افعلوا) كالواو في (الزيدون) وكلاهما للجمع، ثم الواو في (الزيدون) تدلُّ على أشخاص متعددة، نحو: زيد وزيد وزيد؛ فكذلك الواو في (افعلوا) تدلُّ على عدة مخاطبين؛ فهي في قوة قوله: افعل أنت وأنت وأنت، كذلك، حتى يستغرق المخاطبين.

وإن اعترض على العموم دليل يقتضي اختصاصه ببعضهم؛ فالبعض إما معيَّن، أو غير معيَّن.

فإن كان معيَّناً؛ فذلك هو العام المخصوص، سواء كان التعيين باسم، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ۝٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الحجر:٥٨-٥٩]، وقول القائل: قام القوم إلا زيداً، أو بصفة، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۢ بَعۡضُهُمۡ

---

[1] انظر: المواهب الربانية للسعدي (٢٦).

[2] انظر: روضة الناظر (١/ ٥٨٣)، المسودة في أصول الفقه لابن تيمية (٣٠)، شرح مختصر الروضة (٢/ ٤٠٣).

لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾ [الشعراء:١٧١].

وإن كان ذلك البعض غير معين، أو كان الخطاب بلفظ لا يعمُّ الجميع، وهو القسم الثاني من أصل التقسيم، نحو قوله سبحانه: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[آل عمران:١٠٤]؛ فهذا هو فرض الكفاية"[١].

ومن القواعد المفيدة للمتدبِّر مما يتعلَّق بالأمر ووجوبه:

- أنَّ ما أمر الله به في كتابه: إما أن يوجَّه إلى من لم يدخل فيه، فهذا أمرٌ له بالدخول فيه، وإما أن يوجَّه لمن دخَل فيه، فهذا أمره به ليصحِّح ما وُجد منه، ويسعى في تكميل ما لم يوجد منه.

وهذه القاعدة مطَّردة في جميع الأوامر القرآنية: أصولها وفروعها، وهي قاعدة مهمة، ويقصد بها: أنَّه إذا وجه الخطاب بشيء إلى شخص لم يتَّصف به، فهو أمر بفعله وإيجاده، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[البقرة:٢١]، فليس كلُّ الناس عابدين لله، فيكون الخطاب هنا موجَّهاً لكلِّ أحد حتى إلى الكفار، فيكون أمراً بفعل هذا الشيء، أما إذا وجه الأمر إلى من تلبَّس به واتَّصف به، فهو أمر بتحقيقه، وتكميل ما نقص منه، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾[النساء:١٣٦]، وما أشبه ذلك.

"فإنه أمَرهم بما يصحِّح ويكمِّل إيمانهم من الأعمال الظاهرة والباطنة، وكمال الإخلاص فيها، ونهاهم عما يفسدها وينقصها، وكذلك أمره للمؤمنين أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويصوموا رمضان أمرٌ بتكميل ذلك، والقيام بكل شرط ومكمل لذلك العمل، والنهي عن كل مفسد وناقص لذلك العمل، وكذلك أمره لهم بالتوكل والإنابة ونحوها من أعمال القلوب؛ هو أمر بتحقيق ذلك، وإيجاد ما لم يوجد منه.

---

[١] شرح مختصر الروضة (٢/ ٤٠٣-٤٠٤).

وبهذه القاعدة؛ نفهم جواب الإيراد الذي يورد على طلب المؤمنين من ربهم الهداية إلى الصراط المستقيم، مع أنَّ الله قد هداهم للإسلام!، جوابه: ما تضمَّنته هذه القاعدة، ولا يقال: هذا تحصيل للحاصل، فافهم هذا الأصل الجليل النافع، الذي يفتح لك من أبواب العلم كنوزاً، وهو في غاية اليسر والوضوح لمن تفطَّن"[1].

أما النهي: فالأصل فيه التحريم، ولا ينقل عن التحريم إلى الكراهة إلا بدليل يدلُّ على ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧]، فأمر بالانتهاء عن المنهي عنه والأمر للوجوب فكان الانتهاء عن المنهي واجباً، وذلك معنى أنَّ النهي للتحريم[2].

وصيغة النهي إذا جاءت مطلقة عما يصرفها عن حقيقتها إلى معان أخرى؛ فإنَّ الأصل فيها التحريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ [آل عمران:١٣٠]، فلو جاءت معها قرينةٌ تصرفها فإنها تنصرف إلى الكراهة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم، والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل، وقوله (لا ينبغي) فإنها في لغة القرآن والرسول للمنع عقلاً أو شرعاً، ولفظة:(ما كان لهم كذا ولم يكن لهم)، وترتيب الحد على الفعل، ولفظة (لا يحل ولا يصلح)، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وإن الله لا يحبه، وأنه لا يرضاه لعباده، ولا يزكي فاعله، ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك) [3].

وقد ترد صيغة النهي وتحتمل معانٍ أخرى منها:

---

[1] القواعد الحسان للسعدي (١٢١) بتصرف.

[2] انظر: المحصول للرازي (٢/ ٢٨١)، المسودة لابن تيمية (٨١)، تيسير التحرير (١/ ٣٨٧).

[3] بدائع الفوائد (٤/ ٣).

- الكراهة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾[الأنعام:١٢١].

- التحقير لشأن المنهي عنه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ﴾[طه:١٣١].

- التحذير، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[آل عمران:١٠٢].

- بيان العاقبة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾[آل عمران:١٦٩].

- اليأس، كقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾[التوبة:٦٦].

- للإرشاد إلى الأحوط بالترك، كقوله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾[المائدة:١٠١].

- اتباع الأمر من الخوف كقوله: ﴿وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[القصص:٣١].

- الدعاء، كقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:٢٨٦].

- الالتماس، كقول موسى للخضر: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾[الكهف:٧٣].

- الإباحة وذلك في النهي بعد الإيجاب فإنه إباحة للترك.

- الخبر، مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[الرحمن:٣٣].

- وقد يجيء النفي في معنى النهي، ويختلف حاله بحسب المعاني: منها أن يكون نهياً وزجراً، كقوله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا﴾[التوبة:١٢٠].

ومنها: أن يكون تعجيزاً، كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾[النمل:٦٠].

ومنها: أن يكون تنزيهاً، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾[مريم:٣٥] (١).

ومن الأمثلة التدبُّرية التي تبين فائدة العلم بهذا الضابط بخصوص النهي:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾ [الأنفال:٤٦]، تفيد أنَّ التنازع والخصومة حرام، لما يترتب عليها من أسباب الفشل، وتفويت المصالح، فإنَّ الله حرم

---

(١) انظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٣/ ٣٦٧-٣٧٠).

التنازع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]، وهو في قتال الأعداء -الذي هو من أشدّ الأشياء وأصعبها ومظنة الخلاف والتنازع- فغيره من الأمور من باب أولى وأحرى[١].

ومنه أيضاً: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النور:٣٣]، أنه يحرم السعي والتكسّب بكل سبب محرَّم، وأنَّ حامل العاصي على زلّته، والداعي له إلى عثرته، والمعين له على مخالفته تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوزر أكثر من غيره، وبعكسه لو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة[٢]، والله أعلم.

- المطلب الخامس: إذا أثبت الله شيئًا في كتابه امتنع نفيه:

وهذا ضابط مهم، واضح المعنى، وهو سبب لحفظ المتدبِّر بإذن الله من العطب والزلل، ومانع له من الوقوع فيما وقع فيه أصحاب التأويلات الفاسدة، الذين أنكروا بتأويلهم كثيراً من الأمور التي أثبتها الله في كتابه، مثل الباطنية الذين نفوا كثيراً من الحقائق الثابتة، كالجنة والنار والميزان، أو الجهمية الذين نفوا الصفات كلِّها أو بعضها بتأويلات باطلة بدعوى المجاز.

ويدخل تحت هذا الضابط: إثبات كلَّ ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه من الأسماء والصفات، وما أثبته من أمور وأحوال غيبية، وقصص الأنبياء السابقين، وأخبار الأمم الماضية، وأهوال القيامة، وأحوال الناس بعد الموت، وغير ذلك، فليس لأحد أن ينفيه، أو يحرِّفه أو يردَّه، "ومن أثبت ما نفاه الله ورسوله، أو نفى ما أثبت الله ورسوله؛ فهو مخطئ عقلاً كما هو مخطئ شرعاً".

---

(١) انظر: المواهب الربانية للسعدي (٢٨).

(٢) انظر: لطائف الإشارات للقشيري (٢/ ٦١٠)، المواهب الربانية (٧٥).

ويدخل في ذلك أيضاً: ما أثبته الله من قواعد في التعامل مع النفس والشيطان، أو مع الناس بعضهم بعضاً، وما ثبت في القرآن من قواعد لمصلحة الدين والدنيا، ونحو ذلك، فلا يجوز لأحد أن ينفيها ويحرِّف ظاهرها اتباعاً للهوى، وسلوكاً لطريق الجاهلين.

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط في التدبر:

أثبت الله تعالى أنَّ للشيطان خطوات يسير عليها مع العبد حتى يوقعه في الحرام من المطاعم والمكاسب، ومن السوء والفحشاء في القول والعمل، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩]، وقال جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:٢٠٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:١٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١]، فأثبت الله عداوة الشيطان وكيده وخطواته في كلِّ ما سبق، مما عرِف به أنَّ أهل الأهواء والزيغ الذين ينفون ذلك، ويهوِّنون من شأن المعاصي في نفوس الناس، ويتدرَّجون في نشرها وتطبيعها، هم من أولياء الشيطان الذين أخبر الله عنهم، فوجب الحذر منهم.

ومن أمثلة إعمال القاعدة أيضاً في التدبُّر: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠]: أنَّ للعبد مشيئة موجودة للخير والشر، وله قدرة على هذا وهذا، وهو العامل لهذا وهذا، فلا يعتمد العبد على مشيئته فقط، بل يعلم أنها مرتبطة بمشيئة الله، فيلجأ له سبحانه في سؤال الهداية والرشاد، لأنَّ الله أثبت المشيئتين: مشيئة الرب، ومشيئة العبد؛

وبين أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب، فهو سبحانه خالق ذلك كله وربه ومليكه؛ لا خالق غيره؛ ولا رب سواه؛ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[1].

ومما يمكن أن يُلحق بهذا الضابط: **أنَّ الله سبحانه كثيراً ما ينفي الشيء لعدم فائدته وثمرته المقصودة منه، مع بقاء صورته.**

فالأصل أنَّ الشيء قد يُنفى لانتفاء حقيقته، وهذا هو الأصل، وقد ينفى لانتفاء ثمرته وفائدته المرجوة، فيكون في حكم العدم؛ فالله سبحانه خلق الإنسان وركَّب فيه القوى، من السمع والبصر والفؤاد وغيرها؛ ليعرف بها ربه ويقوم بحقه، وهذا هو المقصود منها، وبوجود ما خلقت له تكمل ويكمل صاحبها، وبفقد ذلك يكون وجودها أضرَّ على الإنسان من عدمها، وتكون محنة وحجَّة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خلقت له.

ومن أمثلة نفي ذلك وصفه سبحانه للكافرين بأنهم: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، وأنهم: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٌ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٌ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٌ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾ [الأعراف:١٧٩]، فأخبر سبحانه أنها موجودة، ولكنَّ فوائدها مفقودة: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ [النمل:٨٠-٨١].

وتوضيح ذلك بنحو تدبُّر قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، فلما كان الإيمان النافع هو الذي يُغرس في قلب سليم من الجهل والشكوك والشبهات والتقاليد، ويُسقى بعصارة تدبر آيات الله الكونية والقرآنية، فيثمر في القلب والجوارح أطيب الثمرات من العبادة والطاعة، ولما كان الإيمان النافع هو الذي يتَّفق

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٢٣٨)، تفسير جزء عم لشيخنا ابن عثيمين (٣٧).

عليه القلب واللسان، وهو المثمر لكل خير، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته(١).

- المطلب السادس: لا يكون القسَم في القرآن إلا بأمرٍ ظاهرٍ معظَّم:

المراد بالقسَم: تحقيق الخبر وتوكيده باليمين، فالناس يتفاوتون في تقبُّلهم للحق وانقيادهم لنوره، والقسَم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخلَّلها البرهان المفحم، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد.

ولا يكون قسَم الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا بأمْر عظيم، وقد أقسم الله بنفسه في سبعة مواضع: في قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [يونس:٥٣]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر:٩٢]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [مريم:٦٨]، وقوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:٢٣]، وقوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧]، وقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج:٤٠].

وأقسم مرة بنبيه ﷺ ليعرِّف الناس عظمته عند الله، ومكانته لديه، ولم يقسم سبحانه بحياة إنسان غيره، في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢].

كما أنه سبحانه يُقسِم بما شاء من الأمور الظاهرة من خلْقه، فأقسم سبحانه ببعض مخلوقاته؛ كالتين، والزيتون، والصافات، والشمس، والليل، والضحى، في قوله سبحانه: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين:١]، وقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى:١-٢]، وقوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور:١-٢]، وغير ذلك كثير(٢).

---

(١) انظر: القواعد الحسان (١٣٤-١٣٦).

(٢) انظر: البرهان (٣/ ٤٠)، الإتقان (٤/ ٥٤).

والقسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة أو لمنفعة، فالمنفعة كقوله تعالى: نحو قوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين:١]، والفضيلة كقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين:٢-٣].

وأقسم سبحانه بثلاثة أشياء:

أحداها: بذاته، كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات:٢٣].

والثاني: بفعله، نحو: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:٥-٧].

والثالث: مفعوله، نحو قوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور:١-٢]، وقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم:١][(١)].

فالمقصود: أنَّ إقسامه بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إقسام بأعظم ما يُقسَم به، لكمال عظمته وجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو أمر بيِّن واضح، كما أنَّ إقسامه لا يكون إلا باسم معظَّم في ذاته أو لمنفعة فيه، أو للتنبيه على كوامن العبرة فيه، كما أنَّ عظمة هذه المخلوقات الْمُقسَم بها؛ تدلُّ على بارئها وخالقها، وتدعو إلى التأمل والتدبُّر في عظمته عَزَّوَجَلَّ.

وأثر معرفة ذلك على المتدبِّر يتحقق بالنظر في البحث الطويل والعميق ليستخرج المناسبة بين المقسَم به والْمُقسَم عليه، وأن يبحث بأناة ليعرف أغراض القسم؛ من تأكيد الخبر، أو أخبار القضايا التي اشتمل عليها الْمُقسَم عليه، أو التنبيه على ما في المقسَمِ به من أدلة وآيات جليلات، ومعرفة مكانته وأهميته، والتدبُّر في النصِّ لمعرفة المقصود بخطاب القسَم، ومعرفة حال المخاطبين التي اقتضت التأكيد لهم بالقسم، وأن ينظرَ في الحكم التي اقتضت في بعض الأقسام أن تأتي مسبوقة بحرف النفي، مثل: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ [القيامة:١]،[البلد:١].

---

(١) انظر: البرهان (٣/ ٤٢)، وعزاه إلى كتاب: كنز اليواقيت للقشيري، ولم أقف عليه.

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط في التدبُّر: أقسَم الله بالملائكة الموكلين بقبض أرواح الناس نزعاً أو نشطاً، والانصراف بها سبحاً إلى منازل ضيقها، أو منازل انطلاقها، في أول سورة النازعات في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات:١-٥]، فجاء بذكر صنف من الملائكة عظيم، وذو وظائف كبيرة، لبيان عظمته ومكانته، وليس الغرض من القسَم بها -وهي من أمور الغيب- تأكيد خبر البعث الذي هو من الغيب أيضاً، إذ لا يؤكَّد أمر غيبي بأمر غيبي، بل يؤكَّد أمر غيبي بأمر مشهود[١].

ومن أمثلته أيضاً: أنه لمَّا عظُم أمر المعاد، وحشر العباد يوم القيامة؛ أخبر الله عنه -وهو أصدق القائلين-، وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى، وأكثَرَ من ذكره والإقسام عليه، وأمر نبيه ﷺ أن يقسِم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس:٥٣]، وفي قوله: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ:٣]، وفي قوله: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧][٢].

ومن الأمثلة أيضاً: عند تدبُّر قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل:١]، قدم فيها القسَم بالليل، وفي ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ قدَّم القسم بالنهار، لأنَّه لما كان المقسم عليه في الليل: سعي الإنسان وغالبه المعاصي؛ قدَّم الليل الذى هو مظنة الظلمة، ولما كان المقسم عليه فى الضحى لطفه بنبيه ﷺ؛ قدَّم الضحى لحسنه، وكلاهما وقتان معظَّمان، تدلُّ على عظمة الخالق عَزَّوَجَلَّ، إذ الليل والنهار هما قوام حياة البشر[٣].

---

(١) انظر: قواعد التدبر الأمثل (٤٦٣-٤٧٣).

(٢) انظر: التعليق على القواعد الحسان لشيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٧).

(٣) انظر: كشف المعاني لابن جماعة (٣٧٦).

- المطلب السابع: القراءات يبيِّن بعضها بعضاً، وتعين المتدبِّر على فهم النص:

القراءات: جمع قراءة، وهي علمٌ يُبحث فيه عن كيفية أداء ألفاظ القرآن، واختلافها بعزو الناقلة[1].

والقراءة الصحيحة: هي كلُّ قراءة وافقت اللغة العربية ولو بوجه، ووافقت رسم أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا، وصحَّ سندها، ومتى اختلَّ ركن من هذه الأركان الثلاثة أُطلق عليها: ضعيفة، أو شاذة[2].

ومقصود الضابط هنا: أنَّ بعض القراءات يبيِّن ما قد يُجهل من المعاني في القراءة الأخرى ويوضِّحه، وذلك التبيين له ثلاث حالات:

الأولى: إما أن توضِّح إحداهما الأخرى، وتفهم المعاني من بعضها البعض[3].

مثال ذلك: في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ﴾ [البقرة:٢٢٢]، قرئت: ﴿يَطۡهُرۡنَ﴾ وقرئت: ﴿ يَطَّهَّرْنَ﴾[4]، فقراءة التشديد مبيِّنة لمعنى قراءة التخفيف، ويُفهم منها: أنه لا يجوز قربان المرأة قبل الاغتسال مع انقطاع الدم[5].

---

[1] انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٢٦)، منجد المقرئين لابن الجزري (٩).

[2] انظر: النشر في القراءات العشر (١/ ١٢٥)، دليل الحيران على موارد الظمآن (٦٣)، مناهل العرفان (١/ ٤٢٢)، قواعد التفسير (٢/ ٨٤).

[3] انظر: الإتقان (١/ ٢٧٩)، قواعد التفسير (١/ ٩٠).

[4] انظر: السبعة في القراءات (١٨٢)، الحجة في القراءات السبع (٩٦).

[5] انظر: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه (١٩١)، غريب القرآن لابن قتيبة (٧٧)، الإتقان (١/ ٢٧٩).

الثانية: أن تكون لكلِّ قراءة معنى يُغاير معنى القراءة الأخرى، وهما في موضع واحد، ولم يُمكن اجتماعهما في شيء واحد، فهما بمنزلة الآيتين، فيكون تعدد القراءات بمنزلة تعدد الآيات، وتؤدي القراءات المختلفة كاملاً في المعاني المقصودة جميعاً[1]، مثال ذلك: في قوله تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴾ [الصافات:١٢]، قُرِئَت: ﴿ بَلۡ عجبتُ ﴾[2]، فيكون المعنى على قراءة الرفع من فعل الله تعالى، وعلى قراءة الفتح راجعاً للنبي ﷺ[3].

الثالثة: أن يختلف معنى القراءتان، ولم يظهر تعارضهما، وعادتا إلى ذات واحدة، كان ذلك من الزيادة في الحكم لهذه الذات[4]، ومثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ [الكهف:٨٦]. قرئت: ﴿حَمِئَةٖ﴾ من الحمأة، وهو الطين المنتن المتغير اللون، وقرئت: ﴿حَامِيَة﴾ بمعنى: حارة[5]، ولا تعارض بينهما، إذ من الجائز "أن تكون العين التي تغرُب الشمس فيها حارة، وقد تكون حارة وذات حمأة وطينة سوداء، فتكون موصوفة بالحرارة وهي ذات حمأة"[6].

وإعمال هذا الضابط للمتدبِّر يظهر أثره في نحو تدبُّر قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [البقرة:٢٥١]، فقد قرئت: ﴿وَلَوۡلَا دِفاعُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٥١][7]، وفيه عند التدبُّر زيادة وتكامل في المعنى، فالقراءة الأولى تدلُّ على سنة الله الثابتة في الاجتماع البشري، القائمة على دفعه الكافرين من الناس بعضهم ببعض عن

---

(١) انظر: أضواء البيان (١/ ٣٣٠)، قواعد التدبر الأمثل (٧٢٢)، قواعد التفسير (١/ ٨٨).

(٢) انظر: السبعة في القراءات لابن مجاهد (٥٤٧)، الحجة في القراءات السبع (٣٠١).

(٣) انظر: الحجة في القراءات السبع (٣٠١)، معاني القراءات للأزهري (٢/ ٣١٧).

(٤) انظر: فصول في أصول التفسير د/ مساعد الطيار (١٦٨)، قواعد التفسير (١/ ٨٩).

(٥) انظر: معاني القراءات (٢/ ١٢١)، حجة القراءات (٤٢٨).

(٦) حجة القراءات (٤٢٩).

(٧) انظر: معاني القراءات (١/ ٢١٥)، حجة القراءات (٤٧٩).

المؤمنين إذا كانوا هم المستضعفين، ودفعه الكافرين من الناس عن الضعفاء من الناس بسلطان المؤمنين، إذا كان لهم سلطانٌ مرهبٌ في الأرض.

وفي قراءة: ﴿وَلَوۡلَا دِفَاعُ ٱللَّهِ﴾ دلالة على تدخُّل العناية الربانية بنصرة زائدة على مجرى السنة الثابتة المعتادة، لردِّ قوى طغاة جبَّارين عن المستضعفين، بقوى أخرى مضادة لها من الناس، إذ ينصرها الله عليها بوسائل غير عادية، مهما كانت قوتها وجبروتها[1].

ومن أمثلة إعمال الضابط أيضاً: في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾[الزمر:٣٦]، فقد قرئت: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عِبَادَهُۥ﴾[الزمر:٣٦][2]، وفيه عند التدبُّر زيادة في المعنى، وهي أنَّ الله سبحانه يكفي عباده المؤمنين وينصرهم، إن هم حققوا معنى العبودية الحقيقية لله، وأخلصوا له الدين، ومتى استقرَّت هذه الحقيقة في قلوب العباد، انتهت الأمور بالنسبة لهم، وانقطع الخوف من أعدائهم، وبقي اليقين بالله وحده، فهو كافيهم، هو حسبهم، فليتوكلوا عليه إن كانوا مؤمنين، فكفايته تامة وسلامته عامة.

ومن أمثلة إعمال الضابط أيضاً: في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء:٩٤]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، قرئت فيهما: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾[3].

"فالتبيُّن بمعنى: التأني والنظر، والكشف عن الشيء حتى يتَّضح، والتثبُّت هو: خلاف العَجَلة، وهما قراءتان معروفتان مستفيضتان في قرأة المسلمين بمعنى واحد، وإن اختلفت

---

(١) انظر: قواعد التدبُّر الأمثل (٧٥١-٧٥٢).

(٢) انظر: معاني القراءات (٢/ ٣٣٨)، الحجة في القراءات السبع (٦٢٢).

(٣) انظر: السبعة في القراءات (٢٣٦)، معاني القراءات (١/ ٣١٥)، حجة القراءات (٢٠٩).

بهما الألفاظ، لأنَّ المتثبِّت متبيِّن، والمتبيِّن متثبِّت، فبأي القراءتين قرأ القارئ، فمصيبٌ صوابَ القراءة في ذلك"[١].

وفي القراءتين: أنَّ الله يأمر بالتثبُّت وعدم العجلة في الأمور التي يُخشى من عواقبها، وفيه تربية المؤمنين على الالتزام بقاعدة من قواعد التدقيق، وهي التبيُّن والتثبُّت بطلب إثبات الأمر وبيانه في الحكم على الناس، وفي نقل الأخبار، وعدم الاستعجال في ردِّ الأمور، أو الحكم عليها من غير روية وإيضاح، فمتى تردد الأمر بين كون غيره أنفع منه، أو هو أنفع من غيره؛ وجب التثبُّت والتبيُّن، والله أعلم.

- المطلب الثامن: النسخ لا يقع إلا في الأمر والنهي، بالدليل الصحيح الصريح عليه:

الأصل في النصِّ القرآني أنه محكم غير منسوخ، ولا يُلجأ إلى الحكم بالنسخ إلا عند الضرورة، إذا تعذُّر حمله على أنه محكم، أو عند ثبوت النسخ بدليل صحيح صريح غير قابل لحمله على فكرة مقبولة، بموجب مفاهيم الشريعة العامة.

ونصوص الوحي قسمان: طلَب وخبر، فالطلب إما: طلب فعل وهو الأمر، أو طلب كفّ وهو النهي، وهذا القسم يشمل العبادات والمعاملات والفضائل.

ولا يقع النسخ إلا في الأمر والنهي -ولو بلفظ الخبر-[٢]، أما الخبر المحض الذي ليس بمعنى الطلب —ومنه الأسماء والصفات، والوعد والوعيد، وما كان وما يكون- فلا يتطرَّق إليه النسخ، لأنَّ دخول النسخ فيها تكذيب لقائلها، وتشكيك في قوله، والله تعالى منزَّه عن ذلك[٣].

---

[١] تفسير الطبري (٩/ ٨١) بتصرف.

[٢] انظر: البرهان (٢/ ٣٣)، الإتقان (٣/ ٦٨).

[٣] انظر: فهم القرآن للحارث المحاسبي (٣٣٢).

"والقواعد الكلية من الضروريات والحاجيات والتحسينيات لم يقع فيها نسخ، وإنما وقع النسخ في أمور جزئية بدليل الاستقراء؛ فإنَّ كلَّ ما يعود بالحفظ على الأمور الخمسة ثابت، وإن فُرِض نسخ بعض جزئياتها؛ فذلك لا يكون إلا بوجه آخر من الحفظ، وإن فُرِض النسخ في بعضها إلى غير بدل؛ فأصل الحفظ باق؛ إذ لا يلزم من رفْع بعض أنواع الجنس رفع الجنس"[1].

ثمَّ إنَّ النسخ لا يصار إليه إلا بيقين؛ وأما بالظن والاحتمال فلا يثبت النسخ، بل لابد من دليل صحيح صريح عليه، سواء من الآية نفسها، أو بنقل صحيح صريح عن النبي ﷺ أو عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، أو إجماع الأمة، أو بسبب التعارض الحقيقي مع معرفة التاريخ، إذ هذا دليل النسخ[2]، فإنَّ "الأحكام إذا ثبتت على المكلَّف؛ فادِّعاء النسخ فيها لا يكون إلا بأمر محقق، لأنَّ ثبوتها على المكلَّف أولاً محقق؛ فرفْعها بعد العلم بثبوتها لا يكون إلا بمعلوم محقَّق، ولذلك أجمع المحققون على أنَّ خبر الواحد لا يَنسخ القرآن ولا الخبر المتواتر؛ لأنه رفع للمقطوع به بالمظنون" [3].

ويكثر عند بعض المفسِّرين ادعاء النسخ في كثير من الآيات القرآنية دون دليل كافٍ يَثْبُت به النسخ، والأصل أنَّ الآيات القرآنية باقية الدلالات، ومرادة المعاني التي تحملها، ولا يجوز اللجوء إلى الحكم بالنسخ لأدنى شبهة، أو لدليلٍ ضعيفٍ، لا يقوى على رفع دلالة النصِّ الثابتة[4].

---

(١) الموافقات (٣/ ٣٦٥).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢١/ ٥٧٥)، (٢٣/ ٣٨٧)، البحر المحيط للزركشي (٥/ ٢٩٠)، إرشاد الفحول (٢/ ٧٦)، قواعد التفسير (٢/ ٧٢٨).

(٣) الموافقات (٣/ ٣٣٩).

(٤) انظر: قواعد التدبُّر الأمثل (١٣٩-١٤٠).

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية (٦٢٧هـ) أنَّه لا يُعرف إجماع على ترك نصٍّ، إلا وقد عُرف النَّصُّ النَّاسخ له، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:(كثير ممن يخالف النصوص الصحيحة والسنة الثابتة بلا حجة؛ إلا مجرَّد دعوى النسخ، وإذا طولب بالناسخ لم يكن معه حجة لبعض النصوص توهمه ترك العمل؛ إلا أن مذهب طائفته ترك العمل بها إجماع؛ والإجماع دليل على النسخ، ولا ريب أنه إذا ثبت الإجماع كان ذلك دليلاً على أنه منسوخ؛ فإنَّ الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولكن لا يعرف إجماع على ترك نصٍّ إلا وقد عرف النصُّ الناسخ له؛ ولهذا كان أكثر من يدعي نسخ النصوص بما يدعيه من الإجماع إذا حقّق الأمر عليه لم يكن الإجماع الذي ادعاه صحيحاً؛ بل غايته أنه لم يعرف فيه نزاعاً ثم من ذلك ما يكون أكثر أهل العلم على خلاف قول أصحابه، ولكن هو نفسه لم يعرف أقوال العلماء)[١].

إنَّ علم الناسخ والمنسوخ، وإن اعتُبر ضرباً من ضروب التدرُّج في التشريع، إلا أنه يجب على المتدبِّر لكتاب الله؛ أن يُدرك أنَّ الأمر المسكوت عنه في البيان؛ لا يُعتبر بيان حُكمه بعد ذلك نسخاً له[٢].

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط عند التدبُّر: عند تدبُّر قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٥٦].

ذكر بعض المفسِّرين فيها أنها منسوخة بآيات القتال، وبقول النبي ﷺ وفعله، وفعل أصحابه، وذكر آخرون أنها محكمة[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١١١-١١٢).

(٢) انظر: قواعد التدبُّر الأمثل (١٤٠).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٥/ ٤١٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٤٩٤)، الناسخ والمنسوخ للمقري (٥٦)، الناسخ والمنسوخ لابن حزم (٣٠)، نواسخ القرآن لابن الجوزي (١/ ٢٩٩).

ومن تدبَّر القرآن بعمق، فهم أنَّ الدين الذي يبدأ من الإيمان الذي يستقرُّ في القلب، ويصدِّقه العمل بالجوارح؛ لا يُعقل فيه الإكراه، لأنه أمور قلبية نابعة من اعتقاد، وإرادة كسائر الإرادات، فلا يمكن أن يعرِض النسْخ لهذه الحقيقة.

لذا سأل رجل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ) فقال: مملوكي، لا يصلي أضربه؟ قال: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[١].

وعن مقاتل بن حيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٥٠هـ) في قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، يقول: لا تكرهوا أحداً على الإسلام، من شاء أسلم، ومن شاء أعطى الجزية[٢].

فالسِّلم هو الأصل في الإسلام، أما الأمر بقتال الكافرين، فله أسبابه الأخرى، التي ليس منها قطعاً: الإكراه في الدين، وإنما قصد منه أمور منها:

ظلم المسلمين وإخراجهم من ديارهم بغير حقٍّ، فيقاتلون دفاعاً عن أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:٣٩-٤٠].

ومنها: مقابلة العمل بمثله، فيقاتلوا الكفار الذين قاتلوهم، ونهاهم عن الاعتداء في قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

ومنها: أنه بحسب قتالهم واجتماعهم لنا يكون فرضُ اجتماعِنا لهم، في قوله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة:٣٦]، وغير ذلك.

---

(١) أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٩٤) برقم: (٢٦١٣).

(٢) أخرجه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٤٩٤).



فالتدبُّر في الآية بإعمال هذا الضابط؛ نفى ادعاء النسخ فيها، ومنع من الوقوع في الأغاليط، والتحكُّم في النصوص من غير دليل صحيح صريح، يمكن الاعتماد عليه[1]، والله أعلم.

- المطلب التاسع: علم المبهمات موقوف على النقل فقط ولا مجال للرأي فيه:

ويقصد بالمبهمات: كلُّ ما ورد في القرآن غير مسمًّى باسمه الذي يعرف به، من إنسان أو حيوانٍ أو مكانٍ أو زمانٍ أو غيره، مثل: اسم قتيل بني اسرائيل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة:٧٢]، أو تحديد القرية التي وردت في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة:٢٥٩]، أو لون كلب أصحاب الكهف الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف:١٨]، واسم الغلام الذي قتله الخضر في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ [الكهف:٧٤]، ونحو ذلك.

والأصل ألا يُبحث عن مُبهَم أخبر الله باستئثاره بعلمه، كقوله سبحانه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠][2]، فإنَّ ما أبهمه الله في كتابه لا يفيد البحث عنه، بل إنَّ الانشغال بتتبع المبهمات من الأمور التي تصرف عن التدبر النافع، إذ لا تنفع معرفتها العالم بها، ولا يضرُّ الجهل بها، لذا كان من نهج العلماء المحققين كالطبري(٣١٠هـ)[3]، وابن تيمية (٧٢٨هـ)، وغيرهما؛ الإعراض عنها وعدم الانشغال بها، إذ ليس فيها كبير فائدة، فهو ليسَ من متينِ العلمِ، بل يدخلُ في مُلَحِه، وما يكونُ للمذاكرةِ.

---

(١) انظر: قواعد التدبُّر الأمثل (١٤٤-١٤٧).

(٢) انظر: البرهان (١/ ١٥٥)، الإتقان (٤/ ٩٥)، مفحمات الأقران في مبهمات القرآن (٨).

(٣) قال رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير (١/ ٥١٢): (وذلك عِلمٌ، إذا عُلم لم ينفع العالمَ به علمه، وإن جهله جاهل لم يضرَّه جهلُه به).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته، فإنَّ الله نصب على الحق فيه دليلاً، فمثال ما لا يفيد، ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر، فهذا معلوم، وما لم يكن كذلك، بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمنقول عن كعب ووهب ومحمد بن إسحاق وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة)[١].

ولمعرفة المبهم الصحيح مصادر يرجع إليها، ككتب التفسير بالمأثور، وكتب الصحاح والسنن، وكتب أسباب النزول، وكتب المبهمات[٢].

وكثير مما يورده من كتبوا في هذا الموضوع نقلوه عن بني إسرائيل، فتضمَّنت كتبهم حشواً من الاسرائيليات التي لا تنفع المتدبِّر لكتاب الله تعالى.

ولقد جاء حديث القرآن الكريم عن السابقين وإيراده لقصصهم وأخبارهم، دون توسَّع في الحديث عن زمان أو مكان أو أبطال أو تفصيلات القصة، ولم يتحدَّث عن كل حادثة أو جزئية أو فرعية فيها، ولم يستطرد إلى تكميلات وتحليلات وتفصيلات؛ لأنه لم يستهدف من قصصه هذه التفصيلات، وإنما هدف إلى عرض الحقائق وتقرير القيَم والتصورات،

---

(١) مقدمة أصول التفسير (٢٠).

(٢) من أوَّل من ألَّف في مبهمات القرآن هو عبدالرحمن السُّهيليِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٨١هـ) في كتابه: التعريف والإعلام فيما أُبهِمَ في القرآنِ من الأسماءِ الأعلام، ومحمد بن علي الغساني- ابن عسكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٣٦هـ) في كتابه: التكميل والإتمام، لكتاب التعريف والإعلام.

واستخلاص العبَر والدروس، والانتفاع بما فيها من توجيهات، وهذا متحقق فى المقدار الذي عرضه القرآن، بالكيفية التى عرضه بها.

ولقد جاء توجيه القرآن بعدم البحث فيما لا دليل عليه، وأن لا يقفو المسلم ما ليس له به علم، ولا يتْبع ما لا دليل عليه، لأنه يسأل عنه يوم القيامة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء:٣٦]، وجاء النهي المباشر في القرآن عن أخذ قصص السابقين عن أهل الكتاب، وأن لا يستفتوهم فى شيء منها، وذلك قوله- في سياق عدد أصحاب الكهف- ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف:٢٢].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا: أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْۚ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف:٢٢]،... أرشد على أنَّ الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.. فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب)[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٩).

وتتضح أهمية هذا الضابط للمتدبِّر في منعه من التعمُّق في المبهمات، فيستخرج فوائد أو تعليلات أو إشارات لأمور مبهمة غيبية، لا تثبت بغير النصِّ الشرعي الصحيح.

ويتلخَّص المتدبِّر من المبهمات: أن ينظر فى القرآن، فإذا وجد ما أبهم في موضع مبينٌ فى موطن آخر أخذه، فإن لم يجده مبيِّناً في القرآن، توجه إلى ما صحَّ من حديث النبي ﷺ، فإذا بُين هناك أخذه، ولا يجوز أن يبحث فى غير هذين المصدرين اليقينيَّيْن، فيتركه بعد ذلك على إبهامه، وليَسَعه ما وسِع رسول الله ﷺ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في موقفهم منه، خشية القول على الله بدون علم، واتباع أمور تصرفه عن التدبُّر والفهم للقرآن.

ومن المبهمات التي لا يجوز أن يبحث عن بيانها مثلاً: الشجرة التى أكل منها آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخشب سفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأسماء وأصناف طيور إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونوع عصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والثمن الذى بيع به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، واسم الذي حاجَّ إبراهيم فى ربه، واسم الذي: ﴿مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾[البقرة:٢٩٥]، وغير ذلك[١].

ومن الأمثلة التطبيقية لهذا الضابط عند التدبُّر: في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[الكهف:٦٥]، فجاء البيان في السنة في حديث طويل، يذكر اسم العبد بأنه الخَضِر عَلَيْهِ السَّلَامُ[٢].

---

(١) مفاتيح التعامل مع القرآن (٩٣-٩٦) بتصرف كثير.

(٢) وفيه: (...فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي البَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قَالَ لَهُ الخَضِرُ يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ...)، أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (١٢٢) في كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكل العلم إلى الله، وبرقم: (٣٤٠١) في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الخضر مع موسى إ، وبرقم: (٤٧٢٥) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا

=

ومن المبهمات التي يجب التوقف عن معرفتها: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل:٨٢]، فجاء الخبر مبهماً، لم يبيِّن نوع الدابة وأوصافها، ولم يرِد في القرآن أو في السنة ما يوضِّحه، فيبقى الأمر غيبياً، يكشفه الواقع الذي يأتي في حينه.

" فلنَدَع هذا الغيب إذن لصاحبه، وحسبنا ما يقصُّ لنا عنه، بالقدر الذي يصلح لنا في حياتنا، ويصلح سرائرنا ومعاشنا، ولنأخذ من القصة ما تشير إليه من حقائق كونية وإنسانية،... فذلك وحده أنفع للبشرية وأهدى"(١)، والله أعلم.

- المطلب العاشر: كلُّ حكاية ذُكرت في القرآن وقارنها ردٌّ لها فهي باطلة:

وتوضيح ذلك: أنَّ كلَّ حكاية وقعت في القرآن؛ فلا يخلو أن يقع قبلها أو بعدها -وهو الأكثر- ردٌّ لها، أو لا.

فإن وقع ردٌّ؛ دلَّ على بطلان ذلك المحكيِّ وكذبه، وإن لم يقع معها رد؛ فذلك دليل صحة المحكيِّ وصدقه، ومن قرأ القرآن وتدبَّره، وأحضره في ذهنه؛ عرف هذا بيُسر(٢).

﴿٦٠﴾ [الكهف:٦٠] زماناً: وجمعه أحقاب، وبرقم: (٤٧٢٧) باب: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف:٦٢-٦٣]. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٣٨٠) في كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٩) بتصرف.

(٢) انظر: الموافقات (٤/ ١٥٨)، تفسير محاسن التأويل للقاسمي (١/ ٧٠)، التحرير والتنوير (١/ ٩٦).

فمن أمثلة ما حكاه الله، ولم يردَّه بشيء قبله أو بعده: قول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨]، فهو دليل صحَّة المحكيِّ وصدقه[1].

ومثله: ما جاء في قصة ذي القرنين: ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الكهف:٩٤]، وشواهد ذلك كثيرة جداً.

ومن أمثلة ما وقع ردُّه قبلَه، قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وأعقب ذلك بقولهم الباطل: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١١٠].

ومن أمثلة ما وقع ردُّه بعده، قوله سبحانه حكاية عن قول النصارى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، فردَّ ذلك بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٦-١١٧].

ومن ذلك قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾، فردَّ قولهم بقوله سبحانه: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان:٤].

---

[1] والمقصود - والله أعلم - أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾، ورد في سياق القَصص القرآني من غير نكير ولا إبطال، وهو كلام مقبول في نفسه، لكن في سياقه الخاص، بمعنى أنه كان خطاباً لنساء معينات حاضرات، فوجه الكلام إليهنَّ باعتبار ما فعلنَ وقلنَ، فقال العزيز لهؤلاء النسوة: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾؛ نظراً لما فعلته امرأة العزيز من الحيلة للتخلُّص من فضيحتها ومعصيتها، ويعمُّ كلَّ امرأة تحتال لتقلب الحق باطلاً، أو الباطل حقاً، فتتوسل بالحيلة والكيد، لتغيير الحقائق، وتعويض ما جبلت عليه من ضعف النفس.

ومن أمثلة ما وقع ردُّه قبله وبعده، قوله تعالى إخباراً عن المشركين: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾، ثمَّ حكى قولهم: ﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾ ثمَّ ردَّ قولهم بقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦]، وضمَّن قولهم التنكيت على افتراء ما زعموه بقوله: ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾.

وإذا جاء في النصوص ذكر أشياء، فأنكَر بعضها، وسكَت عن بعض؛ دلَّ على صدق ما لم ينكر، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾[الكهف:٢٢]، "فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضعَّف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدلَّ على صحته إذ لو كان باطلاً لردَّه كما ردَّهما"[1].

ومعرفة هذا الضابط نافعٌ جداً للمتدبِّر، ويعينه على فهم قصص القرآن، وما حكاه الله فيه على لسان الأقوام والأفراد.

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط في التدبُّر: في قول الله تعالى حكاية عن ملكة سبأ: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [النمل:٣٢-٣٤].

يستفاد منه عند التدبُّر: أنَّ أقوال ملكة سبأ وأفعالها سيقت للتعقُّل وحسن التدبير من ذلك: أنها "أخذت في حسن الأدب مع قومها، ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أنَّ ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٩).

مطَّرد عندها في كل أمر يعرِض، بقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢]، فكيف في هذه النازلة الكبرى، فراجعَها الملأ بما يُـقرُّ عينها، من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، ثمَّ سلَّموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاورة حسنة من الجميع"[١].

فما قالته والتزَمت به، من أنها لا تبرِم أمراً إلا بموافقة ملئها؛ أمر حسن من كلِّ أحد، بل فيه دليل على صحَّة المشاورة؛ فهي من الأمر القديم وخاصة في الحرب، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[آل عمران:١٥٩]، ومما مدح به أهل الإيمان قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨].

ومنه أيضاً عند التدبُّر: أنَّ الله أقرَّ حِكْمتها وخبرَتها ودرايتها حين قالت: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾، فقال الله مؤكِّداً: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤][٢]، وعلى اعتبار أنَّه من قولها كما قال بعض المفسِّرين؛ فإنَّ حكاية القول مجرَّداً دون اقترانه بما يردُّه؛ دليلٌ على صحَّته وصدقه، وموافقة القرآن له، ولم يكن كفر بلقيس -في كلا الاعتبارين- مانعاً من تصديقها في الحقِّ الذي قالته.



(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٩٤) بتصرف يسير.

(٢) قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (هو من قول الله تعالى معرفاً لمحمد عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمته ومخبراً به). انظر: المحرر الوجيز (٤/ ٢٥٨)، تفسير القرطبي (١٣/ ١٩٥).

المبحث الثالث: الضوابط اللغوية المعينة على التدبُّر

وفيه خمسة عشر مطلباً:

- المطلب الأول: الجملة الاسـمية تدلُّ على الدوام والثبوت، والفعلية تدلُّ على التجدد:

الجملة الاسْميَّة تُفِيد الدَّوَامَ والثُّبُوت، لأنَّ الأصل في مدلول الاسم أنَّه الذَّات، وهي غير قابلة للتَّغيُّر، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنبياء:٩٧]، فقوله:﴿شَٰخِصَةٌ﴾ يدلُّ على ثبوت الصفة، ولو قال: (تشخص) لكان الشخوص متجدداً، لكنه مرة واحدة، في موقف واحد.

وَإِذا دخل في الجملة الاسمية حرف النَّفْي؛ دلَّت على دوَام الانتفاء لا على انْتِفَاء الدَّوَام.

وأمَّا الجملة الفعلية، فموضوعها: الفعل ومدلوله، ويختصُّ بأحوال الذَّات، وهي متعلِّقة بالزمن، والزمن قابل للتَّغيير؛ ماضياً، حالاً، مستقبلاً، فتَتَغيَّر الأحوال بِتَغيُّر الأزمان، بنوعيها: المضارع والماضي، فالمضارع: يفيد الاستمرار التَّجَدُّدِي، وحصول الشيء مرةً بعد أخرى، والماضي يفيد: الوجود بعد عدم، وإذا دخل في المضارع حرف الإمتناع دلَّ على إستمرار الامتناع[1].

ومثال الفعل المضارع قوله الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، فلفظ:﴿يَأۡكُلُونَ﴾ دلَّ على تجدُّد أكل الربا وتكرُّره منهم ومن غيرهم.

---

[1] انظر: البرهان (٣/ ٢١)، الإتقان (٢/ ٣٧٩)، الكليات (٨١٤)، (٨١٧)، (١٠١٠)، تفسير روح المعاني (٥/ ٢٩٠)، التحرير والتنوير (٩/ ٢٢٠).

ومثله قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب:٥٨]، فدلَّ على استمرار وجود هذا الصنف من الناس، وتجددهم في كلِّ زمان ومكان.

ومن أمثلة التعبير بالفعل الماضي: قوله تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾[طه:٨٠]، عبَّر الله فيها بالماضي لإفادة الامتنان عليهم بإيجاد ذلك من عدم.

وإذا عُطفت الجملة الاسمية على الفعلية أفادت الدوام والثبات، مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾[الأنعام:٥٦]، فقوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ جملة فعلية تفيد التجدد والحدوث، عطف عليها قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، وهي جملة اسمية تفيد الدوام والثبوت، فلمَّا عطفها على الجملة الفعلية صار المعنى: أنه لو اتَّبع أهواءهم لبقي في الضلال وعدم الاهتداء دائماً، ذلك أنهم لن يأتوه بخير أبداً[1].

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط في التدبر: في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران:١٣٤]، يستفاد عن تدبُّرها: ضرورة تربية النفس على كظم الغيظ، والعفو عن الناس، فإنَّ ذلك يكون من طبع الإنسان الثابت فيه. ووجه ذلك: أنَّ الله تعالى قال في الإنفاق: ﴿يُنفِقُونَ﴾ لأنه عمل متجدد متكرر، أما كظم الغيظ والعفو عن الناس؛ فعبَّر عنه بالجملة الاسمية ليفيد أنها صفة ثابتة فيهم.

ومن الأمثلة أيضاً: في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ﴾[الأعراف:٩٧]، ورد وصفهم بالكفر بطريق الجملة الاسمية؛ "للدلالة على ثبات

---

(١) انظر: قواعد التفسير (١/ ٤٣٦).

الكفر فيهم، وتمكُّنه منهم، لأنَّ الكفر من الاعتقادات العقلية التي لا يناسبها التكرر، فلذلك خولف بينه وبين وصفهم بالصدِّ عن سبيل الله وبغي إظهار العوج فيها، لأنَّ ذينك من الأفعال القابلة للتكرير، بخلاف الكفر فإنه ليس من الأفعال، ولكنه من الانفعالات"[1].

ومن أمثلته أيضاً: في سورة الكافرون قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

فمن الفوائد التدبُّرية: أنَّ صاحب الحقِّ يجب أن يصرَّ على الحقِّ الذي معه، ويثبت عليه، ويقاوم من أجل تحقيقه، فقد ورد النفي في حقِّ الرسول ﷺ مرتين ونُفي في حالتين: الأولى نفى عن نفسه عبادة ما يعبد الكافرون بالجملة الإسمية والفعلية، وجاء بصيغة المضارع مرة: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ والماضي: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ مرة، وأما في حقِّ الكافرين فجاء النفي في الجملة الإسمية فقط في قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ إصرار الرسول ﷺ وإيمانه بعقيدته؛ كان أكبر وأثبت من إصرار الكافرين على باطلهم، فإنَّ المضارع يدلُّ على الدوام، بخلاف الماضي، فأفاد أنَّ ما عبدتموه ولو مرَّة؛ ما أنا عابد له البتة، وفيه كمال براءته ودوامها مما عبدوه[2].

- المطلب الثاني: زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى وقوة اللفظ لقوة المعنى المتدبَّر:

وهذه قاعدة مطَّردة في القرآن فقط، لأنَّ الحكيم العليم عَزَّوَجَلَّ؛ لا يضع حرفاً إلا في موضعه، ولحكمة يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) التحرير والتنوير (٨ب/ ١٤٠).

(٢) انظر: البرهان (٣/ ٢٢).

ومن المقرر أنه لا زيادة في القرآن، بمعنى: أنه ليس في القرآن شيء لا معنى له ولا فائدة منه، بل هو هدى وشفاء وبيان، وذلك لا يحصل بما لا معنى له، فكلُّ لفظ أو حرف جاء في القرآن فله حكمة وفائدة، "وغير جائز أن يكون في كتاب الله شيء لا معنى له"[1].

وقد قرَّر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٢٧هـ) ذلك بقوله: (ولا يذكر فيه لفظاً زائداً إلا لمعنى زائد، وإن كان في ضمن ذلك التوكيد، وما يجيء من زيادة اللفظ في مثل قوله: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴾ [المؤمنون:٤٠]، وقوله: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٣]، فالمعنى مع هذا أزيَد من المعنى بدونه، فزيادة اللفظ لزيادة المعنى، وقوة اللفظ لقوة المعنى)[2].

وفي هذا الضابط تقرير لأصل كليٍّ عام، وهو أنَّ أيَّ زيادة تطرأ على اللفظ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فإنما تدلُّ على معنى زائد على ما يدلُّ عليه اللفظ دونها، وسواء في ذلك ما إذا كانت هذه الزيادة حرفاً، أم كانت زيادة في وزن الكلمة أو تضعيفها[3].

ومن أمثلة هذا الضابط: في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾[البقرة:١٨٧]، لما كانت نهاية الليل وبداية الإمساك ليس أمراً فاصلًا كغروب الشمس؛ اقتضت التأكيد في التعبير عن الظهور بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ بزيادة التاء وتكرار الياء بتشديدها، لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى[4].

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ٤٣٨)، (١٢/ ٣٢٦)، (٢٣/ ٥٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٣٧).

(٣) قواعد التفسير (١/ ٣٥٦).

(٤) انظر: التصوير القرآني للقيم (١٧٧).

ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ [المائدة:٣٣] جاء التشديد بقوله: ﴿يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾؛ ليفيد زيادة في المعنى، وهو التأكيد على أنَّ القتل والصلب يكون في أشد أنواعه.

وأيضاً: في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا﴾ [الكهف:٩٧]، أخبر الله سبحانه عن الردم الذي بناه ذو القرنين، ومحاولة يأجوج ومأجوج أن يتجاوزوه، ولا سبيل لهم إلا بأن يصعدوا على السد، أو يحدثوا فيه نقباً، فيسهل عليهم أن يخرجوا إلى منه. وحيث كان ارتقاؤه والعلو عليه أيسر من نقبه وخرقه؛ قرن الله ذلك الظهور بالفعل: اسطاع مخففاً: ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ [الكهف:٩٧]؛ وهو الصعود إلى أعلاه، وقرن النقب لصعوبته بالفعل: استطاع: ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبًا﴾ [الكهف:٩٧] لكونه أشقَّ من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى[١]، وحصل التوازن بين المعنيين المراد ذكرهما، وبين الفعلين الذين سيق بهما ذلك المعنى.

وأيضاً: في قوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ﴾ [الشعراء:٣٢]، وصف الثعبان بأنه ﴿مُّبِينٞ﴾ الذي هو: اسم فاعل، من أبان القاصر الذي بمعنى بان، بمعنى ظهر، فـ﴿مُّبِينٞ﴾ دالٌّ على شدة الظهور، من أجل أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، أي ثعبان ظاهر أنه ثعبان، لا لبس فيه ولا تخييل[٢].

ومعرفة هذا الضابط يفيدُ المتدبِّر في النَّظر في الآيات وفهمها، واستخراج كنوزها.

---

[١] انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٨٨).

[٢] انظر: التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٣).

ومن الأمثلة على التدبُّر بإعمال هذا الضابط: أنه ينبغي على معلِّم الناس الخير أن يكون هيِّنا ليِّناً معهم، كما كان الخضر مع موسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، فإنَّ موسى حين تعجَّل الأمر بسؤاله، ولم يصبر على ما رأى؛ لم يعنِّفه الخضر أو يزجره، بل أزال الإشكال الذي جعله عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يصبر، وحين كان الإشكال قوياً ثقيلاً قال له الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٧٨]، ثمَّ بعد أن فسَّر له الأمر وبيَّنه، ووضَّحه، وأزال المشكل، قال: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٩٧]، أي: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبِر حتى أُخبرك به ابتداءً، "فقابل الأثقل بالأثقل، والأخفَّ بالأخف"[(١)]، وزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى.

وأيضاً: في قول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]، يستفاد منها: أنَّ يوم القيامة قريب جداً، فـ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾ بمعنى قرُبت، لكن لَّما كان التعبير به فيه زيادة في المبنى على قربت، بالهمزة والتاء؛ دلَّ على أنَّ القُرْب قريب جداً، لأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، وهو ما تشهد له نصوص السنة، مثل قول النبي ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»، وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى[(٢)][(٣)]، والله أعلم.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٥/ ١٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٩٣٦) في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ [النبأ:١٨]، وبرقم: (٥٣٠١) في كتاب الطلاق، باب اللعان من طريق سهل بن سعد، وأخرجه برقم: (٦٥٠٤) في كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**». وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٩٥١) في كتاب الفتن وأشراط الساعة. من طريق أنس بن مالك.

(٣) انظر: تفسير الحجرات والحديد لشيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٦١).

- المطلب الثالث: بعض ألفاظ القرآن المتقاربة في المعنى؛ إذا أفرِد دلَّ على المعنى العام المناسـب له، وإذا قُرن مع غيره دلَّ على بعض المعنى، ودلَّ ما قُرنَ معه على باقيه:

فإذا أفردت تلك الألفاظ عمَّت، وإذا قُرن معها غيرها خصَّت، وإذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا[1].

والأصل عدم الترادف في ألفاظ القرآن الكريم، وأنَّ ألفاظ القرآن تدلُّ على أكثر من معنى، وبإعمال هذا الضابط تتفتَّح للمتدبِّر آفاقاً متنوعة من مستويات نسبية للموضوع الواحد، والدرجات التي تُقصد الإشارة إليها، وقد يظهر له بعض أغراض تكرار الفكرة في مواضع مختلفة، فقد تأتي كلمة في موضع، ثمَّ يأتي مرادف لها معها في نفس الموضع، أو في موضع آخر، فكان لكلِّ موضع وردت فيه معنى مناسب له[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٨هـ): (ومن الأقوال الموجودة عنهم - ويجعلها بعض الناس اختلافاً-: أن يعبِّروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإنَّ الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادرٌ وإما معدوم، وقلَّ أن يعبَّر عن لفظ واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه؛ بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل: ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ﴾[الطور:٩]، إنَّ المور هو الحركة، كان تقريباً، إذ المور حركة خفيفة سريعة... وجمْع عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً؛ فإنَّ مجموع عباراتهم أدلُّ على المقصود من عبارة أو عبارتين، ومع هذا فلا بدَّ من اختلاف محقق بينهم كما يوجد مثل ذلك في الأحكام.)[3].

---

(١) انظر: التعليق على القواعد الحسان (٧٥).

(٢) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٤٣٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤١-٣٤٣).

وإذا اختلفت العبارات والأسماء اختلفت المعاني، وفي ذلك يقول أبو هلال العسكري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٩٥هـ): (الشاهد على أنَّ اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني: أنَّ الاسم كلمة تدلُّ على معنى دلالة الإشارة، وإذا أشير إلى الشيء مرَّة واحدة فعرِف فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة، وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد، فإن أشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول كان ذلك صواباً، فهذا يدلُّ على أنَّ كلَّ اسمين يجريان على معنى من المعاني، وعين من الأعيان في لغة واحدة؛ فإنَّ كلَّ واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه، وإلى هذا ذهب المحققون من العلماء)[1].

ولهذا الضابط أمثلة كثيرة منها:

- لفظ: ﴿ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٢]، فحيث أفرد البرُّ دخل فيه امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وكذلك إذا أفردت التقوى، ولهذا يرتب الله على البرِّ وعلى التقوى عند الإطلاق: الثواب المطلق، والنجاة المطلقة، كما يرتِّبه على الإيمان.

وتارة يُفسِّر أعمال البر بما يتناول أفعال الخير، وترك المعاصي، وكذلك في بعض الآيات تفسير خصال التقوى، كما في قوله: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران:١٣٣، ١٣٤] إلى آخر ما ذكره من الأوصاف التي تتمُّ بها التقوى.

وإذا جمع بين البرِّ والتقوى مثل قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٢] كان البرُّ: اسماً جامعاً لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وكانت التقوى: اسماً جامعاً يتناول ترك جميع المحرمات.

---

(١) الفروق اللغوية (٢٢).

- وكذلك لفظ: ﴿ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾: إذا قرنا، فسِّر الإثم: بالمعاصي التي بين العبد وبين ربه، والعدوان: بالتجريء على الناس في دمائهم وأعراضهم، وإذا أفرد الإثم: دخل فيه كل المعاصي التي تُؤثِّم صاحبها؛ سواء كانت بينه وبين ربه، أو بينه وبين الخلق، وكذلك إذا أفرد العدوان.

وكذلك لفظ: العبادة والتوكل، ولفظ: العبادة والاستعانة؛ إذا أفردت العبادة في القرآن تناولت جميع ما يحبه الله ويرضاه ظاهراً وباطناً، ومن أول وأهم ما يدخل فيها: التوكل والاستعانة، وإذا جُمع بينها وبين التوكل والاستعانة نحو: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود:١٢٣]، فسِّرت العبادة بجميع المأمورات الباطنة والظاهرة، وفسِّر التوكل باعتماد القلب على الله في حصولها وحصول جميع المنافع ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في حصولها، ونحو ذلك كثير[1].

وهذه القاعدة نافعة للمتدبِّر، تُعينه على تأمُّل الألفاظ، ومعرفة معانيها، ومدلولاتها.

ومن أمثلة إعمالها في التدبُّر:

جاء لفظ: المشي والسعي للدلالة على معنى مقصود لا يدلُّ عليه اللفظ الآخر.

فورد في المشي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

وورد لفظ السعي في نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة:٩].

والسعي من المشي، إلا أنَّ فيه زيادة معنى الهمَّة والنشاط والحركة، وقد جاء لفظ المشي فيما يخصُّ طلب الرزق، وجاء لفظ السعي فيما يخصُّ الآخرة والعمل لها، وهذا معنى لطيف

---

[1] انظر: القواعد الحسان للسعدي (٤٨-٤٩).

يظهر بالتدبُّر، فالله سبحانه أمر بطلب الرزق بإجمال في الطلب، عن طريق المشي المعتاد، وليس عن طريق السعي الذي يتضمَّن المشي الحثيث بهمَّة بالغة، وذلك لأنَّ الرزق مضمون بالمقادير الربانية، من خلال تعاطي الأسباب الكونية، ضمن حدود ما قسم الله للعبد، فالمشي برفق يحقق له المقسوم، والسعي الحثيث لا يزيده على ما قسم الله له شيئاً، وإنما سيشغله عما يجب السعي إليه حقيقة، ويزيده كدّاً وانشغالاً عن الحياة الحقيقية في الآخرة.

أما الذكر والصلاة والعبادة والعمل الصالح، فجاء الأمر فيها بلفظ السعي بهمَّة ونشاط ورغبة شديدة، وذلك لأنَّ ثواب الآخرة يتبع مقدار العمل في الدنيا، بل في مواطن أخرى أمر بالمسابقة فيه، والمسارعة إليه، في نحو قوله تعالى:﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء:١٩]، وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد:٢١]، بينما لم يرد نص واحد يحثُّ على السعي في طلب الدنيا، والمسارعة إليها.

بل رتَّب الجزاء في الآخرة على السعي إليها في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢].

ومن الأمثلة أيضاً: لفظ (مسَّ) و(أصاب).

فعند التدبُّر لقوله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران:١٢٠].

نجد أنه سبحانه عبَّر بالمسِّ عما ينزل بالمؤمنين من حسنات، وبالإصابة فيما يصيبهم من سيئات.

وبالتدبُّر والنظر في الآية وسياقها؛ نجد أنَّ الحديث عن المنافقين، وبيان لحالهم مع المؤمنين، وأنَّهم يكرهون مجرَّد مسِّ الحسنة والخير للمؤمنين، ولو بأقلِّ مقدار، ويسوؤهم ذلك، ويفرحون إذا أصابتِ المسلمين مصيبة ولو بلغَت في شدتها ما بلغت.

ويكثر مجيء اللفظين عند الانفراد في الخير والشر، وتبقى دلالة المسِّ مختلفة عن الإصابة[1]، والله أعلم.

- المطلب الرابع: تقديم القرآن لشيء يدلُّ غالباً على الاهتمام والعناية به:

العرب غالباً يقدِّمون في الكلام ما يعتنون به ويهتمُّون؛ ومن عادة العرب الفصحاء إذا أخبرَت عن مخبر ما - وأناطت به حكماً - وقد يشركه غيره في ذلك الحكم، أو فيما أخبر به عنه، وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب - فإنهم مع ذلك إنما يبدؤون بالأهم والأولى[2].

ومن أمثلة تقديم الأهم في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء:٥٩]، فبدأ بالأشرف والأجلِّ، وفي قوله: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة:٤٣]، فبدأ بالصلاة لأنها أهم، وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[الفاتحة:٥]، قدَّم العبادة للاهتمام بها.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ التقدُّم في الذِّكر لا يعني التقدُّم في الوقوع والحكم، لأنه تارة يقدَّم ذكر السبب على ذكر الحكم، وأخرى على العكس من ذلك[3].

---

[1] انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٤٣٦-٤٣٨).

[2] انظر: البرهان (٣/ ٢٣٥)، تفسير القاسمي (١/ ١٦٢).

[3] انظر: الكليات (١٠٦٦)، فتح القدير للشوكاني (١/ ١١٨).

وهذا الضابط مما يسهِّل للمتدبِّر النظر في القرآن، ويعينه على تحقيق التدبُّر.

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط للمتدبِّر: يستفاد من قول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران:١٤]، أنَّ فتنة النساء هي أشدُّ فتنة على الرجل، وأنَّ شهوة النكاح هي أشدُّ شهوة يمكن أن توقع المرء في المعاصي، وتسقطه في الآثام، فإنَّ الله سبحانه أتى بذكر الشهوات في الآية أولاً مجموعة على سبيل الإجمال، ثمَّ أخذ في تفسيرها شهوة شهوة؛ ليدلَّ على أنَّ المزيَّن ما هو إلا شهوة دنيوية لا غير، فيكون في ذلك تنفير عنها، وذمٌّ لطالبها وللذي يختارها على ما عند الله، وبدأ في تفصيلها بالأهمِّ فالأهمِّ، بدأ بذكر النساء لأنَّ الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهنَّ أتم، ولأنهن حبائل الشيطان وأقرب إلى الافتتان، وأقرب وأكثر امتزاجاً، وقد قال النبي ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**»[١][٢].

"ولما صدَّر الآية بذكر الحبِّ، وكان المحبوب، مختلف المراتب، متفاوت الدرج، اقتضت الحكمة الإلهية تقديم الأهم فالأهمِّ من المحبوبات، فقدَّم النساء على البنين؛ لما يظهر فيهنَّ من قوة الشهوة، ونزوع الطبع، وإيثارهنَّ على كل محبوب، وقدَّم البنين على الأموال؛ لتمكُّنهم فى النفوس واختلاط محبتهم بالأفئدة، وهكذا القول في سائر المحبوبات، فالنساء أقعد فى البيوت، والبنونَ أقعد فى المحبة من الأموال، والذهب أكثر تمكُّناً من الفضة، والخيل أدخل فى المحبة من الأنعام، والمواشى أدخل من الحرث"[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٠٩٦) في كتاب النكاح، باب ما يُتقى من شؤم المرأة. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٧٤١) في كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء.

(٢) انظر: لباب التأويل للخازن (١/ ٢٣٠)، البحر المحيط (٣/ ٥٠).

(٣) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٢/ ٣٦).

ومن الفوائد التدبُّرية: أنَّ من الخطأ أن يتبرع المرء لإعتاق الرقاب مثلاً من القصاص، وله ذوو قرابة أهلَ عوَز وحاجة، ولم يعطهم من ماله شيئاً، فمن تدبَّر آيات القرآن الكريم عرف الأولويات في الصدقة والإحسان، تدبَّر: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقوله سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾ [البقرة:٢١٥]، وقوله سبحانه في قسمة الغنائم: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١].

- المطلب الخامس: كلما عظُم الاهتمام كثر التأكيد:

وهذا الضابط له ارتباط بما قبله، فإنَّ الأهمَّ يقدَّم في الذكر غالباً، وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد في الآية، والعرب لا تؤكِّد إلا ما تهتم به، فإن من اهتم بشيء أكثر ذكره، وكلما عظم الاهتمام كثر التأكيد، وكلما خفَّ، خفَّ التأكيد، وإن توسَّط الاهتمام، توسَّط التأكيد[1]، وقد علم هذا بالاستقراء والنظر في القرآن الكريم وكلام العرب.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل:١٢]، ففيه ثلاث تأكيدات: أحدها: ﴿إِنَّ﴾، والثاني: اللام في ﴿لَلْهُدَىٰ﴾، والثالث تقديم الخبر.

ومن أمثلته أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [النازعات:٢٦]، فيه ثلاث تأكيدات أيضاً: وهي: ﴿إِنَّ﴾، واللام في ﴿لَعِبْرَةً﴾، وتقديم الخبر.

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (١/ ١٦٠).

والأصل أنَّ يكون تأكيد الكلام إذا كان المخاطب مُنْكِرًا أو مُتَرَدِّدًا، ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه، وقد يؤكَّد والمخاطَب غير منكر لعدم جريه على مقتضى إقراره، فيُنزَّل منزلة المنكر، وقد يترك التأكيد مع إنكار المُخاطَب لوجود أدلة ظاهرة، لو تأملها لرجع عن الإنكار[1].

ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه؛ كقوله تعالى حكاية عن رسل عيسى إذ كذبوا في المرة الأولى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس:١٤]، فأكَّد بأن واسمية الجملة، فجاءت مبالغة المخاطَين بالإنكار حيث قالوا: ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس:١٥]، فجاءت المرة الثانية: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس:١٦]، مؤكَّدة بالقسم، وإن، واللام، واسمية الجملة؛ لمبالغتهم في الإنكار.

وقد يؤكَّد بها والمخاطب به غير منكر لعدم جريه على مقتضى إقراره فينزَّل منزلة المنكر، وقد يترك التأكيد وهو معه منكر لأنَّ معه أدلة ظاهرة لو تأملها لرجع عن إنكاره، وذلك مثل قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٥-١٦]، أكَّد الموت تأكيدين وإن لم ينكَر؛ لتنزيل المخاطبين لتماديهم في الغفلة تنزيل من ينكر الموت، وأكَّد إثبات البعث تأكيداً واحداً وإن كان أشدَّ نكيراً؛ لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديراً بأن لا ينكَر، فنزَّل المخاطبون منزلة غير المنكر حثاً لهم على النظر في أدلته الواضحة[2].

وهذا الضابط من الضوابط المهمَّة للمتدبِّر؛ فهو أثناء تلاوته يمرُّ بمؤكدات كثيرة، فيدعوه نظره في تلك المؤكِّدات لاستنباط معانٍ عميقة من دلالات الآيات وأنوارها.

---

[1] انظر: البرهان (٢/ ٣٩٠)، الإتقان (٣/ ٢١٧)، قواعد التفسير (١/ ٤٥٦).

[2] انظر: الإتقان (٣/ ٢١٧).

ومن أمثلة إعمال المتدبِّر لهذا الضابط:

من فوائد سورة التكاثر عند التدبُّر: أنه ما من أحد إلا سيرى النار رأي العين يوم القيامة، فليعدَّ لهذا الموقف عدَّته، وليحسن عمله، ولا يلهه التكاثر من الدنيا عن طاعة الله وعبادته، فإنَّ الأمر عظيم، أكَّده سبحانه بعدَّة مؤكِّدات في قوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٦-٧]، فأكَّد باللام في ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾، وبالتشديد فيها -إذ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى-، وبتكرار الرؤية، وأنها ستكون ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ "فإذا صار عين يقين، كجملة المشاهدات، كان تخلُّف موجبه عنه أندر شيء"(١)، ويصدِّقه قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم:٧١]، فالمؤمن ناجٍ منها، والكافر داخل فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠١].

ومن أمثلته عند تدبُّر سورة العصر: معرفة أنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار، وامتداد الإنسان في جميع الدهور، ليس هنالك إلا منهج واحد رابح، وطريق واحد ناج، هو منهج الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾[العصر:١-٣](٢).

وجملة: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ مؤكدة بثلاث مؤكدات، الأول: القسم، والثاني: ﴿ إِنَّ ﴾، والثالث: اللام في قوله: ﴿لَفِى ﴾ وأتى بقوله: ﴿لَفِى خُسْرٍ ﴾ ليكون أبلغ من قوله:

---

(١) التفسير القيم (١/ ٥٧٥).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٦٤).

(لخاسر)، وذلك أنَّ «في» للظرفية، فكأن الإنسان منغمِس في الخسر، والخسران محيط به من كل جانب[١].

وصدق الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٠٤هـ) حين قال: (لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم)[٢].

- المطلب السادس: الأصل عند تعاقب الضمائر أن يتَّحد مرجعها:

من أسباب العدول إلى الضمائر في الآية: الاختصار، وهو أصل وصفها، مثل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥]، كرر فيها ثمانية ضمائر، كلُّها عائد على لفظ: ﴿وَمِنَ﴾.

وكذلك: فقد قام قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥] مقام خمسة وعشرين لو أتى بها مظهرة[٣].

وكذا قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ [النور:٣١]، قال مكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٣٧هـ): (وهذه الآية تضمَّنت خمسة وعشرين ضميراً بين مرفوع ومخفوض، كلها تعود على المؤمنات، أولها الضمير المرفوع في ﴿يَغۡضُضۡنَ﴾، وآخرها الضمير المخفوض في قوله تعالى: ﴿مِن زِينَتِهِنَّ﴾، ولا أعلم لهذه الآية نظيراً في القرآن في كثرة ضمائرها فاعلمه)[٤].

---

[١] انظر: القواعد الحسان (٤٥)، تفسير جزء عم لشيخنا محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٠٨).

[٢] انظر: تفسير الشافعي (٣/ ١٤٦١)، وذكره عنه ابن كثير في تفسيره (٨/ ٤٧٩) بلفظ: (لو تدبَّر الناس هذه السورة لوسعتهم).

[٣] انظر: البرهان (٣/ ٣٨٣)، (٤/ ٢٤).

[٤] الهداية إلى بلوغ النهاية (٨/ ٥٠٦٨)، وانظر: المحرر الوجيز (٤/ ١٨٠)، البرهان (٤/ ٢٤).

فإذا اجتمع ضمائر متعددة في سياق واحد، واحتملت في مرجعها توزيعها على أكثر من مرجع؛ فحيث أمكن عَودها لواحد فهو أولى من عَودها لمختلف، لانسجام النَّظم، واتِّساق السِّياق، وقوة الإعجاز؛ ما دام الأمر محتمِلاً، ويستثنى من ذلك إذا منع مانع من اعتباره في بعض الحالات، حذراً من التنافر، وإذا تعددت الجمل وجاء بعدها ضمير جمع فهو راجع إلى جميعها[1].

ومعرفة هذا الضابط يعين المتدبِّر في تدبُّره للقرآن من حيث النظر في الضمائر أثناء التدبُّر، وتعزيز معرفتها لديه، وتفتّق ذهنه عن معانٍ مستوحاة منها.

ومن الأمثلة التي تبيِّن أثر التدبُّر بإعمال هذا الضابط: التدبُّر في عود الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف:٥٣]، أنه يعود على امرأة العزيز، فهو من كلامها، وليس من كلام يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، "كما يدلُّ القرآن على ذلك دلالة بيِّنة لا يرتاب فيها من تدبَّر القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ۝٥٠ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ۝٥٢ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف:٥٠-٥٣]، فهذا كلُّه كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضُر بعد إلى الملِك، ولا سمع كلامه ولا رآه"[2].

---

[1] انظر: البرهان (٤/ ٣٥)، مفاتيح الغيب للرازي (١٩/ ١٢٦)، غرائب القرآن للنيسابوري (٤/ ٢١٢)، قواعد التفسير (١/ ٤١٤)، قواعد الترجيح بين المفسرين (٢/ ٢٤١).

[2] مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (فالصواب أنه من تمام كلامها؛ فإنَّ الضمائر كلَّها في نسق واحد يدلُّ عليه، وهو قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف:٥١]، وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[يوسف:٥١]، فهذه خمسة ضمائر بين بارز ومستتر؛ ثمَّ اتصل بها قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف:٥٢]، فهذا هو المذكور أولاً بعينه، فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه، ويضمر فيه قولٌ لا دليل عليه)[١]، والله أعلم.

- المطلب السابع: قد يرد الشيء منكَّراً في القرآن تعظيماً له:

التنكير في اللغة يقع لأسباب متعددة، والتعظيم واحد منها[٢]، في نحو قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[آل عمران:١٣٣]، ولم تعرَّف المغفرة في القرآن إلا في آيتين لبيان اتِّصاف الله سبحانه بها[٣]، أما ما عدا ذلك فقد جاءت نكرة لبيان عظمتها وسعتها.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:٢]، فقد نكَّر الليالى العشر دون سائر ما أقسم به، لأنها مخصوصة من بين جنس الليالى العشر بفضيلة ليست لغيرها؛ فلم يجمع بينها وبين غيرها بلام الجنس، لكون التنكير أدلُّ على التفخيم والتعظيم[٤].

---

[١] روضة المحبين (٣٢٠).

[٢] انظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٩٧).

[٣] في آيتين فقط هما قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[النجم:٣٢]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦].

[٤] انظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، لزين الدين الرازي (٥٧٠).

وفي قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور:١]، جاء التنكير في: ﴿سُورَةٌ﴾ للتعظيم والتفخيم، والمعنى: هذه سورة عظيمة الشأن جليلة القدر، لما فيها من الآداب السامية والأحكام الجليلة[١].

ومعرفة هذا الضابط للمتدبِّر يعين على معرفة أغراض التنكير وأسبابه، وعلى فهم معانٍ دقيقة تُعرَف من ذلك.

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط للمتدبِّر: عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢]، يستفاد من الآية: أنَّ رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها، لأنَّ الرضا صفة الله والجنة خلقه، وهذا الرضا جزاءً على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

وقد جاء عَزَّوَجَلَّ بالرِّضوان مبتدأ منكَّراً مخبراً عنه بأنه أكبر من كلِّ ما وُعِدوا به، فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوَته، ولهذا لما يتجلَّى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأوليائه في جنات عدن ثمَّ يقول لهم: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[٢].

---

[١] انظر: روائع البيان للصابوني (٢/ ١٣).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٥٤٩) في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، وبرقم: (٧٥١٨) في كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٨٢٩) في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً.

ولا ريب أنَّ الأمر هكذا، وهو أجلُّ مما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحَب، فإنَّ المرء مع من أحب، ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت شاهداً وغائباً(١).

- المطلب الثامن: حذف جواب الشــرط يدلُّ على تعظيم الأمر في مقام الوعيد:

حذف الشيء في مقام التعظيم يدلُّ على شدَّته وهوله، وكذلك إبهامه وإجماله، مثل قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾ [طه:٧٨]، أي غشيهم أمر عظيم.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٦٥]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام:٣٠]، وقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام:٢٧]، وقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ﴾ [سبأ:٥١]، فحذْف الجواب في هذه الآيات وشبهها أولى من ذِكْره، ليدلَّ على عظمة ذلك المقام، وأنه لهوله وشدته وفظاعته لا يعبَّر عنه بلفظ، ولا يُدرَك بالوصف، مثله قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥]، أي لما أقمتم على ما أنتم عليه من التفريط والغفلة واللهو(٢).

ومن أمثلة إعمال التدبُّر قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [السجدة:١٢]، يستفاد منها: عظمة أهوال القيامة جداً، فإنَّ عذاب الكافرين من شدته وألمه وفداحته؛ سيجعل المجرمين الظالمين يقِفون خاضعين أذلاء، ناكسوا رؤوسهم، ليعترفوا بما أنكروا في الدنيا، ويقرُّوا بما جحدوه هناك، فأبصروا حِين لم يَنْفَعهُمْ الْبَصَر، وسمعوا حِين لم يَنْفَعهُمْ السّمع، لذا حذف جواب الشرط في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢/ ١٦٦)، مدارج السالكين (٢/ ٧٩)، (٢/ ٢٠٨)، (٣/ ٩٣).

(٢) انظر: القواعد الحسان (٤٧).

ﭐلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [السجدة:١٢]، والتقدير: لرأيت ما تعتبر به اعتباراً شديداً، أو لو رأيتَ حالهم لرأيت ما يُعتبر به، ولشاهدْت العجَب[١].

- المطلب التاسع: الأصل في صفات المدح أن ينتقل فيها من الأدنى إلى الأعلى، وصفات الذمِّ بعكس ذلك:

إذا كانت الصفة للمدح فالأَولى الانتقال فيها من الأدنى إلى الأعلى، ليكون المدح متزايداً بتزايد الكلام، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ [البقرة:٦٩].

فإن كانت صفات ذمٍّ فيكون الابتداء بالأشدِّ ذماً، ومثاله قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾[التوبة:٢٩].

وأما الموصوفات فعلى العكس من ذلك، فإنك تبدأ فيه بالأفضل، ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ ﴾[النحل:٨]، فقدَّم الخيل لأنها أحمد وأفضل من البغال، وقدَّم البغال على الحمير لذلك أيضاً.

وهذا الضابط لا يعارض ما سبق من تقديم الأهم فالأهمِّ في الكلام، فإنَّ المراد بتلك؛ فيما إذا كانا شيئين متغايرين مقصودين، وأحدهما أهمُّ من الآخر فإنه يقدَّم، وأما تأخُّر الأمدح في الصفات فذلك فيما إذا كانتا صفتين لشيء واحد، فلو أخَّرنا الأمدح لكان تقديم الأول نوعاً من العبث[٢].

---

[١] انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٩/ ٥٧٥٥)، زاد المسير (٣/ ٤٣٩)، نظم الدرر (١٥/ ٢٥١)، الدر المنثور (٦/ ٥٤٤).

[٢] انظر: البرهان (٣/ ٤٠٥).

وهذا الضابط مفيد للمتدبِّر؛ معين له على التأمُّل في صفات المدح والذمِّ، ومعرفة الأدنى والأعلى منها.

ومن الأمثلة على ذلك: أنه يستفاد من قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [النمل:٦١].

فجعل الله تعالى الحاجز بين البحرين، بحيث لا يختلطان ولا يمتزجان، ولا يبغي أحدهما على الآخر؛ من أعجب الأمور وأبينها على قدرة الخالق سبحانه.

وقد تدرَّج سبحانه في ذكر النعم التي امتنَّ بها على عباده، من جعلها قراراً، إلى أن جعل خلالها أنهاراً تجري في يابستها، ثمَّ امتنَّ بما هو أصعب من ذلك وأعجز؛ وهو أن جعل بين البحرين المالح والعذب حاجزاً وحائلاً يمنع من اختلاطهما وتغيرهما، فلا يبغي أحدهما على الآخر، فسبحان من هذا ملكه، ومن هذا خلقه، تبارك وتعالى.

- المطلب العاشر: حذف المتعلَّق المعمول فيه؛ يفيد تعميم المعنى المناسب له:

وذلك أنَّ الفعل وما هو معناه متى قيِّد بشيء تقيَّد به، فإذا أطلقه الله تعالى، وحذَف المتعلِّق كان القصد من ذلك التعميم، ويكون الحذف هنا أكثر فائدة من التصريح بالمتعلِّقات، وأجمع للمعاني النافعة[1].

ويُعرَف ذلك من القرائن؛ "فإن دلَّت القرينة على أنَّ المقدَّر يجب أن يكون عاماً فالتعميم من عموم المقدَّر سواء ذُكر أو حُذف، وإلا فلا دلالة على التعميم، فالظاهر أنَّ العموم فيما ذكر إنما هو دلالة القرينة على أنَّ المقدر عام، والحذف إنما هو لمجرد الاقتضاء لا التعميم"[2].

---

[1] انظر: الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني (٢/ ١٥٨)، البحر المحيط للزركشي (٤/ ٢٢١)، إرشاد الفحول (١/ ٣٣١)، انظر: القواعد الحسان (٤٣).

[2] البحر المحيط للزركشي (٤/ ٢٢١).

ولذلك أمثلة كثيرة، منها: أنه قال في عدة آيات: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، يدلُّ على أن المراد: لعلَّكم تعقلون عن الله كلَّ ما أرشدكم إليه، وكل ما علمكموه، وكل ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة.

ومثله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؛ أي: فلا تنسون ولا تغفلون، فتكونون دائماً متيقظين مُرْهفي الحواس، تحسُّون كل ما تمرُّون به من سنن الله وآياته، فتذكرون جميع مصالحكم الدينية والدنيوية.

ومثله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ جميع ما يجب اتقاؤه من الغفلة والجهل والتقليد، وكل ما يحاول عدوكم أن يوقعكم فيه من جميع الذنوب والمعاصي، ويدخل في ذلك ما كان سياق الكلام فيه، وهو فرد من أفراد هذا المعنى العام.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس:٢٥]، أي: يدعو كل أحد، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[الحجر:٤٥]، أي من أجل تقواهم.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، فإنها تشمل كلَّ نعمة أنعمها الله على عبده.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]: فالمتعلِّق بالفعل ﴿تَتَّقُونَ﴾ محذوف، ويمكن تقدير عدَّة متعلَّقات؛ فيفيد كلَّ ما قيل في حكمة الصيام، أي لعلكم تتقون المحارم عموماً، ولعلكم تتقون ما حرَّم الله على الصائمين من المفطرات والممنوعات، ومن كلِّ الأحوال والصفات السيئة والخبيثة، ولعلكم تتصفون بصفة التقوى، وتحصُلون على كلِّ ما يقيكم مما تكرهون، وتتخلَّقون بأخلاقها، وهكذا سائر ما ذكر فيه هذا اللفظ، مثل قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾

[البقرة:٢]، أي: المتقين لكلِّ ما يُتقى من الكفر والفسوق والعصيان، المؤدِّين للفرائض والنوافل التي هي خصال التقوى[1].

وهذه قاعدة مفيدة جداً، متى اعتبرها المتدبِّر في الآيات القرآنية أكسبته فوائد جليلة.

ومن أمثلته المستفادة من تدبُّر قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١]، أنَّ حذف المتكاثَر به ليعمَّ جميع ما يَقصد الناس فيه المكاثرة: من الرياسات والأموال والجاه والضيعات والأولاد، وغيرها مما تتعلَّق به أغراض النفوس؛ فيلهيها ذلك عن طاعة الله، فعُرِف من ذلك: أنَّ ثقافة الاستكثار من الأرقام في كلِّ شيء خاصة في الأزمنة المتأخرة؛ حتى أصبح الناس ولا همَّ لهمْ إلا التكثُّر من الشهوات والنساء والأموال، أمرٌ ملهي عن كمالات الأمور وفضائلها، وسيعلمون غداً وبال ذلك وعاقبته إن وُضعوا في قبورهم، ورأوا جزاء أعمالهم.

وكذلك عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣]، ذكر المسئولين وأطلق المسئول عنه؛ ليعمَّ كل ما يحتاجه العبد ولا يعلمه.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]، أي: تذكَّروا كلَّ أمر يوجب لهم المبادرة إلى المتاب، إجلالاً لعظمة الله، وما يقتضيه الإيمان وما توجبه التقوى، وتذكَّروا عقابه ونكاله، وتذكروا ما تحدثه الذنوب من العيوب والنقائص، وما تسلبه من الكمالات، فإذا هم مبصرون من أين أُتوا، ومبصرون الوجه الذي فيه التخلُّص من هذا الذنب الذي وقعوا فيه، فبادروا بالتوبة النصوح، والرجوع إلى صراط الله المستقيم، فعادوا إلى مرتبتهم، وعاد الشيطان خاسئاً مدحوراً.

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى:٦-٨]، ولم يقل: يجدك يتيماً فآواك، وضالاً فهداك، وعائلاً فأغناك،

---

[1] انظر: القواعد الحسان (٤٣-٤٤).

لأنَّه لو قال ذلك لكان مخصصاً به، ولأنَّ ما حصل له من هذا حصل له ولغيره، فإنَّ الله آواه وآوى به، وهداه وهدى به، وأغناه وأغنى به، فلمَّا حذف المتعلِّق صار عاماً [1].

والأمثلة كثيرة، والفائدة كبيرة من معرفة هذا الضابط.. والحمد لله.

- المطلب الحادي عشر: الحكم إذا علِّق على وصف؛ يدلُّ على عليَّة ذلك الوصف لهذا الحكم، ويدلُّ على أنه يعمُّ بعموم هذا الوصف، وزاد بزيادته، ونقص بنقصه:

فالحكم يدور مع علته، وهذا مما يلحق بالضابط السابق، والمقصود به: أنَّ الحكم إذا اقترن به وصف؛ دلَّ على أنَّه علة هذا الحكم وسببه، ولو لم يكن هذا الوصف تعليلاً لهذا الحكْم، لكان ذكره حشواً في الكلام لا فائدة منه، والقرآن منزَّه عن ذلك.

ويدلُّ أيضاً على أنه يعمُّ الحكم بعموم هذا الوصف، ويزيد بزيادته، وينقص بنقصه، فيقوى كلَّما قوي ذاك الوصف، ويضعف كلما ضعف.

فإذا وقع الحمد أو الذمُّ أو الوعد أو الوعيد على جنس فعلٍ من الأفعال، أو وصف من الأوصاف، فإنه يحصل للمكلَّف من ذلك الحمد أو الذمّ أو الجزاء بقدر نصيبه من ذلك الفعل أو الوصف، وتحققه فيه، فيزداد بزيادته وكماله، وينقص بنقصه وضعفه، وينعدم بانعدامه وزواله [2].

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، أي بسبب نفاقهم، وإظهار الإيمان وإبطان الكفر؛ استحقوا العذاب في الدرك الأسفل من النار،

---

(١) انظر: التعليق على القواعد الحسان (٦٨-٧١).

(٢) انظر: قواعد التفسير (٢/ ٦٢٨-٦٢٩).

وهو وعيد للذين اتَّصفوا بأعلى صفات النفاق، ويقلُّ هذا العذاب ويضعُف، بحسب قوة نفاقهم وضعفه، وزيادة ونقصاً، نسأل الله العافية من النفاق وأهله.

ومعرفة هذا يعين المتدبّر على فهم القرآن، وينمِّي لديه ملكة التدبُّر، ويحقق لديه الاعتبار والتذكُّر، بقياس إيمانه ومعرفة حاله حين يعرض نفسه على القرآن.

ومن الضوابط المتعلِّقة بذلك: **أنَّ الألف واللام الداخلة على الأوصاف وأسماء الأجناس تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه.**

وقد نصَّ على ذلك أهل الأصول وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٣٥]، فيدخُل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام والإيمان والقنوت والصدق إلى آخرها، وأنه بكمال هذه الأوصاف يكمُل لصاحبها ما رتِّب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد، وهكذا كلُّ وصف رتب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك كل وصف نَهى الله جَلَّجَلَالُهُ عنه ورتَّب عليه وعلى المتَّصف به عقوبة وشراً ونقصاً، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج:١٩-٢١]، عام لجنس الإنسان، فكلُّ إنسان هذا وصفه إلا من استثنى الله بعد ذلك بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾[المعارج:٢٢] إلى آخر الآيات[1].

---

(١) انظر: القواعد الحسان للسعدي (١٣).

ومما يفيد المتدبِّر جداً من هذا الضابط: معرفة الأسماء الحسنى التي ترد عليه في القرآن، فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُخبِر عن نفسه: أنه الربُّ الحي القيوم، وأنه الملك والعليم والحكيم، والعزيز والرحيم، والقدوس السلام، والحميد المجيد، وهو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحقَّ أن يؤلَّه لأجلها، وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يُشارِك اللهَ أحد في معنى من معاني الربوبية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، لا بشرٌ ولا مَلَك، فكلُّهم عبيد مربوبون لربهم بكلِّ أنواع الربوبية، مقهورون خاضعون لجلاله وعظمته جَلَّجَلَالُهُ، وهكذا بقية الأسماء الحسنى، تُعتبر بهذه القاعدة الجليلة فيفتح باب عظيم من أبواب معرفة الله بمعرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنى، وتقتضيه من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلن يبلغ علم أحد من الخلق بذلك، ولن يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- المطلب الثاني عشر: المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع:

المضاف إلى المعرفة ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الجمع المضاف إلى معرفة؛ مثل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء:٢٣] إلى آخرها، يشمل كلَّ أم انتَسَبْت إليها، وإن علَت، وكل بنت انتسبَت إليك وإن نزلت.

النوع الثاني: أسماء الأجناس المفردة المضافة إلى معرفة؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، فيشملُ النعم الدينية والدنيوية.

النوع الثالث: المفرد المضاف إلى معرفة؛ مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل:١٢٣]، فهو شامل لكلِّ ما هو عليه من التوحيد والإخلاص لله تعالى، والقيام بحق العبودية.

فالمفرد المضاف يفيد العموم، والجمع المضاف أيضاً يفيد العموم، أما الجمع فهو يفيد العموم بصيغته وإضافته، والمفرد يفيد العموم بالإضافة فقط، فلو نظرنا إليه لكونه مفرداً ما دلَّ على العموم، لكن بالإضافة يدلُّ عليه.

ومن الأمثلة التدبُّرية لهذا الضابط: أنَّ شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه، أُخذ هذا من تدبُّر قوله تعالى لما ذكَر الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:٩٠]، فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى، الذي هو العلوم النافعة والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدى المستقيم، وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه[1].

ومن الفوائد التدبُّرية: أنَّ من علم أنه بالله علم أنه لله، فإذا علم ذلك لم يبق فيه نصيب لغير الله، فهو مستسلم لحكم الله، لا يعارض اختيار الله، ولا يعرض عن أمر الله، لقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]، فهي تعمُّ الصلوات والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه في حياته ومماته، فضلاً من الله وإحساناً، خالصاً له وحده لا شريك له[2].

ومن الفوائد التدبُّرية من قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر:٣٦]: أنه كلما كان العبد أقوم بحقوق العبودية؛ كانت كفاية الله له أكمل وأتمُّ، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه[3]. وهو في القرآن كثير، والله أعلم.

---

[1] انظر: القواعد الحسان (١٨).

[2] انظر: لطائف الإشارات (١/ ٥١٥)، القواعد الحسان (١٨).

[3] انظر: القواعد الحسان (١٩).

- المطلب الثالث عشــر: ذكر الأوصــاف المتقابلات يغني عن التصــريح بالمفاضلة إذا كان الفرق معلوماً:

وهذا الضابط في القرآن كثير، يأتي في المقامات المهمة؛ كالمقابلة بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وبين إلهية الحقِّ وإلهية من سواه، ويذكر تباين الأوصاف التي يعرف العقلاء بالبداهة التفاوت بينها، ويدع التصريح بالمفاضلة للعقلاء، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠]، وقوله: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:٥٩]، وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [هود:٢٤]، وقوله سبحانه: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]، وقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [النمل:٥٩-٦٠]، والآيات التي بعدها.

وقوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر:٢٩]، وقوله في السورة نفسها: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقال قبلها: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩]، فهذا الموضع ترك القسم الآخر كما ترك التصريح بالمفاضلة، لعلمِه من المقام، فقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾، يعنى كمن ليس كذلك، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهو من بلاغة القرآن وأسلوبه العجيب.

وهذا اللون من ذِكرِ المتقابلات يتميَّز به أسلوب القرآن المتميِّز بالإعجاز، وارتقاء المستوى البلاغي والفصاحة إلى أرقى الحدود؛ لأنَّ الأشياء تتبيَّن بأضدادها، مثل قوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:٢٢].

ولما ذكر أوصاف الرسول الداعي، وما يدعو إليه، وأعظم الناس معارضة له، قال: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤]، وقال سبحانه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ [القلم:٥-٦]، وقال سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف:٢٩]، وذلك أنه إذا ميِّزت الأشياء تمييزاً تاماً؛ عرفت مراتبها في الخير والشر، والكمال والنقص، صار التصريح بعد ذلك أفضل لا معنى له.

ومن أمثلته عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[النمل:٥٩]، فائدة: وهي أنَّ السؤال عن الشيء المعلوم لا حاجة إلى أن يُجاب عنه، فمعلوم أنَّ الله خير في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩]، وقوله: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل:٦٠]. وهكذا، فالشيء المعلوم لو ذكر؛ لكان الكلام فيه لغواً لا فائدة منه، ومثله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾[الزمر:٩]، يعني: كمن هو غافل، لا يقنت في الليل ولا في النهار، على الوصف الذي ذكره الله تعالى. وهكذا، فإنَّ الشيء المعلوم يغني عنه ذكر ما يقابله، مما هو معلوم أنه خير أو شرٌّ[1].

ومن الفوائد التدبُّرية من قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد:١٦]، أنَّ حال المشركين أصحاب العمى كحال الظُلمة في انعدام إدراك المبصرات، وحال المؤمنين كحالِ البصر في العلم، وكحالِ النور في الإفاضة والإرشاد، فاختير التشبيه في المتقابلات العمى والبصر، والظلمة والنور، لتمام المناسبة[2]، والله أعلم.

---

[1] انظر: التعليق على القواعد الحسان (٢٨٠-٢٨١).

[2] انظر: التحرير والتنوير (١٣/ ١١٤).

- المطلب الرابع عشـر: التعجُّب في القرآن يدلُّ على محبَّة الله للفعل، أو بغضه، أو امتناعه وعدم حسنه، أو يدلُّ على حسن المنع منه وأنه لا يليق به فعله:

التعجُّب "يكون من أمرٍ خرج عن نظائره، وما خرج عن نظائره فقد خرق تلك العادة المعيّنة في نظائره، فهو أيضاً خارق للعادة"(١).

"وأصل العجب في اللغة: أن الإنسان إذا رأى ما يُنكِره ويقلُّ مثله قال: عجِبْت من كذا وكذا، وكذا إذا فعل الآدميون ما ينكره الله جاز أن يقولَ فيه عجبتُ، واللهَّ قد علم الشيء قبل كونه، ولكن الإنكار إنما يقع، والعجَب الذي يلزم به الحجة عند وقوع الشيء"(٢)، "فالعجب وإن أُسند إلى الله فليسَ معناهُ من الله كمعناهُ من العباد، ألا ترى أنه قال: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[التوبة:٧٩]، وليس السُّخْرِي من الله كمعناهُ من العباد"(٣).

والتعجُّب استعظام للمتعجَّب منه، وقد يكون مقروناً بجهل بسبب التعجُّب، وقد يكون لما خرج عن نظائره، والله تعالى بكل شيء عليم، فلا يجوز عليه ألا يعلم سبب ما تعجب منه(٤).

ومن أمثلة ورود التعجُّب فيما يدلُّ على محبَّة الله للفعل، قوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾[الكهف:٢٦]، "خرج على التعجب في صفته تعالى على جهة التعظيم له"(٥)، والله سبحانه يحبُّ تنزيهه وتعظيمه وذِكره، وهنا يمدح نفسه سبحانه بعلمه مقدار ما لبث أصحاب الكهف، وأنَّ له غيب السماوات والأرض، وهو

(١) كتاب النبوات لابن تيمية (٢/ ٨٣٠).

(٢) معاني القرآن للزجاج (٤/ ٣٠٠).

(٣) معاني القرآن للفراء (٢/ ٣٨٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٦/ ١٢٣) بتصرف يسير.

(٥) إيجاز البيان عن معاني القرآن للنيسابوري (٢/ ٥١٨).

سبحانه يبصر كلَّ شيء فلا أبصَر منه، ويسمع كلَّ صوت فلا أسمَع منه، ولا يغيب عنه شيء، ويدرِك البواطن كما يدرِك الظواهر، لا تخفى عليه خافية، وهو العليم الخبير سبحانه.

ومن أمثلة مجيء التعجُّب في بغض الفعل، قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ [آل عمران:١٠١].

وقد يدلُّ على امتناع الحكم، وعدم حسنه، مثل قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة:٧].

ومثال حسن المنع من الشيء قدراً، وأنه لا يليق به فعله، قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [آل عمران:٨٦][1].

ومعرفة هذا الضابط مفيد للمتدبِّر في لفت نظره إلى مدلولات التعجُّب التي تمرُّ به في القرآن، فتعينه على فهم المعنى فهماً دقيقاً، واستنباط الأحكام والحِكَم، ومن أمثلة ذلك: عند تدبُّر قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد:٥]، يستفاد: أنَّ التقليد الأعمى والكبر والجحود والعناد، أمور تمنع الإنسان عن الهداية، وتجعله يأتي بما يُتعجَّب منه، لأنه لا يفكِّر بعقل سليم، ولا يتدبَّر في الكلام بفهم وعقل، وإنما هو كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً، وفي الآخرة سيلقى الجزاء الأليم، نعوذ بالله من الخسران.

ومن أمثلته: ما يُفهم عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٥-٩٦]: أنَّ من لم يجعل الله في قلبه هداية وبصيرة للإسلام كان كالأنعام بل أضلُّ، ومن العجَب أن تتقبَّل عقول المشركين عبادة شيء صنعوه بأيديهم، وهم يرون في الكون وفي أنفسهم: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، والله أعلم.

---

[1] انظر: بدائع الفوائد (٤/ ٨)، البرهان للزركشي (٢/ ١٤)، تيسير الكريم الرحمن (٣٣)، قواعد التفسير (٢/ ٧٩١).

- المطلب الخامس عشر: يفهم من التكرار معنى عند التدبُّر لا يفهم منه مفرداً:

والمقصود به ما جاء تكرار لفظه في القرآن، وليس تكرار المتدبِّر للتلاوة.

والتكرار: هو إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى[1].

وفائدته العظمى: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرَّر تقرَّر[2].

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥].

وقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤-٥].

وقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦-٧].

وتكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد في اللغة حقيق بالاجتناب في البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينْتحيه المتكلِّم من تفخيم، أو تهويل، أو تنويه، أو نحو ذلك[3].

وللتكرار في القرآن فوائد ومقاصد تظهر بالتدبُّر في آياته، منها:

١) التأكيد، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧-١٨]، وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١-١٢].

٢) زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ [غافر: ٣٨-٣٩]، فإنه كرَّر فيه النداء لذلك.

---

(١) البرهان للزركشي (٣/ ١٠)، وانظر: التعريفات للجرجاني (٦٥).

(٢) البرهان للزركشي (٣/ ١٠)، الإتقان (٣/ ٢٢٤).

(٣) انظر: الكليات (٢٩٧).

٣) إذا طال الكلام وخشي تناسي الأول؛ أعيد ثانياً تطرية له، وتجديداً لعهده، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النحل:١١٩].

٤) في مقام التعظيم والتهويل كقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة:٨-٩]، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة:٢٧]، وقوله:﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ﴾[الحاقة:١-٢]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١-٢]، وقوله: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ﴾[القارعة:١-٢].

٥) في مقام الوعيد والتهديد، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر:٣-٤].

٦) التعجُّب، كقوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر:١٩-٢٠]، فأعيد تعجُّباً من تقديره، وإصابته الغرض.

٧) لتعدد المتعلَّق، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]، فإنها وإن تعددت؛ فلكلِّ واحد منها متعلِّق بما قبله، وإنَّ الله تعالى خاطب بها الثقلين من الإنس والجن، وعدَّد عليهم نعمه التي خلقها لهم، فكلما ذكر فصلاً من فصول النعم طلب إقرارهم، واقتضاهم الشكر عليه، وهي أنواع مختلفة وصور شتى[١].

٨) تكرار الاستفهام بقصد استبعاد وقوعه وصدوره، مثل قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون:٣٥][٢].

---

[١] انظر: البرهان للزركشي (٣/ ١١-١٨).

[٢] انظر: قواعد التفسير (٢/ ٧٠٩).

وغير ذلك من المقاصد والفوائد.

والفهم السديد والتدبُّر الصحيح للنصوص القرآنية، يوجبان على المتدبِّر أن يتتبَّع الآيات المتعلِّقة في موضوع واحد، ويتدبَّرها مجتمعة، ليلاحظ تكامل دلالاتها، مستبعداً ما أمكن تصوُّرات التكرار، ومتى أمكن حمل التكرار على التأسيس فهو أولى من حمله على التأكيد.

ومعرفة هذا الضابط مفيد للمتدبِّر، فهو يعينه على معرفة أغراض التكرار في النصِّ القرآني، ويفتح ذهنه على اكتشاف فوارق المعاني، حتى يعرف التكامل بينها، وأنَّ بعضها يؤدِّي ما لا يؤديه غيره.

ويحتاج لمعرفة ذلك: النظر في سياق الموضوع، فربما كان له عَّدة أهداف يمكن أن يدلَّه التكرار عليها، أو يكون في النصِّ الواحد جزئيات متعددة، فيظهر كلُّ ذلك بتدبُّر التكرار، والسياق الذي جاء فيه[1].

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط عند التدبُّر: ما ورد عن عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٤هـ) قال: (ما قال عبد: يا رب يا رب، ثلاث مرات، إلا نظر الله إليه)، فذُكر ذلك للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٠هـ)، فقال: (أما تقرءون القرآن؟ ثم تلا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران:١٩١ - ١٩٥])[2].

---

[1] انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٧١)، (٣٠٧).

[2] أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٣/ ٨٤٤) برقم: (٤٦٦٨)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣/ ٣١٣)، وذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٢٧٤).

ومما يجدر بالمتدبِّر بحثه في موضوع التكرار، الآيات التي تأتي في مواطن مختلفة من القرآن ظاهرها أنها مكررة، وهي متكاملة في موضوع واحد غير مكررة.

ومن أمثلة ذلك: قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٨-٩]، وهي سورة مدنية، وقد نزل هذا النصّ بشأن الكافرين في أواسط المرحلة المدنية.

ثمَّ نزل في أواخر المرحلة المدنية بشأن اليهود والنصارى؛ قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣]، وهما نصَّان متشابهان، وقد يوهمان عند النظر فيهما للوهلة الأولى التكرار، وعند التدبُّر فيهما يظهر الاختلاف بينهما، والتكامل في أداء المعنى الكلي.

ففي دلالة قوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ [الصف:٨]، أنهم يريدون مرادات مختلفة يتخذونها وسائل ليطفئوا نور الله بأفواههم، أما قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟﴾[التوبة:٣٢]، فتدلُّ على أنَّهم يريدون الإطفاء، ولعلَّهم بعد اتّخاذ الوسائل المختلفة توهَّموا أنهم قد وصلوا إلى ما يريدون، بعد إرادتهم الوسائل التي توصلهم إلى ذلك.

والفارق بين النصَّين، والملاحظ بين قوله: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف:٨]، وبين قوله: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[التوبة:٣٢]، يتناسب مع الفارق الأول، وذلك لأنَّ الكافرين ما داموا في مرحلة إرادة الوسائل التي من شأنها أن تصل إلى إطفاء نور الله، فالله متمُّ نوره، والتعبير هنا لا يزيد على إثبات وصف إتمام النور، لكنَّهن إذا وصلوا بعد اتّخاذ الوسائل إلى مرحلة إرادة إطفاء نور الله، ناسب أن يقول تعالى بتأكيد واهتمام: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة:٣٢]، فتكاملت بذلك المعاني الدالة على الدعوة وأعدائها، وأعمال الخصوم ضدَّها، وإحباط الله لأعمال الأعداء.

وجاء التأكيد بعد كلٍّ من الآيتين على أنَّ الأساس في هذه الرسالة الربانية واحد، دلَّ عليه في النصَّين قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[الصف:٩]،[التوبة:٣٣].

ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]، وقوله سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر:٦].

هاتان آيتان مكيتان، وقد نزلت الأعراف أولاً، وفيها زيادة بيان غاية السكن من خلْق الزوجة، أما آية الزمر ففيها زيادة بيان أنَّ النفس الواحدة الأولى هي آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد مرَّت عليه مدَّة بعد خلقه كان فيها وحيداً، قبل أن يخلُق الله منه زوجه، بدليل أنَّ العطف فيها قد جاء بحرف (ثمَّ) الذي يدلُّ على التراخي، بخلاف آية الأعراف، فالعطف فيها بالواو، الدال على مطلق الجمع[1]، والله أعلم.



[1] انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٣٠٨-٣١٠).

المبحث الرابع: ضوابط الاستنباط المعينة على التدبُّر

ويتضمَّن سبعة مطالب:

- المطلب الأول: يجب فهم النصّ القرآني من النص القرآني نفسه:

من المهم اشتراط أن يستوحي المتدبِّر فهمه للنصِّ من النصِّ نفسه، ومن بقية النصوص، فلا يقل في نصوص القرآن بمحض آرائه، وإنما بالنصِّ القرآني نفسه، أو غيره، وهذا من أهم المنطلقات الصحيحة المهمَّة لفهم القرآن وتدبُّره.

ويستدلُّ لهذا الضابط المهمّ بعموم ما تقرَّر في الشرع من الأمر بالاتباع، والنهي عن الابتداع، وهو من أهمِّ الأصول التي انبنى عليها الإسلام، وهو أصل مطَّرد حتى في مجال الاجتهاد المأذون فيه، أو المأمور به شرعاً، لافتقاره للدليل الشرعي.

فيقصدُ بهذا الضابط: فهم معنى الآية بما تدلُّ عليه حقيقة، وعدم تحميلها ما لا يحتمل مما لا دليل عليه[1]، ومن ادَّعى في التنزيل ما ليس في ظاهره كلِّف البرهان على دعواه[2]، فيجب الإيمان بظاهر التنزيل، ولا يبحث عن شيء فيه تكلُّف ومخالفة لظاهر القرآن دون دليل، إذ في ذلك جرأة على الله، وتقوُّل على كتابه، واشتغال بما لا يعني.

فالواجب على المتدبِّر أن يتدبَّر القرآن، ويتفهَّم معانيه، وما لم يبلغه علمه فليتوقَّف فيه، ويكله إلى عالمه[3].

---

(١) انظر: تدبُّر القرآن وقفات ولفتات (٧٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٥٥).

(٣) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٢٠٧)، قواعد التفسير (٢/ ٨٥٢).

فينبغي فهم الآية القرآنية وفق ترتيب نظمها، أما الفهم الذي يقوم على أساس التغيير في النظم القرآني بالتقديم أو التأخير لجملة أو كلمة فقد يجرُّ إلى فهم غير صحيح أو غير مراد، أو إلى تعطيل دلالة النصّ، إلى صرفه عن المعنى المراد الذي لا يُفْهم إلا بإبقاء النظم القرآني على حاله.

وقصور فهم المتدبِّر عن إدراك المعنى المراد الذي يدلُّ عليه ترتيب النظم، أو انصراف ذهنه إلى معنى آخر يراه متناسباً؛ ليس حجَّة له ليخالف النظم بغير ظاهره، فإنَّ الله سبحانه حكيم عليم، لا يضع الأشياء إلا في مواضعها.

ففهم النصِّ من النصِّ ونظمه، يتطلَّب البحث والتأمُّل طويلاً بصبر وأناة، ومن شأن ذلك أن يكشف للمتدبِّر عن أغراض بيانية أو بلاغية أو فكرية، أو غير ذلك، مما يكون من مقاصد البيان البليغ الحكيم.

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط عند التدبُّر: قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة:٥٥]، هذه الآية يخاطب الله فيها نبيه ﷺ، وكلَّ مؤمن بعده، بشأن المنافقين، أي: لا تعجبك أموال المنافقين وأولادهم التي أمدَّهم الله بها، فإنما أراد سبحانه امتحانهم بها في الدنيا، وليست سبب سعادة لهم، إنما هي عذاب ووبال عليهم في الدنيا قبل الآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (والصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة؛ بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم فى جمعها، ومقاساة أنواع المشاق فى ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهده على تحصيلها، والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب)[١].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦).

ومن سبَرَ أحوال أهل الأموال والأولاد المتعلِّقين بالدنيا وزينتها، ولا يتعملون النعم في طاعة الله؛ سيجدهم معذَّبين بالكدِّ والهمِّ والقلق ومتاعب الجمع والمنع، الخوف على أنفسهم وأموالهم، وقد يأتيهم العذاب من قبَل أولادهم بالقطيعة والعقوق، أو بالمشكلات التي تجرُّ لهم أنواعاً من المتاعب والمشقيات، وكم من ذي مال وفير تعرَّض ماله للتلف أو السلب، فأصابته العلل والآلام والمرض، وكم ممن ظنَّ سعادته في الأولاد، فكانوا سبب شقاء وندامة، فسبحان الحكيم العليم الذي يبتلي من شاء بالنعم. وعليه: فلا يصحُّ حمل الآية على أنَّ المراد بالتعذيب؛ عذاب الآخرة، لمخالفة ذلك لظاهر النصّ[1].

ومن أمثلته عند تدبُّر قوله تعالى عن الرجل الصالح: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص:٢٧]، ظاهر الآية يفيد أموراً منها: جواز أن يخطب الرجل لابنته، والتخيير في العقد، وجواز أن يكون المهر عملاً، ومشروعية الحج في السابق، وجواز تعليق ما يعرفه المرء عن نفسه من الخير بالمشيئة.

ومن أمثلته أيضاً: أنه يُفهَم من تدبُّر قول الله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ [الممتحنة:١١]، أنَّ خروج البِضْع من ملك الزوج متقوَّم، فهذا ظاهر القرآن، ويدلُّ عليه أيضاً: أنَّ الشارع كما جعله متقوَّماً في دخوله فكذلك في خروجه، لأنه لم يدخله إلى ملك الزوج إلا بقيمة وهو المهر، وحكَم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ في المفقود بما حكموا به من رد صداق امرأته إليه بعد دخول الثاني بها دليل على أنه متقوَّم في خروجه[2]، والله أعلم.

---

[1] انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٢٠٧-٢١٢).

[2] انظر: بدائع الفوائد (٣/ ١٦٧).

- المطلب الثاني: يقدَّم الفهم الذي تؤيده آية أو خبر صحيح على غيره:

والمعنى واضح، فإذا طرأ على ذهن المتدبِّر فهم لمعنى الآية يوافقه نصٌّ آخر، من آية أو حديث صحيح، أو قول صحابي، فيقدَّم على غيره مما عدِم ذلك.

وعبَّرت بالخبر، ليشمل الحديث عن النبي ﷺ وأقوال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

وتكمُن أهمية هذا الضابط في ربط المتدبِّر بالآيات، أن يكون لديه ملكة الربط الموضوعي بينها، إضافة إلى زيادة اطلاعه ومعرفته بالسنة، والأحاديث الصحيحة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٢٦هـ): (والعلم إما نقل مصدق عن معصوم، وإما قول عليه دليل معلوم، وما سوى هذا فإما مزيف مردود، وإما موقوف لا يعلم أنه بهرج ولا منقود)[1].

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط في التدبُّر: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧]، يستفاد منها عند التدبُّر في التفضيل بين الملائكة وبني آدم: أنَّ التفضيل يكون في الأعمال من حيث صدورها من بني آدم ومن الملائكة، إذ الملائكة تصدر عنهم أعمال الخير جبلَّة أو بدون نوازع شر، بخلاف بني آدم، فأعمال الخير تصدر عنهم بمجهود مزدوج، حيث ركِّبت فيهم النفس اللوامة والأمارة بالسوء، ويتنازع الإنسان عوامل الشرِّ حتى يتغلَّب عليها، ويبذل الجهد في فعل الخير، فهو يجاهد للتخليص من نوازع الشرِّ، ثم هو يجاهد للقيام بفعل الخير، وهذا مجهود يقتضي التفضيل على المجهود من جانب واحد.

وقد جاء في السنة ما يشهد لذلك، لما ذكر ﷺ لأصحابه في حقِّ من يأتي بعدهم من أنَّ «**لِلْعَامِلِ**

---

(١) مقدمة في أصول التفسير (٧).

فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً»[1]، وحديث: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ**»[2]، فقد بيَّن ﷺ أنَّ الدرهم سبق الأضعاف المضاعفة؛ لأنه ثاني اثنين فقط، والمائة ألف جزء من مجموع كثير.

فالنفس التي تجود بنصف ما تملك، ولا يتبقَّى لها إلا درهم، خيرٌ بكثير ممن تنفق جزءاً ضئيلاً مما تملك ويتبقى لها المال الكثير، فكانت عوامل التصدُّق ودوافعه مختلفة منزلة في النفس، متضادة؛ فالدرهم في ذاته وماهيته من جنس الدراهم الأخرى، لم تتفاوت الماهية ولا الجنس، ولكن تفاوتت الدوافع والعوامل لإنفاقه، ولعلَّ المفاضلة المقصودة تكون من هذا القبيل أولى[3]، والله أعلم.

- المطلب الثالث: يجري القرآن في إرشـاداته مع الزمان والمكان والأحوال في أحكامه الراجعة للعرف والعادة:

المطلوبات الشرعية بنوعيها (مطلوب الفعل، ومطلوب الترك) من حيث التغير والثبات؛ تنقسم إلى قسمين:

الأول: أمور ثابتة لا يطرأ عليها التغيير في الأحوال والأوقات، مثل الصلاة والزكاة من المأمورات، ومثل: الزنا والخمر من المنهيات؛ فحكم هذه الأمور واحد، لا يتغيَّر ولا يختلف حكمه من عصْر إلى عصْر، ومن بلد إلى بلد، بل هو واجب على الآخِرين نظير وجوبه على الأوَّلين من هذه الأمة، وهذا القسم لا علاقة له بهذا الضابط.

---

[1] **صحيح**. أخرجه ابن ماجه في سننه (٥/ ١٤٦) برقم: (١٣٥٠)، وأبو داوود (٤/ ١٢٣) برقم: (٤٣٤١)، والترمذي (٥/ ٢٥٧) برقم: (٣٠٥٨)، والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٤٢٨) برقم: (٧٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٥١) برقم: (٧١٤٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٣١٧٢).

[2] **حسن**. أخرجه ابن زنجويه في الأموال (٢/ ٧٦٩) برقم: (١٣٣٦)، والبزار في مسنده (١٥/ ٣٣٨) برقم: (٨٨٩٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ٤٧) برقم: (٢٣١٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٤/ ٩٩) برقم: (٢٤٤٣)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٧٦) برقم: (١٥١٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب (٨٨٣).

[3] انظر: أضواء البيان (٩/ ٥٢).

الثاني: أمور متغيِّرة، تتعلَّق بأعراف الناس وعوائدهم، وأحوالهم وأمكنتهم، فهذا يختلف من وقت إلى آخر، ومن بلد لآخر، ومن حال وأخرى، وهو موضوع هذا الضابط، ومحلُّ بحثه[1]، فما كان يختلف باختلاف الأمكنة والأزمة والأحوال؛ فمرجِعه إلى العرف والعادة، والمصلحة المتعيِّنة في ذلك الوقت.

ومن أمثلة ذلك: الأمرُ بالإحسان إلى الوالدين بالأقوال والأفعال في نحو قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [البقرة:٨٣]، دون أن يعيِّن نوعاً خاصاً من الإحسان والبر، فيعمُّ كل ما تجدَّد من الأوصاف والأحوال، فقد يكون الإحسان إليهم في وقت غير الإحسان في الوقت الآخر، وفي حقِّ شخص دون حقِّ الشخص الآخر.

فالواجب الذي أوجبه الله: النظر في الإحسان المعروف في الوقت والمكان، فيُفعَل.

ومثل ذلك: ما أمر به من الإحسان إلى الأقارب والجيران والأصحاب ونحوهم، فإنَّ ذلك راجع في نوعه وجنسه وأفراده إلى ما يتعارفه الناس إحساناً، وكذلك ضدُّه من العقوق والإساءة، ينظر فيه إلى العرف.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[النساء:١٩]، وفي سورة البقرة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:٢٢٨]، فردَّ الله الزوجين في عشرتهما وأداء حقِّ كل منهما على الآخر على المعروف المتعارف عند الناس في البلد والقطر والحال، وذلك يختلف اختلافاً عظيماً، لا يمكن إحصاؤه عداً، فدخل ذلك كله في هذه النصوص المختصرة، وهذا من آيات القرآن وبراهين صدقه.

ومن أمثلته أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾[الأعراف:٣١]، وقوله قبلها: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾[الأعراف:٢٦]، فقد أباح لعباده الأكل

---

[1] انظر: قواعد التفسير (٢/ ٧٧١).

والشرب واللباس، ولم يعيِّن شيئاً من الطعام والشراب واللباس، وهو يعلم أنَّ هذه الأمور تختلف باختلاف الأحوال، فيتعلَّق بها أمره حيث كانت، ولا ينظر إلى ما كان موجوداً منها وقت نزول القرآن فقط[1].

والمعروف: هو ما عِرف حسْنه شرعاً وعقلاً وعرفاً، والمنكر: هو ما ظهر قبحه شرعاً وعقلاً وعرفاً.

والعُرْف هو: ما استَقَرَّت النفوس عليه بشهادة العقول، وتَلَقَّتْه الطبائع بالقَبول[2]، فكلُّ ما ألِفه الناس واعتادوه، حتى صار جزءاً من حياتهم، فهو العرف.

ويجب أن يكون صحيحًا موافقاً لحكم الشرع، فإن خالفه صار فاسداً.

وضابط العرف الصحيح المعتبَر شرعاً: ألا يخالف أو يعطِّل نصاً شرعياً أو أصلاً قطعياً في الشريعة، وأن يكون قائماً عند إنشاء التصرف، ومطَّرداً غالباً[3].

فلو تعارف الناس مثلاً على أن تصافح المرأة ابن عمِّها بيدها في المناسبات، لقلنا: لا اعتبار بذلك، لأنَّ ما نصَّ الشارع على تحريمه لا يجيزه عرف الناس.

ومعرفة هذا الضابط عظيمة النَّفع للمتدبِّر، في فهم نصوص الوحي، ومعينة له على معرفة الأحكام واستنباطها بوضوح، وله أهمية بالغة، إذ فيه دلالة على مرونة الشريعة وسعتها، وقد عقد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) فصلاً في تغيير الفتوى، واختلافها بحسب

---

[1] انظر: القواعد الحسان (٦٣).

[2] التعريفات (١٤٩).

[3] انظر: الموافقات (٢/ ٤٩٥)، المنثور في القواعد الفقهية (٢/ ٣٥٦-٣٦٥)، الأشباه والنظائر للسيوطي (٩٦)، الأشباه والنظائر لابن نجيم (٨٦)، مجموعة رسائل ابن عابدين (٢/ ١١٥)، وانظر: قرار مجمع الفقه الإسلامي رقم: (٤٧- ٥/ ٩) ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي العدد الخامس (٤/ ٢٩٢١).

تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد، ثمَّ قال: (هذا فصل عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أنَّ الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به؛ فإنَّ الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى البعث؛ فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل؛ فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظلّه في أرضه، وحِكمته الدالة عليه، وعلى صدق رسوله ﷺ أتمَّ دلالة وأصدقها)[1].

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾[النساء:٦].

يستفاد منه عند التدبُّر: أنَّ وصيَّ اليتيم الفقير، له أن يأكل من مال اليتيم دون إسراف، فيأخذ حاجته التي يحتاجها، والتي تتناسب بقدر المال، وقدر عمله في حفظه وتنميته، فتردُّ "النَّفَقة المطْلَقة في الشرع إلى العُرف فيما بين الناس في نفقاتهم، في حقِّ الموسر والمعسر والمتوسط"[2].

ومثلها النفقة على الزوجة التي قال الله عنها: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[الطلاق:٧].

قال أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٣هـ): (الإنفاق ليس له تقديرٌ شرعي، وإنما أحالَهُ الله سبحانه على العادَةِ، وهي دليل أصوليٌّ، بَنَى الله عليه الأحكامَ، وربط به الحلال والحرام؛ وقد أحاله الله على العادة فيه في الكفارة، فقال: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾[المائدة:٨٩])[3].

---

[1] إعلام الموقعين (٣/ ١١).

[2] المغني لابن قدامة (٨/ ١٩٨).

[3] أحكام القرآن (٤/ ٢٨٩).

ومن الأمثلة أيضاً من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٤٠].

يستفاد منها عند التدبُّر: أنه لا يجوز للمرأة أن تخرج عن المعروف في جميع أحوالها؛ وهو ما أقره الشرع والعرف جميعاً؛ فلو خرجت في لباسها، أو مشيتها، أو صوتها، عن المعروف شرعاً فهي آثمة؛ ويجب ردعها عن الخروج على هذا الوجه[(١)].

ومن الأمثلة أيضاً: أنَّ ما يسمَّى بـ: حرب المعلومات، في الأزمنة المتأخرة، ضدَّ أعداء الله؛ هي من الجهاد الواجب، والقوة التي يجب أن يتسلَّح بها مجموعة من المسلمين، ويتخصصوا في معرفتها، والتدرُّب عليها، وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، ومن المعلوم: أنَّ السلاح والقوة الموجودة وقت نزول القرآن؛ غير نوع القوة التي استجدَّت بعد ذلك، فالآية تتناول كل ما يستطاع من القوة في كلِّ وقت، وبما يناسبه ويليق به.

وفي القرآن من هذا أمثلة كثيرة[(٢)]، والحمد لله.

- المطلب الرابع: الاقتران في النظم لا يستلزم الاقتران في الحكم:

والمقصود: أن يقرِن الشارع بين شيئين فأكثر لفظاً، وهو ما يسمى عند الفقهاء والأصوليين: بدلالة الاقتران، بحيث يجمع بين شيئين أو أشياء في الأمر أو النهي، ثم يبيِّن حكم أحدهما، فيستدلَّ بالقران على ثبوت ذلك الحكم للآخر[(٣)].

---

(١) تفسير الفاتحة والبقرة لشيخنا محمد بن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣/ ١٨٨).

(٢) انظر: القواعد الحسان (٦٣).

(٣) تشنيف المسامع بجمع الجوامع للزركشي (٢/ ٧٥٩).

فالاقتران في النظم لا يستلزم منه الاقتران في الحكم[1].

وقد قسَّم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) دلالة الاقتران من حيث القوة والضعف إلى ثلاث مراتب[2]:

الأولى: تظهر قوتها، إذا جمع بين المقترنين لفظ اشتركا في إطلاقه وافترقا في تفصيله، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١].

فهذه الأمور المذكورة جمعها التحريم، سواءً كان متوجهاً إليها مباشرة، أو متوجهاً إلى أضداد بعضها، وهي أمور متفاوتة في تحريمها.

الثانية: يظهر ضعفها، وذلك عند تعدد الجمل واستقلال كل واحد منها بنفسها، لأنَّ كل جملة مفيدة لمعناها وحكمها وسببها وغايتها، وهي منفردة به عن الجملة الأخرى، واشتراكها في مجرَّد العطف لا يوجب اشتراكها فيما وراءه؛ فإن العطف يفيد الاشتراك في المعنى إن كان عطف مفرد على مفرد: كقام زيد وعمرو، أما إن عُطفت جملة على جملة فلا اشتراك في المعنى، نحو: اقتل زيدًا وأكرم عمرًا، ومثاله من القرآن قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]، فقوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام:١٤١]، أمر بالأكل على سبيل الإباحة، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]، أمرٌ بالزكاة على الوجوب؛ فدلَّ على أنَّ دلالة الاقتران لا يُعتبر بها.

---

[1] انظر: الأشباه والنظائر للسبكي (٢/ ١٩٣)، البحر المحيط للزركشي (٨/ ١٠٩)، فتح الباري (١٠/ ٤٨٠)، إرشاد الفحول (٢/ ١٩٧).

[2] بدائع الفوائد (٣/ ١٨٣-١٨٤)، وانظر: قواعد التفسير (٢/ ٦٤٤).

الثالثة: يظهر التساوي حيث كان العطف ظاهرًا في التسوية، وكان قصد المتكلم ظاهرًا في الفرق، فيتعارض ههنا ظاهر اللفظ وظاهر القصد، فإن غلب ظهور أحدهما اعتبر، وإلا طلب الترجيح.

ومثال ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، فقد قرن الله تعالى بين الأمر بأداء حقه سبحانه، وبين الأمر بأداء حقِّ الوالدين، مما يُشعِر بعظَم حقِّهما.

ومعرفة هذا الضابط مما يعين المتدبِّر على الفهم ومعرفة الأحكام، وتدبُّرها.

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط: عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، فيه عِظَم خطر القول على الله بغير علم، لأنه قرن في الآية بينه وبين الشرك بالله.

ومن أمثلته عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، فجاء قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، في معرض الامتنان بالمركوبات؛ فأشارت دلالة الاقتران إلى أنَّ من المراد بها بعض المركوبات، كما قد ظهرت صحة ذلك بالعيان، وقد بيَّن سبحانه في موضع آخر: أنه يخلق ما لا يعلمه خلقه غير مقترن بالامتنان بالمركوبات، وذلك في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦][1].

---

[1] انظر: أضواء البيان (٢/ ٣٣٥).

- المطلب الخامس: الآيات التي تضمَّنت قيوداً؛ لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود، إلا في آيات يسيرة[1]:

الأصل: أنَّ الآيات التي فيها قيود لا تثبت أحكامها إلا بوجود تلك القيود، فإنَّ الله متى رتَّب في كتابه حكماً على شيء، وقيَّده بقيد، أو شرَط لذلك شرطاً، تعلَّق الحكم به على ذلك الوصف، الذي وصفه الله تعالى، وهذا في القرآن لا حصر له، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[الرعد:١١]، فجعل سبحانه تغيير النفس شرطٌ لحصول التغيير من الله، إن خيراً فخير، وإن شراً فغير ذلك.

ومن أمثلته أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١]، فالحقُّ الذي قيّدها الله به جاء مفسَّراً في قوله ﷺ: «**لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**»[2].

وهذه قاعدة لطيفة، وأصل مهم، والمقصود من الضابط هنا بيان المستثنى من هذا الأصل، لمعرفة أنَّه ليس في القرآن قيد أو شيء غير مراد، فإنَّ الله أراد كلَّ لفظة أثبتها في كتابه، لما فيها من فائدة قد تظهر للمتدبِّر وقد تخفى.

---

(١) انظر: القواعد الحسان (٧٦-٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٨٧٨) في كتاب الديات، باب قول الله: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].
وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٦٧٦) في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم.

والله تعالى يذكر الأحكام الشرعية من أصول وفروع، ويذكر أعلى حالة لها ليبرزها لعباده، وليظهر لهم حسنها -إن كانت مأموراً بها-، أو قبحها -إن كانت منهياً عنها-، وعند تأمل الآيات التي بهذا الصدد يظهر له ذلك واضحاً جلياً، ومن ذلك الآيات التي قيل عنها: لا اعتبار بمفهومها، ومنها:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[البقرة:٦١]، مع أنه لا يقع قتلهم إلا بغير الحق، فهذا لتشنيع هذه الحالة التي لا شبهة لصاحبها، بل صاحبها أعظم الناس جرماً، وأشدهم إساءة[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾[البقرة:٢٨٣]، مع أنَّ الرَّهن يصحُّ حضراً وسفراً، ففائدة هذا القيد: أنَّ الله ذكر أعلى الحالات، وأشدَّ الحاجات للرهن، وهي هذه الحالة في السفر، والكاتب مفقود، والرهن مقبوض، "وليس تعليق مشروعية أخذ الرهن بالسفر، وعدم وجود كاتب يكتب وثيقة بالدين لاشتراطهما معا، وإنما المراد بيان الرخصة في ترك الكتابة لعذر، وكون الرهن يقوم مقام الكتابة في الاستيثاق عند تيسرها كما يكون في حال السفر"[٢].

٣- قوله: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾[البقرة:٢٨٢]، مع أنَّ الحقَّ يثبت بالرجل والمرأتين ومع وجود الرجلين، والنبي ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين[٣]، لكن الله أرشد في الآية عباده إلى أعلى حالة يحفظون بها حقوقهم، لتمام راحتهم، وحسم اختلافهم ونزاعهم.

---

[١] انظر: إعراب القرآن وبيانه (١/ ٤٨١).

[٢] تفسير المنار (٣/ ١٠٩).

[٣] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٧١٢) في كتاب الأقضية، باب القضاء باليمين والشاهد، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "أنَّ رسول الله ﷺ قضى بيمين وشاهد".

٤- قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[النساء:٢٣]، مع أنَّ كونها في حجره أو في غير حجره؛ ليس شرطاً لتحريمها، فإنها تحرم مطلقاً، ولكن ذكر الله هذا القيد تشنيعاً لهذه الحالة، وأنه من القبيح إباحة الربيبة التي هي في حجر الإنسان بمنزلة بنته، فذكر الله المسألة متجليةً بثياب قبحها، لينفر عنها ذوي الألباب، مع أنَّ التحريم لم يُعلَّق بمثل هذه الحالة، فالأنثى إما أن تكون مباحة مطلقاً، أو محرَّمة مطلقاً، سواء كانت عند الإنسان أم لا، كحالة بقية النساء المحللات والمحرمات، وأيضاً: فالغالب أنَّ الربيبة تكون في حجْر زوج الأم، "ففي ذكر هذا فائدة شريفة وهي جواز جعلها في حجره، وأنه لا يجب عليه إبعادها عنه، وتجنُّب مؤاكلتها، والسفر والخلوة بها، فأفاد هذا الوصف عدم الامتناع من ذلك"[1].

٥- قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[النساء:٤٣]، مع أنَّ فقد الماء ليس من شرطه وجود السفر، فإنه إذا فُقد جاز التيمم حضراً وسفراً، ولكن ذكر السفر لبيان الحالة التي يغلب أن يفقد فيها الماء، أما الحضر فإنه يندر فيه عدم وجود الماء جداً[2].

٦- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾[الأنعام:١٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[الإسراء:٣١]، مع أنَّ المعلوم النهي على قتل الأولاد على أيِّ حال، فالفائدة في ذكر هذه الحالة: أنها حالة جامعة للشرِّ كله؛ كونه قتل بغير حق، وقتل مَنْ جُبلت النفوس على شدة الشفقة عليه شفقةٍ لا نظير لها، وكون ذلك صادراً عن تبرُّم وتسخُّط لقدر الله، وإساءة الظن بالله.

وأيضاً: فإنه إذا كان منهياً عن قتلهم في هذه الحال التي دفعهم إليها خشية الفقر وحدوثه، ففي حال سعة الرزق من باب أولى وأحرى.

---

[1] زاد المعاد (٥/ ١١١).

[2] انظر: أحكام القرآن للجصاص (٤/ ١٣)، شرح عمدة الفقه من كتاب الطهارة والحج لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٤٢٤).

وأيضاً: ففي هذا بيان للحالة الموجودة غالباً عندهم.

٧- قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون:١١٧]، فمن المعلوم أنَّ من دعا مع الله إلهاً آخر فإنه كافر، ولا برهان لصاحبه يحتج به عند ربه، وإنما قيَّدها الله بهذا القيد بياناً لشناعة الشرك والمُشرك، وأنَّ الشرك ليس له دليل شرعي، ولا عقلي قطعاً، وليس بيده ما يُسوِّغ له شيئاً من ذلك.

ففائدة هذا القيد: التشنيع البليغ على المشركين، من المعاندة ومخالفة البراهين الشرعية والعقلية، وأنه ليس بأيديهم إلا أغراض نفسية ومقاصد سيئة، وأنهم لو التفتوا أدنى التفات لعرفوا أنَّ ما هم عليه لا يستجيزه من له أدنى إيمان ولا معقول[1].

٨- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ ﴾ [النور:٣٣]، فإن امتنعن عن البغاء لغير التحصُّن فلا يُكرهْن أيضاً، وإنما ذكرت الآية أشنع ما يكون، وهو إكراه الأمة على البغاء وهي تريد التحصُّن[2].

والحاصل: أنَّ معرفة هذا الضابط مفيد جداً للمتدبِّر، إذ يعلم به المسائل القليلة التي دلَّ الدليل فيها على أنَّ الشرط أو القيد ليس مفهوم المخالفة فيه مخالفاً لحكم المنطوق، وإنما ذُكرت هذه القيود: بياناً للواقع، أو للغالب، أو لذكر الحال الأعلى في الموضوع، وهذا كلُّه يظهر بالتدبُّر والنظر في الآيات، وما ذكرته من مواضع في هذا المطلب هي من الآيات القليلة المستثناة من القاعدة[3]، والله أعلم.

---

(١) انظر: تفسير المنار (١١/ ٢٠٥)، تيسير الكريم الرحمن (٥٦٠)، القواعد الحسان (٧٦).

(٢) انظر: التعليق على القواعد الحسان (١٢٧).

(٣) انظر للاستزادة: التعليق على القواعد الحسان (١٢٧)، وقد جمع الباحث: عمر سليمان، في رسالة دكتوراه في الجامعة الإسلامية غالب الآيات التي قيل عنها: لا اعتبار بمفهومها، بعنوان: (الآيات التي قيل =

- المطلب الســادس: تجب مراعاة ما دلّت عليه ألفاظ القرآن مطابقة أو تضمُّنا أو التزاماً، وما تستدعيه من المعاني التي لم يصرِّح اللفظ بذكرها[1]:

من المعاني ما يدلُّ النصُّ القرآني دلالة مباشرة منصوصاً عليها في اللفظ، ومنها معانٍ تُستفاد لزوماً، ويقتضيها النصُّ اقتضاءً، دون أن يكون فيه ألفاظ خاصة تدلُّ عليها.

والقرآن الكريم فيه إيجاز كثير، يدركه أهل التدبُّر العميق، والنظر الدقيق، والبصيرة النافذة، وإن كان القدر الذي يفهمه المتدبِّر البسيط كافٍ لهدايته، إلا أنه لا يصل إلى ما يحتوي من معانٍ ودلالات دقيقة، وهي من المعاني الظاهرة غير أنَّ رؤيتها تحتاج بصيرة وفهماً وتأملاً طويلاً في كتاب الله تعالى[2].

ودلالة الألفاظ على المعنى تنحصر في: المطابقة، والتضمُّن، واللزوم.

دلالة المطابقة: إذا تطابق اللفظ على جميع المعنى، فلا زيادة في اللفظ على المعنى، فالمفهوم من اللفظ هو نفس الموضوع له، مثل: دلالة لفظ "البيت" على معنى البيت.

دلالة التضمُّن: إذا استدلَّ باللفظ على بعض معناه، فدلَّ اللفظ على ما في ضمن المسمى، وهذه الدلالة تتحقق فيما له أجزاء، مثل: دلالة لفظ "البيت" على السقف.

دلالة الالتزام: إذا استدلَّ باللفظ على أمر خارج عن معناه لازم له، مثل: دلالة لفظ "البيت" على أنَّ له بانياً بناه[3].

لا اعتبار بمفهومها- دراسة نقدية) ونوقشت بتاريخ ٢/ ١/ ١٤٣٦هـ، وقد استقصى الباحث جمعها، وحرر الأقوال فيها، بما يحسن معه الرجوع إلى رسالته القيمة، والإفادة منها.

[1] انظر: القواعد الحسان للسعدي (٣٢-٣٥).

[2] انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٢٣٩).

[3] انظر: روضة الناظر (١/ ٧١)، الإحكام للآمدي (١/ ٦٥)، غاية الوصول في شرح لبّ الأصول (٣٢)، مختصر التحرير شرح الكوكب المنير لابن النجار (١/ ١٢٦).

فإذا فتح الله على المتدبِّر في معرفة هذه الدلالات؛ حصل له علم كثير بأدلة قليلة.

والمقصود من هذا الضابط: مراعاة المعاني التي تستلزمها الألفاظ في القرآن الكريم، فقد أجمع العلماء على الاستدلال باللوازم في كلام الله لأهميتها ومكانتها.

فإنَّ مما يستلزمه النصُّ سؤالٌ ذُكر جوابه دون أن يُذكر، وجوابٌ ذُكر سؤاله دون أن يُذكر، وتتمات يستدعيها اللزوم العقلي، ونحو ذلك مما يظهر واضحاً للمتدبِّر بعمق.

"والطريق إلى سلوك هذا الأصل النافع: أن تفهم ما دلَّ عليه اللفظ من المعاني فإذا فهمتها فهماً جيداً، ففكر في الأمور التي تتوقَّف عليها، ولا تحصل بدونها، وما يشترط لها، وكذلك فكِّر فيما يترتب عليها، وما يتفرَّع عنها، وينبني عليها، وأكثر من هذا التفكير وداوم عليه، حتى تصير لك ملكة جيدة في الغوص على المعاني الدقيقة، فإنَّ القرآن حق، ولازم الحقِّ حق، وما يتوقف على الحقِّ حق، وما يتفرَّع عن الحق حق، ذلك كله حق ولا بدَّ؛ فمن وفِّق لهذه الطريقة وأعطاه الله توفيقاً ونوراً، انفتحت له في القرآن العلوم النافعة، والمعارف الجليلة[1].

ومعرفة هذا الضابط وفهمه للمتدبِّر من أنفع الأمور، إذ تستدعي معرفته قوَّة فكر، وحسن تدبُّر، وصحَّة قصد؛ فإنَّ الذي أنزله للهدى والرحمة هو العالم بكل شيء، الذي أحاط علمه بما تكنُّ الصدور، وبما تضمَّنه القرآن من المعاني، وما يتبعها وما يتقدَّمها، وتتوقَّف هي عليه.

وأمثلة هذا الضابط كثيرة جداً، ومنها:

١-قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:١]، وهي من أسماء الله الحسنى، التي تدلُّ بلفظها على وصفه بالرحمة، وسعة رحمته التي لا يشبهها رحمة، وهي وصفه الثابت، وأنه أوصل رحمته إلى كل مخلوق، ولم يخل أحد من رحمته طرفة عين؛ فدلَّ هذا الوصف على كمال حياته، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال حكمته، لتوقُّف الرحمة على ذلك

---

[1] انظر: القواعد الحسان (٣٢).

كله، ومن سعة رحمته سبحانه: أن جعل شرعه نوراً ورحمة، ولهذا يعلل الله تعالى كثيراً من الأحكام الشرعية برحمته وإحسانه لأنها من مقتضاها وأثرها.

٢- في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[الأحزاب:٤٥-٤٦]، فيه دليل على أنَّ النبي ﷺ بلَّغ الرسالة فعلاً، فإنه يلزم من تكليفه أن يكون شاهداً؛ تكليفه أن يكون مبلِّغاً رسالة ربه، ولو لم يكن مبلِّغاً لما صحَّ أن يكون شاهداً على أمته، فجاء النصُّ بذكر الملزوم، ليكون دليلاً على إرادة لازمه العقليِّ معه، وفي هذا شحذ للعقول على استنباط المعاني من الدلالات العقلية، ولو جاءت في قوالب الألفاظ[١].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، يتناول من حمل الكتاب والسنة على ما أصَّله هو من البدع الباطلة، ويتناول من ترك تدبر القرآن، ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه[٢].

٤- أنَّ الأمر بالشيء يستلزم الأمر بسببه ووسيلته، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يحصُل ترك المنهيِّ عنه إلا به فهو واجب، ولذلك أمثلة كثيرة، منها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾[النساء:٥٨]، في الآية دليل على وجوب حفظ الأمانات في حرْز يناسبها، وعدم إضاعتها والتفريط فيها، وأنه لا يتمُّ الأداء لأهلها إلا بذلك، وهو من لوازم الآية، لأنَّ ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

- وفي الآية أيضاً: أنَّ كلَّ حاكم بين الناس في الأمور الكبار والصغار، لابدَّ أن يكون عالماً بما يحكم به؛ وأن يحصِّل من العلم ما يؤهله إلى ذلك، سواء كان حاكماً عاماً، أو حاكماً

---

[١] انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ (٢٤٦).

[٢] انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ٧٧).

ببعض الأمور الجزئية كالشقاق بين الزوجين، فلا بد أن يكون عارفاً بالأمور التي يريد أن يحكم فيها، ويعرف الطريق التي توصله إلى الصواب منها.

- ومن الآية أيضاً: يستدلُّ على وجوب طلب العلم، وأنه فرض عين في كلِّ أمر يحتاجه العبد، فإنَّ الله أمرنا بأوامر كثيرة، ونهانا عن أمور كثيرة؛ ومن المعلوم أنَّ امتثال أمره واجتناب نهيه يتوقَّف على معرفة المأمور به والمنهي عنه وعلمه، إذ لا يتصوَّر أن يمتثَّل الجاهل الأمرَ الذي لا يعرفه، أو يتجنَّب النهي الذي لا يعرفه.

وقد أمر الله عباده مثلاً: أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وذلك يتوقف على العلم بالمعروف والمنكر، ليأمروا بهذا وينهَوْا عن هذا، فكان العلم بالإيمان والعمل الصالح متقدِّم على القيام به، والعلم بضدِّ ذلك متقدِّم على تركه؛ لاستحالة ترك ما لا يعرفه العبد قصداً وتقرُّباً وتعبُّداً حتى يعرفه ويميزه عن غيره.

- ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال:٦٠]، يتناول كلَّ قوة عقلية وبدنية، وسياسية وصناعية ومالية ونحوها، والأمر بالجهاد، والحثُّ عليه، ومن لازم ذلك الأمر بكلِّ ما لا يتمُّ الجهاد إلا به، من تعلُّم وركوب، ونحو ذلك.

ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾[الأنفال:٦٥] يقتضي الأمر بكلِّ ما فيه حثٌّ وتحريض على القتال، وما يتوقَّف على ذلك ويتبعه؛ من الاستعداد، والتمرُّن على أسباب الشجاعة، والسعي والقوة المعنوية، من التآلف، واجتماع الكلمة ونحو ذلك.

- ومن ذلك سؤال عباد الرحمن ربهم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[الفرقان:٧٤]، يقتضي سؤالهم اللهَ جميع ما تتمُّ به الإمامة في الدين، من علوم ومعارف جليلة، وأعمال صالحة، وأخلاق فاضلة؛ لأنَّ سؤال العبد لربه شيئاً سؤال له ولما لا يتم إلا به، كما إذا سأل العبد اللهَ الجنة، واستعاذ به من النار، فإنه يقتضي سؤاله كل ما يقرب إلى هذه ويبعِّد من هذه.

- ومن ذلك: أنَّ الله أمر بالصلاح والإصلاح، وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يُصلح عمل المفسدين، فيُسْتدلُّ بذلك على أنَّ كل أمر فيه صلاح للعباد في أمر دينهم ودنياهم، وكلَّ أمر يعين على ذلك فإنه داخل في أمر الله وترغيبه، وأنَّ كل فساد وضرر وشر، فإنه داخل في نهيه والتحذير عنه، وأنه يجب تحصيل كل ما يعود إلى الصلاح والإصلاح، بحسب استطاعة العبد، كما قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[هود:٨٨].

- ومن ذلك الأمر بتبليغ الأحكام الشرعية في نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة:٦٧]، والتذكير بها، وتعليمها في نحو قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾[الغاشية:٢١]، فإنَّ كلَّ أمر يحصل به التبليغ وإيصال الأحكام إلى المكلَّفين يدخل في ذلك، حتى إنه يدخل فيه إذا ثبتت الأحكام الشرعية، وَوُجدت أسبابها، وكانت تخفى عادة على أكثر الناس، كثبوت الصيام والفطر والحج وغيره بالأهلة، وإبلاغها بالأصوات والرمي، ونحو ذلك.

وكذلك يدخل فيه كلَّ ما أعان على إيصال الصوت إلى السامعين، من الآلات والوسائل، فحدوثها لا يقتضي منعها.

ومن هنا تستفاد قاعدة فقهية مهمَّة، وهي أنَّ الوسائل لها أحكام المقاصد، "فالذرائع إلى الحلال والحرام، تشبه معاني الحلال والحرام"[١]، فالوسائل "تتبع المقاصد في أحكامها؛ فوسيلة المحرم محرم، ووسيلة الواجب واجبة، وكذلك بقية الأحكام"[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ (٧٥١هـ) شارحاً ذلك: (لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها؛ كانت طرقها وأسبابها تابعة لها، معتبرة بها، فوسائل المحرمات

---

(١) الأم للشافعي (٤/ ٥١).

(٢) الفروق للقرافي (٣/ ١١١).

والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غاياتها، وارتباطاتها بها، ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غايتها؛ فوسيلة المقصود تابعة للمقصود، وكلاهما مقصود، لكنه مقصود قصد الغايات، وهي مقصودة قصد الوسائل؛ فإذا حرَّم الرب تعالى شيئاً وله طرق ووسائل تفضي إليه؛ فإنه يحرمها ويمنع منها، تحقيقا لتحريمه، وتثبيتاً له، ومنعا أن يقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضاً للتحريم، وإغراء للنفوس به، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء، بل سياسة ملوك الدنيا تأبى ذلك؛ فإنَّ أحدهم إذا منع جنده أو رعيته أو أهل بيته من شيء ثمَّ أباح لهم الطرق والأسباب والذرائع الموصلة إليه لعدَّ متناقضاً، ولحصل من رعيته وجنده ضد مقصوده، وكذلك الأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه، وإلا فسد عليهم ما يرومون إصلاحه، فما الظن بهذه الشريعة الكاملة التي هي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال) [1].

ومن الأدلة التي تقرر هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[الأحزاب:٣٢].

"فهذا دليل على أنَّ الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فإنَّ الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرَّم منع منه"[2].

وقد جاءت الشريعة بحلِّ كلِّ أمر ينفع الناس، والوسائل الموصلة له، فإنَّ"القرآن لا يمنعه، بل يدلُّ عليه لمن أحسن الاستدلال والانتفاع به؛ وهذا من آيات القرآن وأكبر براهينه، أنه لا يمكن أن يحدث علم صحيح ينقض شيئاً منه، فإنه يرد بما تشهد به العقول جملة وتفصيلاً، أو يرد بما لا تهتدي إليه العقول، وأما وروده بما تحيله العقول الصحيحة

---

(١) إعلام الموقعين (٣/ ١٠٨-١٠٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٦٦٣).

وتمنعه فهذا محال، والحس والتجربة شاهدان بذلك، فإنه مهما توسعت الاختراعات وعظمت الصناعات، وتبحَّرت المعارف الطبيعية، وظهر للناس فى هذه الأوقات ما كانوا يجهلونه قبل ذلك، فإنَّ القرآن -ولله الحمد- لا يخبر بإحالته، بل نجد بعض الآيات فيها إجمال، أو إرشادات تدلُّ عليه"[1].

والحاصل: أنَّ القرآن المجيد قمَّة كلِّ كلام بليغ رفيع، وهو معجزة البيان، فيجدر بالمتدبِّر أن ينظر فيه بأناة وتفكير، وعناية وإتقان، وأن يراجع دلالات الألفاظ، وينظر فيما تستلزمه الألفاظ من المعاني، فإنَّ ذلك يفتح أمامه أفقاً واسعاً، وباباً رحباً لفهم معاني القرآن فهماً صحيحاً عميقاً، والحمد لله كثيراً على نعمة التدبُّر..

- المطلب السابع: الختم بالأسماء الحسنى، يدلُّ على أنَّ الحكم له علاقة بالاسم في الآية:

أسماء الله تعالى كلها حسنى، أي: بالغة في الحسن غايته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠]، وذلك لأنها متضمِّنة لصفات كلُّها كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالاً ولا تقديرًا، وأفعاله عَزَّوَجَلَّ كلُّها كمال، وأقواله كلها صدق وعدل، وحكمة ورحمة ومصلحة[2].

وأسماء الله تعالى هي أعلام وأوصاف لله عَزَّوَجَلَّ، فإن دلَّت على وصف متعدٍّ تضمَّنت أموراً ثلاثة: ثبوت ذلك الاسم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والصفة التي تضمَّنها ذلك الاسم، وثبوت حكمها ومقتضاها.

"والحُسْنُ في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كلِّ اسم على انفراده، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال"[3].

---

[1] انظر: القواعد الحسان (٣٥).

[2] انظر: مدارج السالكين (٢/ ٣٠٩)، بدائع الفوائد (١/ ١٦٣)، القواعد المثلى (٦).

[3] القواعد المثلى (٧).

وكثيراً ما يختم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الآيات القرآنية ببعض الأسماء الحسنى؛ ليدلَّ على أنَّ الحكم المذكور له تعلُّق بذلك الاسم الكريم.

وهذه قاعدة لطيفة نافعة، يفيد المتدبِّر تتبُّعها في الآيات المختومة بها، ففيها من غاية المناسبة، والدلالة على أنَّ الشرع والأمر والخلق؛ كلَّه صادر عن أسمائه وصفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ومرتبط بها.

وهذا باب عظيم في معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة أحكامه، وهو من أجلِّ المعارف وأشرف العلوم التي تعين المتدبِّر على تدبُّره.

فتجد آية الرحمة مختومةً بصفات الرحمة، وآية العقوبة والعذاب مختومة بأسماء العزة والقدرة والحكمة والعلم والقهر[1].

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً، وسأذكر نماذج منها لبيان المقصود، ومن ذلك:

١- قال تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة:٢٩]، فذكْرُ إحاطة علمه بعد ذكْر خلقه للأرض والسماوات؛ يدلُّ على إحاطة علمه بما فيها من العوالم العظيمة، وأنه حكيم حيث وضعها لعباده، وأحكم صنعها في أحسن خلق وأكمل نظام، وأنَّ خلقه لها من أدلة علمه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك:١٤]، فخلْقه للمخلوقات، وتسويتها على ما هي عليه من إنسان وحيوان ونبات وجماد؛ من أكبر الأدلَّة العقلية على علمه وحكمته وقدرته، وإحاطته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالجزئيات والكليات[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]، لما ذكر كلامَ الملائكة حين أخبرهم أنه جاعل في الأرض خليفة، ومراجعتهم له

---

(١) انظر: القواعد الحسان للسعدي (٥٣).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب (٢/ ٣٨٣)، تيسير الكريم الرحمن (٤٨)، القواعد الحسان للسعدي (٥٣).

سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في ذلك، فلمَّا خلق آدم وعلَّمه أسماء كل شيء، مما جعله الله له وبين يديه، وعجزت الملائكة عن معرفتها، وأنبأهم آدم بها، فاعترفوا لله بسعة العلم، وكمال الحكمة، وأنهم مخطئون في مراجعتهم ربهم في استخلافه آدم في الأرض، فهم على عظمتهم وسعة معارفهم بربهم؛ اعترفوا بأنَّ علومهم تضمحل بجانب علم ربهم، وأنه لا علم لهم إلا منه، فختم هذه الآيات بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على علم الله بآدم، وما خلق له، وما خلق عليه، وتمام حكمته في خلقه، وما يترتَّب على ذلك من المصالح المتنوعة: من أحسن المناسبات.

٣- قال سبحانه عن عن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]، وكثير من الآيات تُختَم بهذين الاسمين: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرُّض من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبته جليلة لكلِّ أحد، وأنه لما كان هو التواب الرحيم، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفَّقهم للأخذ بالأسباب التي ترجعهم إلى الفطرة السليمة التي يعرفون بها نعمة ربهم، فيقدِّرونها ويشكرونها، ويستجيبون لما يدعوهم بها إليه سبحانه، فيرجعون في كلِّ شئونهم وأمورهم إلى ربهم، فيفرح بهم ويزيدهم من فضله، ويتوب عليهم، ثمَّ يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانياً حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨]، أي أقبل بقلوبهم عليه، فإنه لولا توفيقه، وجذب قلوبهم إلى ذلك بنعمه الكونية والعلمية؛ لم يكن لهم سبيل إلى ذلك حين استولت عليهم النَّفس الأمارة، فإنها لا تأمر إلا بالسوء، إلا من رحم الله، فأعاذه منها، ومن نزغات الشيطان[1].

٤- لما ذكر الله سرَّ نسخه للآيات والأحكام؛ أخبر عن كمال قدرته، وتفرُّده بالملك، فقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[البقرة:١٠٦-١٠٧]، وفي هذا ردٌّ على من أنكر النسخ كاليهود، وأنَّ نسخه لما

---

(١) انظر: القواعد الحسان للسعدي (٥٤).

ينسخه من آثار قدرته، وتمام ملكه، فإنه تعالى يتصرَّف في عباده، ويحكم بينهم بأحكامه القدرية، وأحكامه الشرعية، ويأمر بما فيه مصالحهم سبحانه[1].

٥- قول الخليل وإسماعيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وهما يرفعان القواعد من البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٢٧]، فإنه توسُّلٌ إلى الله بهذين الاسمين إلى قبول هذا العمل الجليل، حيث كان الله يعلم نياتهما ومقاصدهما، ويسمع كلامهما، ويجيب دعاءهما، فإنه يراد بالسميع في مقام الدعاء؛ -دعاء العبادة ودعاء المسألة- معنى المستجيب، كما قال إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [ابراهيم:٣٩][2].

٦- في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٦٨]، فقد "ختَم هذه الآية بهذين الاسمين: ﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، فإنه واسع العطاء، عليمٌ بمن يستحقُّ فضله، ومن يستحقُّ عدله، فيعطي هذا بفضله، ويمنع هذا بعدله، وهو بكلِّ شيء عليم"[3].

وقد يكتفي الله بذكر أسمائه الحسنى عن التصريح بذكر أحكامها وجزائها، لينبِّه عباده أنهم إذا عرفوا الله بذكر الاسم العظيم، عرفوا ما يترتب عليه من الأحكام.

٧- مثل قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [البقرة:٢٠٩]، لم يقل: فلكم من العقوبة كذا، بل قال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٠٩] أي: فإذا عرفتم عزَّته وهي قهره وغلبته وقوته وامتناعه، وعرفتم حكمته - وهي وضعه الأشياء موضعها، وتنزيلها محالها-؛ أوجب لكم ذلك الخوف من البقاء على ذنوبكم وزللكم، لأنَّ من حكمته معاقبة من يستحق العقوبة؛ وهو المصرُّ على الذنب مع علمه، وأنه ليس لكم امتناع عليه، ولا خروج عن حكمه وجزائه، لكمال قهره وعزته[4].

---

[1] انظر: إرشاد العقل السليم (١/ ١٤٣)، تيسير الكريم الرحمن (٦١)، القواعد الحسان (٥٤-٥٥).

[2] انظر: القواعد الحسان (٥٥).

[3] طريق الهجرتين لابن القيم (٣٧٥).

[4] انظر: القواعد الحسان (٥٦).

٨- في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ ثمَّ ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[النساء:٢٦٨]، أي: فاحذروه، ففيه تهديد للأزواج عند ظلم النساء من غير سبب، فإنهنَّ وإن ضعفن عن دفع ظلمكم، وعجَزْن عن الانتصاف منكم، فالله سبحانه عليٌّ قاهر كبير قادر، ينتقم ممن ظلمهنَّ وبغى عليهنَّ، فلا تغترُّوا بكونكم أعلى يداً منهنَّ وأكبر درجة منهنَّ، فإنَّ الله أعلى منكم، وأقدر منكم عليهنَّ، فختْم الآية بهذين الاسمين، فيه تمام المناسبة[١].

ولما ذكر عقوبة قطع يد السارق قال في ختامها: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨]، أي: عزَّ وحكَم فقطع يد السارق، وعزَّ وحكَم فعاقب المعتدي شرعاً وقدراً وجزاء.

ولما ذكر مواريث الورثة وقدرها قال: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١١]، فكونه عليماً حكيماً يعلم ما لا يعلم العباد، ويضع الأشياء مواضعها، فاخضعوا لما قاله وفعَله وحَكم به، وفصَّله في توزيع الأموال على مستحقيها الذين يستحقونها بحسب علم الله وحكمته، فلو وَكَلَ العبادَ إلى أنفسهم، وقيل لهم: وزعوها أنتم بحسب اجتهادكم لدخلها الجهل والهوى وعدم الحكمة، وصارت المواريث فوضى، وحصل بذلك من الضرر ما الله به عليم، ولكن تولاها وقسمها بأحكم قسمة وأوفقها للأحوال وأقواها للنفع، ولهذا فمن قدح في شيء من أحكامه، أو قال: لو كان كذا وكذا فهو قادح في علم الله وفي حكمته، فيذكر الله العلم والحكمة بعد ذكر الأحكام، كما يذكرها في آيات الوعيد؛ ليبيِّن للعباد أنَّ الشرع والجزاء مربوط بحكمته، غير خارج عن علمه[٢].

ويختم الأدعية بأسماء تناسب المطلوب، وهذا من الدعاء بالأسماء الحسنى الذي أمر به سبحانه في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، أي: تعبَّدوا لله بدعائه

---

[١] انظر: تفسير محاسن التأويل للقاسمي (٣/ ١٠٠).

[٢] انظر: القواعد الحسان (٥٦).

بها، واطلبوه بكل اسم مناسب لمطلوبكم.

وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج:٥٩]، والآيات المتتابعة التي بعدها، كل واحدة ختمت باسمين كريمين.

وقد يتعلَّق مقتضى الاسمين بكلٍّ من الحالتين، فإنه نجَّى الرسول وأتباعه بكمال قوته وعزته ورحمته، وأهلك المكذبين بعزته وحكمته، ويكون ذكْر الرحمة دالاً على عِظم جرمهم، وأنه طالما فتح لهم أبواب رحمته بآياته ونعمه ورسله، فأغلقوها دونهم بتمرُّدهم على الله، وكفرهم وشركهم، فلم يكن لهم طريقٌ إليها، ولولا ذلك لما حلَّ بهم هذا العقاب الصارم.

وأما قول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، ولم يقل: أنت الغفور الرحيم، لأنَّ المقام ليس مقام استعطاف واسترحام، إنما هو مقام غضب وانتقام ممن اتخذه وأمه إلهين من دون الله، فناسب ذكر العزَّة والحكمة، وصار أولى من ذكر الرحمة والمغفرة.

ومن ألطف مقامات الرجاء: أن يذكر أسباب الرحمة وأسباب العقوبة، ثم يختمها بما يدلُّ على الرحمة؛ مثل قوله: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:١٢٩]، وقوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ [الأحزاب:٧٣]، فذلك يدلُّ على أنَّ رحمته سبقت غضبه وغلَبته، وصار لها الظهور، وإليها ينتهي كلُّ من فيه أدنى سبب من أسباب الرحمة، ولهذا يُخرج من النار من كان في قلبه أدنى حبة خردل من الإيمان[1]، والحمد لله..



(١) انظر: القواعد الحسان (٥٧-٥٩).

المبحث الخامس: ضوابط عامة تعين على التدبُّر. وفيه مطالب:

- المطلب الأول: يجب التحرُّز عند التدبُّر من القول في الأمور الغيبيـة إلا بدليل:

الأمور الغيبية: هي كلُّ الأمور التي لا يمكن إدراكها بطرق الاجتهاد وقوة التدبُّر، إلا بنصٍّ من القرآن أو السنة، وهذا مما يتعلَّق بالأحكام التكليفية، ويتضمَّن أيضاً ما قد مضى وسلف كأمور بدء الخلق، وأخبار الأمم البائدة، وما لم يقع، مثل: الملاحم والبعث، وصفة الجنة والنار، ونحوها، ويدخل في ذلك ما سبق بحثه من المبهمات[1]، فكلُّ ذلك لا يصحُّ في تدبُّره القول بمعنى متدبَّر أو مفهوم منه؛ بدون دليل عليه[2].

والأمور الغيبية لا تكفي في إثباتها التجربة أو مجرَّد النظر، فلا يقال فيها بشيء إلا بدليل من الكتاب أو السنة، ويبقى الغيب لله سبحانه الذي قال: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء:٣٦].

والأصل في إثبات الأمور الغيبية: ورود النصِّ بها، لا ورود النصوص المانعة منها.

وإعمال هذا الضابط للمتدبِّر؛ مانع له بإذن الله، من الانزلاق في القول على الله بغير علم، والخوض في آيات الله سبحانه بغير حجَّة ولا برهان، "فإنه ما سلِم في دينه إلا من سلَّم لله عَزَّوَجَلَّ، ولرسوله ﷺ، وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه، ولا تثبت قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حُظِر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه؛ حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان"[3].

---

[1] سبق الكلام عن المبهمات، قريباً في المطلب التاسع من المبحث الثاني من هذا الفصل.

[2] انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين (١/ ٢٠٠).

[3] متن العقيدة الطحاوية (٤٣).

- المطلب الثاني: متى علَّق الله علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد بذلك العلم الذي يترتَّب عليه الجزاء.

وذلك أنه قد تقرَّر في الكتاب والسنة والإجماع أنَّ الله بكل شيء عليم، وأنَّ علمه محيط بالعالم العلوي والسفلي، والظواهر والبواطن والجليات والخفيات والماضي والمستقبل، وقد علم ما العباد عاملون قبل أن يعملوا الأعمال، فهذا علم لا يترتَّب عليه الجزاء، لأنه إنما يجازي على ما وجد من الأعمال.

أما ما ورد من الآيات التي يخبر فيها سبحانه أنَّه شرَع وقدَّر الشيء ليعلم كذا، فالمقصود فيها: العلم الذي يترتَّب عليه الجزاء، وعلى هذا الأصل تنزَّل الآيات الواردة فيه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[المائدة:٩٤]، وقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف:١٢]، وقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[الحديد:٢٥]، وما أشبه هذه الآيات، فكلُّها على هذا الأصل[١].

ومعرفة هذا الضابط مفيد للمتدبِّر في إزالة الإشكال عنه في فهم هذه الآيات ونحوها، وتعينه على معرفة ما يترتَّب عليه الجزاء من غيره.

ومثل ذلك: لفظ: (كان)، فإنه يأتي مع وصف الله تعالى نفسه في بعض المواطن من القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:١٣٤]، وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٧٠]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح:٢١].

---

[١] انظر: القواعد الحسان (١٢٣).

وليس المراد بذلك أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كان مُتصفًا بهذه الصفات في زمن مضى، ثمَّ زالت بعد ذلك، وإنما تعني أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ موصوف بهذا الوصف أزلاً، قبل إخباره بذلك، وقبل خلقه للخلق، فهي صفات أصيلة فيه، وجبت له لذاته، فقد كان الله ولا شيء معه، وحيث وقع الإخبار بها عن صفة ذاتية؛ فالمراد الإخبار عن وجودها، وأنها لم تفارق ذاته، وتعني استمرار الوصف على الدوام، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]: أي لم يزل مُتَّصفًا بذلك[١].

وتأتي (كان) كثيراً في القرآن الكريم، وفي كلام العرب؛ بمعنى اتصال الزمان من غير انقطاع، ومما ورد من ذلك في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ [المدثر:١٦]، وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان:١٧]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ [الإنسان:٢٢].

ومن شواهدها في كلام العرب، قول المتلمِّس:

وكُنَّا إذَا الجَبَّارُ صعَّرَ خدَّهُ   أقمْنا لهُ منْ ميْلِهِ فتقَوَّما[٢]

وقول قيس بن الخطيم:

وكنتُ امْرَأً لا أَسْمَعُ الدَّهْرَ سُبَّةً   أُسَبُّ بها، إلاَّ كَشَفْتُ غِطاءَها[٣]

فالمقصود في شِعرهم؛ الإخبار عن الحالة الدائمة المستمرة لهم، وليس الإخبار عما مضى، والله أعلم.

---

[١] انظر: البرهان للزركشي (٤/ ١٢٣)، تفسير الجلالين (٩٧)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٩/ ٣٥٢).

[٢] ديوان المتلمِّس الضبعي (٢٤).

[٣] ديوان قيس بن الخطيم (٤٩).

- المطلب الثالث: الأدلة الشرعية لا تنافي القضايا العقلية.

وهذا أصل عظيم؛ إذ لا يمكن أن يعارض الدليل الشرعي العقل السليم الصحيح، فالعقل مصدِّق للشرع في كلِّ ما أخبر به، وكل ما عارض الشرع عُلِم فساده بالعقل، وإن لم يعارِض العقل، وما علِم فساده عقلاً لا يجوز أن يعارض به عقل ولا شرع.

وكثير مما ما يسمِّيه الناس دليلاً من العقليات والسمعيات ليس كذلك، وإنما يظنه الظان دليلاً، وهذ متَّفق عليه بين العقلاء[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٢٧هـ): (ما علم بصريح العقل لا يتصوَّر أن يعارضه الشرْع البتَّة، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأمَّلت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع، وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر والنبوات والمعاد وغير ذلك، ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟.

ونحن نعلم أنَّ الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول[2]، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجَز العقل عن معرفته)[3].

وعليه.. فلا يمكن تناقض الأدلة الشرعية أو منافاتها للقضايا العقلية.

والدليل على ذلك من وجوه:

---

[1] انظر: درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٣٨)، (١/ ١٩٢)، (١/ ١٩٤).

[2] يقصد بمحارات العقول: ما تحار فيه العقول، فيحتاج إلى تفكير وإعمال ذهن، لكنه ليس مستحيلاً.

[3] درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٤٧).



الأول: أنها لو نافتها؛ لم تكن أدلة للعباد على حكم شرعي ولا غيره، لكنها أدلة باتفاق العقلاء؛ فدلَّ على أنها جارية على قضايا العقول، وبيان ذلك أنَّ الأدلة إنما نصبت في الشريعة لتتلقاها عقول المكلفين؛ حتى يعملوا بمقتضاها، ولو نافتها؛ لم تتلقها فضلاً عن أن تعمل بمقتضاها.

الثاني: أنها لو نافتها؛ لكان التكليف بمقتضاها تكليفاً بما لا يطاق، وذلك من جهة التكليف بتصديق ما لا يصدقه العقل ولا يتصوَّره، بل يتصور خلافه ويصدقه، فإذا كان كذلك؛ امتنع على العقل التصديق ضرورة، وقد فرضنا ورود التكليف المنافي التصديق، وهو معنى تكليف ما لا يطاق، وهو باطل حسبما هو مقرر في الأصول.

الثالث: من الثابت قطعاً بالاستقراء التام؛ أنَّ مورد التكليف هو العقل؛ فإذا فقد ارتفع التكليف، وعدَّ فاقده كالبهيمة، وهذا واضح في اعتبار تصديق العقل بالأدلة في لزوم التكليف، فلو جاءت على خلاف ما يقتضيه؛ لكان لزوم التكليف على العاقل أشدُّ من لزومه على المعتوه والصبي والنائم؛ إذ لا عقل لهؤلاء يصدِّق أو لا يصدِّق، بخلاف العاقل الذي يأتيه ما لا يمكن تصديقه به، ولما كان التكليف ساقطاً عن هؤلاء؛ لزم أن يكون ساقطاً عن العقلاء أيضاً، وذلك منافٍ لوضع الشريعة؛ فكان ما يؤدي إليه باطلاً.

الرابع: أنه لو كان كذلك لكان الكفار أوَّل من ردَّ الشريعة به، لأنهم كانوا في غاية الحرص على ردِّ ما جاء به رسول الله ﷺ، حتى كانوا يفترون عليه وعليها؛ فقالوا عنه: ساحر، ومجنون، وكاهن، وقالوا عنها: سحر، وشعر، وإنما يعلمه بشر، وأساطير الأولين، فلمَّا لم يكن من ذلك شيء؛ دلَّ على أنهم عقلوا ما فيه، وعرفوا جريانه على مقتضى العقول، ولم يعترضه أحد بهذه الدعوى؛ فكان قاطعاً في نفيها عنه.

الخامس: أنَّ الاستقراء دلَّ على جريانها على مقتضى العقول، بحيث تصدِّقها العقول الراجحة، وتنقاد لها طائعة أو كارهة.

فإن قيل: هذه دعوى غير مسلَّمة على إطلاقها، ويصد عن القول بها أمران:

١- أنَّ في القرآن ما لا يعقل معناه أصلاً؛ كفواتح السور، وفيه ما لا يعرفه إلا العلماء بالشريعة، وفيه ما لا يعلمه إلا الله؛ فأين جريان هذا القِسْم على مقتضى العقول؟.

٢- أنَّ في الشريعة متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس، أو لا يعلمها إلى الله تعالى؛ ولا معنى لاشتباهها إلا أنها تتشابه على العقول؛ فلا تفهمها أصلاً، أو لا يفهمها إلا القليل؛ فكيف يطلق القول بجريانها على فهم العقول؟.

فالجواب عن الأول: أما ما لا يُعقل معناه في القرآن، مثل فواتح السور، أو المتشابهات التي لا يعلمهنَّ كثير من الناس، أو لا يعلمها إلاَّ الله؛ فيقال فيه: فواتح السور ليس مما يتعلَّق به تكليف على حال، فإذا خرج عن ذلك؛ خرج عن كونه دليلاً على شيء من الأعمال، فليس مما نحن فيه.

وأما الذي لا يعلمه إلا الله تعالى في الشريعة نادر، والنادر لا حكم له، ولا تنخرم به الكلية أيضاً؛ لأنه مما لا يهتدي العقل إلى فهمه، وليس الإشكال فيه، إنما على ما يؤدي مفهوماً لكن على خلاف المعقول، وفواتح السور خارجة عن ذلك؛ لأنها لو بيِّنت لنا معانيها؛ لم تكن إلا على مقتضى العقول، وهو المطلوب[1].

وقد اتَّفق المحققون من أهل العلم على أنه ليس في القرآن ما لا معنى له، أو ما لا يفهم معناه، فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أنَّ جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبُّره، وهذا مما يجب القطع به، فإنَّ السلف فسَّروا القرآن كلَّه[2]، "وأيضاً: فإنَّ الله قد أمر بتدبُّر القرآن مطلقاً، ولم يستثن منه شيئاً لا يتدبَّر... والتدبُّر بدون

---

(١) انظر: الموافقات (٣/ ٢٠٨-٢١٢).

(٢) انظر: تفسير مفاتيح الغيب (٢/ ٣٨٣)، الإحكام للآمدي (١/ ١٦٧)، مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٠).

الفهم ممتنع"[١]، ولأنَّ الله أخبر أنَّ القرآن بيان وهدى وشفاء ونور، ولم يستثن منه شيئاً عن هذا الوصف وهذا ممتنع بدون فهم المعنى.

وأيضاً: فالكلام إنما المقصود به الإفهام؛ فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثاً وباطلاً، والله تعالى منزَّه عن فعل الباطل والعبث، وما في القرآن آية إلا وقد تكلَّم الصحابة والتابعون لهم بإحسان في معناها وبينوا ذلك.

والجواب عن الثاني: أنَّ المتشابهات ليست مما تعارض مقتضيات العقول، وإن توهَّم بعض الناس فيها ذلك؛ بناء على اتباع هواه، كما نصَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾[آل عمران:٧]، لا أنه بناء على أمر صحيح، فإنه إن كان كذلك؛ فالتأويل فيه راجع إلى معقول موافق لا مخالف، وإن فرض أنها مما لا يعلمه أحد إلا الله فالعقول عنها مصدودة لأمر خارجي لا لمخالفته لها، وهذا كما يأتي في الجملة الواحدة؛ فكذلك يأتي في الكلام المحتوي على جمل كثيرة وأخبار بمعان كثيرة، وربما يتوهَّم القاصر النظر فيها الاختلاف، ومن هنا كان احتجاج النصارى في التثليث، ودعوى الملحدين على القرآن والسنة التناقض والمخالفة للعقول، وسبب ذلك الجهل بمقاصد الشريعة، وضعف اللغة، فإنَّ القرآن والسنة لما كان عربيين لم يكن لينظر فيهما إلا من يعرف العربية، كما أنَّ من لم يعرف مقاصدهما لم يحلَّ له أن يتكلَّم فيهما؛ إذا لا يصح له نظر حتى يكون عالماً بهما، فإنه إذا كان كذلك؛ لم يختلف عليه شيء من الشريعة، ولم يشكل حينها على الطالبين، وما وقف فيه الراسخون: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[النساء:٨٢][٢].

---

[١] مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٦).

[٢] انظر: الموافقات (٣/ ٢١٢-٢١٦)، ضوابط أصولية في تدبُّر القرآن (٦٨-٧٤).

ولما كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان قد تكلَّموا في جميع معاني القرآن وبيَّنوها، دلَّ ذلك على أنَّ الراسخين في العلم يعلمون تفسير المتشابه، الذي قد يكون في آيات الأمر والنهي كما يكون في آيات الخبر.

نعم، قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم؛ فذلك تارة لغرابة اللفظ، وتارة لاشتباه المعنى بغيره، وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحق، وتارة لعدم التدبُّر التام، وتارة لغير ذلك من الأسباب[(١)].

ومعرفة هذا الضابط الأصيل مفيد للمتدبِّر في إزالة إشكالات قد تطرأ عليه أثناء تدبُّره، لقلَّة فهم، أو ضعف علم، فإذا عرف هذا الضابط وفهمه، تدبَّر تدبُّراً صحيحاً، ولم يبق للشبهات في عقله مكان.

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط للمتدبِّر: في قوله تعالى: ﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾[الأنفال:١٩]، دليل على نفي الاستطاعة، وما يدلُّ عليه العقل من الغلبة بالتظاهر، ولو كان كلُّ ما دلَّ عليه العقل حقاً لكانت الكثيرة معانة في القتال، غير محتاجة إلى معونة النصر، وهذا يبيِّن أنَّ دليل العقل إذا خلا من النص غير مستعمل في الدين[(٢)].

ومن أمثلته: في قوله تعالى عن قول امرأة العزيز في قصة يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِ﴾[يوسف:٣٢]، دلَّ العقل هنا على أصل الحذف، ودلَّت عادة الناس على تعيين المحذوف، فإنَّ يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ليس ظرفاً للومهنَّ؛ فتعيَّن أن يكون غيره[(٣)].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٧، ٤٠٠).

(٢) انظر: النكت الدالة على البيان (١/ ٤٦٥).

(٣) انظر: البرهان للزركشي (٣/ ١٠٩)، الإتقان (٣/ ١٩٦).

ومن أمثلته: ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم:٣٦-٣٩]، فإنَّ الآيات تدلُّ على أحكام عقلية وشرعية، أما العقليات فتدلُّ على أنه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولا ينتفع أحد بعمل غيره.

وقد دلَّ العقل على ما دلَّ عليه ظاهر القرآن، وذلك أنَّ الثواب نعَم مع التعظيم، والتعظيم لا يجوز إلا للاستحقاق، والاستحقاق بفعله، والعقاب آلام تقبح إذا فعل به لفعل غيره، وكما لا يقطع أحد إلا السارق، ولا يجلد إلا الزاني؛ كذلك لا يعاقب إلا من أذنب[1]، والله أعلم.

- المطلب الرابع: إذا وضح الحقُّ وبان، لم يبق للمعارضة العلمية، ولا العملية محل:

وهذه قاعدة شرعية عقلية فطرية، قد وردت في القرآن، وأرشد إليها في مواضع كثيرة، وذلك: أنه من المعلوم أنَّ محلَّ المعارضات، وموضع الاستشكالات، وموضع التوقفات، ووقت المشاورات، إذا كان في الشيء اشتباه أو احتمالات، فترد عليه هذه الأمور؛ لأنها الطريق إلى البيان والتوضيح، فأما إذا كان الشيء لا يحتمل إلا معنى واحداً واضحاً، وقد تعيَّنت المصلحة، فالمجادلة والمعارضة من باب العبث، والمعارضُ هنا لا يُلتفت إلى اعتراضاته، لأنه يشبه المكابر المنكر للمحسوسات.

ومن أمثلة هذا الضابط:

١- قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]، يعني وإذا تبيَّن هذا من هذا لم يبق للإكراه محل، لأنَّ الإكراه إنما يكون على أمر فيه مصلحة خفية، فأما أمر

[1] انظر: الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير (٢٥٩-٢٦٠).

قد اتضح أنَّ مصالح وسعادة الدارين مربوطة ومتعلِّقة به، فليس هناك ما يدعو للإكراه فيه، فعرف أنَّ قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ خبر على بابه، وليس نهياً.

٢- قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ [الكهف:٢٩]، أيْ هذا الحق الذي قامت البراهين الواضحة على حقِّيَّته، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، كقوله: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾[الأنفال:٤٢].

٣- قال تعالى:﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، أيْ: في الأمور التي تحتاج إلى مشاورة، ويُطلب فيها وجه المصلحة، فأما أمر قد تعيَّنت مصلحته، وظهر وجوبه؛ فقال فيه: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾[آل عمران:١٥٩].

٤- قوله سبحانه: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾[الأنفال:٦]، فقد كشف الله فيه هذا المعنى غاية الكشف؛ بأنَّ كلَّ من حاول في الحقِّ بعدما تبيَّن علمه، أو طريق عمله، فإنه غالط شرعاً وعقلاً.

٥- قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِ﴾[الأنعام:١١٩]، فلامَهُم على عدم التزام الأكل مما ذكر اسم الله عليه، وذكَر السبب لهذا اللوم؛ وهو أنه تعالى فصَّل لعباده كلَّ ما حرَّم عليهم، فما لم يذكر تحريمه فإنه حلال واضح ليس للتوقف عنه محلّ، وعرف منه: أنَّ الأصل فيما سُكِت عنه الحلّ.

٦- قال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩﴾ [الانشقاق:٢١]، فلما ذكر تعالى الآيات الدالة على وجوب الإيمان، وَبَّخ ولام المتوقفين عنه بعد البيان.

٧- لما بيَّن سبحانه جلال القرآن وأنه أعلى الكلام، وأوضحه بياناً وأصدقه وأنفعه ثمرة، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾[الجاثية:٦].

٨- ولما ذكر عظم نعمه الظاهرة والباطنة، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم:٥٥]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[يونس:٣٢]، وكذلك في آيات كثيرة يأمره بمجادلة المكذبين بالتي هي أحسن، حتى إذا وصل معهم إلى حالة وضوح الحقِّ التام، وإزالة الشبه كلها؛ انتقل من مجادلتهم إلى الوعيد لهم بعقوبات الدنيا والآخرة، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والحاصل أنَّ هذا المفهوم يبيِّن أنه متى اتَّضح الشيء؛ سواء كان حكماً عملياً، أو خبراً علمياً، فإنه لا تجوز المجادلة فيه لأنه واضح، ويُنكَر ويُذمُّ على من جادل بغير حقّ، وإنما يجادل ويتثبَّت عن الأمر المشكل، الذي يحتاج إلى بيان[١].

ومعرفة هذا المعنى معين للمتدبِّر على فهم القرآن كما لا يخفى، والله أعلم.

- المطلب الخامس: تعريف القرآن بالأحكام أكثره كلي لا جزئي.

تعريف القرآن بالأحكام الشرعية؛ أكثره كلي لا جزئي، بمعنى: أنه لا يختصُّ بشخص دون آخر، ولا بحال دول حال، ولا بزمان أو مكان دون آخر، وليس مفصَّلاً مستوعباً لشروط وأركان وموانع ما يأمر به، أو ينهى عنه، وهو المسمى بالمجمل.

"ولولا كلية التناول للأحكام؛ لتضخَّم القرآن، وعسُر على الأمة حفظه، ولولا هذه الكلية؛ ما اتصف القرآن بالمرونة والصلاحية لكل عصر وكذلك.. لولاها؛ ما حصل علماء المسلمين هذه الرتَب العلية بالاجتهاد"[٢].

وحيث جاء جزئياً؛ فمأخذه على الكلِّية إما بالاعتبار، أو بمعنى الأصل؛ إلا ما خصَّه الدليل، مثل خصائص النبي ﷺ.

---

[١] انظر: التعليق على القواعد الحسان (٢٢٣-٢٢٤).

[٢] علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات (١٣٦).

ويدلُّ لذلك أمران:

الأول: بالاستقراء المعتبر للقرآن، حيث ثبت أنه بحاجة إلى كثير من البيان، والسنة على كثرتها، ووفرة مسائلها؛ إنما هي بيان للقرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

وقال النبي ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ**»[١].

وإنما الذي أعطي القرآن، وأما السنة؛ فبيان له، وإذا كان كذلك؛ فالقرآن على اختصاره جامع مانع، ولا يكون جامعاً إلا والمجموع فيه أمور كليات؛ لأنَّ الشريعة تمَّت بتمام نزوله لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣].

ومعلوم أنَّ تفاصيل العبادات والمعاملات والمناكحات والعقوبات؛ لم تتبيَّن جميع أحكامها في القرآن، إنما بيَّنتها السنة.

الثاني: بالنظر إلى رجوع الشريعة إلى كلياتها المعنوية، وجدناها قد تضمَّنها القرآن على الكمال، وهي: الضروريات والحاجيات والتحسينيات، ومكمِّل كلِّ واحد منها، وهذا كلُّه ظاهر واضح؛ فالخارج من الأدلة عن الكتاب هو السنة والإجماع والقياس، وجميع ذلك إنما نشأ عن القرآن، فعلى هذا لا ينبغي في تدبُّر أحكام القرآن، والاستنباط منها، الاقتصار عليه دون النظر في شرحه وبيانه وهو السنة؛ لأنه إذا كان كلياً وفيه أمور جملية؛ فلا محيص عن

---

[١] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٩٨١) في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، وبرقم: (٧٢٧٤) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم». وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٥٢) في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملَّته.

النظر في بيانه، وبعد ذلك ينظر في تفسير السلف الصالح له إن أعوزته السنة؛ فإنهم أعرف به من غيرهم، وإلا؛ فمطلق الفهم العربي لمن حصَّله يكفي فيما أعوز من ذلك[1].

والمقصود: أنَّ القرآن والحديث فيهما كلمات جامعة هي قواعد عامة وقضايا كلية، تتناول كلَّ ما دخل فيها، وكلُّ ما دخل فيها فهو مذكور في القرآن والحديث باسمه العام، وإلا فلا يمكن ذِكْر كلِّ شيء باسمه الخاص، فإنَّ الله بعث محمداً ﷺ إلى جميع الخلق وقال: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، فاسم: الناس، والعالمين؛ يدخل فيه العرب وغير العرب، من الفرس والروم والهند والبربر.

وكذلك لما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [المائدة:٩٠]، دخل في كلِّ أنواع الميسر الذي لم تعرفه العرب، ولم يعرفه النبي ﷺ، فكلُّ الميسر بأنواعه حرام باتفاق المسلمين.

وكذلك قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾[المائدة:٨٩]، وقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾[التحريم:٢]، تناول أيمان المسلمين التي كانوا يحلفون بها على عهد النبي ﷺ، والتي صاروا يحلفون بها بعد، بكافة اللغات والعبارات.

وكذلك قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا﴾ [النساء:٤٣]، يعمُّ كل ما يسمى صعيداً، ويعمُّ كل ماء؛ سواء كان من المياه الموجودة في زمن النبي ﷺ، أو مما حدث بعده،

---

[1] انظر: الموافقات (٤/ ١٨٠-١٨٣)، ضوابط أصولية في تدبُّر القرآن (٥٠).

فلو استخرج قوم عيوناً وكان فيها ماء متغيِّر اللون والريح والطعم وأصل الخلقة؛ وجب الاغتسال به، بلا نزاع بين العلماء.

فهذا وأمثاله نظير عموم القرآن لكلِّ ما دخل في لفظه ومعناه؛ وإن لم يكن باسمه الخاص، ولو قدر بأنَّ اللفظ لم يتناوله، وكان في معنى ما في القرآن والسنة ألحق به بطريق الاعتبار والقياس؛ فالقياس الصحيح من العدل؛ لأنه لا يفرق بين المتماثلين؛ بل سوى بينهما فاستوت السيئات في المعنى الموجب للتحريم؛ لم يخص أحدها بالتحريم دون الآخر؛ بل من العدل أن يسوي بينهما، ولو لم يسوِّ بينهما كان تناقضاً، وحكم الله ورسوله منزَّه عن التناقض، ولو أنَّ الطبيب حمى المريض عن شيء لما فيه من الضرر وأباحه له؛ لخرج عن قانون الطب، والشرع طب القلوب والأنبياء أطباء القلوب والأديان، ولا بد إذا أحلَّ الشرع شيئاً منه؛ أن يخص هذا بما يفرِّق به بينه وبين هذا، حتى يكون فيه معنى خاص بما حرمه دون ما أحله[1].

"فالكتاب والسنة بيَّنا جميع الأحكام بالأسماء العامة، لكن يحتاج إدخال الأعيان في ذلك إلى فهم دقيق، ونظر ثاقب، لإدخال كلِّ معيَّن تحت نوع، وإدخال ذلك النوع تحت نوع آخر بيَّنه الرسول ﷺ"[2].

والحاصل: أنَّ إعمال هذا الضابط مهمٌّ للمتدبِّر؛ إذ به تُستشرح الأحكام المجملة في القرآن، من سنة النبي ﷺ، ويفهم المتدبِّر الكليَّ والجزئي من الأحكام.

ومن أمثلة إعمال هذا الضابط عند التدبُّر: في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾[السجدة:١٥].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣٤/ ٢٠٦-٢١٠).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٤٢).

دلَّت الآية عند التدبُّر: أنَّ السجود يجُمع فيه بين التسبيح والتحميد، وفيه تقوية لحديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي ﷺ كان يقول في سجوده: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ»[1][2].

ومن أمثلته: عند تدبُّر قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾[محمد: ٣٠]، يستفاد منها: أنَّ للمؤمن فراسة يميِّز بها الناس ويعرفهم، خاصة صاحب النوافل والعبادة، ينظر بنور الله، فيسدده ويلهمه الصواب، كما قال الله تعالى في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ»[3]، وإذا كان هذا في حقِّ أفراد المسلمين؛ فإنَّه في حقِّ النبي ﷺ آكد وأولى، فهو ينظر بالله، فيسدَّد، ويلهَم الصواب والحق.

- المطلب السادس: ما ورد في القرآن حكاية عن غير أهل اللسان العربي من القرون الخالية إنما هو معروف من معانيهم وليس بحقيقة ألفاظهم:

فهذه الشريعة المباركة عربية، لا مدخل فيها للألسن الأعجمية، فالقرآن نزل بلسان العرب على الجملة، فمن أراد تفهُّمه، فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلُّب فهمه من غير هذه الجهة[4].

ودلالات الألفاظ على المعاني في اللغة نوعان:

---

[1] **صحيح**. أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ١٥٦) برقم: (٢٨٨٠)، ابن ماجه في سننه (٢/ ٥٨) برقم: (٨٨٨)، والبزار في مسنده (٧/ ٣٢٢)، والدارقطني في سننه (٢/ ١٤٢) برقم: (١٢٩٢)، وضعَّفه النووي في خلاصة الأحكام (١/ ٣٩٨)، والألباني في أصل صفة الصلاة (٢/ ٦٥١). وصحَّحه من طريق عقبة بن عامر في صحيح الجامع (٤٧٣٤).

[2] انظر: النكت الدالة على البيان (٣/ ٦٣٧-٦٣٨).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٥٠٢) في كتاب الرقاق، باب التواضع.

[4] انظر: الموافقات (٢/ ١٠١-١٠٦)، البرهان للزركشي (٢/ ٤١٢).

الأول: الدلالات الأصلية؛ وهي التي تحمل أصل المعنى، وإليها تنتهي مقاصد المتكلِّمين، فهذا النوع تشترك فيه جميع الألسنة، وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين، ولا يختصُّ بأمة دون أخرى.

مثاله: إذا حصل في الوجود مثلاً، فعل القيام من زيد، ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام، تأتى له ما أراد من غير كلفة، ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين -ممن ليسوا من أهل العربية-، وحكاية كلامهم، ويتأتى في لسان العجم حكاية أقوال العرب، والإخبار عنها، وهذا واضح.

الثاني: الدلالات التابعة أو الخادمة؛ وهي التي يختصُّ بها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبار، فإنَّ كلَّ خبر يقتضي في هذه الجهة أموراً خادمة لذلك الإخبار، بحسب الخبر، والمخبِر، والمخبَر عنه، والمخبَر به، ونفس الإخبار، في الحال والمساق، ونوع الأسلوب: من الإيضاح، والإخفاء، والإيجاز، والإطناب، وغير ذلك.

وذلك أنك تقول في ابتداء الإخبار: "قام زيد" إن لم تكن ثم عناية بالمخبر عنه، بل بالخبر، فإن كانت العناية بالمخبَر عنه قلت: "زيد قام"، وفي جواب السؤال أو ما هو منزل تلك المنزلة: "إن زيدا قام"، وفي جواب المنكر لقيامه: "والله إن زيداً قام"، وفي إخبار من يتوقع قيامه أو الإخبار بقيامه: "قد قام زيد"، وهكذا.

ثم يتنوَّع أيضاً بحسب تعظيمه أو تحقيره -أي: المخبَر عنه-، وبحسب الكناية عنه والتصريح به، وبحسب ما يقصد في مساق الأخبار، وما يعطيه مقتضى الحال، إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن حصرها، وجميع ذلك دائر حول الإخبار بقيام زيد.

فمثل هذه التصرفات التي يختلف معنى الكلام الواحد بحسبها ليست هي المقصود الأصلي، ولكنها من مكملاته ومتمماته، وبطول الباع في هذا النوع يحسن مساق الكلام إذا

لم يكن فيه منكر، وبهذا النوع الثاني اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن، لأنه يأتي مساق القصة في بعض السور على وجه، وفي بعضها على وجه آخر، وفي ثالثة على وجه ثالث، وهكذا ما تقرر فيه من الإخبارات لا بحسب النوع الأول، إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل في بعض، ونصَّ عليه في بعض، وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت[1].

وباستقراء أساليب القرآن؛ فإنَّ الله سبحانه إذا حكى المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظ: قال، دون حروف العطف، إلا إذا انتقل من محاورة لأخرى، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة:٣٠- ٣٣]، وإنما حذف العاطف في أمثاله؛ كراهية تكرير العاطف بتكرير أفعال القول، فإنَّ المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب، فطردوا الباب، فحذفوا العاطف في الجميع، وهو كثير في التنزيل، وربما عطفوا ذلك بالفاء لنكتة تقتضي مخالفة الاستعمال، وإن كان العطف بالفاء هو الظاهر والأصل.

ومما عطف بالفاء قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾[المؤمنون:٢٣- ٢٤].

وقد يعطف بالواو أيضاً، كما في قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾[المؤمنون:٣٢- ٣٣]؛ وذلك إذا لم يكن المقصود حكاية

---

[1] انظر: الموافقات (٢/ ١٠٥-١٠٦).

التحاور؛ بل قصد الإخبار عن أقوال جرَت، أو كانت الأقوال المحكية مما جرى في أوقات متفرقة، أو أمكنة متفرِّقة، ويظهر ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾[غافر:٢٥]، إلى قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾[غافر:٢٦]، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾[غافر:٢٧]، ثمَّ قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾[غافر:٢٨][1].

وقد وردت أمثلة كثيرة في القرآن تبيِّن هذا الضابط وتوضِّحه، في جميع حكاية حوارات الأنبياء السابقين مع أممهم وغيرها، ومن ذلك:

- قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقول الله فيها: ﴿قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾[طه:٦٣]، فلا شكَّ أنَّ هذه الفصاحة لم تجرِ على لغة العجم.

- حوار لوط عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه، أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[الحجر:٦٨-٧١]، وقوله في سورة هود: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[هود:٧٨-٨٠]، فالواقعة واحدة، وتنوع التعبير القرآني عنها.

-خبر زوجة إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، لما سمعت بشرى الملائكة بإسحاق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[هود:٧٢]،

---

[1] انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٢٥)، (١/ ٤٠١)، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد بيان ذلك: (وهذا مما لم أسبق إلى كشفه من أساليب الاستعمال العربي).

وبنحوه قال سبحانه: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٩]، ومثل ذلك كثير في القرآن.

ومعرفة هذا الضابط مهمٌّ للمتدبِّر في معرفة حقيقة الكلام المحكيِّ في القرآن عن غير العرب من الأمم السابقة، وأنه حُكي بمعناه لا بلفظه، وقد حكي بأبلغ عبارة، وأدقِّ أسلوب، بما تعجز كلِّ لغات الدنيا أن تأتي بأبين أو أبدع منه.

ومن أمثلته عند التدبُّر، في قوله تعالى إخباراً عن فرعون وملإه: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٧]، فلم يحترزوا من تسمية فرعون بشراً، ففيه دليل على أنَّ الله أ يجري نقض ضلالة الضالين والمبتدعين على ألسنتهم، وألسنة أتباعهم دون شعور، ليحقَّ كلمته على من قضى عليه الشقوة[1].

ومن أمثلته: في قوله تعالى حكاية عن دعاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢]، يستفاد منها: أنه إذا كان هذا قول الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ فمن بعده من المؤمنين أحرى أن يكون أشدُّ خوفاً وطلبا للاستغفار، والله أعلم.

- المطلب السابع: المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشدّ الحاجة إليها:

وهذا ضابط مهمّ، جليل النفع، وعظيم الوقع، فما من موضع يسوق الله فيه حكماً، أو خبراً، فيتشوَّف الذهن فيه إلى شيء آخر؛ إلا وجدت الله قرَن به ذلك الأمر الذي يعلق في الأذهان، فيبينه أحسن بيان، وهذا أعلى أنواع التعليم، الذي لا يبقي إشكالاً إلا أزاله، ولا احتمالاً إلا أوضحه، وهذا يدلُّ على سعة علم الله وحكمته، وذلك في القرآن كثير، ومن أمثلة ذلك:

---

[1] انظر: النكت الدالة على البيان (٢/ ٣٥٤).

- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل:٩١]، لمَّا خصها بالذكر ربما وقع في بعض الأذهان تخصيص ربوبيته بها؛ أزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ [النمل:٩١].

- ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾[هود:١٠٩]، لمَّا كان قد يقع في الذهن أنهم على حجة وبرهان فأبان بقوله: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ﴾ [هود:١٠٩]، أنهم ضُلَّال اقتدوا بمثلهم، ثم لما كان قد يتوهم المتوهم أنهم في طمأنينة من قولهم، وعلى يقين من مذهبهم، وربما يتوهم أيضاً أن الأليق ألا يبسط لهم الدنيا احترز من ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾[هود:١٠٩-١١٠].

- ولما قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء:٩٥]، ربما يظنّ الظان أنهم لا يستوون مع المجاهدين، ولو كان القاعدون معذورين، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[النساء:٩٥].

- وكذلك لما قال: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْ﴾[الحديد:١٠]، ربما توهم أحد أنَّ المفضولين ليس لهم عند الله مقام ولا مرتبة، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[الحديد:١٠] ثمَّ لما كان احتمال أن يتوهم أنَّ هذا الأجر يُستحق بمجرد هذا العمل المذكور، ولو خلا من الإخلاص، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد:١٠].

- ومنها: قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل:٤٨]، ربما وقع في الذهن أنهم يفسدون وقد يصلحون، فأزال هذا الوهم بقوله: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾[النمل:٤٨]، أي: لا خير فيهم أصلاً مع شرهم العظيم.

- ومنها قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ ربما توهَّم أحد أن هدايته تأتي جزافاً من غير سبب، فأزال هذا بقوله: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦]، أي: بمن يصلح للهداية لزكاته وخيره ممن ليس كذلك، فأبان أنَّ هدايته تابعة لحكمته التي هي وضع الأشياء مواضعها.

ومن كان حسَن الفهم، ثاقب الرؤية والنظر؛ رأى من هذا النوع شيئاً كثيراً(١).

وهو معين للمتدبِّر على فهم المعنى فهماً صحيحاً، والوقوف على محترزات القرآن.

ومن أمثلة ذلك عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥]، فلما كان الإنسان ربما يتوهم أنه إذا أنفق افتقر؛ دفع تعالى هذا الوهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [البقرة:٢٤٥]، أي يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عمن يشاء فالتصرُّف كلُّه بيديه، ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ثمَّ قال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٤٥]: فيجازيكم بأعمالكم.

وأسأل الله النفع والتوفيق، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح..



(١) انظر: القواعد الحسان (٨١-٨٢).

المبحث السادس: مفاهيم وقواعد عامة تعين على التدبُّر

وفيه أحد عشر مطلباً:

- المطلب الأول: جاء القرآن بالهداية للتي هي أقوم، وبيان كل شيء:

أنزل الله هذا القرآن العظيم الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان ومكان يرشد إلى أهدى الأمور وأقومها: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩]، أيْ أكرم، وأنفس، وأصلح، وأكمل استقامة، وأعظم قياماً وصلاحاً للأمور، ولم تظفر الدنيا كلُّها بكتاب أجمع للخير كله، وأهدى للتي هي أقوم، وأوفى بما يُسْعد الإنسانية، من هذا القرآن المجيد.

وقد "ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنَّ هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهداً بربِّ العالمين جلَّ وعلا، يهدي للتي هي أقوم؛ أي الطريقة التي هي أسدُّ وأعدل وأصوب،... وهذه الآية الكريمة أجمل الله جلَّ وعلا فيها جميع ما في القرآن؛ من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة"(١).

فأصحُّ طريق وأقومه هو ما هدى وأرشد إليه القرآن الكريم، لأنه النور المبين الذي ينير الطريق للبشرية في ظلمة هذه الحياة؛ فهو يهدي إلى الله سبحانه وتعالى، الهداية الرشيدة الأصيلة الهادفة القاصدة، والشاملة للفرد بكلِّ كيانه ومشاعره وأحاسيسه وجوانب حياته، وللأمة بكلِّ أفرادها ومرافقها ومجالاتها وحياتها، والهداية الشاملة للإنسانية كلِّها إلى ربها سبحانه وتعالى، فالهداية في الآية عامة شاملة، والحياة القيِّمة التي يدعو إليها كذلك عامة شاملة.

---

(١) أضواء البيان (٣/ ١٧) بتصرُّف.

"إنَّ هذا القرآن يعرِف أهله بنوره أقوَم الطرق إلى الله تعالى، وهو طريق الطاعة والاقتداء بمن أنزل عليه ﷺ فإنه لا طريق يوصل إلا ذلك...، فالقرآن يرشد بظاهره إلى معاني باطنِه، وبمعاني باطنِه إلى نور حقيقته، وبنور حقيقته إلى أصل الصفة، وبالصفة إلى الذات، فطوبى لمن استرشد بالقرآن فإنه يدلُّه على الله تعالى"[1].

وأقوم الطرق إلى أشرف المطالب ما بعث الله به رسوله بالهدى ودين الحقِّ، وجعل في الكتاب الذي أنزله إليه؛ كلُّ ما يحتاج الناس إليه في دينهم، وبيَّنه بياناً شافياً وافياً.

وهذا الضابط هو أصل عظيم، وقاعدة مهمَّة، في فهم القرآن وتدبُّره، فهداية القرآن عامة، لا تتقيَّد بحالة من الأحوال، فكلُّ حالة فهي أقوم، في العقائد والأخلاق والسياسات، والأعمال الدينية والدنيوية، فإنَّ القرآن يهدي ويرشد إليها، ويأمر بها ويحثُّ عليها.

فأما العقائد: فإنَّ عقائد القرآن هي العقائد النافعة، التي فيها لصلاح القلوب وحياتها وكمالها، فإنها تملأ القلوب عزَّة وكرامة، بشعورها بالتجرُّد من الذل لمخلوقٍ مثلها، وشرفها بتخصصها لمحبة الله تعظيماً له، وتألهاً وتعبداً وإنابة، وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعو إليها: فإنه يدعو إلى التحلِّي بكلِّ خلق جميل، من الصبر والحلم والعفو والأدب وحسن الخلق وجميع مكارم الأخلاق، ويحثُّ عليها بكلِّ طريق، ويرشد إليها بكل وسيلة.

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله وحقوق العباد على أكمل الحالات وأجلِّها وأسهلها وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية: فهو يُرشد إلى سلوك الطرق النافعة في تحصيل المقاصد والمصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته، والعمل بما

---

[1] تفسير الآلوسي (٨/ ٤٩) بتصرُّف.

تقتضيه المصلحة في كلِّ وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال، حتى في سياسة الوالد مع أولاده وزوجه وأهله وخادمه وأصحابه ومعامليه، فلا يمكن أنه وُجد أو يوجدُ حالة يتَّفق العقلاء أنها أقوم وأصلح من غيرها، إلا والقرآن يرشد إليها نصاً وظاهراً، أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية.

وهذا الضابط تفسِّره كلُّ التفاصيل الواردة في الكتاب والسنة، وما تقتضيه المصالح، ولا يمكن أن يردَ علم صحيح، أو معنى نافع، أو طريق صلاح ينافي القرآن[1].

إنَّ هداية القرآن للتي هي أقوم؛ تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتتجاوز كل الأنظمة والقوانين التي كانت قائمة أو التي ستقوم بعد ذلك، وتقطع الطريق على المنهزمين والمتخاذلين من أهل الإسلام أو المنتسبين له، أو من الزنادقة، الذين يظنُّون - بجهلهم- أنَّ القرآن كتاب رقائق ومواعظ، ولا يعالج سوى قضايا محدودة من الأحكام، ولا علاقة له بالقضايا الكبرى في الأمة[2].

وقد سبق بيان شيء من هدايات القرآن للتي هي أقوم في ثنايا البحث[3].

ومن هداية القرآن للتي هي أقوم: أنَّ الله سبحانه حثَّ فيه على الصلاح والإصلاح في آيات متعددة، وأثنى على الصالحين والمصلحين في آيات أخر.

والصلاح: أن تكون الأمور كلها مستقيمة معتدلة آخذة سبيلها الذي سنَّه الله مقصوداً بها غايتها الحميدة، التي قصد الله إليها؛ فأمر الله بالأعمال الصالحة، وأثنى على الصالحين، لأنَّ أعمال الخير تُصلِح القلوب والإيمان، وتصلِح الدين والدنيا والآخرة، وضدها فساد

---

(١) انظر: القواعد الحسان (١٤٦)، أضواء البيان (٣/ ١٧-٥٣).

(٢) انظر: قواعد قرآنية- د/ عمر المقبل (٣٠٩).

(٣) انظر: المبحث السابع، من الفصل الثاني في الباب الأول.

هذه الأشياء، وكذلك في آيات متعددة فيها الثناء على المصلحين ما أفسد الناس، والمصلحين بين الناس والتصالح فيما بين المتنازعين، وأخبر على وجه العموم أنَّ الصلح خير.

فإصلاح الأمور الفاسدة: السعي في إزالة ما تحتوي عليه من الشرور والضرر العام والخاص.

ومن أهم أنواع الإصلاح: السعي في إصلاح أحوال المسلمين في إصلاح دينهم ودنياهم، كما قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[هود:٨٨]، فكلُّ ساعٍ في مصلحة دينية أو دنيوية، فإنه مصلح، والله يهديه ويرشده ويسدده، وكل ساعٍ بضد ذلك فهو مفسد، والله لا يصلح عمل المفسدين.

ومن أهمِّ ما حثَّ الله عليه: السعيُ في الصلح بين المتنازعين، كما أمر الله بذلك في الدماء والأموال والحقوق بين الزوجين، والواجب أن يصلِح بالعدل، ويسلك كل طريقٍ توصل إلى الملائمة بين المتنازعين، فإنَّ آثار الصلح بركة وخير وصلاح.

فالمقصود: السعي في الكمال الممكن حسب القدرة بتحصيل المصالح أو تكميلها، أو إزالة المفاسد والمضار أو تقليلها: الكلية منها والجزئية، والمتعدية والقاصرة[(١)].

ومما تستلزمه هداية القرآن للتي هي أقوم: أنَّه تضمَّن بيان كلِّ شيء؛ فالعالِم به على التحقيق عالمٌ بجملة الشريعة، ولا يعوِزه منها شيء، لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[الأنعام:٣٨]، وقوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[يوسف:١١١]، وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[النحل:٨٩][(٢)].

---

(١) انظر: القواعد الحسان (١١٩-١٢٠).

(٢) انظر: الموافقات (٤/ ١٨٤-١٩٧).

ففي هذه الآيات وغيرها دليل على أنَّ القرآن بيَّن الأحكام الشرعية بياناً كافياً شافياً، فما من شيء أمر الله به، أو نهى عنه، أو أحلَّه أو حرَّمه، إلا بيَّنه القرآن، فإنَّ آيات القرآن هي النظام الشامل، والدستور الكامل، في معاملة الخالق والمخلوق، وهدى وشفاء لما في الصدور، ولا يكون شفاء لجميع ما في الصدور إلا وفيه تبيانُ كل شيء[1].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إذا أردتم العلم؛ فأثيروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين)[2].

وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ (١١٨هـ): (ما جالس أحدٌ القرآن إلا فارقه بزيادة أو نقصان)، ثمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[الإسراء:٨٢][3].

والحاصل: أنَّ هذا المفهوم مهم للمتدبِّر أثناء نظره في القرآن، فيبحث فيه عن جواب كلِّ سؤال، ويجد فيه هداية من كلِّ ضلال، وبياناً لكلِّ مشكل، ولم يلجأ أحد من العلماء إلى القرآن في مسألة إلا وجد لها فيه أصلاً، فقد قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[النساء:٥٩].

قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ (١١٧هـ): (الردُّ إلى الله: الردُّ إلى كتابه، والردُّ إلى الرسول إذا قبض إلى سنته)[4].

والأمثلة على إعمال المتدبِّر لهذا الضابط المهم، والأصل العظيم، كثيرة منها:

---

(١) انظر: ضوابط أصولية في تدبُّر القرآن (٥٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (٥٦).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٥٠٥)، وذكره البيهقي في كتاب الاعتقاد (٢٢٧).

- في قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف:١١]، يستفاد منها: أنَّه لا يستحكم النوم إلا مع تعطُّل السمع، ومن الأذن يحصل عِظم فساد النوم، وقلَّما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه[١].

- تدبَّر الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٧٩هـ) قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠]، وأخذ منه: أنَّ من سبَّ الصحابة والسلف الصالح رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ ليس له حقٌّ في الفيء، لأنَّ الآية جاءت بصفة من له في الفيء حق[٢].

- وتدبَّر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥٤٣هـ) قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:٢]، فقال: (فيها دليل على أنَّ الإنسان مخلوق من العلَق، وأنه قبل أن يكون علقة ليس بإنسان)[٣].

والأمثلة على ذلك كثير.

"وعلى هذا لا بدَّ في كلِّ مسألة يرادُ تحصيل علمها على أكمَل الوجوه؛ أن يلتفت إلى أصلها في القرآن، فإن وُجِدت منصوصاً على عينها، أو ذكر نوعها أو جنسها؛ فذاك، وإلا؛ فمراتب النَّظر فيها متعددة"[٤]، والله أعلم.

---

[١] انظر: المحرر الوجيز (٣/ ٥٠٠)، تفسير القرطبي (١٠/ ٣٦٣)، البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ١٤٤).

[٢] انظر: النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات- لأبي زيد القيرواني (٣/ ٣٩٨).

[٣] أحكام القرآن لابن العربي (٤/ ٤١٩).

[٤] الموافقات (٤/ ١٩٧).

- المطلب الثاني: جاء القرآن الكريم بتقرير الأصــول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع السابقة:

حيث اتفقت الرسل والشرائع السابقة على أصول عظيمة؛ فجاء القرآن بتقريرها كلها، وهي: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد، وحشر العباد.

الأصل الأول: التوحيد: فهو الغايةُ من خَلْق الخَلْق، ومن أجله خُلقت الجنة والنار، وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وبه ينقسم الناسُ إلى أبرار وفجَّار، وبه يختلف مصيرُهم في دار القرار، فريق في نعيمٍ مقيمٍ، وآخر يَصْلَى نار الجحيم.

ولما كان التوحيد بهذا الشأن، فقد تناوله القرآنُ الكريم أعظمَ تناول، بل إنَّ كل آية -على التحقيق- تدخُل في معالجة هذا الموضوع العظيم، فجاء القرآن كلُّه بتقريره، ونفي ضده، وأكثر الآيات يقرِّر الله فيها توحيد الألوهية، وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ويخبر أنَّ جميع الرسل إنما أرسلت تدعو قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنَّ الله تعالى إنما خلق الثقلين ليعبدوه، وأنَّ الكتب والرسل، بل الفطر والعقول السليمة؛ كلُّها اتفقت على هذا الأصل، الذي هو أصل الأصول كلها، وأنَّ من لم يَدِنْ بهذا الدين الذي هو إخلاص العبادة والقلب، والعمل لله وحده فعمله باطل، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر:٦٥]، ويدعو العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم، من أنَّ الله المنفرد بالخلق والتدبير والمنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة: هو الذي يستحقُّ العبادة وحده، ولا ينبغي أن يكون شيء منها لغيره، وأنَّ سائر الخلْق ليس عندهم أي قدرة على جلْب النفع، أو دفع الضرِّ عن أنفسهم، فضلاً عن أن يغنوا عن أحد غيرهم من الله شيئاً.

ويدعوهم أيضاً: إلى هذا الأصل بما يَتَمَدَّح به الله سبحانه، ويُثني على نفسه الكريمة، من تفرده بصفات العظمة والمجد، والجلال والكمال، وأنَّ من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك: أحقُّ من أُخلصت له الأعمال الظاهرة والباطنة.

"والقرآن فيه من ذكر أسماء الله وصفاته وأفعاله؛ أكثر مما فيه من ذِكْر الأكل والشرب والنكاح في الجنة، والآيات المتضمِّنة لذكْر أسماء الله وصفاته، أعظم قدراً من آيات المعاد، فأعظَم آية في القرآن آية الكرسي المتضمِّنة لذلك"[1].

ويقرِّر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعاً ولا جزاء: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[يوسف:٤٠].

وتارة يقرِّر هذا: بذكر محاسن التوحيد، وبيان أنه الدين الوحيد الواجب شرعاً وعقلاً وفطرة، على جميع العبيد، وبذكر مساوئ الشرك وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم أضلُّ من الأنعام سبيلاً.

وتارة يدعو إليه: بذكر ما رتَّب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتب على ضده من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقب المشركين أسوأ العواقب وأشرُّها.

وبالجملة: فكلُّ خير عاجل وآجل، فإنَّه من ثمرات التوحيد، وكلُّ شر عاجل وآجل، فإنه من ثمرات الشرك[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ) موضِّحاً ذلك: (إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمِّنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإنَّ القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٣١٠).

(٢) انظر: القواعد الحسان (٢٠-٢١).

الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحِلُّ بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه)[١].

ومما يقرره أيضاً: الاستدلال بخلق السماوات والأرض وما فيهما على التوحيد، فقد دعا الله عباده إلى التفكير في هذه المخلوقات في آيات كثيرة، وأثنى على المتفكِّرين فيها، ومتى تفكَّر المتفكرون في هذا الكون العظيم، عرفوا أنه لم يوجَد بغير موجِد، ولا أوجد نفسه -هذا أمر بديهي-، وحينها يحصل اليقين بأنَّ الذي أوجده هو الأول الذي ليس قبله شيء، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل القدرة، عظيم السلطان، واسع العلم، وأنَّ إعادة الخلق في النشأة الثانية للجزاء أسهل من هذا بكثير: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[غافر:٥٧]، وعرف بذلك أنه الحي القيوم.

وإذا نظرنا ما في السماوات والأرض من الإحكام والإتقان والإبداع؛ عرفنا بذلك كمال حكمة الله، وحسن خلْقه، وسعة علمه، وعرفنا من آثار حكمته فينا وفي هذا الوجود أنه ما خلقنا لهذه الحياة قصداً، وإنما خلقنا لنستعد فيها للنشأة الأخرى.

وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية التي لا تحصى، عرفنا بذلك أنَّ الله واسع الرحمة، عظيم الفضل والبر والإحسان، والجود والامتنان، وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإنَّ ذلك دالٌ على إرادة الله ونفوذ مشيئته، ونعرف بذلك كله أنَّ مَنْ هذه أوصافه وهذا شأنه؛ هو الذي لا يستحق العبادة أحد إلا هو، وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، الذي لا تنبغي الرهبة إلا إليه، ولا ينبغي صرف خالص الدعاء إلا له؛ لأنَّ غيره من المخلوقات المربوبات مفتقرات إليه وحده في جميع شئونها.

---

[١] مدارج السالكين (٣/ ٤١٧-٤١٨).

ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خُلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأنَّ عناصرها ومواردها وأرواحها قد مكَّن الله الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها، عرفنا أن الاختراعات الحديثة، هي من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه من استخراج ما يصلح أحوالنا منها، بحسب القدرة، ولم نخلَد إلى الكسل والبطالة، أو نزعم أنَّ علم هذه الأمور واستخراجها علوم باطلة، بحجة أنَّ الكفار سبقونا إليها وفاقونا فيها، فإنها كلها ـ كما نبه الله ـ داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأن يُعلِّم الإنسان ما لم يعلم(١).

الأصل الثاني: تقرير نبوة النبي ﷺ، وهذا الأصل: قرَّره الله في القرآن الكريم بالطرق المتنوعة التي يُعرف بها كمال صدقِه ﷺ، وصحَّة رسالته، ومن ذلك:

١- أخبر أنه صدَّق المرسلين، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأنَّ جميع المحاسن التي في الأنبياء؛ فيه ﷺ، وما نُزِّهوا عنه من النقائص والعيوب، فرسولنا محمد ﷺ أولاهم وأحقهم بهذا التنزيه، وأنَّ شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب، وجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها الله في هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره.

٢- قرَّر نبوته ﷺ: بأنه أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب السابقة: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩]، بل لم يَفْجَأ الناس إلا وقد جاءهم بهذا الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أَتوا ولا قَدِروا، ولا هو في استطاعتهم ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا

---

(١) انظر: القواعد الحسان للسعدي (١٤١-١٤٢).

ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨]، فمحال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو أن يكون قد تقوَّله على ربه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير:٢٤].

وقد أعاد القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرَّر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطوَّلة على جميع الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد، ثم يخبر تعالى: أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما آتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مطولة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص:٤٤]، ولما ذكر قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإخوته مطوَّلة قال: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف:١٠٢].

فهذه الأمور والإخبارات المفصَّلة التي يفصِّلها الرسول ﷺ بما أوحي إليه تفصيلاً، صحح به أكثر الأخبار والحوادث التي كانت في كتب أهل الكتاب محرفة ومشوهة بما أضافوا إليها من خرافات وأساطير، حتى ما يتعلَّق منها بعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأمه وولادتهما، ونشأتهما، وبموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وولادته ونشأته، كلُّ ذلك وغيره لم يكن يعرفه أهل الكتاب على حقيقته حتى جاء القرآن، فقصَّ ذلك على ما وقع وحصل، مما أدهش أهل الكتاب وغيرهم، وأخرس ألسنتهم حتى لم يقدر أحد منهم ممن كان في وقته، ولا ممن كانوا بعد ذلك، أن يكذبوا بشيء منها، فكان ذلك من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً.

٣- وتارة يقرر نبوته: بكمال حكمة الله، وتمام قدرته، بتأييده لرسوله ﷺ، ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض، وهو مقتضى حكمةِ ورحمةِ العزيز الحكيم، وأنَّ من قدح في رسالته ﷺ فقد قدح في حكمة الله وفي قدرته، وفي رحمته، بل وفي ربوبيته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر لهذا النبي ﷺ على الأمم الذين هم أقوى أهل الأرض؛ من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأملين.

٤- وتارة يقرر نبوته ورسالته بما جمع له وكمله به من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأنَّ كلَّ خلق عالٍ سام فلرسول الله ﷺ منه أعلاه وأكمله.

فمن عظُمَت صفاته، وفاقت نعوته جميع الخلق التي أعلاها: الصدق والأمانة، التي هي من أكبرَ الأدلة على أنه رسول رب العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين.

٥- وتارة يقررها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين السابقين، إما باسمه العلم أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أمته وأوصاف دينه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[الصف:٦].

٦- وتارة يقرر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية والغيوب المستقبلة، التي وقعت في زمان مضى على زمانه، أو وقعت في زمانه والتي لا تزال تقع في كل وقت، فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا كان له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

٧- وتارة يقرِّرها بحفظه إياه، وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم عليه، وجِدِّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه ويمنعه منهم وينصره عليهم، وما ذاك إلا لأنه رسوله حقاً، وأمينه على وحيه والمبلغ ما أمر به.

٨- وتارة يقرر رسالته بذكر عظمة ما جاء به، وهو القرآن الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، ويتحدَّى أعداءه، ومن كفر به أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة واحدة، فعجزوا ونكصوا وباؤوا بالخيبة والفشل، وهم أهل اللسان المُبَرِّزون في ميدان القول والفصاحة، ومع ذلك ما استطاعوا ـ مع شدة حرصهم ومحاولتِهم ـ أن يأتوا بسورة منه، وما استطاعوا ولا قدروا –مع شدة حرصهم ومحاولتِهم– أن يجدوا فيه نقصاً أو عيباً ينزل به عن أعلى درجات الفصاحة التي ملَكت أزمة قلوبهم، فلجأوا إلى السيف وإراقة دمائهم، وما كانوا يعمدون إلى هذا لولا أنهم لم يجدوا سبيلاً إلى محاربته بالقول،

وما كانوا يزعمونه عندهم علوماً وحكماً، فكان عدولهم إلى السيف وإراقة الدماء أكبر الأدلة على صدق الرسول ﷺ، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وأقطع البراهين على أنه الحقُّ والهدى من عند الله، الذي جمع الله فيه لرسوله ﷺ وللمؤمنين به؛ كلَّ ما يكفل لهم سعادة الدنيا والآخرة في كلِّ شئونهم، وأنَّ هذا القرآن لأكبرُ أدلة رسالته وأجلُّها وأعمُّها.

والله تعالى يقرر أنَّ القرآن كاف جداً أن يكون هو الدليل الوحيد على صدق رسوله ﷺ في مواضع عدة، منها قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[العنكبوت:٥١].

٩- وتارة يقرر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات، الدالِّ كل واحد منها بمفرده - فكيف إذا اجتمعت- على أنه رسول الله ﷺ الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

١٠- وتارة يقررها بعظيم شفقته على الخلق، وحُنوِّه الكامل على أمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه لم يوجد ولن يوجد أحد من الخلق أعظم شفقة ولا براً وإحساناً إلى الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه وقررها بعبارات متنوعة، ومعاني مفصلة وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوق العد والإحصاء[1].

وكما قرَّر القرآن نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد ﷺ؛ قرَّر أنَّ الرسالة هبة إلهية، يمنحها من شاء من عباده، وأنه يهيئ من يصطفيه لها لتلقِّي الوحي وحفظه، ثمَّ يهيؤهم بالمعجزات الخارقة التي تثبت صدقهم لدى أقوامهم، وبيَّن أحوال بعضهم مع أقوامهم من

---

(١) انظر: القواعد الحسان (٢٢-٢٤).

القبول أو الإعراض والتكذيب، وأوجب سبحانه الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وقرَّر أنهم حجَّة الله على الناس في الدنيا والآخرة، في نحو قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥]، لذلك لا يعذِّب سبحانه أحداً في الدنيا بالانتقام أو الاستئصال؛ إلا بعد إرساله الأنبياء والرسل لهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥].

الأصل الثالث: تقرير المعاد والحشر: والذي يبدأ ببعث الخلائق أجمعين إلى الله، في وقت محدد لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى، ثم ما يلي هذا البعث من حشر الخلائق لموقف الحساب والفصل، ثم مجازاتهم على أعمالهم في الدنيا، ففريق في الجنة، وفريق في السعير.

ولما كانت العبودية لله تعالى هي غاية وجود الإنسان وعلته؛ كانت الآخرة هي غاية مصيره، ولما تُرك جانب العبودية الاختياري لاختيار الإنسان؛ انقسم الناس فيه إلى محسن ومسيء، وظالم ومظلوم، ومؤمن وكافر، ومصلحين في الأرض ومفسدين فيها، ولو كانت الحياة ستنتهي بموت أبدي لاستوى المحسن والمسيء، والمؤمن والكافر، فيكون هذا الخلق العظيم عبثًا باطلًا؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

وهذا ما قرَّره القرآن الكريم، وكرَّره حين ربط الآخرة بالخلق، وجعلها غاية جزائية للخلائق تصون وجودهم عن العبث، وتصون مصيرهم عن البطلان، وتجعل الخلق، والمصير حقًّا لا تشوبه شوائب اللعب، أو الرِّيبة كما بين الله تعالى ذلك في كتابه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ﴾[الحجر:٨٥]، وذكر الساعة هنا هو توضيح لهذا الحق؛ إذ لو جرِّدت الحياة من غايتها الجزائية لخلت من عنصر الحق والحكمة فيها، ولأصبحت باطلًا بهذه التسوية الجائرة، ولقد كان هذا هو ظن الجاهلية دائمًا، ووهمها الذي أرداها؛ ولذلك يبطله القرآن الكريم في حسم بالغ، في قوله تعالى: ﴿وَمَا

خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٧-٢٨].

كذلك فطر الله تعالى الإنسان على حبِّ مصلحته ونفسه؛ ليكون له حافزًا دائمًا في السعي والعمل والتحصيل، وتأتي الآخرة هنا كأعظم حافز للعمل يلبي هذه الفطرة، وينظمها، حيث يجعل نفع الآخرين مصلحة ذاتية، يعود ثوابها على فاعلها نعيمًا في الجنة، ونجاة من النار، ويجعل إضرار الآخرين هلاكًا مؤكدًا على صاحبه؛ فقرر ذلك في نحو قوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت:٤٦-٤٧].

والقرآن الكريم اهتمَّ بهذا الأصل غاية الاهتمام؛ إثباتًا، وتدليلًا، وبيانًا، وتفصيلًا، ودحضًا لشُبَه المنكرين، وتأكيدًا، وتكريرًا لجوانبه جميعًا حتى يتقرر أمره تقرر المسلّمات، وحتى يكون الناس في شأنه كأنهم يرون، ويسمعون ضجة القيامة، وهول المحشر، والفزع الأكبر، وما وراء ذلك من الأمن والنعيم للطائعين، والعذاب والجحيم للعاصين -نعوذ بالله من النار-.

وتبدأ عناية القرآن بالمعاد والحساب من أسماء السور: فتارة تسمى باسم من أسماء هذا اليوم مثل: القيامة، والواقعة، والحاقة، والنبأ، والغاشية، والقارعة.

وتارة تسمى بشيء من المظاهر الكونية الهائلة، التي تمهِّد لهذه الآخرة مثل: الدخان، التكوير، الانفطار، الانشقاق، الزلزلة، وسور سمِّيت بأسماء ما يقع في هذا اليوم، أو يصاحبه مثل: الأعراف، والزمر، والجاثية، والحشر، والتغابن، والمعارج، فهذه سبع عشرة سورة لم يقع في القرآن مثلها لأصل من الأصول.

وقد أكثر الله من ذكر المعاد في كتابه الكريم، وقرَّره بطرق متنوعة، منها:

١- إخباره -وهو أصدق القائلين- عنه، وعمَّا يكون فيه من الجزاء الأوفى، مع إكثار الله من ذكره، فمعظم سور القرآن لا تخلو من ذكر القيامة، أو ما يتعلَّق بها، فيذكرها مرة، أو مرات عديدة في السورة الواحدة.

وقد أقسَم الله عليه في مواضع كثير، كقوله سبحانه: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[القيامة:١]، وأمر نبيه أن يقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه[١].

٢- الإخبار بكمال قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء، فإعادة العباد بعد موتهم فردٌ من أفرادِ آثار قدرته، في نحو قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨١-٨٢].

٣- تذكيره عَزَّوَجَلَّ العباد بالنشأة الأولى، وأنَّ الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً، لابدَّ أن يعيدهم كما بدأهم، وأنَّ الإعادة أهون عليه، وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الروم:٢٧].

٤- إحياؤه الأرضَ الهامدة الميتة بعد موتها، وأنَّ الذي أحياها سيحي الموتى، في نحو قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[فصلت:٣٩].

---

[١] هي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾[يونس:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن:٧].

وقرَّر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، في نحو قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧].

فمتى أثبت المنكرون ذلك، - ولن يقدروا على إنكاره-، استبعدوا عدم قدرته عَزَّوَجَلَّ على إحياء الموتى.

٥- وقرَّر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به، ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين، لا يُؤمرون ولا ينهَون، ولا يثابون ولا يعاقبون، وهذا طريق قرَّر به النبوة وأمر المعاد.

٦- ومما قرَّر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة، وكيف نجَّا الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث، ونوَّعَ عليهم العقوبات، وأحلَّ بهم المَثُلات، فهذا جزاء معجَّل، ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده، ليهلِك من هلَك عن بينة، ويحيى من حيَّ عن بينة.

٧- ومن ذلك: ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا، كما ذكره الله عن صاحب البقرة والألوف من بني إسرائيل، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسى بن مريم للأموات وغيرها، مما أراه الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأنَّ العباد لابد أن يَرِدوا دار القرار، إما إلى الجنة وإما إلى النار، وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة[١].

---

[١] انظر: القواعد الحسان (٢٥-٢٦)، وانظر: بحث بعنوان: طريقة القرآن في تقرير المعاد، أ.د/ عبدالستار فتح الله سعيد، على شبكة الانترنت .

والحاصل: أنَّ استحضار المتدبِّر لهذه الأصول العظيمة التي تناولها القرآن يعينه على حياة قلبه، ورسوخ يقينه، وتصحيح عمله، واتباع هدي القرآن في أمره كلِّه، وهذه هي الثمرة الكبرى، والغاية القصوى من تدبُّر هذا الكتاب العظيم.

- المطلب الثالث: تأتي في القرآن غالباً مقارنة الترغيب والترهيب، والبشارة والنذارة، والترجية مع التخويف، والوعد مع الوعيد، في النصِّ أو السياق:

فإذا ورد في القرآن الترغيب قارنه الترهيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه، وبالعكس، وكذلك الترجية مع التخويف، وما يرجع إلى هذا المعنى مثله، ومنه ذكر أهل الجنة يقارنه ذكر أهل النار، وبالعكس؛ لأنَّ في ذكر أهل الجنة بأعمالهم ترجية، وفي ذكر أهل النار بأعمالهم تخويفاً؛ فهو راجع إلى الترجية والتخويف[1].

ويعرِف المتدبِّر ذلك بالتتبُّع والاستقراء للآيات، ومن أمثلة ذلك:

١- في سورة الفاتحة، جعلها الله فاتحة كتابه، وجاء فيها: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾[الفاتحة:٦-٧]، فجيء بذكر الأمرين.

٢- في سورة البقرة بدئت بقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[البقرة:٢]، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [البقرة:٦]، ثمَّ ذكر بإثرهم المنافقون، وهم صنف من الكفار، فلما تمَّ ذلك أعقب بالأمر بالتقوى، ثمَّ بالتخويف بالنار، وبعده بالترجية؛ فقال: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [البقرة:٢٤-٢٥]، ثمَّ قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ ﴾[البقرة:٢٦].

---

[1] انظر: الموافقات (٤/ ١٦٧).

ولما ذكَّر بنو إسرائيل بنعم الله عليهم، ثمَّ اعتداءهم وكفرهم؛ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [البقرة:٦٢]، إلى قوله: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٨١]، ثمَّ ذكر تفاصيل ذلك الاعتداء إلى أن ختم بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢]، وهذا تخويف، ثمَّ قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، وهو ترجية.

ثمَّ شرع في ذكْر ما كان من شأن المخالفين في تحويل القبلة، ثمَّ قال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٢]، ثمَّ ذكر من شأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١].

ثم ذكر قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبنيه، وذكْر في أثنائها التخويف والترجية، وختمها بمثل ذلك.

٣- في سورة الأنعام، وهي في المكيات نظير سورة البقرة في المدنيات: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، وذكر البراهين التامة، ثمَّ أعقبها بكفرهم وتخويفهم بسببه، إلى أن قال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام:١٢]، فأقسم بكتْب الرحمة على إنفاذ الوعيد على من خالف، وذلك يعطي التخويف تصريحاً، والترجية ضمناً.

ثمَّ قال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:١٥]؛ فهذا تخويف، وقال: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ [الأنعام:١٦]، وهذا ترجية.

وكذا قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام:١٧]، ثمَّ مضى في ذكر التخويف، حتى قال: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

ثمَّ قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[الأنعام:٣٦]، ونظيره قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾[الأنعام:٣٩]، ثمَّ جرى ذكر ما يليق بالموطن، إلى أن قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:٤٨]، وهكذا في الأعراف، والأنفال، والتوبة، وغيرها من أغلب سور القرآن[١].

وقد يغلَّب أحد الطرفين بحسب المواطن ومقتضيات الأحوال: فيرد التخويف ويتَّسع مجاله، لكنه لا يخلو من الترجية، كما في سورة الأنعام؛ فإنها جاءت مقرِّرة للحق، ومنكرة على من كفر بالله، واخترع من تلقاء نفسه ما لا سلطان له عليه، وصدَّ عن سبيله، وأنكر ما لا ينكَر، ولدَّ فيه وخاصم، وهذا المعنى يقتضي تأكيد التخويف، وإطالة التأنيب والتعنيف؛ فكثرت مقدماته ولواحقه، ولم يخلُ مع ذلك من طرف الترجية؛ لأنهم بذلك مدعوون إلى الحق، وقد تقدم الدعاء، وإنما هو مزيد تكرار؛ إعذاراً وإنذاراً، ومواطن الاغترار يطلب فيها التخويف أكثر من طلب الترجية؛ لأنَّ درء المفاسد آكد.

وترد الترجية أيضاً ويتَّسع مجالها، وذلك في مواطن القنوط ومظنَّته؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣]؛ فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أنَّ ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتَلوا وأكثَروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا: إنَّ الذي تقول وتدعو إليه لحسَن، لو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفارة، فنزلت)[٢].

---

[١] انظر: الموافقات (٤/ ١٦٨-١٦٩).

[٢] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٤٨١٠) في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].
=

فهذا موطن خوف، يخاف منه القنوط واليأس؛ فجيء فيه بالترجية غالبة.

ولما كان جانب الإخلال من العباد أغلب؛ كان جانب التخويف أغلب، وذلك في مظانه الخاصة لا على الإطلاق؛ فإنه إذا لم يكن هنالك مظنة هذا ولا هذا؛ أتى الأمر معتدلاً[1].

فإن قيل: هذا لا يطَّرد دائماً، لأنه قد ينفرد أحد الأمرين فلا يؤتى معه بالآخر، فيأتي التخويف من غير الترجية مثل: سورة الهمزة والفيل والمسد والماعون، وغير ذلك.

وتأتي الترجية من غير التخويف، كما في سورة الضحى، والشرح، والنصر، والقدر، ونحو ذلك.

فالجواب عن ذلك: أنَّ ذلك لا يعارض ما جاء في هذا المفهوم، ويجاب عنه بجوابين: إجمالي، وتفصيلي.

فالإجمالي أنْ يقال: إنَّ الأمر العام والقانون الشائع هو ما تقدم؛ فلا تنقضه الأفراد الجزئية الأقلية؛ لأنَّ الكليَّة إذا كانت أكثرية في الوضعيات انعقدت كلية، واعتمدت في الحكم بها وعليها، شأن الأمور العادية الجارية في الوجود، ولا شك أنَّ ما اعترض به من ذلك قليل، يدلُّ عليه الاستقراء؛ فليس بقادح فيما تأصل.

وأما التفصيلي؛ فإنَّ سورة الهمزة جاءت في قضية عين في رجل معيَّن من الكفار، وبسبب أمر معيَّن، وهو همزه النبي ﷺ، وعيبه إياه؛ فهو إخبار عن جزائه على ذلك العمل القبيح، لا أنه أجري مجرى التخويف؛ فليس مما نحن فيه، وهذا الوجه جار في آيات كثيرة مما اعترض به على هذا الضابط.

وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٢٢) في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج.

[1] انظر: الموافقات (٤/ ١٧٠-١٧٢).

وكذلك سورة الضحى، والشرح، غير ما نحن فيه، بل هو أمر من الله للنبي ﷺ بالشكر لأجل ما أعطاه من المنح.

وإذا ثبت هذا فجميع ما تقدَّم جارٍ على أنَّ لكل موطن ما يناسبه، وإنَّ الذي يناسبه إنزال القرآن: إجراؤه على البشارة والنذارة، وهو المقصود الأصلي، لا أنه أنزل لأحد الطرفين دون الآخر، وهو المطلوب بيانه في هذا الضابط.

ومن فوائد إعمال المتدبِّر للقرآن هذا الضابط أن يكون دائراً في تدبُّره بين الخوف والرجاء، لأنَّ حقيقة الإيمان تدور بينهما، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:٢١٨]، وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء:٥٧]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[المؤمنون:٥٧-٦٠].

وهذا على الجملة، فإن غلب عليه طرف الانحلال والمخالفة؛ فجانب الخوف عليه أقرب، وإن غلَب الخوف عليه طرف التشديد والاحتياط؛ فجانب الرجاء إليه أقرب، وبهذا كان ﷺ يؤدب أصحابه، ولما غلب على قوم جانب الخوف قيل لهم: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٥٣].

وغلب على قوم جانب الإهمال في بعض الأمور، فخوفوا وعوتبوا كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا﴾[الأحزاب:٥٧].

فإذا ثبت هذا من ترتيب القرآن ومعاني آياته؛ لزِم العمل به وفق ذلك الترتيب[١]، والله أعلم.

---

(١) انظر: الموافقات (٤/ ١٧٨-١٧٩).

- المطلب الرابع: جاء القرآن بأمر المؤمنين بالأحكام الشرعية، واعتبر القصد والإرادة في ترتُّب الأحكام على أعمال العباد.

قد أمر الله تعالى بالدعوة إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي بأقرب طريق موصل للمقصود، ومحصِّل للمطلوب، ولا شكَّ أنَّ الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها.

فأكثر ما يدعوهم إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بالوصف الذي منَّ عليهم به وهو الإيمان، فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا واتركوا كذا، لأنَّ في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحثِّ على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه ومكملاته، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلُّق بكل خلق حميد، والتجنُّب لكلِّ خلق رذيل، فإنَّ هذا من مقتضيات الإيمان الحقيقي، ولهذا أجمع السلف أنَّ الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلَّت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة، من الكتاب والسنة -وهذا أحدها- حيث يصدِّر الله أمر المؤمنين بقوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ أو يعلِّق فعل ذلك على الإيمان، وأنه لا يتم إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أن يدعوهم بقوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، أو يعلِّق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنته عليهم بهذه المنة، التي هي أجل المنن، أي: يا من مَنَّ الله عليهم.

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمموا إيمانهم، ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطن.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان، ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التام لأمره ونهيه.

وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة، والنعم تقتضي فهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، ويذكر ما أعد الله للمؤمنين الطائعين من الثواب، وما للعصاة من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحق العظيم على عباده، وأنَّ حقه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً، ويتعبَّدوا له وحده، ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة، فالعبادات كلها شكر لله وتعظيم وتكبير، وإجلال وإكرام، وتودد إليه، وتقرب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك، لأجل أن يتخذوه وحده ولياً وملجأ، وملاذاً ومَعاذاً، ومفزعاً إليه في الأمور كلها، وينيبوا إليه في كل حال، ويخبرهم أنَّ هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتوليه الخاص؛ تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنِّيه ويغرُّه، حتى يفوِّته المنافع والمصالح، ويوقعه في المهالك، وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثُّهم على ذلك، ويحذرهم من التشبه بأهل الغفلة والإعراض، والأديان المُبَدَّلة، لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام، كقوله: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الزمر:٦٥]، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:٣٥]، ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾[الأعراف:٢٠٥]، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[الحديد:١٦]، إلى غير ذلك من الآيات[1].

---

(١) انظر: القواعد الحسان (٢٧-٢٩).

فالمؤمن إذا سمع الأمر والنهي، وتعقيب ذلك بنهي الله عَزَّوَجَلَّ، وتعقيب ذلك ببيان أنَّ من خالف الأمر أو ارتكب النهي كان من الموصوفين بهذه الصفات؛ دعاه ذلك إلى فعل ما أمر، وترك ما نهي عنه؛ لأنَّ الخسار والظلم والغفلة مبغوض عند كلِّ أحد.

وبعد أنْ أمر الله عباده بالأحكام، اعتبر المقاصد والنيات في تلك الأحكام.

وهذا الأصل العظيم: صرح به النبي ﷺ في قوله: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»[1].

وقد وردت آيات كثيرة جداً في هذا الأصل فمنها -وهو أعظمها-: أنه رتَّب حصول الأجر العظيم على الأعمال بإرادة وجهه تعالى، مثل قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[البقرة:٢٦٥]، وفي مقابله قال: ﴿رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[البقرة:٢٦٤].

وقال سبحانه عن أكل المال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾[البقرة:١٨٨].

وقال سبحانه في حقِّ اليتامى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾[البقرة:٢٢٠].

وقال عن لغو اليمين: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

وقال في الرجعة: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾[البقرة:٢٢٨].

وقال سبحانه محذِّراً: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾[البقرة:٢٣٥].

وفي دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة:٢٨٦]، «قَالَ اللهُ: قَدْ فَعَلْتُ»[2].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٢٦) في كتاب الإيمان، باب بيان قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٤].

ولما ذكر الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء:١١٤].

وقال في المهر: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[النساء:٤].

وقال في الوصية: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾[النساء:١٢].

وذكر الله قتل الخطأ، ورتَّب عليه الدية والكفارة، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء:٩٣].

وقال في جزاء الصيد: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾[المائدة:٩٥].

وقال سبحانه عن العفو عن الخطأ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[الأحزاب:٥].

ووصف الله نبيه ﷺ، وخيار خلقه من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن تبعهم، بأنهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً في نحو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾[الفتح:٢٩].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنَّ أعمال الأبدان وأقوال اللسان، وصحَّتها وفسادها، وترتب أجرها أو وزرها؛ بحسب ما قام بالقلب من القصد والنية[1].

وإعمال هذا الضابط مهمٌّ في تصحيح قصد المتدبِّر ونيته، وفهم القرآن.

---

(١) انظر: القواعد الحسان (١٠١-١٠٢).

- المطلب الخامس: جاء القرآن بدعوة الكفار، ومجادلة المبطلين بالتي هي أحسن للإسلام:

جاء القرآن بدعوة الكفار على اختلاف مللهم يدعوهم إلى الإسلام، والإيمان بنبينا محمد ﷺ بما يصفه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالته ﷺ ليهتدي مَنْ قصَد الحق والإنصاف، وتقوم الحجَّة على المعاند، وهذه أعظم طريق يدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام.

فإنَّ محاسن دين الإسلام، ومحاسن النبي ﷺ وآياته وبراهينه؛ فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم، وما يحتجُّون به، فإنَّ الحق إذا اتَّضح علم أن كل ما خالفه فهو باطل وضلال.

و"إن من أكبر الدعوة إلى دين الإسلام شرح ما احتوى عليه من المحاسن التي يقبلها ويتقبَّلها كلَّ صاحب عقل وفطرة سليمة; فلو تصدَّى للدعوة إلى هذا الدين رجال يشرحون حقائقه، ويبيِّنون للخلق مصالحه، لكان ذلك كافياً كفاية تامة في جذب الخلق إليه، لما يرون من موافقته للمصالح الدينية والدنيوية; ولصلاح الظاهر والباطن من غير حاجة إلى التعرض لدفع شبه المعارضين والطعن في أديان المخالفين; فإنه في نفسه يدفع كل شبهة تعارضه، لأنه حقٌّ مقرون بالبيان الواضح، والبراهين الموصلة إلى اليقين، فإذا كشف عن بعض حقائق هذا الدين صار أكبر داعٍ إلى قبوله ورجحانه على غيره"[1].

كما جاء القرآن أيضاً: يدعوهم بما يخوِّفهم من أحداث الأمم وعقوبات الدنيا والآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، وأنها إنما تقوم على الغفلة والتكذيب لآيات الله الكونية والعلمية بالوقوع تحت سلطان الجهل والتقليد الأعمى للآباء والشيوخ والسادة، ويحذِّرهم من طاعة هؤلاء الرؤساء، فإنهم رؤساء الشر، ودعاة النار،

---

[1] الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي (٨-٩).

وأنهم لابد أن تتقطع نفوسهم على ما عملوه وقدموه حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول ﷺ ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأنَّ مودتهم وصداقتهم وموالاتهم ستتبدَّل بغضاً وعداوة، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[البقرة:١٦٥-١٦٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٦٧-٦٨].

ويدعوهم أيضاً: بنحو ما يدعو المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأنَّه المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة؛ الذي تجب على العباد طاعته، وامتثال أمره واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضاً: بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، ويقارن بينها وبين دين الإسلام، ليتبيَّن ويتَّضح ما يجب إيثاره، وما يتعين اختياره، ويدعوهم بالتي هي أحسن، فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعَّدهم بالعقوبات الصوارم، وبين للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد.

ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى، وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم وختم عليها، وسد عليهم طريق الهدى عقوبة لهم على إعراضهم وتوليهم الشيطان، وإعراضهم عن الرحمن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم، في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ

﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٥-١١٦]، ونحوها كثير، إذ هذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، لمن تأمَّلها، وتدبَّر القرآن، وجدها واضحة جلية[١].

وقد جاءت مجادلة المبطلين بالتي هي أحسن في القرآن؛ لدعوتهم وإقناعهم بالإسلام، في نحو قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[النحل:١٢٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٧٤هـ): (أي: من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن؛ برفق، ولين، وحسن خطاب)[٢].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٦هـ): (فإن كان المدعوّ يرى أنَّ ما هو عليه حق، أو كان داعيه إلى الباطل، فيجادَل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً، ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقدها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وألا تؤدي المجادلة إلى خصام، أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق، لا المغالبة ونحوها)[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

---

[١] انظر: القواعد الحسان (٣٠-٣١).

[٢] تفسير ابن كثير (٤/ ٦١٣).

[٣] تيسير الكريم الرحمن (٤٥٢).

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٥٠هـ): (﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ﴾ أي: إلا بالخصلة التي هي أحسن، وذلك على سبيل الدعاء لهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاء إجابتهم إلى الإسلام، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بأن أفرطوا في المجادلة، ولم يتأدَّبوا مع المسلمين، فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشين في مجادلتهم)[١].

"ولما كانت المحاجة لا تنفع إلا مع العدل، فالظالم ليس علينا أن نجادله بالتي هي أحسن"[٢].

ومن تدبَّر القرآن، وجد أنَّ معظم القضايا التي جادل القرآن فيها أهل الكتاب لا تخرج عن توحيد الله وعبادته، وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ والإيمان به.

والأصل في باب مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن هو قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

فتكون دعوتهم ومجادلتهم: "بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، وردٍّ عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وألا يكون القصد منها مجرَّد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق"[٣].

ومن ذلك: عدم تكذيب ما عندهم لمجرَّد كونه من كتبهم، بل يجب السكوت عنه، بدون تصديق أو تكذيب.

ومن ذلك: عدم تفضيل نبينا محمد ﷺ على أنبيائهم ع على وجه الحمية والعصبية.

---

(١) فتح القدير (٤/ ٢٣٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١٠٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦٣٢).

ومنه: أن ينزل خطاب كل طائفة منهم على ما يقتضيه فقه الواقع، ومعرفة المجادل، أو المحاور بأحوالهم، إذْ إنهم: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً﴾[آل عمران:١١٣]، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام:٥٥]، فيفوِّت من الإحسان في جدالهم على قدر تفريط المجادِل في العلم بالحق، ومعرفة تفصيل الآيات، ضعف استبانة سبيل المجرمين وما هم عليه من الضلال المبين.

وقد جاء القرآن بطريقة مثلى في الحجاج والمجادلة مع أهل الأديان الباطلة، فمن تأمَّل الطرق التي نصب الله المحاجَّة بها مع المبطلين على أيدي رسله؛ رآها من أوضح الحجج وأقواها، وأقومِها وأدلِّها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، على وجه لا تشويش فيه ولا إزعاج.

ومن تأمَّل محاجة الرسل مع أممهم، وكيف دعَوْهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، من جهة أنه المتفرِّد بالربوبية، والمتوحِّد بالنِّعم، وهو الذي أعطاهم العافية، والأسماع والأبصار، والعقول والأرزاق، وسائر أصناف النعم، كما أنه المنفرد بدفع النقم، وأنَّ أحداً من الخلق ليس يقدر على رفعٍ ولا دفع، ولا ضرٍّ ولا نفع، فإنه بمجرَّد معرفة العبد ذلك واعترافه به؛ لابد أن ينقاد للدين الحق، الذي به تتمُّ النعمة، وهو الطريق الوحيد لشكرها.

وكثيراً ما يحتجُّ على المشركين في شِرْكِهم وعبادتهم لآلهتهم من دون ربهم بإلزامهم باعترافهم بربوبيته، وأنه الخالق لكل شيء، والرازق لكل شيء، فيتعيَّن أن يكون هو المعبود وحده، وبهذا البرهان؛ ينتقل الذهن منه بأول وهلة إلى وجوب عبادة من هذا شأنه، ذلك أنَّ آثار ربوبيته تنادي بوجوب الإخلاص له.

ويجادل القرآن المبطلين أيضاً: بذكر عيب آلهتهم، وأنها ناقصة من كلِّ وجه، لا تغني عن نفسها فضلاً عن عابديها شيئاً.

ويقيم الأدلة على أهل الكتاب بأنَّ لهم من سوابق المخالفات لرسلهم ما لا يستغرب معه مخالفتهم لرسوله الخاتم محمد ﷺ، الذي جاء مصدقاً لما سبقه من الرسالات التي مقصدها جميعاً واحد، وهو فكُّ أغلال التقليد عن قلوب بني آدم لينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وأفئدتهم بالتفكُّر في آيات ربهم، فيعرفوا بذلك أنه الإله الحق، وأنَّ كلَّ ما اتخذه الناس بوحي شياطين الإنس والجن من آلهة، فلا يخرج شيء منها عن أن يكون أثراً من آثار هذه الآيات، وأنها لذلك لا تليق بأي وجه لمشاركة ربها وخالقها في الإلهية، ولا ينبغي أن تعطى إلا حقها في المخلوقية والعبودية، وأنَّ الخالق الذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾هو المستحق لكلِّ أنواع العبادة، وألا يعبد إلا بما أحبَّ وشرع.

وينقض على رؤساء المشركين، ودعاة الباطل؛ دعاويهم الباطلة، وتزكيتهم لأنفسهم بالزور، ببيان ما يضاد ذلك من أحوالهم وأوصافهم، ويجادلهم بتوضيح الحق وبيان براهينه، وأنَّ صدقه وحقيقتَه تدفع بمجرَّدها جميع الشبه المعارضة له: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس:٣٢]، وهذا الأصل في القرآن كثير، فإنه يفيد في الدعوة للحق، وردَّ كل باطل ينافيه.

ويجادلهم بوجوب تنزيل الأمور منازلها، وأنه لا يليق أن يجعل للمخلوق العبد الفقير العاجز من كل وجه؛ شيئاً من حقوق الرب الخالق الغني الكامل من جميع الوجوه.

ويتحداهم أن يأتوا بكتاب أو شريعة أهدى وأحسن من هذا الكتاب، ومن هذه الشريعة، وأن يعارضوا القرآن فيأتوا بمثله إن كانوا صادقين في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[البقرة:٢٣].

ويأمر نبيَّه بمباهلة من ظهرت مكابرته وعناده فينكِصون عنها، لعلمهم أنه رسول الله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى وأنهم لو باهلوه لهلكوا، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٥٩-٦١].

وفي الجملة لا تجد طريقاً نافعاً فيه إحقاق الحق، وإبطال الباطل؛ إلا وقد رسمه القرآن على أكمل الوجوه[1].

ومعرفة هذا المفهوم للمتدبِّر، يعينه على معرفة أساليب القرآن في المحاجة والمجادلة مع المخالفين، ويعرِّفه الطريق الصحيح في حوار أهل الكتاب وغيرهم من المبطلين، ونقض شبهاتهم، ودمغ حججهم، بأسلوب حكيم، ومنهج سليم.

ومن أمثلة إعمال ذلك:

في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤].

جاء أسلوب التشكيك، للتلطُّف بالخصم المعاند حتى لا يلجَّ في العناد، ولا يفكِّر في الأمر الذي يجادل فيه، وهذه غاية النصفة والاعتدال، والأدب في الجدال، أن يقول رسول الله ﷺ للمشركين: إنَّ أحدنا لا بدَّ أن يكون على هدى، والآخر لا بد أن يكون على ضلال، ثم يدعُ تحديد المهتدي منهما والضال ليثير التدبُّر والتفكُّر في هدوء لا تغشى عليه العزة بالإثم، والرغبة في الجدال، فإنما هو ﷺ هاد ومعلِّم، يبتغي هداهم وإرشادهم لا إذلالهم وإفحامهم لمجرَّد الإذلال والإفحام، والجدلُ على هذا النحو الراقي أقرب إلى قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام، المستكبرين على الإذعان والاستسلام، وأجدر بأن يثير التدبُّر الهادئ والاقتناع العميق، وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي تدبُّره.

ثمَّ قال سبحانه: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٢٥].

---

[1] انظر: القواعد الحسان (٤١-٤٢).

فلكلٍّ عمله وتبعته وجزاؤه، فهي دعوة لكلِّ أحد أن يتدبَّر موقفه، ويرى إن كان يقوده إلى فلاح أو إلى بوار، وبهذا الخطاب الحكيم، يوقظهم الله إلى التأمل والتدبُّر والتفكُّر، وهذه هي الخطوة الأولى في رؤية الحق، ثمَّ الاقتناع[1].

- المطلب السادس: إذا أراد الله إظهار الكمال قرنه بضدّه:

فإذا أراد الله إظهار كمال أيَّ أمر، قرنه بضدِّه ليتَّضح، وتُعرف قيمته.

ففضيلة الشيء تعرَف بضده[2]، كما قال المتنبي:

ونَذيمُهُمْ[3] وبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ ... وبِضِدّها تَتَبَيَّنُ الأشْياءُ[4]

وقال الآخر:

ضِدانِ لما استُجْمِعا حَسُنا ... والضِّدُّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ[5]

فالله خلق أحد الضدين من كمال حسن ضدِّه، فإن الضدَّ إنما يظهر حسنه بضدِّه، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى.

وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه، فإنه خالق الأضداد؛ كالسماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والماء والنار، والحر والبرد، والطيب والخبيث، يظهر كمال قدرته بهذا الخلْق، وهو من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه[6].

---

[1] انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٠٥).

[2] انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٨٧).

[3] **نذيمُهم**= أي نعيبهم، من الذمِّ، وهو اللوم في الإساءة. انظر: تهذيب اللغة (١٤/ ٢٩٨) باب الذال والميم.

[4] ديوان المتنبي (١٢٧).

[5] القصيدة اليتيمة (٣٠)، واختلف في قائلها، بما لا يظهر معه ترجيح نسبة لأحد معيَّن، فقيل عنها: القصيدة التي لا يُعرف قائلها.

[6] انظر: شفاء العليل (٢٣٧).

ويأتي هذا الاقتران في القرآن، في حالات منها:

الأولى: إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة؛ أراهم نقصها في غيرهم من المستعدِّين للكمال، وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن، منها:

- لما أراد الله إظهار شرَف آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على الملائكة بالعلم، وعلَّمه أسماء كلِّ شيء، ثمَّ امتحن الملائكة فعجزوا عن معرفتها، فحينئذ نبأهم آدم بها، فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

- لما أراد الله إظهار شرَف يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في سعَة العلم والتعبير؛ رأى المَلِكَ تلك الرؤيا، وعرضها على كلِّ من له علم بها ومعرفة؛ فعجزوا عن معرفتها، ثمَّ بعد ذلك عَبَّرها يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

- ولما عارض فرعون الآيات التي أُرسل بها موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وزعم أنه سيأتي بسِحر يغلبه، فجمع كل سحَّار عليم من جميع أنحاء مملكته، واجتمع الناس في يوم عيدهم وألقى السحرة عصيهم وحبالهم في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السحر: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦]، فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيّهم، فظهرت هذه الآية الكبرى، وكان السحرة أهل الصنعة؛ هم أول من خضع لها ظاهراً وباطناً.

- ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبي ﷺ، وتمالأ عليه أعداؤه، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به، نصره الله ذلك النصر العجيب، فإنَّ نصر المنفرد الذي أحاط به عدوه، الشديد حَرْدُه[1]، القويِّ مكرُه، الذي جمع كلَّ كيده ليوقع به أشدَّ الأخذات، وأعظم النكبات، وتخلُّصه وانفراج الأمر له، من أعظم أنواع النصر.

---

(١) **الحرْد**= الْغَضَب، يُقَالُ: حَرِدَ الرَّجُلُ غَضِبَ حَرْدًا، بِسُكُونِ الرَّاءِ وتحريكها خطأ. انظر: جمهرة اللغة (١/ ٥٠١)، مقاييس اللغة (٢/ ٥١) مادة: حرد.

كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

- وقريب من هذا نصره له يوم حنين، حيث أعجبت المسلمين كثرتهم، فلم تغن عنهم شيئاً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثمَّ ولَّوا مدبرين، وثبَّت الله نبيه ﷺ، فأنزل عليه سكينته ونصره في هذه الحال الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبَّر عنه.

الثانية: ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتدَّ البأس، وكاد أن يستولي على النفوس اليأس، أنزل الله فرجه ونصره ليصير لذلك موقع في القلوب وليعرف العباد ألطاف علام الغيوب.

- ويقارب هذا: إنزاله الغيث على العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليهم لمبلسين، فيحصل من آثار نعمة الله والاستبشار بفضله، ما يملأ القلوب حمداً وشكراً وثناء على الباري تعالى.

- وكذلك يذكرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدها، كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾[الأنعام: ٤٦]، وقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

- ونلمح مثل هذا المعنى في قصة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وبنيه: حين اشتدَّت بهم الأزمة، ودخلوا على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقالوا: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾[يوسف:٨٨]، ثم بعد قليل قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾[يوسف:٩٩]، في تلك النعمة الواسعة، والعيش الرغيد، والعزِّ المكين، والجاه العريض، فتبارَك من لا يدرِك العباد من ألطافه ودقيق برِّه أقل القليل.

- ويناسب هذا من ألطاف الباري: أنَّ الله يذكِّر عباده أثناء المصائب ما يقابلها من النعم، لئلا تسترسل النفوس في الجزَع، فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفت عليها المصائب، وهان عليها حملها، كما ذكّر الله المؤمنين حين أصيبوا بأحد ما أصابوا من المشركين ببدر، فقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[آل عمران:١٦٥]، وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أحد: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[آل عمران:١٢٣].

- وكذلك يبشر الله عبده بالمخرج منها حين تباشره المصائب، ليكون هذا الرجاء مخففاً لما نزل به من البلاء، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[يوسف:١٥]، وكذلك رؤيا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ كان يعقوب إذا ذكرها رجاء الفرج، وهبَّ على قلبه نسيم الرجاء، ولهذا قال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٧].

- وكذلك قول الله سبحانه لأم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[القصص:٧].

- وأعظم من هذا كله: أنَّ وعد الله لرسله بالنصر، وبتمام الأمر، وحسن العاقبة؛ يهوِّن عليهم به المشقات، ويسهِّل عليهم الكريهات، فيتلقوها بقلوب مطمئنة، وصدور منشرحة،

وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، ولكن أكثر الناس لا يفقهون[1].

الثالثة: إذا أراد الله إظهار حال المؤمنين ورفعة شأنهم في الآخرة؛ قابل ذلك بالإشارة إلى أحوالهم في الدنيا.

ومن أمثلة ذلك: أنَّ الله سبحانه قابَل: بين ما قاله الكفار فى أعدائهم فى الدنيا وسخروا به منهم، بضده فى القيامة، فإنَّ الكفار كانوا إذا مرَّ بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين:٣٢]، فقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطففين:٣٤]، مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم[2]، ومثل هذا في القرآن كثير.

والمقصود: أنَّ معرفة هذا من أعظم الأمور المعينة على التدبُّر، وإعمال الذهن فيه.

ومن أمثلة إعماله: عند تدبُّر قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].

فيها بيان كمال رحمة الله التي يفتحها لعباده، إذ قابلها سبحانه بالإمساك.

وحين تستقرُّ هذه الصورة في قلب بشري؛ يتحوَّل تحولاً كاملاً في تصوراته ومشاعره، واتجاهاته وموازينه، وقيمه في هذه الحياة.

إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السماوات والأرض وتصله بقوة الله، وتيئسه من مظنة كل رحمة في السماوات والأرض وتصله برحمة الله، وتوصد أمامه كل باب في السماوات والأرض وتفتح أمامه باب الله، وتغلق في وجهه كل طريق في السماوات والأرض وتشرع له طريقه إلى الله.

ورحمة الله، تتمثل في مظاهر لا يحصيها العدُّ، ويعجز الإنسان عن تسجيلها في ذات نفسه

---

[1] انظر: القواعد الحسان (١٤٣-١٤٥).

[2] انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٣٢).

وتكوينه، وتكريمه بما كرمه، وفيما سخر له من حوله، ومن فوقه ومن تحته، وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه، وهو كثير.

ورحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوع، ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حال، وفي كل مكان، ويجدها في نفسه، وفي مشاعره، وحيثما كان، وكيفما كان.

ولو فقد كلَّ شيء مما يعد الناس فقده هو الحرمان، ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء، وفي كل وضع، وفي كل حالة، وفي كل مكان، ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان، وما من نعمة- يمسك الله معها رحمته- حتى تنقلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة- تحفها رحمة الله- حتى تكون هي بذاتها نعمة، فمن داخل النفس برحمة الله تتفجّر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة، ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة...، ومن رحمة الله أن تحسَّ برحمة الله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

ورحمة الله لا تعزُّ على طالب في أي مكان ولا في أي حال، وجدها إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في النار، ووجدها يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الجبِّ كما وجدها في السجن، ووجدها يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، ووجدها موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في اليمِّ وهو طفل، ووجدها كل من آوى إليها يأساً من كل ما سواها، منقطعاً عن كلِّ شبهة في قوة، وعن كلِّ مظنة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب.

وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام[1]، فالحمد لله.

---

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٢١-٢٩٢٣) بتصرف كثير، وقد آثرت نقل هذا الكلام مع طوله؛ لعظيم فائدته، إذ هو تدبُّر تطبيقي عميق في الآية، وقد تصرفت فيه لطوله.

- المطلب السابع: حثَّ القرآن على التوسُّط والاعتدال، وذمَّ الغلو والتقصير:

القرآن يرشد إلى التوسُّط والاعتدال، وذمُّ التقصير والغلو، ومجاوزة الحد في كل الأمور، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[البقرة:١٤٣]، وقوله: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾[الأعراف:٢٩]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل:٩٠]، وغيرها من الآيات.

والعدل في كلِّ الأمور: هو لزوم الحدِّ فيها، وألا يغلو ويتجاوز الحد، كما لا يقصِّر، ويدع بعض الحق.

ويراد بالتوسط: "القصد المصون عن الإفراط والتّفريط"[1].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٦٠٦هـ) مبيِّناً أفضليَّة التّوسّط: (كلُّ خصلة محمودة فلها طرفان مذمومان: فإنَّ السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنَّب كل وصف مذموم، وتجنبه بالتعري منه، والبعد عنه، فكلما ازداد منه بعداً ازداد منه تعرياً، وأبعد الجهات والمقادير والمعاني من كلِّ طرفين وسطهما، وهو غاية البعد عنهما، فإذا كان في الوسط فقد بعد عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان)[2].

ويكون التوسُّط بموافقة الشرع في الكمية والكيفية، فالقرآن يأمر بالاعتدال في الأمور دون زيادة أو نقصان، وذلك في كلِّ شيء.

ففي عبادة الله أمر بالتمسك بما كان عليه النبي ﷺ في آيات كثيرة، ونهي عن مجاوزة ذلك، وتعدي الحدود، وذمِّ المقصِّرين عنه في آيات كثيرة.

---

(١) المفردات في غريب القرآن (٨٦٩).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٨٤).

فالعبادة التي أمر الله بها ما جمعت الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ، فإذا خلت من الأمرين أو أحدهما فهي لاغية.

وفي حق الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ: أمر بالاعتدال؛ وهو الإيمان بهم، ومحبتهم المقدمة على محبَّة الخلق، وتوقيرهم واتباعهم، ومعرفة أقدارهم ومراتبهم التي أكرمهم الله بها، ونهى في آيات كثيرة عن الغلو فيهم؛ وهو أن يُرفعوا فوق منزلتهم التي أنزلهم الله، ويجعل لهم من حقوق الله التي لا يشاركه فيها مشارك شيء، كما نهى عن التقصير في حقهم بتكذيبهم أو ترك محبتهم وتوقيرهم أوعدم اتباعهم، وذمَّ الغالين فيهم كالنصارى ونحوهم في عيسى، كما ذمَّ الجافين لهم كاليهود حين قالوا في عيسى ما قالوا، وذمَّ من فرق بينهم فآمن ببعض دون بعض، وأخبر أنَّ هذا كفرٌ بجميعهم، في نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾[النساء:١٧١]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[المائدة:٧٧].

وكذلك يتعلَّق هذا الأمر في حقِّ العلماء والأولياء؛ فتجب محبَّتهم ومعرفة أقدارهم، ولا يحلُّ الغلو فيهم، وإعطاؤهم شيئاً من حقِّ الله، وحقِّ رسوله الخالص، ولا يحلُّ جفاؤهم ولا عداوتهم، فمن عادى لله ولياً فقد بارزه بالحرب[1].

وأمر بالتوسُّط في النفقات والصدقات، ونهى عن الإمساك والتقصير والبخل، كما نهى عن الإسراف والتبذير، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾[الإسراء:٢٩].

---

(١) لحديث أبي هريرة عند البخاري، عن رَسُولُ اللهِّ ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَّ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ... »، وسبق تخريجه.

وأمر بالقوة والشجاعة بالأقوال والأفعال، ونهى عن الجبن، وذم الجبناء وأهل الخور وضعفاء النفوس، كما ذمَّ المتهورين الذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة.

وأمر وحثَّ على الصبر في آيات كثيرة، ونهى عن الجزع والهلع والتسخط، كما نهى عن التجبر والقسوة وعدم الرحمة في آيات كثيرة.

وأمر بأداء الحقوق لكل من له حق عليك: من الوالدين والأقارب والأصحاب ونحوهم والإحسان إليهم قولا وفعلاً، وذمَّ من قصر في حقهم أو أساء إليهم قولاً وفعلاً، كما ذم من غلا فيهم وفي غيرهم حتى قدم رضاهم على رضا الله وطاعتهم على طاعة الله.

وأمرنا بالاقتصاد في الأكل والشرب واللباس، ونهى عن السرف والترف، كما نهى عن التقصير الضار بالقلب والبدن.

وبالجملة فما أمر الله بشيء إلا كان بين خلقين ذميمين: تفريط وإفراط[(١)].

و"إنّ الصّراط المستقيم الّذي وصّانا الله به وباتّباعه هو الصّراط الّذي كان عليه رسول الله ﷺ، وأصحابه، وهو قصد السَّبيل، وما خرج عنه فهو من السّبل الجائرة، والجائرُ عنه؛ إمّا مفرّط ظالم، أو مجتهد متأوِّل، أو مقلِّد جاهل، وكلّ ذلك قد نهى الله عنه، فلم يبق إلّا الاقتصاد، والاعتصام بالسّنّة، وعليهما مدار الدّين"[(٢)].

ومعرفة هذا المفهوم من الأمور المعينة للمتدبِّر في تمييز القرآن، ومعرفة منهجه المعتدل، فلا يجنح المتدبِّر بفهمه واستنباطاته عن المقصود، إذا عرف منهج القرآن الوسط المعتدل.

ومن أمثلة إعمال هذا المعنى:

في قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [هود:١١٢]، فلما كانت الاستقامة هي التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط؛ نهى عن الإفراط

---

(١) انظر: القواعد الحسان (٧٢-٧٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦).

بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي: لا تتجاوزوا الحد فيما أمرتم به أو نهيتم عنه بالزيادة إفراطاً، ولما نهى تعالى عن الإفراط بالزيادة تصريحاً؛ أفهم النهي عن التفريط وهو النقص عن المأمور تلويحاً من باب أولى[1].

ومن الأمثلة أيضاً: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد:١٧]، يستفاد منها عند التدبُّر: أنه لما كان الإنسان لا بد أن يعرِض له من غيره من الخلاف ما يوجب قسوته عليه؛ كانت الرحمة من ثمرات الاصطبار المثمر للعدالة، وهي التوسط بين مذمتي الإفراط والتفريط في الفسق والبله، فقال سبحانه مؤكداً بإعادة العامل إشارة إلى قلة العاملين بها: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ أي الرحمة العظيمة بحسب زمانها ومكانها، بأن يوطنوا أنفسهم على كلِّ ما يحمل على الرحمة العظيمة[2]، والله أعلم.

- المطلب الثامن: جعل الله أسباب المطالب العالية مبشرات؛ لتطمين القلوب وزيادة الإيمان:

من حكمة الله تعالى ورحمته أنه جعل العباد مفتقرين إلى جلب المنافع الدينية والدنيوية، وإلى دفع المضار الدينية والدنيوية، فاقتضت حكمته وسنته التي لا تتبدل أن هذه المنافع المتنوعة -وخصوصاً الأمور العظام- لا تحصل إلا بالسعي بأسبابها الموصلة إليها، وكذلك لا تندفع المضار إلا بالسعي بالأسباب التي تدفعها، وقد بين في كتابه غاية التبيين هذه الأسباب، وأرشد العباد إليها، فمن سلكها فاز بالمطلوب، ونجا من كل مرهوب[3].

وقد جاء هذا في مواضع كثيرة من كتابه، فمن ذلك: قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في إنزال الملائكة بالنصر: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾[الأنفال:١٠].

---

(١) انظر: السراج المنير للخطيب الشربيني (٢/ ٨٢).

(٢) انظر: نظم الدرر (٢٢/ ٦٦).

(٣) انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (٣٤٦).

وقال في أسباب الرزق ونزول المطر: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[الروم:٤٦].

وأعمُّ من ذلك كلِّه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[يونس:٦٢-٦٤]، وهي كلُّ دليل وعلامة تدلُّهم على أنَّ الله قد أراد بهم الخير، وأنهم من أوليائه وصفوته، فيدخل فيه الثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، ويدخل فيه ما يشاهدونه من اللطف والتوفيق، والتيسير لليسرى، وتجنيبهم العسرى؛ لأنَّ الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[الليل:٥-٧]، ويقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[الطلاق:٤]، فإذا تيسَّرت الأمور للعبد وتسهَّلت، وكان من أهل الإيمان، فهذه من عاجل بشرى المؤمن، وإن كان بعكس ذلك، وكان مقيماً على معصية الله، والإعراض عنه؛ فربَّما كانت استدراجاً من الله، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الأعراف:١٨٢].

ومن جميل ذلك: أنه يجعل الشدائد مبشِّرة بالفرج، والعسر مؤذناً باليسر: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾[الشرح:٥-٦]، ومن تأمَّل ما قصَّه الله عن أنبيائه وأصفيائه، وكيف لما اشتدت بهم الحال، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة:٢١٤]، فجاءهم من الفرج والنَّصر والخير؛ العجب العجاب[١].

---

[١] انظر: القواعد الحسان للسعدي (٤٦).

ومن أمثلة ذلك أيضاً: أنَّ الله جعل القيام بالعبودية والتوكل سبباً لكفاية الله للعبد جميع مطالبه، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، أي: بمن يقوم بعبوديته ظاهراً وباطناً.

وجعل الله التقوى والصبر سببا للرزق، والبصيرة في تمييز الأمور، شاهده قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٩٠]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢ – ٣].

وجعل الله الصبر سببا وآلة تدرك بها الخيرات، ويستدفع بها الكريهات، شاهده الآية السابقة، وقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة:٤٥]، أي: على جميع أموركم.

وجعل الله القرآن مفتاحاً للعلم وسبل الخير كله، شاهده قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة:١٦].

وجعل جزاء من جاهد نفسه ومنعها من الحرام؛ هداية في قلبه، وانشراحاً في صدره، لقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

وجعل الله كمال إخلاص العبد لربه سبباً يدفع به عنه المعاصي وأسبابها وأنواع الفتن، شاهده قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

وجعل الله الإنفاق في محلِّه سبباً للخلْف العاجل، والثواب الآجل، شاهده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ:٣٩][1].

---

[1] انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن (٣٤٦-٣٥٤).

والحاصل: أنَّ فهم هذا المعنى معين للمتدبِّر؛ آخذ بيده نحو فهم القرآن، وتدبُّره التدبُّر الأمثل.

ومن أمثلة إعماله: يستفاد عند تدبُّر قول الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]: أنَّه لما كان الذكر من المطالب العالية، لما يحققه من اتِّصال العبد بربِّه على الدوام، رتَّب الله عليه البشرى بأنَّ قلوب الذاكرين تطمئن وتسكُن بذكر الله، فتحصل الطمأنينة بذكر الوعد والثواب، والوجل: عند ذكر الوعيد والعقاب، فَكَأَنَّهَا توجل إِذا ذكر عدل الله وَشدَّة حسابه، وتطمئن إِذا ذكر فضل الله وَكَرمه[1].

والأمثلة على ذلك كثير، والله أعلم.

- المطلب التاسع: يبيّن القرآن كثيراً أنَّ الأجر على قدر المشقة في طريق العبادة، ويبين مع ذلك أنَّ تسهيله لطريق العبادة من منته وإحسانه، وأنها لا تنقص من الأجر شيئًا:

وهذا المعنى مرتبط بما قبله، وفيه بيان شيء من لطف الله وإحسانه بالعباد، وحكمته الواسعة؛ ما هو أثر عظيم من آثار تعريفاته، وأنه أرحم الراحمين، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١٦]، فبيَّن تعالى أن هذه العبادة العظيمة لعظم مصلحتها وكثرة فوائدها العامة والخاصة أنه فرضها على العباد وإن شقَّت عليهم وكرهتها نفوسهم لما فيها من التعرض للأخطار وتلف النفوس والأموال، لكن هذه المشقات بالنسبة إلى ما تفضي إليه من الكرامات ليست بشر بل هي خير محض وإحسان صرف من الله على عباده، حيث قيَّض لهم هذه العبادة التي توصلهم إلى منازل لولاها لم يكونوا واصليها، قال تعالى: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ

---

[1] انظر: تفسير السمعاني (٣/ ٩٢)، كشف المعاني (١٩٠).

ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾[النساء:١٠٤]، وقال: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[الزمر:١٠].

فكلَّما عظمت مشقة الصبر في فعل الطاعات، وفي ترك المحرمات لقوة الداعي إليها، وفي الصبر على المصيبات لشدة وقعها، كان الأجر أعظم والثواب أكبر، قال تعالى في بيان لطفه في تسهيل العبادة الشاقة: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأنفال:١١-١٢].

فذكر منته على المؤمنين بتيسيره وتقديره لهذه الأمور التي يسَّر بها العبادة، مزيلة محصلة لثمراتها.

وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل:٩٧]، ومن الحياة الطيبة التي يرزقونها: ذوقُ حلاوة الطاعات، واستعذاب المشقات في رضا الله تعالى، فهذه الأحوال كلها خير للمؤمن، إن سهل الله له طريق العبادة وهونها حَمِدَ اللهَ وشكره، وإن قامت العقبات صبر في اقتحامها، واحتسب الخير في عنائه وجهاده، ورجا عظيم الثواب، وهذا المعنى في القرآن في آيات متعددة[1]، والله أعلم.

---

[1] انظر: القواعد الحسان (١٣٢-١٣٣).

- المطلب العاشر: إذا منع الله عباده شيئًا تتعلق به إرادتهم، فتح لهم باباً أنفع لهم منه وأسهل وأولى، وعرَّفهم بما يترتب على فعلهم أو تركهم من نفع أو ضرر، وأنَّ الجزاء من جنس العمل:

وهذا من لطفه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وكرمه ورحمته، أنَّه إذا منع عباده شيئاً تتشوق له نفوسهم، وتتعلَّق به إرادتهم، فتح لهم من الخير باباً أنفع منه وأولى لمصلحتهم، فهو العليم الحكيم، يعلم ما يصلُح لعباده، وما يضرُّهم: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤].

وقد نهى سبحانه عباده عن تمني ما ليس بنافع، وفتَح لهم أبواب الفضل والإحسان، وأمرهم أن يسألوه بلسان الحال، في قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾[النساء:٣٢].

وحين سأل موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ربَّه الرؤية لما سمع كلامه، ومنعه منها، سلّاه بلسان المقال بما أعطاه من الخير العظيم، فقال: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [النساء:١٣٠].

وفي هذا المعنى آيات كثيرة[١].

فمن رحمة الله وحكمته سبحانه، أن يبيِّن للعباد ويذكِّرهم بما يترتَّب على الفعل من مصلحة عاجلة أو آجلة، وما يترتَّب على الوقوع في المنهي عنه كذلك.

وعند ميل النفوس أو خوف ميلها إلى ما لا ينبغي، يذكِّرها الله ما يفوتها من الخير، وما يحصل لها من الضرر بهذا الميل.

---

(١) انظر: القواعد الحسان للسعدي (١٢٤).

وهذا من أنفع الأشياء في حصول الاستقامة، لأنَّ الأمر بالمعروف والنهيَ المجرَّد؛ لا يكفي أكثر الخلق في كفِّهم عما لا ينبغي، حتى يقرن بذلك ما يفوِّت من المحبوبات التي تزيد أضعافاً مضاعفة على الذي يكرهه الله، وتميل إليه النفس، وما يحصل من المكروه المرتَّب عليه كذلك.

قال تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾[الأنفال:٢٨]، فلما ذكر فتنة الأموال والأولاد التي مالت بأكثر الخلق عن طريق الاستقامة، قال مذكِّراً لهم ما يفوتهم إن افتتنوا بها، وما يحصل لهم إن سلموا من فتنتها: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾[الأنفال:٢٨].

وقال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴾ [النساء:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥- ٢٠٧].

والآيات في هذا المعنى الجليل كثيرة جداً، فإذا بان للناظر أصلها وقاعدتها؛ سهُل عليه تنزيل كلّ ما يرد منها على الأصل المقرر[1].

ومن فضل الله على العباد أيضاً بعد ذلك: أنَّ من جاهد نفسه امتثالاً لله، فترك الأمر الذي منعه الله منه ابتغاء الأجر من الله، وخوفاً منه سبحانه؛ عوَّضه الله خيراً منه.

وأمثلة ذلك في القرآن كثيرة منها: ما ذكره الله عن المهاجرين الأولين الذين هجروا أوطانهم وأموالهم وأحبابهم لله، فعوَّضهم الله الرزق الواسع في الدنيا، والعزَّ والتمكين.

---

(١) انظر: القواعد الحسان (١١٨).

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما اعتزل قومه وأباه، وما يدعون من دون الله، وهب له إسحاق ويعقوب والذرية الصالحين.

ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ملك نفسه من الوقوع مع امرأة العزيز، مع ما كانت تمنّيه به من الحظوة، وقوة النفوذ في قصر العزيز ورياسته، وصبر على السجن، وأحبَّه، وطلبه ليبعده عن دائرة الفساد والفتنة؛ عوَّضه الله أن مكَّن له في الأرض: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف:٥٦- ٥٧]، ويستمتع بما شاء مما أحلَّ الله له من الأموال والنساء والسلطان.

وأهل الكهف لما اعتزلوا قومهم وما يعبدون من دون الله؛ نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم أسباب المرافق والراحة، وجعلهم سبباً لهداية الضالين.

ومريم ابنة عمران، لما أحصنت فرجها؛ أكرمها الله، ونفخ فيه من روحه، وجعلها وابنها آية للعالمين.

ومن ترك ما تهواه نفسه من الشهوات لله تعالى عوضه الله من محبته وعبادته والإنابة إليه ما يفوق لذات الدنيا كلها[1].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق العالم العلوي والعالم السفلي، وخلق الموت والحياة، وزين الأرض بما عليها للابتلاء والامتحان، ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً؛ من يكون عمله موافقاً لمحاب الرب تعالى، فيوافق الغاية التي خلق هو لها، وخلق لأجلها العالم، وهي عبوديته سبحانه المتضمنة لمحبته وطاعته، وامتحن خلقه بين أمره الشرعي وقدره الكوني، ليبلوهم أيهم أحسن عملاً كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧]، وقال سبحانه:

---

(١) انظر: القواعد الحسان (١٦٤).

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف:٧]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢].

قال أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ما من عبد ترك شيئا لله عَزَّوَجَلَّ؛ إلا أبدله الله به ما هو خير منه من حيث لا يحتسب، وما تهاون به عبد فأخذه من حيث لا يصلح؛ إلا أتاه الله ما هو أشد عليه منه حيث لا يحتسب)[1].

والحاصل: أنَّ هذا المعنى من أنفع المعاني لمتدبِّر كتاب الله؛ إذ يتدبَّر بها الأوامر والنواهي بقلب سليم، وفهم مستقيم، فيعود تدبُّره عليه بالنفع في قلبه وعمله، ويُرزق التوفيق والسداد، في قوله وفعله.

ومن أمثلة إعمال هذا المفهوم عند التدبُّر: في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور:٣٠]، يستفاد منها: أنَّ الله منع عباده عن النظر الحرام، وعوَّضهم بذلك نوراً في القلب، وصحَّة في الفراسة، وقد قال تعالى عقيب أمره للمؤمنين والمؤمنات بغض أبصارهم، وحفظ فروجهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور:٣٥]، وقال سبحانه أيضاً بعد ذِكر قصَّة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر:٧٥]، وهم المتفرِّسون الذين سلموا من النظر المحرَّم.

والسرُّ في ذلك: أنَّ الجزاء من جنس العمل؛ فمن غضَّ بصره عما حرم الله عَزَّوَجَلَّ عليه؛ عوَّضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات؛ أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره، ولم يغضَّه عن محارم الله تعالى[2]، والله أعلم.

---

(١) أخرجه عنه وكيع في كتاب الزهد (٦٣٥)، وهناد في الزهد (٢/ ٤٦٦)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٥٣).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٢٠)، إغاثة اللهفان (١/ ٤٨).

- المطلب الحادي عشـر: دلَّ القرآن في عدة آيات أنَّ من ترك ما ينفعه مع الإمكان ابتلى بالاشتغال بما يضره، وحُرم الأمرَ الأول:

حيث جاء في القرآن: أنَّ المشركين لما زهدوا في عبادة الرحمن ابتلوا بعبادة الأوثان، ولما استكبروا عن الانقياد للرسل، بزعمهم: أنهم بشر، ابتلوا بالانقياد لكل مارج العقل والدين، ولما عرض عليهم الإيمان أوَّل مرة فعرفوه، ثم تركوه، قلب الله قلوبهم، وطبع عليها وختم، فلا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولما بيَّن لهم الصراط المستقيم، وزاغوا عنه اختياراً، ورضى بطريق الغي على طريق الهدى والرشد، عوقبوا بأن أزاغ الله قلوبهم، وجعلهم حائرين في طريقهم.

ولما أهانوا آيات الله ورسله أهانهم الله بالعذاب المهين.

ولما استكبروا عن الانقياد للحق أذلهم في الدنيا والآخرة.

ولما منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وأخربوها: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[البقرة:١١٤].

ولما عاهدوا الله على الصدقة والخير إن رزقهم؛ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[التوبة:٧٥-٧٧].

والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، يخبر الله فيها أنَّ العبد كان قبل ذلك بصدد أن يهتدي الطريق المستقيم ثمَّ تركها بعد أن عرفها، وزهد فيها بعد أن سلكها؛ عوقب بإبعاده في طريق الضلالة الذي ارتضاه لنفسه، وترك به طريق الهدى.

فالاهتداء غير ممكن في حقه ما دام سادراً في طريق غوايته، ممعناً في سبيل ضلالته، جزاءً على فعله، كقوله في اليهود: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ [البقرة:١٠١-١٠٢]،

فإنهم لما تركوا اتباع كتب الله المنزلة من عنده لهداية العباد، وإصلاح شئونهم وإسعادهم، ابتلوا باتباع أرذلها وأخسئها وأضرها للعقول، وأفتكها في إفساد المجتمع، ولما ترك المحاربون لله ورسوله إنفاق أموالهم في طاعة الرحمن، ابتلاهم بإنفاقها في طاعة الشيطان[1].

نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى، ونسأله الثبات على الحق حتى نلقاه..

---

[1] انظر: القواعد الحسان (٩٦-٩٧).

الفصل الثاني

أدوات التدبر الصحيح لكتاب الله الكريم وطريقته

وفيه مبحثان :

* المبحث الأول: الأدوات المهمَّة للمتدبر.

* المبحث الثاني: المنهج الأمثل للتدبُّر .

المبحث الأول: الأدوات المهمّة للمتدبِّر

المقصود بأدوات التدبُّر: الجوارح التي تقوم بعملية التدبُّر، وتتحقق من خلالها السنن والوسائل لهذه العبادة الجليلة[1].

وهي: القلب، والسمع، والبصر، واللسان، وهي أدوات الإدراك الصحيح، التي متى صلُحت؛ صلُحت معها عملية التدبُّر، وتحققت على الوجه الأكمل، واستعمال هذه الأدوات في الحرام يضعِف الانتفاع بها في الحق، ويجعل حجُباً تحول بين المرء وبين قبول الحق، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت:٥]، فالحجاب على العين يمنع الرؤية، والوقر على الآذان يمنع السماع، والأكنَّة على القلوب تمنع الفهم.

وأدوات التدبُّر هي: السمع والبصر والقلب واللسان، فالسمع والبصر يحملان العلم إلى العقل الذي يقع في القلب، وما يترتَّب عليه من الفهم، وتقليب الفكر، حتى يصل إلى ما لا يمكنه إدراكه إلا بذلك.

ولذلك؛ جاءت الإشارة إلى الفؤاد بعد السمع والبصر، في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء:٣٦]، فالفؤاد هو الذي يربط العقل بالقلب، مما يعين على التفهُّم والتروي والوصول إلى الحكمة إن أحسن المرء استعماله، أو إلى الخلط وسوء الاستنتاج والغشاوة إن لم يحسن المرء ذلك.

وسواء كان للإنسان أذن تسمع، وعين ترى، أو لم يكن له، فإنه قد يكون سميعاً مبصراً متى كان له فؤاد يتفأت به أموره، وينظر فيها بشيء من التروي وحسن النظر، أما إذا فسد قلبه، أو تلف عقله، فإنه يخرج عن شروط الإنسان المكلَّف، فيسقط عنه التكليف، ولو كانت

---

[1] غالب من كتب في الأدوات – فيما وقفت عليه- كتبوا عن السنن أو الوسائل الموصلة إلى التدبُّر، وهي وإن كان ظاهرها التداخل، إلا أنَّ الذي يظهر بالتخصيص عند إفراد الأدوات، هو ما ذكرته، والله أعلم.

له أذن تسمع، وعين تنظر إلى الأشياء، ولذلك جاءت كلمة الفؤاد فى القرآن الكريم بعد السمع والبصر، بينما جاءت الإشارة إلى القلب بغير ترتيب ثابت.

وتعبير (الفؤاد) يشير إلى عدد من المعاني التي تدور حول العواطف والغرائز والأحاسيس، بينما تعبير (القلب) يشير إلى معاني العقل، والتفقه، وتقليب الفكر[(١)].

والعبد مسؤول عن استعمال حواسه، وما اكتسب بها، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[التكاثر:٨]: (النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يَسأل الله العباد فيم استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[الإسراء:٣٦])[(٢)].

والآية "دليل على أنَّ العلوم مستفادة من الحواس ومن العقول"[(٣)].

"وعبَّر عن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ بـ أُولئِكَ؛ لأنها حواس لها إدراك، وجعلها في هذه الآية مسؤولة، فهي حالة من يعقل"[(٤)].

"والله تعالى أعطى العبد السمع ليسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده، والقلب ليعقلها ويفقهها، والبصر ليرى آياته فيستدلَّ بها على وحدانيته وربوبيته. فالمقصود بإعطائه هذه الآلات؛ العلم وثمرته ومقتضاه"[(٥)][(٦)].

---

(١) انظر: بحث علمي للدكتور/ زغلول النجار منشور على شبكة الانترنت بعنوان: (خلْق حاستي السمع والبصر).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٥٨٢)، وذكره ابن أبي حاتم (١٠/ ٣٤٦٠) برقم: (١٩٤٦٠).

(٣) البحر المحيط لأبي حيان (٧/ ٤٨).

(٤) المحرر الوجيز (٣/ ٤٥٦)، وانظر: الجامع لأحكام القرآن(١٠/ ٢٦٠)، التسهيل لابن جزيٍّ (١/ ٤٤٦).

(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٧).

(٦) للاستزادة انظر بحث: وظائف الحواس في تدبر القرآن، د/ توفيق علي زبادي، عضو هيئة التدريس بالمركز العلمي الأول بجدة. بملتقى أهل التفسير.

وسيكون الكلام عن هذه الأدوات تفصيلاً بذكر كلِّ أداة، وما يعرِض لها، وما يُهيؤها للتدبُّر الأمثل الصحيح، وذلك في المطالب التالية:

- المطلب الأول: القلب:

قلب الإنسان: "قيل سمى به لكثرة تقلُّبه، ويعبَّر بالقلب عن المعاني التي تختص به؛ من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك"[١]، "ويعبَّر به في القرآن عن قوَّة الإدراك جملة، وليس هو هذه العضلة المعروفة بطبيعة الحال"[٢].

والقلب هو مكان الصلاح الأصيل، إن صلُح صلح سائر الجسد، وإن فسد فسد سائر الجسد، لقوله ﷺ: «...**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**»[٣].

"والقلب هو الملك والأعضاء جنوده، وإذا صلُح صلُحَ سائر الجسد، وإذا فسَد فسَد سائر الجسد، فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم"[٤].

وقد"خلق الله القلوب وجعلها محلاً لمعرفته ومحبته وإرادته فهي عرش المثل الأعلى الذي هو معرفته ومحبته وإرادته"[٥]، وهو أداة التدبُّر الأولى، ومحطُّ نظر الله سبحانه للعبد: «إِنَّ اللهَ

---

(١) المفردات في غريب القرآن (٦٨١).

(٢) في ظلال القرآن (١/ ٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٥٢) في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (١٥٩٩) في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧).

(٥) الفوائد لابن القيم (٢٧).

لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[1].

وهو أشرف الأعضاء لما فيه من العقل؛ بالمنع والإذن، وسرعة الخواطر، والتلوُّن والتقلب في الأحوال، وهو رئيس البدن المعوَّل عليه في صلاحه وفساده، وهو المتحكم والمسيطر، والآمر الناهي، ويستدلُّ من الحديث "على أنَّ العقل في القلب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[الحج:٤٦]"[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨].

والقلب"هو المخاطَب في الحقيقة لأنه موضع التمييز والاختبار، وأما سائر الأعضاء فمسخَّرة له"[3].

"فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب؛ فإن العين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات، فإن رأت شيئاً أدَّته إليه، ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها، فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه، كما أن اللسان ترجمانه المؤدي للسمع ما فيه،... وكذلك الأذن هي رسوله المؤدي إليه، وكذلك اللسان ترجمانه، وبالجملة: فسائر الأعضاء خدَمه وجنوده"[4].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٥٦٤) في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: فتح الباري لابن حجر (١/ ١٢٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٣٠).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ١٩٣).

والقلب إذا أحبَّ شيئاً تعلَّق به، واشتاق إليه، وشغف به، وانقطع عما سواه.

القلب أداة التدبُّر ومحلُّه:

فمحلُّ التدبُّر وأداته العظمي:"قلب العبد المتقي، المنيب إلى ربه، الخائف منه، الذي يبتغي رضاه، ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلى محل قابل، فيتأثر به، فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحلُّ قابلاً وصل إليه الهدى فلم يؤثِّر فيه، كما يصل الغذاء إلى محلٍّ غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئاً، بل لا يزيده إلا ضعفاً وفساداً إلى فساده، كما قال تعالى عن أحوال الناس عند نزل السورة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [التوبة:١٢٤- ١٢٥]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء:٨٢]، فتخلُّف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدى تارة، ولعدم فعل الفاعل، وهو الهادي تارة، ولا يحصل الهدى على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة"(١).

ومن وُفّقَ للتدبُّرِ، والعيشِ مع القرآن فقد أمسكَ بأعظم مفاتيحِ حياةِ القلب، كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (ومِفتاحُ حياةِ القلب تدبُّر القرآن)(٢).

ويتعاون القلب وجنوده في تدبُّر القرآن: فحظُّ اللسان الترتيل والتلاوة، وحظ الحنجرة تحسين الصوت، وحظُّ الأُذن الاستماع والإصغاء، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظُّ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار.

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٧١).

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٦٩).

والقلب هو أداة التدبُّر الأولى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[الأنفال:٢].

فالقرآن نزل على قلب النبي ﷺ -أفضل قلب في الدنيا-: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[الشعراء:١٩٣- ١٩٤]، ونسب إليه الإيمان والهداية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[التغابن:١١]؛ والله ألزم عباده بقيام الحجة عليهم؛ إذا توفرت القدرة على الإدراك، وعلى الفعل، فحاسب عباده بما منحهم من وسائل الإدراك وهي: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء:٣٦]، فامتنَّ على عباده في غير ما آية بأن منحهم القدرة على الإدراك، والاستعداد لقبول العلوم؛ وفهمها، وحفظها، ووعيها، واستذكارها متى احتاجوا إليها.

واقترن القرآن بالقلب في مواضع منها: قوله تعالى:﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة:٩٧]، وقوله:﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[ق:٣٧]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد:٢٤]، وغير ذلك.

وسرُّ هذا الاقتران -والله أعلم-: أنَّ القلب موضع العقل والعلم، وتلقِّي المعارف والواردات، وصحيفته التي يُرَقَم فيها، وخزانته التي يُحفظ فيها، وهو سلطان الجسد، وأوّل مدرك من الحواس الباطنة، وهو موضع التلقي، والذي يفقه بعد التلقي[1].

وفي قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، دليل على أنَّ القلوب المنغلقة الغليظة القاسية لا تتدبَّر الذِّكر الحكيم، ومفهوم المخالفة: أنَّ القلوب المنفتحة اللينة السليمة الخالية

[1] انظر: المحرر الوجيز (١/ ١٨٣)، مفاتيح الغيب (٢٤/ ٥٣٠)، الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣٦)، البحر المحيط لأبي حيان (١/ ٥١٣)، اللباب لابن عادل (٧٧٥)، الجواهر الحسان للثعالبي (١/ ٢٨٦)، فتح القدير للشوكاني (٤/ ١٣٥)، الظلال (١/ ٩٣).

من الأهواء والأمراض هي التي تتدبَّر القرآن، وهذا يتحقَّق بالصورة المثلى في قلوب الخلَّص من المؤمنين، وبذلك تكون تلك الآية قد نصَّت على أداة التدبُّر الحقيقي، ووسيلته الصحيحة، وهي القلوب المفتوحة لا الغليظة القاسية[1].

قال خالد بن مَعدان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٣هـ)[2]: (ما من آدميّ إلا وله أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وما يصلحه من معيشته، وعينان في قلبه لدينه، وما وعد الله من الغيب، فإذا أراد الله بعبد خيراً أبصرت عيناه اللتان في قلبه، وإذا أراد الله به غير ذلك طَمسَ عليهما، فذلك قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤])[3].

والقلوب أوعية فإذا امتلأت من الحق؛ ظهر نور ذلك على الجوارح، وإذا امتلأت من الباطل؛ ظهرت ظلمتها على الجوارح.

لذلك قال عبدالله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: (إنَّما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره)[4].

فهو إنْ كان سليماً، ليس فيه إلا محبة الله وخشيته، صلحت حركاتُ الجوارح كلّها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرَّمات كلها، وإنْ كان القلبُ فاسداً، واستولى عليه اتِّباعُ هواه، وطلب ما يحبُّه، ولو كرهه الله؛ فسدت حركاتُ الجوارح كلها، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتِّباع هوى القلب.

---

(١) انظر: التدبُّر حقيقته، د/ عبد الله سرحان (٣٩).

(٢) **خالد بن معدان** = بن أبي كرب، الإمام، شيخ أهل الشام، أبو عبد الله الكلاعي، الحمصي، حدث عن: خلق من الصحابة، معدود في أئمة الفقه، مات سنة ثلاث ومائة. انظر: مشاهير علماء الأمصار (١٨٣)، تهذيب الكمال (٨/ ١٦٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ١٧٩).

(٤) أخرجه عنه ابن الأعرابي في معجمه (١/ ٢٨٠) برقم: (٥٢٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ١٣١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٦) برقم: (٣٠٠١١).

وارتباط القلب بالسمع والبصر: "أشدُّ من ارتباطه بغيرهما، ووصول الغذاء منهما إليه أكمل، وأقوى من سائر الحواس، وانفعاله عنهما أشدُّ من انفعاله عن غيرهما، ولهذا تجد في القرآن اقترانه بهما أكثر من اقترانه بغيرهما، بل لا يكاد يقرن إلا بهما، أو بإحداهما"[1].

وسرُّ الاقتران: أنَّ هذه الثلاثة: هي طرق العلم وهي: السمع، والبصر، والعقل.

ومعيار الترتيب في السياق القرآني بين الحواس-السمع والبصر- كقوة إدراكية، وبين القلب؛ كان الأسبقية في الاتصال بالموضوع المدرك.

وفي سياق الذمِّ والعقاب؛ كان يحلُّ التعطيل أولاً على القلب، ثمَّ السمع ثمَّ البصر، وهذا في كلِّ الآيات التي جمعت فيها وسائل الإدراك.

فكان ترتيب الألفاظ عكسياً، حيث كان الطبع على مركز العمليات الإدراكية، ثم ذكر ما يليه في القوة الإدراكية تنازلياً السمع ثمُّ البصر.

وفي كل الآيات جمع القلب والسمع في صورة العقاب، فالطبع والختم كان لهما معاً، أما البصر فكان يختصُّ بالغشاوة والغطاء: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾[البقرة:٧]، وقال: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأعراف:١٠٠].

فالترتيب بين القلب والحواس على معيار القوَّة العلمية، والأهمية المعرفية، فخطورة الختم على القلب أشدُّ من خطورة الختْم على الحواس، ثمَّ الانتقال إلى أهم الحاستين السمع ثم البصر، فكان الترتيب بينهما كذلك على قدر العموم والشمول معرفياً، ففقدان السمع أشد ضرراً من فقدان البصر معرفياً؛ فالنقص في المعرفة المترتبة عن فقدان السمع أكثر وأكبر؛ من النقص الحاصل من فقدان البصر لدى الإنسان.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٣).

وقد قرن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين الصم والبكم والعمي في أكثر من موضع في كتابه؛ وهي حُجب تصيب القلب على الحقيقة، وتصيب الجوارح بالتبعيَّة، في مثل قوله تعالى: ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة:١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾[الإسراء:٩٧].

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٧هـ): (صمٌّ عن الحق فلا يسمعونه، عمي عن الحق فلا يبصرونه، بُكم عن الحق فلا ينطقون به)[١].

فما يصيب الحواس من حُجب هي في الحقيقة تصيب القلب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٧٥١هـ): (وبهذا يعلم أنَّ الصمَم والبكَم والعَمَى للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج:٤٦]، وليس المراد نفي العمى الحسّي عن البصر، كيف وقد قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ [النور:٦١]، وقال: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [عبس:١ - ٢]، وإنّما المراد أنّ العمى التامّ في الحقيقة عمى القلب، حتى إنّ عمى البصر بالنسبة إليه كلا عمى، حتّى إنه يصحُّ نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته)[٢].

مما يهيء القلب للتدبُّر، ويُصلِحه له:

- خلوص القصد، وحسن السريرة، وابتغاء وجه الله بالتدبُّر، وقطع النفس عن لذَّة الاستيلاء، وشهوة الاستتباع، وحبِّ الفلج، وفتنة الاستبشار بالمدح، وطمع الرئاسة[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٣٣١)، وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٨) برقم: (١٠٧٨٣).

(٢) الداء والدواء (٢٧٤).

(٣) انظر: النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبُّر (٤٢٩).

- وكذلك: إظهار الافتقار إلى الله، واستمداد العون منه، واستلهام الصواب، وطلب الفتح منه، كلها أمور مهمَّة لتهيئة أداة التدبُّر الكبرى للتدبُّر.

- الفقه عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإنه سبحانه بيَّن سبب عذاب أهل النار بأنَّ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]،"فالقلب آلة للفقه والعلم"[١]، ووظيفته تدبُّر الآيات الهادية إلى الكمالات، والعمل بها.

ومن الموانع التي تحول بين القلب والتدبُّر: القسوة، والرين، والختم والطبع، والقفل، والمرض، والصرف عن آيات الله، وغير ذلك من الأمور.

ومن وسائل تنمية القلب لتدبُّر القرآن: الترقي به حتى يطمئنَّ، وترقيقه حتى يلين إلى ذكر الله، ويستشعر الخوف من الله، فيكون دائم الوجل، مستمرَّ الخشوع، مخبتاً مطمئناً، صابراً قانعاً متهيئاً لقبول الحق.

ويستعين على ذلك بدعاء صادق لله أن يصلح قلبه لتدبُّر القرآن، فإنَّ النبي كان من دعائه: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»[٢].

"لأنَّ القلب إنما خلق لأن يتخشَّع لبارئه، وينشرح لذلك الصدر، ويقذف النور فيه، فإذا لم يكن كذلك كان قاسياً، فيجب أن يستعاذ منه، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[الزمر:٢٢]"[٣].

---

[١] البحر المحيط لأبي حيان (٥/ ٢٢٨).

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٧٢٢) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل.

[٣] عون المعبود (٤/ ٢٨٥).

وقد سبق بيان أثر القرآن وتدبُّره على القلب وسلامته، وعلاجه لكثير من أمراض الشبهات والشهوات، والنفاق، والحسد والغلّ، والعجب والغرور، والتعلُّق بغير الله تعالى، والجهل، وضعف الهمَّة والإرادة، إلى غير ذلك من الآثار التي ينتجها تدبُّر القرآن على القلب[1].

وسبق أيضاً من الأسباب التي تعين على التدبُّر: تهيئة القلب قبل القراءة والتدبُّر، بما يغني عن إعادته هنا[2].

الاقتران والعلاقة بين العقل والقلب.

العقل: يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة: عقل[3].

واقتران القلب بالعقل في نحو قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[الحج:٤٦].

وسر إضافة: العقل إلى القلب لأنه محله[4]، وعقل الكلام متضمِّن لفهمه[5].

ومما يمنع العقل من التدبُّر: اللجوء إلى المحاكاة، والاكتفاء بالمألوف القائم، والتقليد الأعمى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة:١٧٠].

---

(١) انظر: المبحث الخامس من الفصل الثاني في الباب الأول.

(٢) انظر: المبحث الأول من الفصل الأول في الباب الثاني.

(٣) المفردات في غريب القرآن (٥٧٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٧٧).

(٥) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢).

"والسبب الموجب لذلك كله، أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء"[1].

ومما يعين العقل على التدبر: التفكُّر، والتذكُّر، وهما "أصل الهدى والفلاح، وهما قطبا السعادة"[2]، وهما "منزلان يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكُّره على تذكُّره، وبتذكُّره على تفكُّره حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم"[3].

ومن الأمور التي هي موضع تذكر للعبد المتدبر: آيات الله المتلوَّة والمشهودة.

ومما ينمِّي العقل في التدبُّر: تدارس القرآن؛ قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾[آل عمران:٧٩].

والتدارس: "شامل لجميع ما يتعلَّق بالقرآن من التعلُّم والتعليم والتفسير والاستكشاف عن دقائق معانيه"[4]، والله أعلم.

- المطلب الثاني: السمع:

"وحقيقة السماع: تنبيه القلب على معاني المسموع، وتحريكه عنها طلباً وهرباً وحباً وبغضاً"[5].

والأمر بالاستماع يقصد به التدبُّر، "لأنَّ نفس السماع لا ينفع، وإنما ينفع التدبر"[6].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٨١).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٣).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٤٠).

(٤) شرح السندي على سنن ابن ماجه (١/ ٩٩-١٠٠).

(٥) مدارج السالكين (١/ ٤٧٨-٤٧٩).

(٦) مفاتيح الغيب للرازي (٢٣/ ٢٥١).

"وإذا كان كلام العالم أولى بالاستماع من كلام الجاهل، وكلام الوالدة الرؤوم أحقُّ بالاستماع من كلام غيرها، والله أعلم العلماء، وأرحم الرحماء، فكلامه أولى كلام بالاستماع والتدبُّر والفهم"[1].

وقد ذُكر السمع مُقدَّماً على الحواس كلِّها في أغلب المواضع في القرآن لأهميتها.

"وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر؛ فإنَّ التقديم مؤذن بأهمية المقدَّم، وذلك لأنَّ السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، ولأنَّ السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الستِّ بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة"[2].

"وفصل الخطاب أنَّ إدراك السمع أعمُّ وأشمل، وإدراك البصر أتمُّ وأكمل، فهذا له التمام والكمال، وذاك له العموم والشمول، فقد ترجَّح كل منهما بما اختص به)[3].

"قال سبحانه: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ ﴾[الأنفال:٢٣]؛ فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإنَّ الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس فى قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدى إليها، ووقع عليها؛ كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية، والتى لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له"[4].

---

[1] فهم القرآن للحارث المحاسبي (٢٤٧).

[2] التحرير والتنوير (١/ ٨٥٢).

[3] ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد (١/ ٧٢) عن شيخه ابن تيمية، وانظر: المستدرك على الفتاوى (٥/ ٢٢٩).

[4] إغاثة اللهفان (٢/ ١٧٢).

وقد أثنى الله على الجن عند استماعهم للقرآن، وتأدُّبهم في مجلس الاستماع، فقال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢]، وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، "فقد أخبرنا الله عن الجنِّ في حسن استماعهم للقرآن، واستجابتهم لما ندبهم إليه، ثمَّ رجعوا إلى قومهم، فوعظوهم بما سمعوا من القرآن بأحسن ما يكون من الموعظة"[(١)].

والنبي ﷺ أحبَّ أن يستمع القرآن من غيره، وكان سماعه سبب تدبُّره ﷺ، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلْتُ: آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، قَالَ: «**أَمْسِكْ**»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ[(٢)].

قال ابن بطال رحمه الله (٤٤٩هـ) معلِّقاً: (معنى استماعه القرآن من غيره -والله أعلم- ليكون عرض القرآن سُنَّة، ويحتمل أن يكون كي يتدبَّره ويفهمه، وذلك أنَّ المستمع أقوى على التدبُّر، ونفسه أخلى وأنشط من نفس القارئ؛ لأنه فى شغل بالقراءة وأحكامها)[(٣)].

أهمية السمع في التدبُّر:

السَّمع أساس العلم المنقول، والمقصود سماع الإدراك بالأذن، وسماع الفهم والعقل المتَّصل بالإيمان، وسماع إجابة وقبول، وكلُّ سماع في القرآن مدح الله أهله وأثنى عليهم وأمر به أولياءه؛ فهو هذا السماع، الذي يسوق القلوب إلى علَّام الغيوب، ويرتقي بالمؤمن إلى أرفع الدرجات[(٤)].

---

(١) أخلاق أهل القرآن (٣٥).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٤) انظر: تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق- د/ رقية العلواني (٥٢-٥٤).

"والاستماع إلى القراءة عبادة، إذا استشعر بأنَّ الله تعالى يخاطبه بالقرآن من أعلى الملكوت، وهو إن يستمع يناهد إلى مقام رب العزة فيستمع إليه، أكاد أرى أنَّ هذا مقام طهر، لَا يستمع إليه من به نجاسة من جنابة، وإذا كان الفقهاء لم يصرحوا بهذا، فإني أراه مقتضى مقام الطهر لمستمع أطهر قول في الاستماع افتعل من السماع؛ أي: طلب سماعه، والإقبال عليه، وتلقيه بقوة، وتقبُّله وتقبُّل معانيه؛ ولذا قال بعض المفسِّرين: إنَّ الاستماع هو تدبُّر المعاني، والاستبصار بها، وإدراك مراميها ومغازيها، فليس المراد مجرَّد السماع، بل السمع في تدبُّر وتفهُّم، وتذكُّر واعتبار"[1].

والصوت الجميل يجلب السامعين لسماعه، وكلما ازداد تحسيناً ازداد حرص الناس على سماعه، فيحرص المتدبِّر على تحسين التلاوة، والعناية بالتجويد وأحكامه، ومراعاة الوقف والابتداء، وتعلُّمه وفهمه، وكلُّها معينات على السماع والتدبُّر.

ومما يجعل السمع أكثر أهمية من البصر: أن تعلُّم النطق يتمُّ عن طريق السمع أولاً، وإذا ولد الإنسان أصمَّاً فإنه غالباً يحصل لديه قصور عقلي، وضعف شديد في مُدرَكاته وذهنه ووعيه، ولا يرتقي في سلَّم العلم والمعرفة. وفي المقابل: فمن حُرِم نعمة البصر من الصغر، يمكن أن يتعلَّم وينبغ في العلم والفهم، وكم خرج للدنيا من أئمة الدين، وجهابذة العلم، من كان كفيفاً لا يبصر، وهذا معلوم بالضرورة شهرته.

وذلك لأنَّ التعلم والفهم يتعلَّقان كثيراً بالسمع، لذا ربط الله العلم بالسمع أولاً ثم البصر في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

---

[1] انظر: زهرة التفاسير لأبي زهرة (٦/ ٣٠٥٢).

وهناك فرق كبير في المعنى والأداء بين البصر والبصيرة، وعدم البصيرة يعني قفل القلب، وعدم السمع يعني السمع بلا فائدة أو أثر، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج:٤٦].

اقتران السمع وقوة الاستماع بالقلب:

ورد اقتران القلب والاستماع في مواضع في كتاب الله منها: قوله تعالى: ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾[البقرة:٧]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧].

واقتران القلب بالأُذن وقوة الاستماع في قول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الْقَلْبُ مَلِكٌ وَلَهُ جُنُودٌ، فَإِذَا صَلُحَ الْمَلِكُ صَلُحَتْ جُنودُهُ، وَإِذَا فَسَدَ الْمَلِكُ فَسَدَتْ جُنودُهُ، الْأُذُنَانِ قَمْعٌ..)[١].

وسرُّ الاقتران بينهما: أنَّ الأذن هي التي تجعل القلب وعاء لها.

وظائف الأذن في التدبُّر:

الاستماع والإنصات: كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤].

والمراد بالاستماع: الاصغاء، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾[ق:٣٧].

والإنصات: السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة[٢].

---

[١] أخرجه معمر بن راشد – مصنف عبد الرزاق (١١/ ٢٢١) برقم: (٢٠٣٧٥)، وأبو نعيم في الطبي النبوي (١/ ٢٢٤) برقم: (٩٤).

[٢] انظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٣٥٤).

" فالاستماع والإنصات المأمور بهما هما المؤديان بالسامع إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما يحتوي عليه القرآن من الدلالة على صدق الرسول ﷺ، المفضي إلى الإيمان به، ولما جاء به من إصلاح النفوس، فالأمر بالاستماع مقصود به التبليغ، واستدعاء النظر والعمل بما فيه، فالاستماع والإنصات مراتب بحسب مراتب المستمعين"[١].

والفرق بين الاستماع والإنصات: أنَّ الإنصات في الظاهر بترك التحدُّث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه، وأما الاستماع: فأن يلقي سمعه، ويحضر قلبه، ويتدبَّر ما يستمع، ومن لازم هذين الأمرين حين يتلى كتاب اللّ؛ ينل خيراً كثيراً، وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب اللهّ حصول الرحمة عليهما، فدلَّ ذلك على أن من تُلِيَ عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إنَّ أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة، وغيرها[٢].

أثر الاستماع والإنصات في التدبر:

- **نيل الرحمة**: كما دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، فهي "دلالة على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن، والحصانة من نزغ الشيطان، وهي الاستماع له إذا قرئ، والإنصات مدة القراءة، والاستماع أبلغ من السمع، ولأنه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه، والسمع ما يحصل ولو بغير قصد، والإنصات: السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلاً عن الإحاطة بكل ما يقرأ، فمن استمع وأنصت كان جديراً بأن يفهم ويتدبر، وهو الذي يرجى أن يرحم"[٣].

---

[١] التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٩).

[٢] انظر: تيسير الكريم الرحمن (٣١٤).

[٣] تفسير المنار (٩/ ٤٦١).

- **تبليغ الحق إلى الخلق**: دلَّ عليه قوله تعالى في خبر الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩].

وهذه الآية" تصوِّر الأثر الذي انطبع في قلوبهم من الإنصات للقرآن، فقد استمعوا صامتين منتبهين حتى النهاية، فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه والإنذار به، وهي حالة من امتلأ حسُّه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثِّر قاهر غلاَّب، يدفعه دفعاً إلى الحركة به، والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جدٍّ واهتمام"[1].

ويمنع الأسماع عن تدبُّر القرآن موانع، منها:

- الوقر: "وهو الثقْل الذي يمنعهم من سماع القرآن؛ سماعًا ينفعهم ويهتدون به"[2]، كما قال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[الإسراء:٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴾[الكهف:٥٧].

وهذا من تشبيه الحجُب والموانع المعنوية، بالحجُب والموانع الحسِّية، فالآذان التي لا تسمع القرآن سماع فهم وتدبُّر؛ كالآذان المصابة بالثِّقل والصمم؛ لأنَّ سمعها وعدمه سواء[3].

- الصد عن سبيل الله: لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾[هود:٢٠].

---

[1] في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٧٣).

[2] تفسير ابن كثير (٥/ ٨٢).

[3] انظر: تفسير المنار (٧/ ٢٩٠).

فهم "لا يستطيعون أن يسمعوا الحقّ سماع منتفع، ولا يبصرونه إبصار مهتد، لاشتغالهم بالكفر الذي كانوا عليه مقيمين، عن استعمال جوارحهم في طاعة الله، وقد كانت لهم أسماعٌ وأبصارٌ"[١].

- الاستكبار عن سماع آيات الله، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الجاثية:٧-٨].

فهذا "يسمع آيات الله سماعاً تقوم به الحجَّة عليه، ثمَّ يُعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تزكِّ قلبه ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه"[٢][٣]،والله أعلم.

- المطلب الثالث: البصر:

كلمة بَصَر تطلق على الجارحة الناظرة، وجمعه أبصار[٤]، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة:١٢].

أما قوَّة القلب المدرِكة فيقال لها بصيرة، وجمعها بصائر[٥].

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٨٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٧٧٥).

(٣) للاستزادة انظر بحث: وظائف الحواس في تدبر القرآن، د/ توفيق علي زبادي، عضو هيئة التدريس بالمركز العلمي الأول بجدة. بملتقى أهل التفسير.

(٤) بَصَر= البَصَرُ: العَيْنُ، مذكّر، والبَصَرُ: حاسَّةُ الرُّؤْيَةِ، وقيل: البَصَرُ: النُّورُ الَّذِي تُدرِكُ بِهِ الجارِحَةُ المُبْصَرَاتِ والبَصَرُ: حِسُّ العَيْنِ. انظر: العين (٧/ ١١٧)، تاج العروس (١٠/ ١٩٦) مادة: بَصر.

(٥) انظر: تاج العروس (١٠/ ١٩٧) مادة: بَصر.

"وحدُّ النّظر طلب إِدْرَاك الشَّيْء من جِهَة الْبَصَر أَو الْفِكر، وَيحْتَاج فِي إِدْرَاك الْمَعْنى إِلَى الْأَمريْنِ جَمِيعًا، كالتأمل لِلْخطِّ الدَّقِيق بالبصر أَولاً، ثمَّ بالفكر؛ لِأَنَّ دلالة الخطِّ الدَّقِيق التي بها يقْرَأ طَرِيق إِلَى إِدْرَاك الْمَعْنى، وَكَذَلِك طَرِيق الدّلَالَة المؤدية إِلَى الْعلم بِالْمَعْنَى، وأصل النّظر الْمُقَابلَة فالنظر بالبصر الإقبال نَحْو المبصر، وَالنَّظَر بالقلب الإقبال بالفكر نحو المفكَّر فيه"[1].

وقد امتنَّ الله بنعمة البصر على العبد، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾[البلد:٨]، لينظر بهما في خلق السمواتِ والأرض، ويتفكَّر في خلقه في أجمل صورة، وأحسن تقويم.

إنَّ العينُ ليستْ وَسيلةً للمُشاهدة فقط، ولكنَّها كذلك عقلُه الذي يرى به، وعاطفته التي تحيي إليه اللَّذة، وتشكل مجموعةَ مواقف عصَبية.

اقتران البصر بغيره:

فمن تدبَّر كتاب الله؛ وجد السمع والبصر يلتقيان فيه مراراً، وقد وردا معاً يراد بهما الحاستان: ثلاث عشرة مرة، جاء السمع فيها مفرداً في اللفظ، والبصر مجموعاً في اللفظ، ولاحقاً في الذِّكر، من ذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل:٧٨]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾[الأحقاف:٢٦].

إنَّ الصوت في واقعه شيء واحد، وإن تعددت ينابيعه، وتباينت أوصافه، أما البصر، فإنه يدرك المرئيات كافَّة، وهي مع كثرتِها تختلف في مادَّتِها وتكوينها، وفي هيئاتِها وأشكالها، وفي أوصافها وألوانِها.

والقرآن يذكُر السمع بلفظ المفرد، مقترناً إليه البصر بلفظ الجمع؛ إشارة إلى أنَّ الحاسَّتين ليستا سواءً في عدد المدركات، فالسمع يُدْرِك شيئًا واحدًا، هو الصوت، والبصر يدرك أشتاتًا من المرئيات، كأنه جمْع من الحواس، لا حاسَّة واحدة.

---

(١) الفروق اللغوية للعسكري (٧٤).

وقد ذكر الله حاسة البصر مفردة، في قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]، وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]، وقوله: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر:٢].

وذكر الفؤاد مع السمع والبصر في خمس آيات[(١)]، وجاء فيها كلها مجموعًا كالبصر، في مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون:٧٨]، وحكمة ذلك -والله أعلم- أنَّ الفؤاد تتعدَّد أحواله، كما أنَّ البصر تتعدَّد مدركاته، فهو يجيش بألوان من العواطف، وتنبعث فيه ضروب من المشاعر والانفعالات[(٢)].

وقد اقترنت العين بالقلب في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

وجاء في حديث ابن عمر أنَّ النبي ﷺ قال: «**تَدْمَعُ العَيْنُ، وَيَحْزَنُ القَلْبُ**»[(٣)].

---

(١) هي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون:٧٨]، وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٩]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف:٢٦]. وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣].

(٢) انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (١/ ٢٩١)، أنوار التنزيل للبيضاوي (٧/ ٤٣٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقاً في كتاب الجنائز، باب باب قول النبي ﷺ: «**إنا بك لمحزونون**». وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٢٣١٥) في كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك.

"فالبصر يؤدِّى إلى القلب ويؤدي عنه، فإنَّ العين مرآة القلب، يظهر فيها ما يحبه؛ من المحبة والبغض، والموالاة والمعاداة، والسرور والحزن، وغيرها"[1].

وظيفة البصر في التدبُّر:

ويكون البصر أداة من أدوات التدبُّر قبل وقوعه؛ بالإبصار والنظر والرؤية، والتي جاءت مجموعة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك:٢-٣].

"والمنصوص هنا إرجاع البصر كرَّتين، ولكن حقيقة النظر أربع مرات:

الأولى في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾.

والثانية في قوله: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾.

والثالثة والرابعة: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾.

وليس بعد معاودة النظر أربع مرات من تأكيد"[2].

والرؤية المشار إليها في الآية ليست بالعين المجردة، بل بالتأمل والتمعن والتفحُّص.

والمقصود بالنظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشئ ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، نحو قوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ [ق:٦]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَىِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٥].

فيشمل النظر في آيات الله المشهودة المنظورة، والنظر في آياته المسطورة، والنظر في سننه في الأمم السابقة، وإدراكها بالقلب فهماً وتعقُّلاً، وتدبُّراً.

---

[1] مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٦).

[2] أضواء البيان (٨/ ٢٣٠).

"ولا ينتفع الناظر بمجرَّد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك، وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وباريه، وذلك هو الفكر بعينه"[1].

والمقصود بالرؤية: التفكُّر في الشيء، والإمالة بين خواطر النفس في تحصيل الرأي والمرتئي، والنظر المؤدى إلى الاعتبار، نحو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان:٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، أي بما علَّمك[2].

ومن **أثر التدبَّر على العين**: البكاء من خشية الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ [مريم:٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وسبق بيان أخبار تأثُّر النبي ﷺ، وبكائه عند تدبُّر القرآن، وكذلك الصحابة والسلف الصالح.

ومما يمنع البصر من التدبُّر: أن يكون عليه غطاء لا يبصر به الخير والحقَّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ [الكهف:١٠١]، أي: تعاموا وتغافلوا وتصاموا عن قبول الهدى واتباع الحق[3]، فكانت أعينهم في الدنيا في غطاء عن القرآن العظيم، وتأمُّل

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٣).

(٢) المفردات في غريب القرآن (٣٧٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ١٨٠).

معانيه، وتدبُّر فوائده[1].

ومما يمنعه أيضاً أن يكون عليه غشاوة، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣]، "فجعل أعينهم في عدم الانتفاع بما ترى من المعجزات والدلائل الكونية؛ كأنها مختوم عليها ومغشًّى دونها"[2].

وسبب ذلك استعماله في الحرام، أو الهوى، كما سبق بيانه.

من الأمور التي تيسِّر للبصر تدبُّر القرآن: النظر في كتاب الله المنظور والربط بين ما فيه من جمال مشهود، ومبُدع الكون وخالقه سبحانه وتعالى، فيزداد إيمان المرء ويقينه، وتصديقه بآيات الله المتلوَّه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت:٢٠].

والنظر في عاقبة الأمم السابقة التي أعرضت عن منهج الله كما قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل:٦٩].

والمقصود من النظر في الكون؛ القدرة على اكتشاف سنن الله في الآفاق والأنفس، واستثمارها في عمارة الأرض.

ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن من الحثِّ على النظر والاعتبار، والتتبع العلمي لمظاهر الإعجاز، والحض على الكشف عنها في الأرض والأنفس والآفاق، فتطور العلم التجريبي عند المسلمين حين تدبَّروا كتاب الله المنظور، وكتاب الله المسطور.

---

(١) فتح القدير (٣/ ٣٧٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٥٥).

- المطلب الرابع: اللسان:

المقصود باللسان: الجارحة وقوتها، وقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ [طه:٢٧] يعنى به: من قوة لسانه، فإنَّ العقدة لم تكن في الجارحة، وإنما كانت في قوَّته، التي هي النطق به[١].

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ﴾ [البلد:٨-٩]،

فاللسان نعمة امتنَّ الله بها على العبد بعد نعمة البصر.

و"ذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم؛ فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالة عليه، وعلى قدرته ووحدانيته ونعمه، التي تعرَّف بها الى عباده"[٢].

واللسان هو الوسيط لإيصال الحرف للسماع، وناتج البصر بعد القراءة والنظر، والمرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه، فاقترن اللسان بالقلب، وله علاقة وطيدة بالإيمان، فإنَّ النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[٣].

وأبرز وظائف اللسان في تدبر القرآن:

أولاً: الترتيل. قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل:٤]، أي: "بيِّنه تبييناً، والتبيين لا يتمُّ بأن يعجل في القرآن، إنما يتم بأن تبين جميع الحروف، وتوفى حقَّها من الإشباع"[٤].

---

[١] المفردات في غريب القرآن (٧٤٠).

[٢] مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٧).

[٣] أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٦٠١٨) في كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، وبرقم: (٦١٣٨) في باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، وبرقم: (٦٤٧٥) في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان. وأخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٤٧) في كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان.

[٤] معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٢٤٠).

والسرعة والعجلة بتلاوة اللسان؛ تحرِم القارئ من عبادة التدبُّر، ولذلك جاء النهي عنها في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة:١٦]، ومفهومه: أنَّ تحريك اللسان به من غير تعجُّل مستحب.

"فالإسراع في القراءة يدلُّ على عدم الوقوف على المعاني، لأنَّ النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية، ومن ابتهج بشيء أحبَّ ذكره، ومن أحبَّ شيئاً لم يمرَّ عليه بسرعة، فظهر أنَّ المقصود من الترتيل إنما هو حضور القلب، وكمال المعرفة"[١]، وهذا موجِبٌ للتدبُّر، معين عليه، كما سبق بيانه.

ثانياً: التلاوة. وتلاوة القرآن: تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنى أشرف من مجرَّد تلاوة اللفظ وأهلها هم أهل القرآن، الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقاً[٢].

قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [العنكبوت:٤٥]، أي القرآن، "وفيه الأمر بالتلاوة للقرآن، والمحافظة على قراءته مع التدبُّر لآياته، والتفكُّر في معانيه"[٣]، "فإنَّ القارئ المتأمِّل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه"[٤].

ثالثاً: التلقين. وهو من منهج التلقي عند أهل العلم قديماً وحديثاً، وقد أخذ الصحابة القرآن من فِيِّ رسول الله ﷺ، ومن ذلك ما جاء عَنْ أُخْت عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، قَالَتْ: (أَخَذْتُ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مِنْ فِي رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَهُوَ يَقْرَأُ بِهَا عَلَى الْمِنْبَرِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ)[٥][٦].

---

[١] مفاتيح الغيب للرازي (٣٠/ ٦٨٣).

[٢] مفتاح دار السعادة (١/ ٤٢).

[٣] فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٣٦).

[٤] أنوار التنزيل للبيضاوي (٤/ ١٩٦).

[٥] أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٨٧٢) في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.

[٦] للاستزادة انظر بحث: وظائف الحواس في تدبر القرآن، د/ توفيق علي زبادي، عضو هيئة التدريس بالمركز العلمي الأول بجدة. بملتقى أهل التفسير.

واللسان أداة للتدبُّر؛ ابتداءً من الاستعاذة والبسملة، وتلاوة القرآن باللسان، فيُسمع التالي نفسه الآيات، فإذا تأثَّر القلب بعد السماع والنظر، ووقر المعنى فيه، لهج اللسان بالدعاء، وذِكر المعاني المتدبَّرة ونشرها بين الناس، فيعود على صاحبه بخير عظيم، يصل إلى دخول الجنة، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [المائدة:٨٣-٨٥].

وطلاقة اللسان وسلامته؛ سبب للفهم والإفهام لمعاني القرآن الكريم: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه:٢٧-٢٨].

ولذا كانت الجوارح كلُّها تعنِّف اللسان وتوبِّخه كلَّ صباح، وتذكره أن نجاة سائر البدن به إن استقام، وهلاك الأعضاء كلها به إن انحرف، لحديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ: اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا**»[1].

فالعاقل من أحسن استعمال هذه الأداة في تلاوة القرآن وحفظه وفهمه، والتذكير به، والدعوة إليه، والمغبون من خسر ذلك.

نسأل الله أن يرزقنا سلامة القول والعمل، وأن يصلح جوارحنا، ويسخرها في طاعته ومرضاته، وأن يجعلها سبيلاً إلى بلوغ جنته.. آمين.

---

(١) **حسن**. أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٣/ ٦٦٠) برقم: (٢٣٢٣)، والترمذي في سننه (٤/ ٦٠٥) برقم: (٢٤٠٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٣) برقم: (٤٥٩٥). وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٠٧)، وفي صحيح الترغيب (٢٨٧١)، وفي صحيح الجامع (٣٥١).

المبحث الثاني: المنهج الأمثل للتدبُّر

مدخل:

من خلال ما سبق بيانه وبحثه، عُرِف أنَّ الله سبحانه أنزل القرآن الكريم دليلاً على صدق نبينا محمد ﷺ، وصدق دعوته ورسالته، وجعله سبحانه تبياناً لكلِّ شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، ويقتضي ذلك بعد الإيمان به أن يحسُن تدبُّره، حتى يسهل العمل بمحتواه، والدعوة لمقتضاه بلسان الحال والمقال.

ومن الضروري قبل أداء أي عمل تحديد الهدف من ذلك العمل، وتقوَّم النتيجة في ضوء تحقيق الهدف، وإلا كان العمل عبثاً لا قيمة له.

والعملية الناجحة المنتجة التي يتمُّ فيها التدبُّر هي التي تحقق هدفه وغاياته، وتتمُّ على مراحل بشكل شامل لجميع الأحوال والظروف، وبصورة متوازنة دون تناقض، ويبدأ التدبُّر بالمعنى العام في إدراك الموضوع الرئيس أولاً، والانتقال بعد ذلك إلى إدراك المعاني التفصيلية والعلاقة بين الأجزاء والكل، ثم الانتقال إلى التأثر بالمضمون، والتذوق الفني للتركيب، لينعكس ذلك على اتخاذ الخطوات العملية السليمة اللازمة؛ من ربط ومقارنة بين الأجزاء، لاستنباط الأحكام، وقواعد السلوك والأداء.

ولما كان المعنى مرتبطاً بالمبنى ارتباطاً وثيقاً؛ كان لا بد أن يتمَّ التدبُّر من خلال تلاوة سليمة لآيات القرآن الكريم، والاستماع لها، من كل قارئ أو مستمع بالقدر الذي يناسبه، سواء كان عربياً أو غير عربي، وسواء كان يحسن القراءة والكتابة أو لا يحسنها، ومن خلال التلاوة بعد تحقيق ما سبق ذكره وبحثه من الوسائل والأسباب، والتخلُّص من الموانع والعقبات، يتم التدبُّر الصحيح لكتاب الله تعالى.

والتدبُّر تختلف تفصيلاته من شخص لآخر، كما تختلف كذلك بالنسبة للشخص الواحد من زمان إلى آخر حسب تطور خبرته وثقافته ومعلوماته، فالأمي وغير المثقف يكون تدبُّره أقلَّ عمقاً من تدبُّر المتعلِّم المثقف، وتدبُّر من يعرف قليلاً من اللغة العربية، لا يصل إلى المستوى الذي يصل إليه العالم باللغة، الذي يكتشف من خلال تدبُّره أموراً لغوية لا يدركها غيره.

ويأتي تدبُّر العالم في المجال العلمي مختلفاً عن تدبُّر الأديب الذي ركز اهتمامه على الناحية الأدبية، وكذا تدبُّر المختص في علم أو أدب يختلف عن تدبُّر غيره، ومع هذا وذاك يأتي تدبر الشخص الواحد من أكثر من زاوية، ويتطور تدبره من حين لآخر، حسب تطور معرفته وخبرته وثقافته، وبذلك يجد في القرآن الكريم شيئاً جديداً عند تكرار تلاوته في كلِّ مرة[1].

منهج التدبُّر الأمثل لكتاب الله الكريم.

إنَّ المنهج الذي سأتناوله بالتفصيل هنا؛ معين للمتدبِّر على سلوك طريق التدبُّر القويم، ومعين على تطبيق الدراسة النظرية السابقة، وهذا مقصود البحث، وزبدة الرسالة، لأنه المفتاح التطبيقي بإذن الله، بعد دراسة نظرية تأصيلية طويلة.

وحتى يستقيم هذا المنهج ويؤتي ثماره؛ لابدَّ من الدربة عليه، وتكراره، والمحافظة عليه، وجعْله من أولوياته وهمومه، وسيجد من ذلك علماً وفهماً، وبركة ونوراً.

ولابدَّ قبل البدء؛ من الاستعانة بالله أولاً وآخراً، ودعائه والتضرُّع بين يديه؛ أن يشرح الصدر وييسر الأمر، ويفتح على قارئ القرآن ومستمعه من فيوض رحمته، وأنوار هداه، فإنَّه:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللهِ لِلْفَتَى   فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ[2]

---

[1] انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم- مختار كمال (١٣٩-١٤٠).

[2] لم أقف على قائله، وعزاه التنوخي في الفرج بعد الشدة (١/ ١٧٧)، والراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء (١/ ٥٣٢) لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالإنسان لا يُفتح عليه في العبودية بالجهود الشخصية مجرَّدة عن عون الله وتوفيقه.

ثمَّ يشتغل المتدبِّر بكثرة النظر في القرآن، ويضع حزباً يومياً لتدبُّره، ويحرص ألا يُغلب عليه لأي ظرف كان، ويحرص في حزبه ذلك أن يلمَّ بالمعاني إجمالاً، وينظر في التفسير، ففيه إعانه وخير كبير.

وعلى المتدبِّر أيضاً: أن يدخل إلى ساحة القرآن بقلب متجرِّد للحق، باحثاً عنه.

ويحسُن به أن يجعل له مدارسة تدبُّرية مع أهل بيته وأبنائه، ففيها من البركة والخير عليه ما يكون عوناً له على الصلاح والإصلاح، ويكون له مدارسة أخرى مع بعض إخوانه على الخير، فيجتمعون للتدبُّر والتذاكر بينهم، فينالوا الخيرية والفضل الوارد في الاجتماع على مدارسة القرآن.

وبعد التخلُّص من الموانع، والتمسُّك بالوسائل التي سبق بيانها وتفصيلها، يسير على منهج واضح في التدبُّر، تظهر معالمه في المطالب التالية:

- المطلب الأول: تدبُّر اسم السورة:

فيبدأ في النظر في اسم السورة التي يعزم على تدبُّر آياتها، ويبحث عن قرينة الاسم مع السورة وأغراضها الأساسية.

وليُعلم أنَّ بعض السور لها أكثر من اسم، ومنها ما هو توقيفي، ومنها ما هو اجتهادي اصطلاحي[1]، والأسماء غالباً ما توضِّح مقاصدها؛ "لأنَّ اسم كل شيء تلحظ المناسبة بينه وبين مسمَّاه، عنوانه الدال بالإجمال على تفصيل ما فيه"[2].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١/ ٢١١).

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/ ٢٠٩).

فالله سبحانه سمَّى خاتم المرسلين ﷺ، محمداً، وهي تسمية دالة على المسمَّى[1].

وجاء قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾[الفتح:٢٩]، مبيِّنة حقيقته، وموضِّحة وظيفته ﷺ، وكذلك أسماء سور القرآن؛ دلَّت تسمية كلِّ سورة على مقصودها الأعظم، وبيان أهمِّ ما فيها، وليس بما بُسط القول، أو كثُر ذكره فيها، ومن أمثلة ذلك:

- سورة يونس، لم يذكر فيها نبي الله يونس عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ إلا مرة في قوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [يونس:٩٨]، وتسمَّت السورة باسمه، وورد ذكره في سورة الصافات في عشر آيات ولم تتسمَّ باسمه.

- ونبي الله موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ورد اسمه في القرآن الكريم ستاً وثلاثين ومائة مرة ولم ترد سورة باسمه، وجاءت سورة القصص بأخباره عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من طفولته إلى دعوته لفرعون، ومواجهته بالحق، ولم تسمَّ باسمه.

- ونبينا ﷺ ذكر في أربع سور: آل عمران، الأحزاب، محمد، الفتح، ولم تُسمَّ إلاَّ سُورة واحدة به: سورة محمد، وكان مقتضى الظاهر أن تُسمَّى باسمه سورة الأحزاب أو الفتح.

- وأيضاً: فمقتضى الظاهر في سورة النمل، أن تسمَّى سورة سليمان عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، أو سورة الهُدهُد، فإنَّ شأنَه لا يقلُّ عن شأن النملة في القصة، ولا سيما أنَّ سورة النمل مقصودها الأعظم: إظهار العلم والحكمة، وفي قصة الهدهد: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾[النمل:٢٢]، وفي قصة النملة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[النمل:١٨].

---

[1] انظر: الروض الأنف (٢/ ٩٥)، أنساب الأشراف للبلاذري (١/ ٨١).

ترى في مقالتها الحكمة ممزوجة بالعلم، وفي مقالة الهدهد إظهار العلم فى ثوب فخر، فكانت مقالة النملة أعلقَ بمقصود السورة.

والمقصود: أنَّ الاعتداد فى التسمية ليست في قلة ذكر ما سُمِّيَ به أو كثرته، فالأمر مرجعه إلى إنباء الاسم عن وَسْمِ السورة[1].

- المطلب الثاني: معرفة المحور الذي تدور حوله السورة:

فيقف المتدبِّر من خلال تلاوته؛ على سبب تسمية السورة، وعلاقة موضوعات السورة بذلك الاسم، ويسعى من خلال القراءة إلى إدراك ما تضمَّنته السورة من موضوعات بشكل إجمالي، ومعرفة الموضوع الرئيس، والمواضيع الفرعية فيها.

مثال ذلك: عند تلاوة سورة الكهف؛ من السهل أن يتعرَّف القارئ إلى سبب تسميتها، لما فيها من المعجزة الربانية في قصة أهل الكهف الذي آوى إليه الفتية المؤمنون هرباً من قومهم الكافرين الذي ضايقوهم لإخراجهم عن دائرة الإيمان.

أما المحور الذي تدور حوله موضوعات السورة، فهو: متانة العقيدة، والثبات على الإيمان، ودلائل القدرة والوحدانية، وأثر ذلك في مكانة المؤمن ومنزلته في الدنيا والآخرة، ويمكن أن يدرك المتدبِّر من خلال قراءته أيضاً: المعنى الإجمالي، فيجد أن السورة تعرضت لثلاث قصص في سبيل تقرير الأهداف الأساسية لتثبيت العقيدة ، وترسيخ الإيمان.

أما الأولى: فهي قصة أصحاب الكهف، وهم الفتية الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم، والثانية: قصة النبي موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع العبد الصالح المؤمن الذي أعطاه الله العلم الذي لم يؤته النبي موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كليم الله، والثالثة: قصة ذي القرنين الذي مكنه الله بالتقوى والعدل، أن يبسط سلطانه في مشارق الأرض ومغاربها.

---

[1] انظر: العزف على أنوار الذكر (٧٤-٧٦).

وتضمَّنت السورة مع هذه القصص أمثلة واقعية مرتبطة بالعقيدة، بقصد العظة والاعتبار.

المثل الأول: هو للغني صاحب الجنتين المزهو بماله، والفقير المعتزُّ بعقيدته.

والمثل الثاني: هو للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال.

والمثل الثالث: هو عن التكبُّر والغرور المؤديين إلى الجحود مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

- المطلب الثالث: تدبُّر مطلع السورة وفاتحتها:

فمن سنة اللغة العربية في بيانها أن تجعل في الصدر دلالة على المراد، وإنباءً بالمقصود، حتى يكون السَّامع على بصيرة بما هو متلقٍ له، والعرب قبل نزول القرآن الكريم كانوا يتخذون من صدور قصائدهم هوادي إلى مضامينها، فجاء القرآن على ما كان من سننهم فى الإنباء بمطالع البيان على مقاصدهم، فكان مطلع كلِّ سورة مضمَّنا معالمَ هادية إلى مقاصدها.

وفاتحة كل سورة عنوان بليغ لما قام فيها من المقصد الأعظم والمعاني الكلية، وكثيراً ما تربط علاقة بين فاتحة السورة وخاتمتها، وكذلك خاتمة ما قبلها.

ولو نظرنا مثلاً: فإنَّ فاتحة الكتاب هي مطلعه، وفيها إجمال لما فُصِّل في القرآن من الأصول والفروع، فمن تدبَّرها: حصَّل "من معاني الفاتحة- تصريحاً وتضمناً- علم إجمالي بما حواه القرآن من الأغراض، وذلك يدعو نفس قارئها إلى تطلُّب التفصيل على حسب التمكُّن والقابلية، ولأجل هذا فرضت قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة حرصاً على التذكُّر لما في مطاويها"[1].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٣٤).

وإذا كان هذا في إنباء مطلع القرآن الكريمِ بما حواه تفصيلاً فى سوَرِه، فالأمر كذلك في كلِّ سُورة، إذْ ينبيءُ المطلعُ على مضمونها ومقصودها.

ومن نظر إلى فواتح السور رأى من البلاغة والبراعة، ما تقصُر عن كنهِ وصفه العبارة، "كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور، وكذا الابتداء بالنداء، كقوله في مفتتح سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النساء:١]، وفي سورة الحج: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ [الحج:١]، فإنَّ مثل هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه، وكذا في الابتداء بالحروف نحو قوله: ﴿الٓمٓ﴾، ﴿حمٓ﴾، مما يبعث على الاستماع والتطلُّع نحوه، لأنه يقرَع السمع شيء غريب ليس بمثله عادة"[1].

وسأذكر مثالاً تفصيلياً لذلك لأهمية بيانه هنا، إذ بالمثال يتَّضح المقال.

إذا أعملنا ما سبق في سورة البقرة مثلاً، وجدنا أنَّ مطلعها هو مقدمتها التى تبدأ من أوَّلها إلى نهاية قول الله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:٢٠]، وختامها من أول قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾[البقرة:٢٨٤]، وقلْب السورة؛ آية الكرسي وما بعدها إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٢٥٧].

ففى المطلع ثلاث ركائز: الكتاب، والمتقين، والإيمان بالغيب وما بعده.

وقد شاع في السورة الحديث عن شيئين بهما تأطيد معنى كمال ذلك الكتاب: الإيمان بالغيب، والتقوى، وقد وردت التقوى ومشتقاتها في السورة ستاً وثلاثين مرة، وهذا ما ليس في غيرها.

---

[1] الصبح المنبي عن حيثية المتنبي (٢/ ٢٠١).

ولما كانت التقوى أساسُها مراقبة الله سبحانه؛ كانت قائمة على يقين راسخ بالغيب، لهذا كان لسورة البقرة عنايةٌ خاصَّة وظاهرة بأمر الغيب والإيمان به، وبكلِّ ما هو من سبيله، وعلى رأسه الإيمان بالبعث، وقد تكرر ذلك في نحو قصة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢]، ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣]، وفي غير هذه القصة جاء قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة:٧٢]، ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ [البقرة:٧٧]، ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وغير ذلك كثير.

وعنيت السورة بأمر البعث وهو من أمر الغيب: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]، ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٦]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:١٢٣]، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [البقرة:٢٠٣]، ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة:٥٦]، ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:٧٣].

ومن أبرز هذا قول الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة:٢٤٣].

وقوله عَزَّوَجَلَّ في محاجة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد تفرَّدت السورة بها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨].

وكذلك في مخاطبته ربه جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٠].

وكان فيها آخر آية أنزلت: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[البقرة:٢٨١][(١)]، فجمع فيها بين التقوى والبعث.

وكثير مما جاء من تشريعات لا يقبله إلا من آمن بالغيب وأيقن بالبعث؛ من نحو تشريعات الإنفاق صدقة أو قرضاً، وتشريع حرمة الربا، وفرض الجهاد، وتشريع فريضة الصيام والحج بل أنَّ الحديث عن أركان الإسلام: الصلاة والزكاة والصيام والحج، لم يُجمع القول فيه مبسوطاً في مثل سورة البقرة.

وكلُّ هذا دال على المقصود الأعظم لهذه السورة: "إقامة الدليل على أنَّ الكتاب هدى ليُتَّبع في كلِّ حال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب، ومجمعه: الِإيمان بالآخرة، ومداره: الإيمان بالبعث، الذي أعربت عنه قصة البقرة، التي مدارها الِإيمان بالغيب، فلذلك سميت بها السورة، وكانت بذلك أحقُّ من قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لأنها في نوع البشر، ومما تقدم في قصة بني

---

(١) لقول ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: (هذه آخر آية نزلت على النبي ﷺ)، وقد سبق تخريجه في نهاية المبحث الأول من الفصل السابق.

إسرائيل من الإِحياء بعد الإِماتة بالصعق، وكذا ما شاكلها، لأنَّ الإِحياء في قصة البقرة عن سبب ضعيف في الظاهر، بمباشرة من كان من آحاد الناس، فهي أدلُّ على القدرة"[١].

ومطلع السورة واسمها ينبئان عن مقصودها، واذا تجاوزنا القول في ﴿الٓمٓ﴾ في مطلع السورة، فإنَّ "استخراج مناسبات هذه الحروف وأحوالها إلى مقاصد السور وأغراضها؛ محتاج إلى مزيد من التوفُّر والفهم والصفاء، ووراءه علم دقيق، ومعرفة لطيفة شريفة، ويلاحظ أنَّ غالباً ما يذكر الكتاب العزيز، وأنه تنزيل من الله عقِب هذه الحروف، وهذا مما يوحي بانطواء الأمر على أسرار"[٢].

ومذاهب العلماء في استبصار دلالات هذه الاستفادات كثيرة، وقليل منها سعى أصحابها إلى استخراج ما بينها، وبين مقاصد سوَرها ومعانيها؛ مِن تناسب ونتائج، وهي محاولات لا تسلم من المناقدة والتوقف[٣].

ـ المطلب الرابع: تدبُّر خاتمة السورة والمقاطع:

إذا كان في مطلع كُلِّ سورة دلائلُ على مضمونِها وقرائن هداية إلى حسن استبصار معالم مقصودها، فإنَّ من سنن بناء الكلام فى أدب العربية أن ينعطفَ آخرُ الكلام على أوَّله، ويكون فى آخره ما يتآخى مع أوله، ويتناسب مع مفتتحه.

فإنَّه إذا كان في المطلع، والافتتاح إسهام، وأرصاد، وإنباء بما يتضمنه الكلام من مقاصد، فإن في مقطع التلاوة، ومختتمها استجماعَ معاني الكلام، واكتنازَ مقاصده، فهو آخر ما يسمع،

---

[١] مصاعد النظر (٢/ ٩).

[٢] الإعجاز البلاغي د/ محمد أبو موسى (٢٣٦).

[٣] انظر: إعجاز القرآن للباقلاني (٤٦)، البرهان للزركشي (١/ ١٦٨)، نظم الدرر (١٢/ ١٥٦).

لذلك؛"فإنَّ الله تعالى ختم كل سورة من سوَرِه بأحسن ختام، وأتمَّها بأعجب إتمام، ختاماً يطابق مقصدها، ويؤدى معناها...، ألا ترى إلى ما ختم به سورة البقرة وسورة الفاتحة، فأما الفاتحة فختمها بما يناسب معناها ويطابق لفظها، من حسن التأليف، وجودة الجزالة؛ بذكر الصنفين المغضوب عليهم من اليهود والنصارى، وألا يجعلنا منهما، ويتم لنا هدايته الكاملة، إلى حججه الواضحة، وبراهينه النيّرة، واختتم سورة البقرة بتعليم الابتهال إليه فى مغفرة الخطايا وترك تحمل الأثقال والإصر والنصرة على الكفار"[١].

وهذه الخاتمة دالة على ما دلَّ عليه مطلعها فإنَّه "لما ابتدأ السورة بوصف المؤمنين بالكتاب الذي لا ريب فيه على الوجه الذي تقدم؛ ختمها بذلك بعد تفصيل الإنفاق الذي وصفهم به أولها على وجه يتَّصل بما قبله من الأوامر والنواهي"[٢].

- المطلب الخامس: تدبر الفروق البيانية بين المعاني الكلية في السور:

تشتمل السبع الطول والمئون على معانٍ كلية، مكونة من معانٍ جزئية، وهذه المعاني الكلّيّة قد يتشابه بعضها في سورة مع بعض في سورة أخرى، لما يتسم به الذكر الحكيم من التصريف، وهذا يثْمِرُ فروقًا بيانيَّةً فى بناء آيات تلك المعاني الكلية فِي السّورتين.

وتصريف المعاني في القرآن الكريمِ وجه من وجوه بلاغته المعجزة[٣]، وهذا التصريف ينفي عن المعاني وصف التكرار والإعادة؛ لأنَّه منبثِقٌ عن المقصود الأعظم لكلِّ سورة، ويتَّضح هذا كثيراً في القصص القرآني.

---

[١] الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (٣/ ١٠٤).

[٢] نظم الدرر (٤/ ١٦٨).

[٣] انظر: النكت في إعجاز القرآن للرماني (١٠١)، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

فمثلاً: يأتي التصريف في وصف أعمال الذين آمنوا وثوابهم يوم القيامة، ووصف أعمال الذين كفروا وعقابهم، وكذلك في وصف مشاهد اليوم الآخر، ونحو ذلك كثير.

وفي تدبُّر بناء كلِّ معنى من المعاني الكليّة المصرَّفة في السور؛ استكشاف للمقصود الأعظم لكلِّ سورة، يملك به المتدبِّرُ مفاتِحَ خزائن المعنى القرآني في السورة.

والنظر البيانيّ في مثل هذا مصروفٌ إلى ملاحظة بناء المعنى الكليّ من المعاني الجزئية الماثلة في الجملة القرآنية على اختلاف مقاديرها إيجازًا وبسطًا، وهو من قبيل التتميم والتكميل الذي هو وجه من وجوه التصريف؛ لأنَّ كلَّ معنى كليٍّ من تلك المعاني مكمِّلٌ ومتمِّمٌ لما قاربه في سورة سابقة على سورته، بجديد يناسب السياق الذي أقيم فيه.

والتَّدبُّر لما بين المعاني الكليّة في سورة ما، وبين المشابه لها في أخرى؛ أمر لا يأتي إلا من خلال طول الصحبة مع القرآن، ونفوذ الرؤية والمثابرة[1].

- المطلب السادس: تدبُّر المعاني الكلية الخاصّة:

لما كان كثير من المعاني الكليَّة جاء مصرفاً في أكثر من سورة، فإنَّ بعضَ هذه المعانِي قد خصَّت به سورةٌ دون غيرها، وفي تدبُّر هذا ما يُعينُ على معرفة الروحِ المُهَيمِنِ على تلك السورة.

فمثلاً: جاءت في سورة البقرة قصص لم تتكرر في غيرها؛ مثل: قصة البقرة، وهاروت وماروت، وتحويل القبلة، وفرض الصيام، وطالوت وجالوت، وغيرها.

وفي سورة يوسف، جاءت قصة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، بما لم تتكرَّر في سواها.

وسورة الكهف؛ اختصَّت بذكر قصة أصحاب الكهف، والخِضِر مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقصَّة صاحب الجنتين، وخبر ذو القرنين، وفي هذا دلالة إلى وجود رابط يوحِّد بين هذه القصص من جهة تجعلها أشدَّ تناسباً بمقصودها الأعظم، فاختصَّت بها من دون غيرها من السور.

---

(١) انظر: العزف على أنوار الذكر (٨٥-٨٦).

وتكاد كلّ سورة ولاسيَّما السور الطوال والمئين تنفرد بمعنى كلِّي لا يتصرَّف في غيرها، مثلما تجد في كلّ سورة من الطوال والمئين معنى هو تصريف لمعنى في غيرها.

ودراسة مثل هذا يكشف للمتدبِّر عن بعض معالم الرُّوح المهيمن على السورة، وبه يتبيَّن الوجه في عدم تصريف هذه المعاني في سور أخرى، ولله الحكمة البالغة حين قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾[الإسراء:٨٩][1].

- المطلب السابع: تدبُّر الفروق البيانية بين المعاني الجزئية المصرفة في السورة:

المعاني الكلية المصرَّفة في السور تتكوَّن من معانٍ جزئية، تمثِّلها الجمل القرآنية على اختلاف مقاديرها، وأكثر سور القرآن الكريم فيها غير قليل من المعاني الجزئية المصرَّفة المتشابهة في بعض وجوه النظم، مع معان جزئية في سورة أخرى.

وبالمثال يتضّح المقال: قال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران:١٣٣].

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[الحديد:٢١].

ما يبين الآيتين من تصريف المعاني ومن مشتبه النظم جليٌّ لا يخفى: ففي آية آل عمران؛ كان الأمر بالمسارعة، وفي آية الحديد؛ بالمسابقة، وكانت الجنَّة الموعود بها في آل عمران:

---

[1] انظر: العزف على أنوار الذكر (٨٧).

﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، والجنة الموعود بها في الحديد ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي آية سورة آل عمران كانت الجنة: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وفي آية سورة الحديد كانت الجنة: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾

آية آل عمران جاء سياقها: في الحَضِّ على الجهاد، وتعظيم فضله، والإبلاغ فى ذلك، وسورة آل عمران هي سورة التوحيد والاصطفاء والمصطفين الأخيار الذين من أهم صفاتهم الصبر والتقوى، وقد شاعت هاتان الصفتان في آيات السورة على نحو ظاهر.

وجاءت آية آل عمران عقيب بيان أسباب النصر وأسباب الخذلان، الذي من أهم أسبابه: الإقبال على الدنيا التي أشار إلى ذمها بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[آل عمران: ١٤].

وعقب الأمر بما تضمَّن الفوز والنجاة والقرب، جاء الأمر بالمسارعة إلى المغفرة وإلى جنة عرضها السموات والأرض، ويبيِّن أنَّ أولئك الذين أُعدَّت لهم هذه الجنة هم المتقون الذين تقدمت الإشارة إليهم كثيراً، الذين يتحلَّون بالزهد في الدنيا، والإنفاق في سبيل الله فيها.

أمَّا آية الحديد؛ فقد جاءت فى سياق الأمر بالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله ﷺ، والإنفاق في سبيل الله تعالى مما استخلفهم فيه، وحثَّهم على الإنفاق، ورغَّبهم في الإقراض الحسن ابتغاء أجرِ يومٍ كبير، ناعِياً عدم خشوع قلوبهم لذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وما نزل من الحق الداعي إلى الإيمان والإنفاق والإقراض، مؤكِّداً الحثَّ على الصدقة والإقراض، مبينًا حقيقة الدنيا ومتاعها، فالسياق الكليّ يدفع بطائفة ليست على المستوى الإيمانى العَلِيّ، فيدعوهم إلى المسابقة فيما بينهم إلى مغفرة وجنة عرضها كعرض السماء والأرض.

وهي جنة دون جنة آل عمران، التي أعدت للمتقين؛ لأنَّ أصحاب هذه الجنة إنما هم الذين آمنوا: الذين ما تزال فيهم رغبة فى الحياة الدنيا، ومنْ ثَمَّ كان الأمر هنا بالمسابقة لا بالمسارعة؛ لأنَّ المسابقة وإن تكنْ فعل من يسابق شخصاً، فهو يسعى في سبقه، إلاَّ أنَّها ربَّما كانت المسابقة بين بَطِيئَيْنِ يَسِيرَانِ الْهُوَيْنَا، فلا يلزم من المسابقة الإسراع، وهذا أليق بحال الذين لم يرتقوا إلى درج التقوى.

أمَّا المسارعة فلا تكونُ الاَّ بجهد النفس مع السُّرعة، وتحتاج إلى قوة واجتهاد، وهذا ما يتناسب مع حال من أعدت لهم جنة آل عمران؛ فإنَّهم قد بلغوا فى التقوى مبلغاً صارت التقوى صفة لهم.

وجاء جمع السموات فى سياق آل عمران، وحذف أداة التشبيه، وحذف المضاف، (عرض)؛ لأنَّ فى ذلك إبلاغاً فى وصف ما أُعِدَّ للمتقين، يتناسب مع سياق السورة، القائم على الإبلاغ في تحقيق الوحدانية، وفي تحقيق صفات المصطفين والأتقياء، فكان نظم آية آل عمران يحتمل المعنَى معه إرادة الطول والعرض معًا، أيْ عرض الجنّة هذه هو طول وعرض السماوات جميعها والأرض، فلم يذكر كلمة العرض ليشمل إرادة الطول والعرض معاً، مضافاً إلى أنها ليستْ طول وعرض سماءٍ واحدةٍ، بل السماوات كلها، ومضافاً إلى ذلك – أيضًا – أنَّ عرض هذه الجنة ليس مقارباً أو مشابهاً عرض السماء والأرض، كما في سورة الحديد، بل هو طول وعرض السموات جميعاً والأرض، بل والأرضين، بدلالة جمع السماوات، فالقرآن الكريم لا يجمع الأرض، وإنَّما تفهم إرادة الجمع من عطف الأرض على جمْع السماء: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢][١].

---

[١] انظر: ملاك التأويل (١/ ٩٠)، نظم الدرر (٥/ ٧٣)، العزف على أنوار الذكر (٨٩-٩٢).

- المطلب الثامن: تحليل السُّورة إلى أقسام ومعاقِد كلّية:

ويقصد بالتحليل: تجزئة الكلِّ إلى عناصر رئيسة ثم تجزئة العناصر إلى فروع، ثم تجزئة الفروع إلى أجزاء وهكذا. والقرآن الكريم في مجموعه مؤلف من (١١٤) سورة، غالبُ سُوَرِه تتضمَّن عدداً من الموضوعات، والأساس في تحليل السور هو النظر إلى ما تحمله الموضوعات من معان.

وبعد التعرُّف على المعنى العام الذي تدور حوله السور؛ يجدر بالمتدبِّر أن يدرك المعنى الإجمالي للموضوعات الرئيسة التي تطرَّقت إليها السورة الواحدة، وذلك مقترن بتحليل السورة من حيث المعنى إلى أقسام ومعاقد، وكل قسم يبحث في فكرة.

وكلُّ قسم من الأقسام التي تحلل إليها السورة له موضوع يدور حوله كلام يشرح شيئاً عن ذلك الموضوع، فالتقسيم على هذا الأساس هو تقسيم من حيث ما يتضمَّنه كل قسم من معنى، وليس تقسيماً من ناحية عدد الألفاظ أو عدد الآيات أو نحوها.

فيتدبَّر المعنى الإجمالي للآية، ويتأمَّل فيه، ثم ينظر فيه مقترنا بالآيات في السياق، ويقارنها بموضوعات السورة العامة، فيخلُص إلى تدبُّر عام دقيق.

والغالب على سور القرآن الكريم أن تكون ذات معان كليَّة، تمثِّل معاقد لبناء السورة الكليّ، وتحرير معالم هذه المعاقد -مبتدأ ومنتهى-؛ إنَّما يُحسنه المتدبِّر من طول القراءة والنظر والتأمُّل في السورة، وبه يصبح المعنى الكليّ مستحضَراً لديه، فيتأتى له إبصار معالمه، ثمَّ تحديدها، ولهذا أهميَّة بالغة في الوقوف على مدارج المعنى القرآنيّ في السورة، الذي به تتحقق معرفة حركة المعنى في سياقها، وأهمية أيضاً في معرفة مواقع هذه المعاني الكلية في السورة، على مدرجة المعنى القرآنيّ فيما سبق السورة محلَّ التدبُّر.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢]، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣]، **قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤]، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-، فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٧]، **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**»[1].

ولعلَّ في هذا الحديث إشارة إلى هذا التحليل، حيث جعل سورة الفاتحة نصفان من حيث المعنى؛ النصف الأول: تحميد الله تعالى والثناء عليه، والثاني: سؤال وتضرع.

والمراد بالصلاة في هذا الحديث الفاتحة، سميت بذلك لأنَّ الصلاة لا تصحُّ إلا بها.

إنَّ تقسيم السورة إلى معاقد، أساسه ارتباط المعاني الجزئية، في تشكيل وحدة كلِّية واضحة للسورة، تمتاز به عن سابقتها ولاحقتها.

وسورة البقرة -على سبيل المثال-، على طولها، وامتداد نزول آياتها على سنوات، والتي ربما يظنُّ أعجمي القلب واللسان فيها عدم الترابط بينها، إلا أنَّ القراءة الواعية المتدبِّرة تظهر أمرًا غير الذي يحْسبه من كان أعجميَّ القلب واللسان.

وعلى سبيل المثال: فقد قسَّم الشيخ محمد دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٣٧٧هـ): وحدة سورة البقرة تحت عنوان: (نظام عقد المعاني في سورة البقرة)؛ إلى: مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم: (٣٩٥) في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها.

المقدمة: في التعريف بشأن هذا القرآن، وبيان أنَّ هداياته قد بلغت حدًّا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم، وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو من في قلبه مرض.

المقصد الأول: في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

المقصد الثاني: في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم، والدخول في هذا الدين الحق.

المقصد الثالث: في عرض شرائع هذا الدين تفصيلًا.

المقصد الرابع: ذكر الوازع والنازع الديني الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع وينهى عن مخالفتها.

الخاتمة: في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم[١].

ثُمَّ ختم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان نظام عقد المعاني في سورة البقرة بقوله: (لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات، وفي أساليب تربيته معجزات، وفي نبوءاته الصادقة معجزات، وفي تشريعاته الخالدة معجزات، وفي كلِّ ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات،... إنه في ترتيب آيه على هذا الوجه؛ لهو معجزة المعجزات)[٢].

---

[١] انظر كتابه: النبأ العظيم، صـ(١٩٦) وما بعدها، وقد فصَّل تفصيلاً يحسن الرجوع إليه في تفصيل هذه المعاقد، وبيَّن الترابط بين موضوعات الآيات، وترتيبها، وتآلفها النظمي.

وممن اعتنى بهذه الطريقة: سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الظلال، وعبد المتعال الصعيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في النظم الفني في القرآن، ومن نظر في صنيعهم، وصنيع كثير نحوهم؛ سيجد اختلافاً فى تباين الفصول والمعاقد بدءاً وانتهاء، وربما كانت كثيرة عند أحدهم لتفصيله، وقليلة عند آخر لإجماله، وهذا مردُّه - غالباً- إلى أمرٍ ذاتيٍ يختلف باختلاف المتدبر.

[٢] النبأ العظيم (٢٨٤).

إنَّ تقسيم السورة إلى حلقات تجمع في محيطها مجموع المعاني الجزئية التي تشكِّل معنى كلياً؛ هو أساسٌ لاستبصار العلاقات بين معاني السورة على نحو محكم، ذلك أنَّ استبصار علاقة المعنى الجزئي بغيره في محيط حلقة من حلقات المعنى القرآنيّ للسورة؛ أقرب إدراكاً، وأيسر تحصيلاً، من استبصار علاقته بمعنى جزئيّ في محيط حلقة أخرى من حلقات السورة، لأنَّ تلك العلاقة ذات خفاء لا علاقة له بوثاقه الاعتلاق أو وَهَنِهِ، فقد يكون وجه الاعتلاق خفياً الا أنه جد وثيق.

واستبصار السورة آية آية دون تقسيمها إلى فصول ومعاقد كلية؛ يُضعف قدرة المتدبِّر على إدراك معالم المقصود، والغرض الأعظم للسورة، فإنَّ انشغاله بتلاحم الآية بالآية التى بعدها لا يعينه على مدِّ بصره إلى أفق أبعد، لكن استبصار التلاحم بين آيات المعقد الواحد أقرب وأمكن، ثمَّ من بعده استبصار علائق المعاقد بعضها ببعض، وخضوعها لغرض رئيس، ومقصود أعظم.

إنَّه يمكن للمتدبِّر تقسيم حزبه من القرآن بحسب الأقسام الكلية، وليس من الضروري أن يكون وفق التقسيم إلى أجزاء وأحزاب الكائنة في المصحف، لاسيما وأنه ليس توقيفياً، فالمعيار القويم لتقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع وأثمان إنما هو المعاقد الكلية للسورة، وليس عدد الأسطر والكلمات، وليس الزمن الذي يستغرقه القارئ في تلاوتها، فيكون لكلِّ قسم زمن مساوٍ للزمن اللازم لتلاوة القسم الآخر، وليس التحليل تبعاً لعدد الآيات، بل هو تحليل من ناحية ما تضمنته الأقسام من موضوعات ذات معنى، بحيث يدور كل قسم حول موضوع معين.

ولتحقيق أغراض التدبُّر لا يصحُّ أن يكون الوقف في التلاوة عند موقف لا يكتمل فيه المعنى، ومن باب أولى لا يجوز الوقف في التلاوة دون أن تكتمل الجملة[1].

---

[1] انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم- مختار كمال (١٤٧-١٥٠)، العزف على أنوار الذكر (٩٩-١٠٦).

- المطلب التاسع: التَّحْليل البياني لكلمات وجمل وآيات السورة:

إنَّ ما سبق بيانه من خطوات لمنهج المتدبِّر ضروري لإنجاز الرؤية النظرية لمعالم التحليل للسورة، إلا أنه يكمل بالتحليل الدقيق التفصيلي لكلمات السورة وجمَلها.

فالتحليل البياني للسورة، سبب في اكتساب المتدبِّر لمضامين هدى الآيات العقدية والسلوكية في النفوس، والقناعة والرضا القلبي، المثمر زهداً في كلِّ ما يشغل عن التلذُّذ بالعبودية لربِّ العالمين، فهي الثواب الحقيقيّ للإخلاص في كلِّ طاعة مما يجعل ذائقها في الفردوس، وهو لا يزال في الدنيا.

وكلُّ أنواع التدبُّر المفتقرة إلى منهج التحليل البياني للسورة؛ عاجزة عن تحقيق هذين الأمرين معاً.

إنَّ رسالة المتدبِّر ليست مقصورة على استكشاف المضمون التشريعيّ التثقيفي، بل ذلك فريضة استنبات القناعة والرضا القلبي بذلك المضمون، ثمّ استثماره في توليد الطاقة الإنجازية لذلك المضمون، فلا قيمة لاستكشاف معالم التشريع والتثقيف بل هي له مجموعاً إليه استيلادُ دوافع الإنجاز والإتقان.

وإذا عجز التحليل البياني للسورة عن استيلاد دوافع الانجاز والإتقان في نفس المتلقي؛ فإنَّ مردَّ ذلك إلى نقصٍ في تناول عناصر السورة بالتحليل، أو إلى خلل في تصور معالم ذلك التحليل، أو في توظيف ذلك التصور توظيفاً متلائماً مع شخصية السورة التي هي مناط التحليل، فإنَّ منهاج التوظيف لتلك المعالم تختلف من سورة إلى أخرى، ولا مسوغ البتة إلى إسقاط ما يصلح لسورة ما؛ على سائر السور الأخرى، لما بينها من تغاير مضموني وبنائي، يرمي في سياق كليّ إلى غاية واحدة.

إنَّ التحليل البيانيَّ للسورة هو قراءة إنتاجية فاحصة لكلِّ عناصرها فحصاً كاشفاً عن قيمة كلِّ عنصر، وعلاقته في تشكيل الوجود الدلاليّ للسورة، مثلما كان له قيمة في تشكيل وجودها اللغوي المقروء أو المسموع، وهو سبيل من سبل حسن القيام بالاستجابة لأوّل أمر إلهيّ في الإسلام: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١].

فليس المراد مجرَّد قراءة نظرية بصرية، وإنما قراءة يعيها القلب، وتعمل بمقتضاها الجوارح، وقراءة استيعاب للكون محسوسه ومعقوله، استيعاباً يُفعم النفس، ويسيطر على منهج السلوك المعرفيّ، والحركة المشكّل وجوداً جديداً للإنسان، كي يحقق رسالة الاستخلاف العظمَى، والشهادة على الأمم الأخرى، فتنال به الأمة مقام الخيريّة.

فالقراءة التحليلية للقرآن سبيل إلى تحقيق تلك القراءة المأمور بها في سورة العلق.

وفي ذلك يقول الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٠٣هـ): (واعلم أنَّ هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه، وهو أدقُّ من السِّحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر.

وكيف لا يكون كذلك: وأنت تحسب أن وضع ﴿ٱلصُّبۡحُ﴾ في موضع ﴿ٱلۡفَجۡرِ﴾ يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعراً أو سجعاً؟ وليس كذلك، فإنَّ إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرانها، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى - لو وضعت موضعها - في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار...

فإن كنت لا تعرف الفصل الذي بينا بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام، ومتصرفات مجارى النظام، لم تستفد مما نقرُّ به عليك شيئاً، وكان التقليد أولى بك، والاتباع أوجب عليك.

ولكلِّ شئ سبب، ولكل علم طريق، ولا سبيل إلى الوصول إلى الشئ من غير طريقه، ولا بلوغ غايته من غير سبيله)[1].

ومنهج القراءة التحليلية يقوم على التحليل والتأويل والتعليل.

قال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٧١هـ): (لا يكفي في علم الفصاحةِ أن تَنْصُبَ لها قياساً ما، وأن تَصِفها وصْفاً مُجْملاً، وتقولَ فيها قولاً مُرْسَلاً، بل لا تكونُ مِن مَعرفتها في شَيءٍ حتى تُفصِّل القولَ وتُحصِّلَ، وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعْرِضُ في نَظْم الكَلِم وتَعُدُّها واحدةً واحدة، وتُسمّيها شيئاً شيئاً، وتكونُ معرفتك معرفة الصنع الحاذف الذي يعلم علم كل خيط من إلا بريسم الذي في الدِّيباج، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المنجورة في الباب المقطع، وكل جره منَ الآجرِّ الذي في البناء البديع)[2].

فالاستقصاء والتحليل دعامتان رئيسيتان في منهج التفكير البيانيّ، فالإجمال، والاكتفاء بظاهر البيان مما يتحرَّز منه التفكير البياني، ولذا يُذَكِّرُ به عبد القاهر في مواضع عديدة من كتابه؛ ليكون المتدبِّر على ذكر من أهميته.

من ذلك قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واعلمْ أنك لا تَشْفي الغُلَّة، ولا تنْتهي إِلى ثلجِ اليقينِ، حتى تتجاوزَ حدَّ العلمِ بالشيء مجْملاً، إِلى العِلْم به مفصَّلاً، وحتَّى لا يُقْنِعَك إِلاّ النظرُ في زواياهُ، والتَّغلغلُ في مكامنه، وحتى تكون كمَنْ تتَبَّع الماءَ حتى عرَفَ منْبَعَهَ، وانتهى في البحثِ عن جوهرِ العُود الذي يُصْنَع فيه إِلى أنْ يعْرِفَ منْبِتَه، ومَجرى عُروقِ الشجرِ، الذي هو منه)[3].

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (١٨٤).

(٢) دلائل الإعجاز (٣٧).

(٣) دلائل الإعجاز (٢٦٠).

ومن الأمثلة التي ذكرها، وبيَّن المراد من خلالها، آية هلاك قوم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ونجاة السفينة، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهل تشكُّ إذا فكَّرْت في قولهِ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:٤٤]، فتَجلَّى لك منها الإعجازُ، وبَهرَكَ الذي تَرى وتَسْمَعُ أنك لم تجِد ما وَجَدْتَ منَ المزيَّة الظاهرة، والفضيلة القاهرة، إلا لأمر يَرجعُ إلى ارتباطِ هذه الكَلِم بعضِها ببعضٍ، وأن لم يَعرِضْ لها الحُسْنُ والشرفُ إلاَّ مِنْ حيثُ لاقَتْ الأُولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا، إلى أن تستقريَها إلى آخِرها، وأنَّ الفضلَ تناتَج ما بينها، وحصَل من مجموعها؟.

إن شككْتَ، فتأملْ: هل ترى لفظة منها بحيثُ لو أُخِذَتْ من بين أَخواتها وأُفردتْ، لأَدَّت منَ الفصاحة ما تُؤدِّيه وهي في مكانها منَ الآية؟ قُل: ﴿ٱبۡلَعِي﴾، واعتبرْها وحدَها من غيرِ أن تَنْظُرَ إلى ما قَبْلَها وما بعدَها، وكذلك فاعتبرْ سائرَ ما يليها.

وكيفَ بالشكِّ في ذلك، ومعلومٌ أنَّ مبْدَأ العظمةِ في أن نُوديت الأرضُ، ثم أُمرَتْ، ثمَّ في أنَّ كان النداء بــ (يا)، دُوْنَ "أيّ"، نحوُ "يا أيتها الأرضُ"، ثمَّ إضافةِ "الماءِ" إلى "الكافِ"، دونَ أن يقالَ: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، ثم أنْ أُتبعَ نداءُ الأرض وأمرُها بما هو من شأنها، نداءَ السماء وأمرَها كذلك، بما يَخصُّها، ثم أنْ قيل: و﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾، فجاء الفعلُ على صيغة "فُعِل" الدالَّةِ على أنَّه لم يَغِضْ إلاَّ بأَمر آمرٍ، وقُدرةِ قادرٍ، ثمَّ تأكيدُ ذلك وتقريرُه بقولهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، ثمَّ ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ ثمَّ إضمارُ السفينة قبل الذكْر، كما هو شرطُ الفخامةِ والدلالةِ على عِظَم الشأن، ثمَّ مقابلة "قيل" في الخاتمة "بقيل" في الفاتحة؟ أَفتَرى لِشيءٍ من هذه الخصائصِ التي تملوك بالإعجازِ روعةً، وتحضُرُكَ عندَ تصورِها هيبةٌ تُحيطُ بالنفس من أقطارِها؛ تعلُّقاً باللفظ من حيثُ هو صوتٌ مسموعٌ، وحروفٌ تَتوالى في النُّطق؟ أم كلُّ ذلك لما بينَ معاني الألفاظِ مِنَ الاتِّساقِ العجيب؟.

فقد اتَّضحَ إذن اتِّضاحاً لا يَدَعُ لِلشكِ مجالاً، أنَّ الألفاظَ لا تتفاضَلُ من حيث هي ألفاظٌ مجرَّدة، ولا من حيثُ هي كلمٌ مفردةٌ، وأن الفضيلة وخلاقها، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبهَ ذلك، مما لا تَعلُّقَ له بصريحِ اللفظ)[1].

---

[1] دلائل الإعجاز (٤٥-٤٦).

وقد ذكر أيضاً الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٠٣هـ) أمثلة لذلك في كتابه إعجاز القرآن (١٨٦-١٨٨)، ومن ذلك قوله: (فكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره، من أنه نور، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، فانظر -إن شئت- إلى شريف هذا النظم، وبديع هذا التأليف، وعظيم هذا الرصف؛ كل كلمة من هذه الآية تامة، وكل لفظ بديع واقع.

قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾: يدلُّ على صدوره من الربوبية، ويبين عن وروده عن الآلهية.

وهذه الكلمة بمنفردها وأخواتها؛ كل واحدة منها لو وقعت بين كلام كثير؛ تميَّز عن جميعه، وكان واسطة عِقده، وفاتحة عَقده، وغرَّة شهره، وعين دهره.

وكذلك قوله: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ فجعله روحاً، لأنه يحيي الخلق، فله فضل الأرواح في الأجساد، وجعله نوراً؛ لأنه يضيء ضياء الشمس في الآفاق.

ثم أضاف وقوع الهداية به إلى مشيئته، ووقف وقوع الاسترشاد به على إرادته، وبيّن أنه لم يكن ليهتدي إليه لولا توفيقه، ولم يكن ليعلم ما في الكتاب ولا الإيمان لولا تعليمه، وإنه لم يكن ليهتدي - فكيف كان يهدي - لولاه، فقد صار يهدي، ولم يكن من قبل ذلك ليهتدي، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث: فالكلمتان الأوليان مؤتلفتان، وقوله: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلمة منفصلة مباينة للاولى، قد صيرهما شريف النظم أشد ائتلافاً من الكلام المؤالف، وألطف انتظاماً من الحديث الملائم.

وبهذا يبين فضل الكلام، وتظهر فصاحته وبلاغته، الأمر أظهر والحمد لله، والحال أبين من أن يحتاج إلى كشف.

تأمل قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

=

إنَّ مما يعين على التحليل؛ أن يقرأ المتدبِّر القرآن آية آية، ثم يرجع للآية كلمة كلمة، وما أشكل معناه من الألفاظ بحث عنه في كتب التفاسير الموثوقة، أو كتب غريب القرآن لأنها أيسر، فيحلل معناها تحليلًا لفظيًّا؛ ليفهم المعنى، ثم بعد ذلك ينظر في معاني الآية الكلية.

❖ **مراحل تحليل الجمل والآيات:**

المرحلة الأولى: تحليل كلِّ قسم خاص بموضوع إلى جمَل[1].

ويقصد بالجملة التركيب الذي له معنى مفيد سواء كان جملة بسيطة أو مركبة، واستكمالاً لعملية التحليل يعالج القسم الذي يعبر عن وحدة موضوعية بتحليله إلى موضوعات جزئية، كل جزء مؤلف من جملة مفيدة رئيسة كاملة المعنى، وعند التدبُّر يطلب التمييز بين الجمل الكاملة الرئيسة والجمل الجزئية والجمل الفرعية (المعترضة وغير المعترضة)، مع مراعاة الجمل المحذوفة في نطاق إيجاز الحذف.

والجملة الكاملة المعنى: هي الجملة المفيدة، سواء أكانت بسيطة التركيب أو مركبة، والجملة المفيدة هي التي تنتهي بكلمة لا يتعلَّق ما جاء بعدها بها أو بما قبلها، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى، وقد يكون انتهاء الجملة في رؤوس الآيات أو في ثنايا الآية،

أنظر إلى هذه الكلمات الأربع التي ألف بينها، واحتجَّ بها على ظهور قدرته، ونفاذ أمره، أليس كل كلمة منها في نفسها غرة؟ وبمنفردها درة؟ وهو - مع ذلك - يبين أنه يصدر من علو الأمر، ونفاذ القهر، ويتجلى في بهجة القدرة، ويتحلَّى بخالصة العزة، ويجمع السلاسة إلى الرصانة، والسلامة إلى المتانة، والرونق الصافي، والبهاء الضافي) ا.هـ، وفصَّل في ذكر أمثلة أخرى يحسن الرجوع إليها، فاستيعابها معينٌ على التدبُّر.

[1] كثير من المتقدمين يطلقون على الجمل: كلمات، ومن ذلك قول الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤٠٣هـ) في كتابه إعجاز القرآن (١٩٣)، في قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤]: (هذه تشتمل على ستِّ كلمات، سناؤها وضياؤها على ما ترى، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد، ورونقها على ما تعاين، وفصاحتها على ما تعرف).

وليس من الضروري أن يكون عند نهاية الآية، وانتهاء الآية كذلك ليس من الضروري أن يكون واجباً في نهاية الجملة بل ذلك جوازاً.

وعند تحليل القسم إلى جمل رئيسة مفيدة كاملة، لا بد من إدراك المعنى الإجمالي لكل جملة كاملة في سياق المعنى العام للقسم، وفي ضوء ذلك يتمُّ التحليل.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤].

تتألف هذه الآية من الجمل الثلاث المستقلة التالية:

الجملة الأولى: جملة بسيطة، وهي: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

الجملة الثانية: جملة مركبة، وهي: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

الجملة الثالثة: جملة بسيطة، وهي: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

والجملة المركبة المذكورة آنفاً تتألَّف من الفروع والأجزاء التالية:

١- ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾، وأجزاؤها: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾، ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾، ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾.

٢- ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

٣- ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾.

وعلى هذا الأساس يكون الوقف عند التلاوة على نهايات الجمل المستقلة الثلاث، ولا يجوز أن يكون الوقف على كلمة ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ لئلا يختلف المعنى المقصود.

مثال آخر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾[النساء:١٧١].

تتألف هذه الآية من جملتين انشائيتين:

الأولى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾تفيد النهي.

والثانية: ﴿ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾، وتفيد الأمر، يؤكد هذا بحركة الضم على الهاء في كلمة: ﴿ٱنتَهُوا۟﴾، إذ لو كانت الحركة فتحة، لكانت الجملة خبرية وأولها كلمة: ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾.

ومن المهمِّ: النظر في الكلمات القرآنية من وجوهها المختلفة، وعلاقة تلك الوجوه بالسياق الجزئي الذي تنسج فيه، وبالسياق العام للسورة كلها، ثمَّ علاقتها بالسياق القرآني كله.

وينظر المتدبِّر إلى مادة الكلمة القرآنية،والعطاء الدلالي لتلك المادة في سياقها، من نحو أن ينظر كيف ذكر القرآن الكريم كلمة: ﴿إِبْلِيسَ﴾ في سياق الامتناع عن السجود، ولم يذكر كلمة ﴿شَيْطَٰنٍ﴾ في هذا السياق، وكذلك لم يذكر كلمة ﴿إِبْلِيسَ﴾ في سياق إغواء آدم وحواء، بل ذكر كلمة ﴿شَيْطَٰنٍ﴾ على الرغم من أنهما اسمان لذات واحدة.

وكيف أنه عبر بكلمة ﴿قَرْيَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف:٧٧].

وعبر بكلمة (مدينة) على البقعة نفسها فى قوله سبحانه: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾[الكهف:٨٢].

ومن نحو اصطفاء القرآن الكريم كلمة: ﴿يَثْرِبَ﴾ في سياق حكاية مقالة المنفقين في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾[الأحزاب:١٣].

ولم يرد ذلك في غيرها، وإن وردت مادة (الثرب) في قول الله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف:٩٢].

ومن نحو اصطفاء كلمة: ﴿إِنسَٰنٍ﴾ في سياقات الذمِّ، ولم يصطفها في مقام تكريم.

- ومعرفة الوقوف المناسب ركن من أركان ترتيل القرآن المجيد، وذلك الترتيل الذي أمر به رب العالمين جلَّ ثناؤه في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤]، والغاية من الترتيل إدراك المعنى المراد من آيات الذكر الحكيم.

والوقوف المناسب يزيد المعنى جلاء، وينبه القارئ إلى تدبُّر المعنى تدبُّراً متقناً، ومع ذلك فالوقوف في التلاوة لا يتعين إلاّ في الحالة التي تستوجب الوقف من حيث المعنى لمنع الالتباس الذي ينشأ من عدم الوقف، فإذا أمكن القارئ أن يتلو آيات أو عبارات طويلة دون توقُّف فله ذلك، على ألا يضطر إلى وقف غير مناسب، وإذا اضطر إلى ذلك فعليه أن يعيد تلاوة جزء مما وقف عليه، من مكان مناسب للابتداء بما بعده لتكون الجملة تامة المعنى.

ويجدر عند التدبُّر أن يتأمَّل القارئ الفرق بين الجملة الاسمية التي تفيد الاستمرار والدوام والثبات، والجملة الفعلية التي تفيد التجدد كما هو في الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢].

ويجدر بالمتدبِّر أن يتأمَّل عند التحليل في نوع الجملة، هل هي جملة خبرية، أو إنشائية: طلبية أو استفهامية، أو هي جملة معترضة، كذلك فعل الأمر؛ هل هو للإلزام أم للإباحة، أو للتهديد، أو للتهكم، أو هو للدعاء أو التبكيت أو التقريع، كما يجدر التفكير بنوع الاستفهام إذا وجد هل هو للاستعلام والاستيضاح، أو للتقرير أو للتقريع والتوبيخ، أو للتعجب أو للتبعيد والنفي.

مثال ذلك في قوله: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦١]، الأمر للإلزام.

أما في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧]، فالأمر هنا للإباحة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣]، فالأمر هنا للتعجيز.

المرحلة الثانية: تحليل الجمل إلى كلمات.

إنَّ "أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن؛ العلوم اللفظية، ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللّبِن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبنيه..."[١].

وتحليل الجمل إلى كلمات يقصد منه: إدراك معاني المفردات في سياق المعنى العام للجملة والقسم؛ دون الاكتفاء بمعنى الكلمة منفردة، وفق مألوف القارئ، وهذا يتطلَّب التمييز بين المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، كما يتطلَّب إدراك المعاني المختلفة المتشابهة الحروف المختلفة بالحركات، كما يجدر التمييز بين الكلمات المترادفة بالمعنى، والوقوف على خصوصية المعنى المقصود مع مراعاة الشمول، كما يجدر التأمل في موقع الكلمة من حيث التقديم والتأخير لإدراك الغرض من ذلك.

ويتَّضح المقال بالمثال:

أولاً: التمييز بين المعاني المختلفة للكلمة الواحدة:

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب (٥٤).

في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [النحل:٨٥]، فكلمة ﴿يُنظَرُونَ﴾ بضمِّ الياء بصورتها المنفردة؛ لها أكثر من معنى، وهي إما أن تعني: تقع عليه الأبصار، أو تعني ما حدده السياق هنا، أي: يُمهلون أو يؤخَّرون، ولا يُرْجَئُون بالعقاب، لأنَّ وقت التوبة والإنابة قد فات[1].

مثال آخر في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ [الأعراف:٤]، فكلمة: ﴿قَآئِلُونَ﴾ في هذه الآية حسب سياق المعنى العام، هي من القيلولة، وهي النوم وسط النهار أو الاسترخاء، وليست من القول، فالسياق العام هو الذي حدّد المعنى المقصود من الكلمة كما هو واضح[2].

ثانياً: مراعاة الحركة الصحيحة على الكلمة.

ويتطلَّب التدبُّر في الكلمات؛ التأمل في أثر اختلاف الحركات في الكلمات المتفقة بالحروف، وأثر ذلك في اختلاف المعنى.

ومن أمثلة ذلك: كلمة (رَجْل)، تختلف حركاتها، وينتج عنه اختلاف المعنى، في قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء:٦٤]، كلمة: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ في هذه الآية تعني: الجند والمشاة، والكلمة أصلها راجل، والآية تعني: صِح عليهم بأعوانك وجنودك من كل راكب وماشي في المعصية[3].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ٢٧٥).

(٢) انظر: السابق (١٢/ ٢٩٩).

(٣) تفسير العز بن عبد السلام (٢/ ٢٢٤).

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص:٤٢]، جاءت كلمة: ﴿بِرِجْلِكَ﴾لتعني رِجْل الإنسان، فركض برجله ركضة وهو لا يستطيع القيام، فإذا عين فاغتسل منها[١].

أما كلمة: ﴿رَجُلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:٣١]، فهو المعنى المعروف، والمؤنث منه إمرأة.

ثالثاً: الوقوف على خصوصية المعنى من الكلمة.

فعلى المتدبِّر أن يفكِّر بخصوصية المعنى من الكلمة الواردة في الآية، وإدراك الفروق الدقيقة بين المترادفات، ففي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النور:٢٧]، جاءت كلمة ﴿تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ بمعنى تستأذنوا، ولم تأت: (تستأذنوا)، رغم اتفاقهما بالوزن والايقاع، وفي الآية ما يتفق مع كلمة الاستئذان، حيث ورد في الآية التالية كلمة يؤذن: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾[النور:٢٨]، فسرُّ ذلك — والعلم عند الله- يظهر عند تدبُّر الفرق الدقيق بين العبارتين، فالغاية من الإرشاد الرباني أن تكون الزيارة مرغوباً بها وفيها ائتناس وود، وليست مجرَّد زيارة تتمُّ بإذن مجرَّد، قد يكون صادراً عن غير رغبة حقيقية، فليأنس إلى إذنهم له في ذلك، ويأنسوا إلى استئذانه إياهم[٢].

وعند التحليل إلى كلمات يجدر بالقارئ أن يتأمَّل إيجاز الحذف، أي ما حذف في الجملة من كلمات، مثل قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾[البقرة:٩٣]، فحذف كلمة: (حب) أي دخل قلوبهم حبُّ العجل، وهذا من أساليب البلاغة.

---

[١] انظر: تفسير يحيى بن سلام (١/ ٣٣٣)، تفسير عبد الرزاق الصنعاني (٣/ ١٢٣).

[٢] انظر: تفسير الطبري (١٩/ ١٤٩).

ومن أنواع التدبُّر في المفردات: التأمل في سرِّ اختيار الكلمة في سياق الجملة، ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي﴾، جاءت: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وأحياناً قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وفي غيرها: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، وذلك حسبما يقتضيه السياق، فقد ذكرت كلمة: ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ في أعقاب آية تدلُّ أولها على معنى الفسوق، وهو الخروج عن الإيمان كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

وجاءت كلمة الظالمين في أعقاب الآية التي كان أولها متفقاً مع الظلم، وهي قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف:٧].

وجاءت كلمة (الكافرين) في ختام الآية تضمنت عدم الإيمان بالله واليوم الآخر. وذلك هو الكفر كما هو في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤].

ومن إعجاز القرآن الكريم مراعاة النظير، ويلحظ ذلك في أماكن عديدة من القرآن الكريم، حيث جاءت كلمتا ﴿غَفُورٞ﴾ و﴿رَّحِيمٌ﴾ مجتمعتين في (٧٢) موضعاً أو يزيد، وجمعت كلمتا ﴿سَمِيعٌ﴾ و﴿بَصِيرٌ﴾ في (٩) مواطن، وكلمتا: ﴿خَبِيرٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾ في (٥) مواطن، ونحو ذلك من أمثلة كثيرة.

ومن توابع التدبُّر في الكلمات: التأمل في ترتيبها في الجملة، لإدراك الفرق في المعنى، فهناك فرق مثلاً بين: (والظالمون هم الكافرون) وعبارة: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وهناك سرٌّ بالترتيب في آية الوضوء؛ حيث قدَّم مسح الرأس على غسل الأرجل[1].

المرحلة الثالثة: تحليل الألفاظ.

ويقصد بذلك تحليل الكلمات التي تألفت منها العبارة إلى أجزاء، مع دراسة تلك الأجزاء في ضوء معنى الكلمة، ويقصد بالأجزاء الحروف مع حركاتها، لتمييز الحروف الأصلية التي تتألف منها الكلمة، وما لحق بها من ضمائر متصلة، أو حروف معان، أو حروف زائدة كتابة لا نطقاً، مع التأمل بالحروف المحذوفة، كتابةً ونطقاً، أو حذفت نطقاً لا كتابةً، وكذا التأمل بالحروف البديلة، وهي الحروف الصغيرة التي أضيفت إلى الكلمة لتدل على نطقها الصحيح.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:١٤].

الألف في قوله: (ربنا ، وربطنا ، قلنا) حرف ينطق ويكتب، وهو جزء صغير من ضمير جمع المتكلم، وهذا الضمير في كلمة ﴿رَبُّنَا﴾ مضاف إليه، وفي كل من الكلمتين الأخريين دلَّ على الفاعل.

وكلمة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ تحلل إلى كلمة أرض المؤلفة من ثلاثة أحرف، ودخل عليها أل التعريف وسبقت بواو العطف، وأما الألف الثانية في كل من الكلمتين: ﴿قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ فهي حرف لا يُنطق، وقد ظهر كتابة بعد واو الجماعة.

---

[1] انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم- مختار كمال (١٥١-١٧٦).

والألف في كلمة: ﴿نَّدْعُوَاْ﴾ حرف زائد ظهر في رسم في المصحف، دون النطق، ولا يكتب في الكتابة العادية، لأنَّ حرف الواو ليس للجماعة، بل من أصل الكلمة.

وأما الألف الأولى في كل من الكلمتين: (فقالوا ، قاموا) فأصلها (واو)، وعند تحليل الكلمة ﴿قَامُواْ﴾ يتبين أنها فعل ماضٍ مؤلف من (ق،ا،م) وأصل الفعل (ق وم) فالألف أصلها واو، وهذا الفعل اتصلت به الفاعل وهو ضمير الواو الدال على الجماعة لحق به الألف، وقد سبق الفعل حرف العطف الفاء.

وكلمة: ﴿نَّدْعُوَاْ﴾، فعل مضارع مؤلف من حرف المضارعة النون، والحروف (د ، ع ، و) والواو من أصل الكلمة، ظهرت عليها الفتحة؛ لأنَّ الفعل منصوب بالأداة (لن)، أما الفاعل فهو ضمير مستتر تقدير نحن، والألف في رسم المصحف زائدة.

وكلمة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهي جمع تأنيث لكلمة (سماء) مسبوقة بأل التعريف، وتحليلها بعد أداة التعريف إلى الأحرف: (س ، م ، ا ، و، ا ، ت).

وفي الجملة: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾[النحل:٤١]، تحلل كلمة ﴿وَلَأَجۡرُ﴾ إلى (أجر) المؤلفة من الهمزة والجيم والراء، مسبوقة بلام التأكيد، وقبلها واو الاستئناف.

وكلمة: ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تحليلها إلى أل التعريف الهمزة ثم يليها الألف الممدودة والخاء والراء وتاء التأنيث المربوطة مع ملاحظة اختلاف الرسم في المصحف الكتابة العادية.

- والدقة في التدبُّر تتطلب من القارئ أن يتعرف على الكلمة غير المجردة، التي زيد عليها حروف؛ فتحلل إلى أصلها أولاً، ثم ينظر إلى الحروف المضافة وهل هي حروف مبانٍ أو حروف معانٍ ، أو ضمائر.

مثال ذلك، في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾[النصر:٣]. فكلمة: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾أصلها (غفر)، زيدت عليها حروف البناء الهمزة والسين والتاء، وتدلُّ هذه

الزيادة على الطلب، أي طلب المغفرة، والواو في أول الكلمة حرف عطف، والهاء في آخر الكلمة ضمير متصل يعود على ﴿رَبِّكَ﴾.

- وعند تحليل الكلمة: يراعى أن يتمَّ التحليل على الكلمة في حقيقتها وأصلها وواقعها، دون النظر إلى رسمها في المصحف، إذ هناك حروفٌ زائدة أحياناً في الكتابة، كما أن هناك حروفاً محذوفة أحياناً أخرى.

ومن أمثلة ذلك: كلمة ﴿يَتْلُواْ﴾ فعل مضارع جاء في آخره حرف لا يُقرأ وهو الألف، ويحلل الفعل المضارع إلى حرف المضارعة في أوله وهو الياء، ثمَّ الأحرف التي يتألف منها الفعل المضارع: التاء واللام والواو التي جاءت بصورة أصلها، الذي حول في الفعل الماضي إلى الألف، وفاعل الفعل ضمير مستتر تقديره: (هو) يعود على كلمة سابقة هي رسول.

- وينبغي أن يتأمل القارئ الفعل المزيد، والمعنى الذي حصل من زيادة الحروف على الفعل المجرد، وأن يميز بين معاني الأفعال المزيدة من فعل مجرد واحد، كما ينبغي أن يدرك المعنى الذي تدلُّ عليه الحروف المضافة إلى الكلمات، ويتأمل ما تعود عليه الضمائر، ومثال ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر:١]، وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان:٢٣]، فالكلمتان: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ و﴿نَزَّلْنَا﴾ كلاهما تتعلَّقان بنزول القرآن، ولكن الزيادة في الكلمة تعني أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي أنزل القرآن ونزَّله، وفي الآية الأولى تدلُّ الكلمة على أن الإنزال كان جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أُنْزِلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ نَزَلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً وَقَرَأَ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦])[١].

---

(١) أخرجه القاسم بن سلام في فضائل القرآن (٣٦٧-٣٦٨)، وانظر: فضائل القرآن لابن كثير (٣٦).

- ويجدر عند تحليل الألفاظ إلى حروف أن ينتبه قارئ القرآن في تدبُّره الكلمة إلى الحروف المحذوفة نطقاً وكتابة: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾[الزمر:١٠]، فعند تحليل عباد يلحظ أن الكلمة حذف منها الياء وأصلها عبادي، وقد دلَّت عليها الكسرة على الدال، ولو كانت (عبادَ الذين) على أنها مضاف ومضاف إليه، لكانت كلمة (عباد) منصوبة بالفتحة لأنها منادى مضاف، وذلك يغير المعنى المقصود من الآية.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]، وكذلك في قوله: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢]، فالحرف المحذوف في كلِّ كلمة من الكلمتين ليعبدون، فاعبدون هو الياء، وذلك للحفاظ على الجرْس القرآني، وهو أسلوب متميز في الإعجاز.

- وعند تحليل الكلمة إلى حروف ينبغي التأمُّل بحروف المعاني الملحقة بالكلمات الأصلية، وتمييز الحرف الملحق بكلمة عن مثيله الملحق بكلمة أخرى، واللام والواو والفاء الواردة في الآيات المبينة.

ومن أمثلة حروف المعاني التي يطلب التأمُّل فيها من حيث المبنى والمعنى:

- أولاً: اللام، ومن أنواعها: لام الأمر، ولام التعليل، ولام التأكيد.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ [الحاقة:٤٩]، جاءت اللام للتأكيد ، وهي لام مفتوحة تدخل على الفعل المضارع لتفيد التأكيد من حيث المعنى.

وتأتي اللام للتعليل؛ أي لبيان العلة أو السبب، وتنصب الفعل المضارع، كما في كلمة: ﴿لِتُخْرِجَ ﴾، من قوله تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[إبراهيم:١].

وتأتي لام التعليل لبيان العاقبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[القصص:٨].

وتأتي اللام للأمر كما في قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[الطلاق:٧]، وقوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[المطففين:٢٦].

- ثانياً: الواو، وتأتي حرف عطف، وحرف استثناء، واو الحال، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة:٦]، فالواو بين الكلمات هي للعطف، لكن من الضروري أن يتأمل القارئ بالمعطوف والمعطوف عليه.

ولئن كان واضحاً أن ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾، معطوفة على كلمة: ﴿وُجُوهَكُمْ﴾، وكلمة: ﴿وَٱمْسَحُوا۟﴾ يريد معطوفة على كلمة: ﴿فَٱغْسِلُوا۟﴾، فكلمة: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بالتأمل بالحركة على اللازم يتبيَّن أنها معطوفة على كلمة: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾، ويستنتج من ذلك: أنَّ حكم غسل الأرجل في الوضوء؛ كغسل الوجوه والأيدي، ولو كانت الحركة على الأرجل والرؤوس، وهذا الحكم يستفاد بالنظر والتأمُّل.

- ومن التدبُّر: المقارنة بين إثبات الواو في موقع، وعدم ذكرها في موقع مشابه؛ للتعرف على سر وجودها في الآية، كما في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾﴿إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾[الزمر:٧١]، وقوله بعدها: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[الزمر:٧٣].

الواو التي سبقت كلمة: ﴿ فُتِحَتْ ﴾ في الآية الثانية؛ تدلُّ على أنَّ أبواب الجنة مفتوحة قبل الدخول، وعدم ذكر الواو مع كلمة: ﴿ فُتِحَتْ ﴾ في الآية الأولى، يدلُّ على أنَّ أبواب جهنم مغلقة، ولا تفتح إلا وقت إدخال الكافرين ثمَّ تغلق عليهم.

- ويجدر بالقارئ عند تحليل كلمة متصلة بضمير بارز أو مستتر؛ أن يتدبَّر بما يعود إليه الضمير، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٨].

فالضمير في كلمة: ﴿بَعْدِهِۦ﴾ يعود إلى موسى، والضمائر المتصلة في الكلمات: ﴿حُلِيِّهِمْ﴾ و﴿يُكَلِّمُهُمْ﴾ و﴿يَهْدِيهِمْ﴾، والواو في كلِّ من الكلمات: ﴿يَرَوْا۟﴾ و﴿ٱتَّخَذُوهُ﴾ و﴿وَكَانُوا۟﴾: تعود إلى قوم موسى.

والضمير المتصل في كلمة ﴿لَّهُۥ﴾ و﴿أَنَّهُۥ﴾، وكذا الضمير المستتر في كل من كلمتي ﴿يُكَلِّمُهُمْ﴾ و﴿يَهْدِيهِمْ﴾: يعود إلى العجل.

أما الضمير المتصل (الهاء) في كلمة اتخذوه فهناك احتمالان: أنه يعود إلى (سبيل) وهو الاسم الأقرب أو يعود على (العجل) تأكيداً لما سبق وهو الاحتمال الأصح.

المرحلة الرابعة: إعادة التركيب بعد التحليل

بعد إتمام التحليل في جميع خطواته المتتابعة لا بد من العودة إلى التركيب، فتعاد تلاوة العبارة الفرعية، يليها تلاوة الجملة كاملة، ثمَّ تلاوة القسْم أو المعقد؛ (وهو ما يقابل الفقرة التي تدلُّ على فكرة أو موضوع جزئي من الموضوع العام).

ويتابع التركيب بتلاوة السورة كاملة، وجمع الحقائق بين الأقسام، وإيجاد الصلة بينها، والرابط بين القسم اللاحق وسابقه في ضوء السياق العام للسورة[1].

---

(١) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم- مختار كمال (١٧٧-١٨٩).

- المطلب العاشر: استخراج الفوائد التدبُّرية:

ويقصد بذلك استخراج العبرة والحكمة أو الحكم حين التدبر، بالوقوف على ما يؤخذ من الآيات، ومن دقائق العقيدة والوقوف على الأدلة والبراهين.

كما يقصد إدراك الغاية من ضرب الأمثال في القرآن: وذلك في مواطن متعددة، كما قال تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[إبراهيم:٢٥].

ويجدر بالمتدبِّر حين تلاوة قصص القرآن؛ في قصة نبي مع قومه، أو مثل ضربه الله، أو نحو ذلك؛ أن يستخرج العبرة من القصة فيما يتعلَّق بالثبات على العقيدة، والجرأة في قول الحق، أو فيما يتعلَّق بثمرة الموقف التي يتمُّ قطفها، تلك الثمرة التي تعود على صاحب الموقف بالخير والبركة في الدنيا والآخرة.

إنَّ استخراج الفوائد التدبُّرية، والتنقيب عنها؛ مهارة يمكن التدرُّب عليها، بحيث يجعل طالب التدبُّر لنفسه في كلِّ وقت آية يتأملها بخصوصها، ويمكن أن يكتب بذلك ورقة أمامه فيها الآية ليراها طوال يومه، وبجانبها ورقة أخرى، فكلما طرأ له معنى تدبُّري كتبه فيها[1].

- المطلب الحادي عشر: العزم والتصميم على التطبيق العملي للمتدبِّر:

وهذه هي المقصد والخلاصة من كلِّ ما سبق.

فبعد إتمام المراحل السابقة، ومن أجل أن يصل المتدبِّر إلى الغاية المنشودة من التدبر لا بد له من عقد النية، والعزم والتصميم على السلوك القويم الذي يتطلَّبه منه النص القرآني الكريم الذي تدبَّره.

والمثال التالي يوضح المقصود من هذه المرحلة عند تلاوة الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا

---

[1] وقد سبق تفصيل شيء من ذلك في المبحث الأول من الفصل الأول في الباب الثاني: أسباب تعين على تدبُّر القرآن الكريم.

أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[النساء:١٣٥].

وتدبُّر هذه الآية يوحي بأن يعقد القارئ العزم والتصميم على أن تكون غايته في كل موقف من مواقف حياته رضا الله وحده دون اتباع هوى الناس، فالله أحقُّ أن يخشاه. وإن كان المرء في موقف يتطلَّب حكماً أو حقاً فلا يتأثر بمصلحة شخصية، أو بصلة قرابة، أو بعاطفة نحو فقير، أو نظر إلى جاه أو سلطان؛ لأن إيمانه بالله هو الأساس.

والعزم وحده غير كافي دون أن يتبعه تنفيذ عملي[١].

"فيتصفَّح القرآن؛ ليؤدِّب به نفسه ، لا يرضى من نفسه أن يؤدي ما فرض الله بجهل، قد جعل العلم والفقه دليله إلى كل خير إذا درس القرآن فبحضور فهم وعقل، همَّته إيقاع الفهم لما ألزمه الله: من اتباع ما أمر، والانتهاء عما نهى، ليس همته متى أختم السورة؟ همته متى أستغني بالله عن غيره؟ متى أكون من المتقين؟ متى أكون من المحسنين؟ متى أكون من المتوكلين؟ متى أكون من الخاشعين؟ متى أكون من الصابرين؟ متى أكون من الصادقين؟ متى أكون من الخائفين؟ متى أكون من الراجين؟ متى أزهد في الدنيا؟ متى أرغب في الآخرة؟ متى أتوب من الذنوب؟"[٢].

قَالَ عُمَرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[٣].

"والقرآن المجيد قمَّة كلِّ كلام بليغ رفيع، وهو معجزة البيان، فعلى المتدبِّرين أن يتدبَّروه بأناة وتفكير، وعناية وإتقان، وأن يراجعوا دواماً ما كانوا قد تدبَّروه من قبل، فإنهم سيجدون دواماً

---

(١) انظر: دعوة إلى تدبر القرآن الكريم– مختار كمال (١٩٠-١٩١).

(٢) أخلاق أهل القرآن (٧٩).

(٣) سبق تخريجه.

مهما أضافوا من مفاهيم على من سبقهم، أنهم مقصرون عن إدراك كلِّ دلالاته، التي يهدي إليها عمق النصِّ الواحد، وتكامل النصوص المتعددة حول موضوع واحد"[١].

وبهذا يحقق المتدبِّر مراده، وينال طرفاً من بغيته ومقصوده، ويستقرُّ له فهمه وإتقانه، والحمد لله على نعمه وفضله، وجوده وكرمه.

- المطلب الثاني عشر: نموذج تطبيقي للمنهج (تدبر سورة الملك).

في النموذج التالي، تطبيق عملي لمنهج التدبُّر في المطالب السابقة، واخترت لهذا النموذج التطبيقي: سورة الملك، وقصدت به ضرب المثال لتطبيق المنهج، دون أن أستوفي جميع فوائد السورة بآياتها[٢].

-تدبُّر اسم السورة.

سورة الملك من السور المكية، ثلاثون آية، نزلت بعد سورة الطور، وتسمَّى: المانعة، والمنجية، والملك.

ورد في فضلها: حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، ثَلَاثُونَ آيَةً، شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ**: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]»[٣].

---

[١] قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله (٢٥١).

[٢] اقتصرت على بيان اليسير منها خشية الإطالة والإسهاب، وحاولت جهدي في هذا التطبيق ألا أذكر شيئاً من الأقوال أو النصوص، وأن أطبِّق ما أصَّلته في التدبُّر، فاكتفيت ببعض القراءات في كتب التفسير، وصغت غالب المعاني، وأرجو أن أكون قد وفِّقت فيه للصواب.

[٣] **حسن**. أخرجه أحمد في مسنده (١٣/ ٣٥٣) برقم: (٧٩٧٥)، والترمذي في سننه (٥/ ١٦٤) برقم: (٢٨٩١) وحسنه، والحكم في المستدرك (١/ ٧٥٣) برقم: (٢٠٧٥)، وحسَّنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٩١)، وفي صحيح الجامع (٢٠٩٢).

مناسبة بداية السورة لما قبلها: أنه لما ضرب مثلا للكفار بتينك المرأتين اللتين قدر لهما الشقاء وإن كانتا تحت عبدين صالحين، ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم وقد كتب لهما السعادة، وإن كان أكثر قومهما كفاراً؛ افتتح هذه السورة بما يدلُّ على إحاطة علمه عز وجل وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه[1].

-معرفة المحور الذي تدور حوله السورة.

تدور السورة حول معنى واحد هو: معرفة قدر الله سبحانه، والآيات كلها في السورة تتحدث عن قدرة الله تعالى، وأنَّ الملك بيده سبحانه.

وسورة المُلْك شأنها شأن سائر السور المكية، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى، وقد تناولت أهدافاً رئيسية ثلاثة، هي: إثبات عظمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وقدرته على الإِحياء والإِماتة، وإِقامة الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين، ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور.

وأغراض السورة جارية على سنن الأغراض في السور المكية ابتدأت بتعريف المؤمنين معاني من العلم بعظمة الله أ، وتفرُّده بالملك الحق؛ والنظر في إتقان صنعه الدال على تفرده بالإلهية فبذلك يكون في تلك الآيات حظ لعظة المشركين[2].

- تدبُّر مطلع السورة وفاتحتها.

ابتدأت السورة ببراعة الاستهلال، وما يدلُّ على منتهى كمال الله تعالى، بالحديث عن ملكه الشامل، وقدرته المطلقة؛ على التصرُّف الكلي في كل الأمور، فهو يحيي ويميت، ويُعزُّ

---

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (١٠/ ٢١٩)، تفسير المراغي (٢٩/ ٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٧).

ويُذل، ويعطي ويمنع، ويفقر ويغني، ويمرض ويشفي، ويبعد ويقرب، ويرفع ويخفض، ويكشف ويحجب، إلى غير ذلك من شؤون العظمة والتدبير المطلق.

- تدبُّر خاتمة السورة والمقاطع.

* جاء المقطع الأول ببيان أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيده المُلْك والسلطان، وهو المهيمن الذي تخضع لعظمته الرقاب، وتعنو له الجباه، المتصرِّف في الكائنات بالخلق والإِيجاد، والإِحياء والإِماتة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١].

* ثم تحدثت عن خلق السماوات السبع، وما زيَّن الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة، والنجوم اللامعة، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾[الملك:٣].

* ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيءٍ من الإِسهاب، وهم يرون جهنم تتلظى وتكاد تتقطع من شدة الغضب والغيظ على أعداء الله، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك:٧].

* وبعد أن جاءت الأدلة والشواهد على عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته؛ حذَّرت من عذابه وسخطه أن يحلَّ بأولئك الكفرة الجاحدين: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦].

* وختمت السورة الكريمة بالإِنذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول، من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول وهلاك المؤمنين: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الملك:٢٨]،

وهو وعيد شديد، ترتعد له الفرائص.

ثمَّ خُتِمت باستفهام تقريري، يبيِّن ملكه وقدرته على إيجاد نعمة يغفل الناس عنها، والتي بها قوام حياتهم الدنيا؛ وهي نعمة الماء، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

فبدأت السورة ببيان مُلكه سبحانه، وخُتمت بملكه وقدرته.

-تدبر الفروق البيانية بين المعاني الكلية في السور.

١- جاء قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، باستعمال فعل بلى يبلو، وفي سورة الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، والفرق بينهما أمور:

أ- أنَّ آية الملك تنتهي بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، والمغفرة تقتضي التخفيف، فالإبتلاء والشدّة لا تتناسبان مع الغفور التي هي أصلاً صفة مبالغة، فجاءت صيغة: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ مناسبة مع المغفرة.

ب- في سورة الملك فلم يذكر أياً من وسائل الإبتلاء، إنما ذكر خلق السموات مباشرة في الآية التي بعدها، فاقتضى استعمال الصيغة المخففة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾.

وفي سورة الإنسان ذكر تعالى ما يصحّ معه الإبتلاء: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٢-٣]؛ السمع والبصر والاختيار والعقل، وفصَّل في ذلك.

ج- أنه تعالى ذكر في سورة الإنسان شيئاً من ابتلاء الأعمال ما لم يذكره في سورة الملك، فذكر في سورة الملك آية في المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، وآية في الكافرين: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الملك: ٦]، أما

في سورة الإنسان ذكر الإبتلاء في الأعمال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٧-٨]، إلى قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ۝٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٢٥ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان:٢٤-٢٦]، وأفاض في ذكر النعيم في الآخرة مما لم يذكره في الملك: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان:٥]، فذكر ما يستدعي الإبتلاء، وذكر الكافرين: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان:٢٧]، وذكر الظالمين: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان:٣١]، والظلم من نتائج الأعمال.

فالجو العام للسورة، والسياق والوسائل وما ذكر من الأعمال؛ جعل ذكر الابتلاء أنسب من كل ناحية.

٢- في سورة الملك قال: ﴿وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ [الملك:٩]، وفي سورة الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:٩١]، فأسند الفعل إلى الله تعالى، وفي سورة يس قال: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ [يس:١٥]، فأسند الفعل إلى الرحمن.

فكل تعبير هو الأنسب في مكانه، ففي سورة الملك يشيع ذكر العذاب ومعاقبة الكفار وتهديدهم، وذكر مشهد من مشاهد حالهم في النار، وإزاء ذلك لم يذكر بخصوص المؤمنين وجزائهم سوى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك:١٢]، فلا يناسب إزاء كل هذا التهديد والتحذير للكافرين وما أعده الله لعذابهم في جهنم أن يقرنه باسم الرحمن.

وأيضاً: فإنَّ الآية تحكي قول الكفار في النار، بعد أن ألقوا فيها فوجاً بعد فوج، وقد اشتدَّ غضب الله عليهم، ولم تدركهم رحمته، ل قد يئسوا من رحمته، فلم يناسب ذكر الرحمن لذلك أيضاً.

أما القائلين في آية سورة يس: فهم في الدنيا يتقلَّبون في نِعم الله ورحمته.

وأما آية سورة الأنعام: فإنها يشيع فيها التحذير والتهديد والتوعد، وليس فيها مشهد من مشاهد الجنة، بل فيها صور غير قليلة من مشاهد النار، بل السورة كلها على طولها؛ لم يرد فيها اسم الرحمن، في حين ورد فيها اسم (الله) تعالى سبعاً وثماني مرة. فناسب كل تعبير مكانه.

٣- قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك:١٢].

وكلُّ موطن في القرآن يذكر فيه المغفرة يجب أن يسبقه ذكر الذنوب والكافرين، قال الله قبلها: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الملك:٦]، إلى قوله: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾ [الملك:١١].

ومثل ذلك: في سورة فاطر بدأ تعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر:٧-٨]، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ [فاطر:١٠]، فذكر الكافرين مع الذنب، وبعده جاء ذكر المغفرة والأجر الكبير.

أما قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الحديد:٧]، لم يذكر الكافرين ولا الذنوب؛ فلم يذكر المغفرة والأجر الكبير، والله أعلم.

٤- قال تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك:١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود:٦]، فتكفَّل سبحانه برزقها على الوجه المعتاد والمشروع لمصالح العالم، وعمارة الدنيا، وكما يخلق الولد على الوجه المعتاد من الوطىء وغيره، وإن كان قادراً على إيجاده اختراعاً أولياً[١].

---

[١] انظر: كشف المعاني (٢٠٩).

٥- قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك:١٦]، ثم قال بعدها: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾[الملك:١٧]، فخوَّفهم بالخسف أولاً لكونهم على الأرض، وبعده بأن يرسل عليهم حاصباً.

وفي سورة الأنعام: قدَّم المؤخر ههنا، وأخَّر المقدَّم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾[الأنعام:٦٥].

وجوابه: أنه لما تقدم هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾[الملك:١٥]، ناسب أن يليه الوعيد بالخسف في الأرض التي أذلها.

وآية الأنعام: تقدَّمها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام:٦١]، ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام:٦٣]، وهو فوق الأرض، فناسب ذلك تقدم ما هو من جهة فوق[١].

٦- في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ﴾[الملك:١٩]، جاءت بالواو في ﴿أَوَلَمۡ﴾ لاتصالها بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة؛ فذكره بالألف والواو لتدلَّ الألف على الاستفهام، والواو على عطف جملة على جملة قبلها، وكذا الفاء لكنها أشد اتصالاً بما قبلها[٢].

٧- في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۢ بَصِيرٌ﴾[الملك:١٩].

وقال في سورة النحل: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل:٧٩].

---

(١) انظر: أسرار التكرار في القرآن (٢٣٩)، كشف المعاني (٣٦١).

(٢) انظر: أسرار التكرار في القرآن (١٠٥).

فقال في آية الملك: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وقال في النحل: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

بتدبُّر الآيتين، نجد أنَّ سياق سورة المُلك جاء بذكر مظاهر نعم الرحمن على عباده: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥] وما بعدها، فناسب ذكر اسم الرحمن فيها.

أما في سورة النحل فالسياق في التوحيد، والنهي عن الشرك: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ الآيات.. [النحل:٧٥-٧٦].

فلفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الأنسب للعبادة والتوحيد.

وأيضاً: قال في آية النحل: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ من باب القهر والتذليل، وليس من باب الإختيار، فلا يناسب الرحمة، بينما في الملك جاء قوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾من باب ما يفعله الطير باختياره، وهذا من باب الرحمة، وفيه بيان حالة الراحة للطير ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ وهذه أيضاً رحمة، فناسب لفظ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لسورة الملك، ولفظ ﴿ٱللَّهُ﴾ لسورة النحل.

٨- قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك:٢٠]، فجاء اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مع القوة والنصرة.

بينما ورد قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بخصوص النصر في آيتين:

الأولى: في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف:٤٣].

الثانية: في سورة القصص، قال سبحانه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

فجاء اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ في سورة الملك مع القوة والنصرة والجند؛ مناسباً لسياق ذكر النِّعم في السورة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥].

أما آية الكهف: فقد جاءت في سياق الحوار بين المؤمن والكافر، وعقوبة الله لصاحب الجنة بهلاك جنَّته: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٢]. وهذا موضع عقوبة، لا يصحُّ فيه ذكر اسم الرحمن.

وكذلك آية القصص، جاءت في سياق هلاك قارون: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١]، فالخسف عقوبة لا يتناسب معها ذكر اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

-تدبُّر المعاني الكلية الخاصّة.

ابتدئت السورة بتعريف المؤمنين معاني العلم بعظمة الله تعالى وتفرده بالملك الحق، والنظر في إتقان صنعه الدال على تفرده بالإلهية، ففيها حظٌّ لعظة المشركين.

ومن ذلك التذكير بأنه أقام نظام الموت والحياة؛ لتظهر في الحالين مجاري أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال ونتائج مجاريها، وأنه الذي يجازي عليها.

وانفراده بخلق العوالم العليا خلقاً بالغاً غاية الإتقان فيما تراد له.

وأتبعه بالأمر بالنظر في ذلك وبالإرشاد إلى دلائله الإجمالية، وتلك دلائل على انفراده بالإلهية.

متخلِّصاً من ذلك إلى تحذير الناس من كيد الشياطين، والارتباق معهم في ربقة عذاب جهنم، وأن في اتباع الرسول ﷺ نجاة من ذلك، وفي تكذيبه الخسران، وتنبيه المعاندين للرسول ﷺ إلى علم الله بما يحركونه للرسول ظاهراً وخفية بأن علم الله محيط بمخلوقاته.

والتذكير بمنَّة خلق العالم الأرضي، ودقة نظامه، وملاءمته لحياة الناس، وفيها سعيهم، ومنها رزقهم.

والموعظة بأنَّ الله قادر على إفساد ذلك النظام، فيصبح الناس في كرب وعناء، ليتذكروا قيمة النِّعم بتصور زوالها.

وضرب لهم مثلاً في لطفه تعالى بهم بلطفه بالطير في طيرانها.

وآيسهم من التوكل على نصرة الأصنام أو على أن ترزقهم رزقاً.

وفظَّع لهم حالة الضلال التي ورطوا أنفسهم فيها.

ثمَّ وبَّخ المشركين على كفرهم نعمة الله تعالى، وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده، وأنه وشيك الوقوع بهم.

ووبَّخهم على استعجالهم موت النبي ﷺ ليستريحوا من دعوته.

وأوعدهم بأنهم سيعلمون ضلالهم حين لا ينفعهم العلم، وأنذرهم بما قد يحل بهم من قحط وغيره[1].

-تدبُّر الفروق البيانية بين المعاني الجزئية المصرفة في السورة.

ومن هذه الفروق والدلائل لمعاني السورة ما يلي:

- في قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]؛ تقديم المسند: ﴿بِيَدِهِ﴾، على المسند إليه: ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ يفيد الاختصاص، أي أنَّ الملك بيده لا بيد غيره، فكلُّ ملْك دونه ملْك غير تام، ناقص زائل: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[طه:١١٤].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ٧).

و (ألـ) في ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾: للاستغراق، تستغرق جميع أفراد وأنواع الملْك، وكلها في قدرة الله المعطي المانع.

٢- قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١]، معطوفة على جملة: ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك:١]، التي هي صلة الموصول، وهي تعميم بعد تخصيص لتكميل المقصود من الصلة، إذ أفادت الصلة عموم تصرفه في الموجودات، وأفادت هذه عموم تصرفه في الموجودات والمعدومات، بالإعدام للموجودات، والإيجاد للمعدومات فيكون قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١]، مفيداً معنى آخر غير ما أفاده قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك:١]، تفادياً من أن يكون معناه تأكيداً لمعنى: ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك:١]، وتكون هذه الجملة تتميماً للصلة.

و ﴿شَيۡءٖ﴾: ما يصحُّ أن يُعلم ويخبر عنه، وهذا هو الإطلاق الأصلي في اللغة.

وقد يطلق (الشيء) على خصوص الموجود بحسب دلالة القرائن والمقامات.

وتقديم المجرور في قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ للاهتمام بما فيه من التعميم، ولإبطال دعوى المشركين نسبتهم الإلهية لأصنامهم، مع اعترافهم بأنها لا تقدر على خلق السماوات والأرض، ولا على الإحياء والإماتة[1].

٣- قوله: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ [الملك:٣]، وبعده: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ [الملك:٤]، أي مع الكرة الأولى، وقيل هي ثلاث مرات: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ -وهذه مرة-، ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾، فمجموعها ثلاث مرات، ويحتمل أن يكون أربع مرات لأنَّ قوله: ﴿فَٱرۡجِعِ﴾ يدلُّ على سابقه مرة[2].

---

[1] انظر: التحرير والتنوير (٢٩/ ١١).

[2] انظر: أسرار التكرار في القرآن (٢٣٨).

٤- في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك:١٩]، لم يقل صافات وقابضات لحكمة في ذلك، لأنَّ الصفّ هو فرد جناحي الطير؛ هو الأصل في الطيران ليتمكن من الاحتفاظ بالتوازن، فلما كان الصفّ هو الحالة الثابتة جاء بالصيغة الدالة على الثبوت وهو الاسم، ولما كانت الحالة الطارئة هي القبض؛ جاء بالفعل للدلالة على الحركة والتجدد.

٥- في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الملك:٢٩]، قدم الفعل ﴿آمَنَّا﴾، على الجار والمجرور: ﴿بِهِ﴾، وأخّر: ﴿تَوَكَّلْنَا﴾عن الجار والمجرور ﴿وَعَلَيْهِ﴾؛ لأنَّ الإيمان يشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وغيره مما تتوقف صحة الإيمان عليه، أما التوكل فلا يجوز إلا على الله وحده، فقدّم الجار والمجرور ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره.

-تحليل السُّورة إلى أقسام ومعاقِد كلّية.

جاءت السورة بمعرفة قدر الله، ودلائل ذلك، ومما جاء في ذلك من معانٍ كلية على سبيل الإجمال:

١) تمجيد الله وتعظيمه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١].

٢) جعل السماء زينة ورجوماً: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك:٥].

٣) صفة جهنم والداخلين فيها: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الملك:٦].

٤) جزاء من خشي ربه بالغيب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

٥) قدرة الله على مؤاخذة عباده: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٧].

٦) بصر الله بكل صغير وكبير: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك:١٩].

٧) النصر والرزق من الله وحده: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ [الملك:٢١].

٨) مثل الكافر والمؤمن: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك:٢٢].

٩) موت المؤمن لا يجير الكافر من العذاب: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الملك:٢٨].

١٠) التذكير بنعمة الله في الماء: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ [الملك:٣٠].

-التَّحْليل البياني لكلمات وجمل وآيات السورة.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك:١]، أي: "تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعمَّ إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرَّف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته، ومن عظمته: كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض"(١).

فملك الله سبحانه ملك مطلق، وما سواه من أملاك المخلوقين فهي عارية زائل لا محالة، وملكهم ناقص ينتهي بموت صاحبه، فالله سبحانه هو مالك الملك وملك الملوك: ﴿قُلِ

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٨٧٥).

ﱡٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞﱠ [آل عمران:٢٦].

ولفظ: ﱡتَبَٰرَكَﱠ لا يستعمل إلا بلفظ الماضي، لله وحده، مثل قوله تعالى: ﱡتَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦﱠ [الفرقان:١]، ﱡتَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢاﱠ [الفرقان:١٠].

ومن فوائد قوله تعالى: ﱡتَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُﱠ [الملك:١]: أنَّ الله تقدس في ذاته وأفعاله وصفاته، عن كل نقص وعيب، فله القدرة الغالبة، والتصرف العام، والحكم النافذ.

ومن فوائدها: أنَّ الملك كله في يديه سبحانه يدبِّره بتمام الحمد، وابتلاء الخلق بالملك نسبي، فسلطانهم مؤقَّت، وهو عارية مستردة.

ﱡوَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌﱠ [الملك:١]، مبالِغٌ في القُدرة عليهِ، يتصرَّفُ فيهِ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمِ البالغةِ، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يتعاظمه أمر، فكل جبار لا يستطيع أن يحرك ذرة إلا بإذن الله سبحانه، وإنما مكنهم الله فتنة لهم وابتلاء، وحكمة وعدلاً، وفي الحياة الحقيقية في الآخرة لا سبيل لذلك.

- استنباط الفوائد التدبُّرية.

- سورة الملك تتناول الإيمان باليوم الآخر، والحكمة من شفاعتها لصاحبها -والله أعلم- أنَّ المداومة على تدبُّرها والنظر فيها؛ يورث خشية الله تعالى بالغيب، وتغرس فيه الإيمان، الذي جعل السورة تشفع فيه فتغفر ذنوبه.

- قوله سبحانه: ﱡتَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌﱠ [الملك:١]، سلوى لكل مؤمن؛ ليثبت على دينه فمن بيده الملك، ومن يقدرعلى كل شيء غيره!.

- وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، قدَّم الموت على الحياة لقرب الموت من العبد، ولأنه بدون الموت ما كانت الحياة، فهو يدفع إلى عمارة الحياة واستثمارها، وتقديمه على الحياة أدعى إلى إحسان العمل.

- قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]، عمل قليل مقبول؛ خير من أعمال كالجبال فيها ما يردُّها، ولم يمدح الله عملاً بكثرته، وإنما بحسنه، إلا ما جاء في الذكر، فقد مدح الله المكثرين منه، وأمر بالدعاء بزيادة العلم.

- لما وجه الله عباده لإحسان العمل؛ ضرب لهم مثلاً في اتقانه لخلق السموات، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣]، كما أقسم بذلك في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات:٧].

- امتنَّ الله على عباده بتزيين ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك:٥]، لأنَّ حبَّ الجمال فطرة بشرية، ولمَّا كان سبحانه قد زيَّن لعباده السماء الدنيا لرؤيتهم إياها دون بقية السموات؛ فيحسن بالعاقل أن يزيِّن عمله لله وحده: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢].

- في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [الملك:٦]، ثنَّى الله بعاقبة الذين كفروا بربهم بعد ذكر الشياطين، لأنهم جميعاً في النار عياذاً بالله.

- دلَّ قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ [الملك:٧] على أنَّ للنار حساً وإدراكاً وإرادة، فهي: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك:٨]، و﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢].

- دلَّ قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ [الملك:٨]، على أنَّ أهل النار يدخلونها جماعة بعد جماعة، ويشهد له قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف:٣٨].

- في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ [الملك:٨-٩]؛ بيان لكمال عدل الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أنه لا يعاقب أحداً لم تقم عليه الحجة، تدبَّر: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥].

- من الأسباب التي تقود الإنسان إلى الكفر: تعطيل وسائل الإدراك التي وهبها الله له، من العقل والقلب والسمع والبصر، تدبَّر: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

- قد يغترَّ الإنسان بما يملك من نعم الله، فيكون فيها عذابه وهلاكه إن أساء العمل بها: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، وإذا فسد القلب تعطلت الجوارح عن فعل الخير؛ فلا أذن تسمع، ولا عين ترى.

- في يوم القيامة لا مجال للكذب والحيل والمراوغة، الاعتراف بالحقائق يحسم الأمور: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١١]، فليعدَّ الظالم للموقف جواباً بين يدي الملِك جَلَّ جَلَالُهُۥ، فلن ينفع الاعتذار بعد فوات الأوان.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك:١٢]، لما كانت الخشية في الغيب سراً بين العبد وبين ربه استحق العبد مقابلها المغفرة والأجر الكبير.

- مما يحقق خشية الله بالغيب: أن يجعل العبد لنفسه أوقاتاً لا ينفرد بها بربِّه، في دعائه وذِكره وصلاته، وتفكره ومحاسبة نفسه، وإصلاح قلبه، فمن استشعر معية الله سبحانه حال خلوته غفر الله ذنبه، وجزاه بالأجر الكبير في الجنة.

- إذا وعد الملِك الكبير سبحانه بقوله: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك:١٢]، فكيف سيكون العطاء!.

- قال سبحانه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾[الملك:١٣]، قد ينخدع الناس بمظهر عملك؛ لكن الله هو المطلع على باطنك ونواياك، فاستشعار رقابة الله وخشيته، يزيل الفرق بين السر والعلن، والظاهر والباطن.

- ويح من يجرؤ على وسوسة الفجور والإثم، والسميع العليم مطَّلع عليها محيط بها.

- إذا منع الله عباده شيئاً تتعلق به إرادتهم، فتح لهم باباً أنفع لهم منه، لطفاً منه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ورحمة، فهو الخبير بما يصلُح لعباده، وما يضرُّهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك:١٤].

- دلَّ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، أنَّ طلب الرزق يكون بإجمال في الطلب، بالمشي المعتاد، وليس عن طريق السعي الذي يتضمَّن المشي الحثيث بهمَّة بالغة، وذلك لأنَّ الرزق مضمون بالمقادير الربانية، فالمشي برفق يحقق له المقسوم، فالسعي في السبب لا ينافي التوكل، والسعي الحثيث لا يزيده على ما قسمه الله شيئاً.

- عدم المشي في طلب الرزق بما أمر الله يؤدي إلى البطالة في الأفراد والمجتمعات. والمشي فيه بتضييق على عباد الله أو إدخال الشبهة أو الحرام يمنع البركة ويمحق الرزق: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»[1].

- في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[الملك:١٥]، دلالة على وجوب طلب الحلال وتحرِّيه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم: (٢٨٩٦) في كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، من حديث مصعب بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

- تكرر لفظ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك:١٦-١٧]، مرتين، ثمَّ قال الله مهدداً بعده: ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك:١٧]، فليست سفاهة في البشر بعد ذلك أشدَّ من الأمن من مكر الله، لأنه مهما طال الإمهال سيتحقق الوعيد وينفذ.

- في قوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم﴾ [الملك:٢٠]، ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ﴾ [الملك:٢١]، مطلبان ضروريان؛ فبالنَّصر يقيمون الدين ويأمنون في أوطانهم، وبالرزق يُكفون شرَّ جوعتهم، وهي منة من الله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش:٤].

- تتبيَّن الأشياء بأضدادها، مثل قوله: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك:٢٢].

- في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [الملك:٢٤]، التذكير بالحشر دون غيره من مشاهد الآخرة: إشعاراً بحقيقة الألوهية والعبودية؛ فكلُّ الخلق محشورون للرب العظيم القادر، وفيه بيان أنَّ استخلاف الإنسان في الأرض لفترة مؤقتة، ثم يرجع إلى الله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ [العلق:٨].

- من سنَّة أهل الباطل استعجال النهايات: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [الملك:٢٥]، وهي نهاية فيها هلاكهم وعذابهم ولكنهم لا يفقهون: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك:٢٧].

- عادة أهل الباطل من الأزل؛ التشكيك في الصالحين وأصحاب الرسالات، وتشويه صورتهم وسمعتهم واتهامهم بالكذب والسوء: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك:٢٥].

- المؤمن الصادق لا يتكلَّم في الغيب بلا علم، ولا يتتبَّع الأقوال الغريبة والشاذة، ويردُّ العلم إلى عالمه سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾[الملك:٢٦].

- دور الأنبياء والدعاة والمصلحين؛ هو الإنذار والنصح: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الملك:٢٦]، أما النتائج فعلى الله تعالى وحده.

- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الملك:٢٧]، فبسبب قلق أفئدتهم، تغيرت لذلك وجوههم.

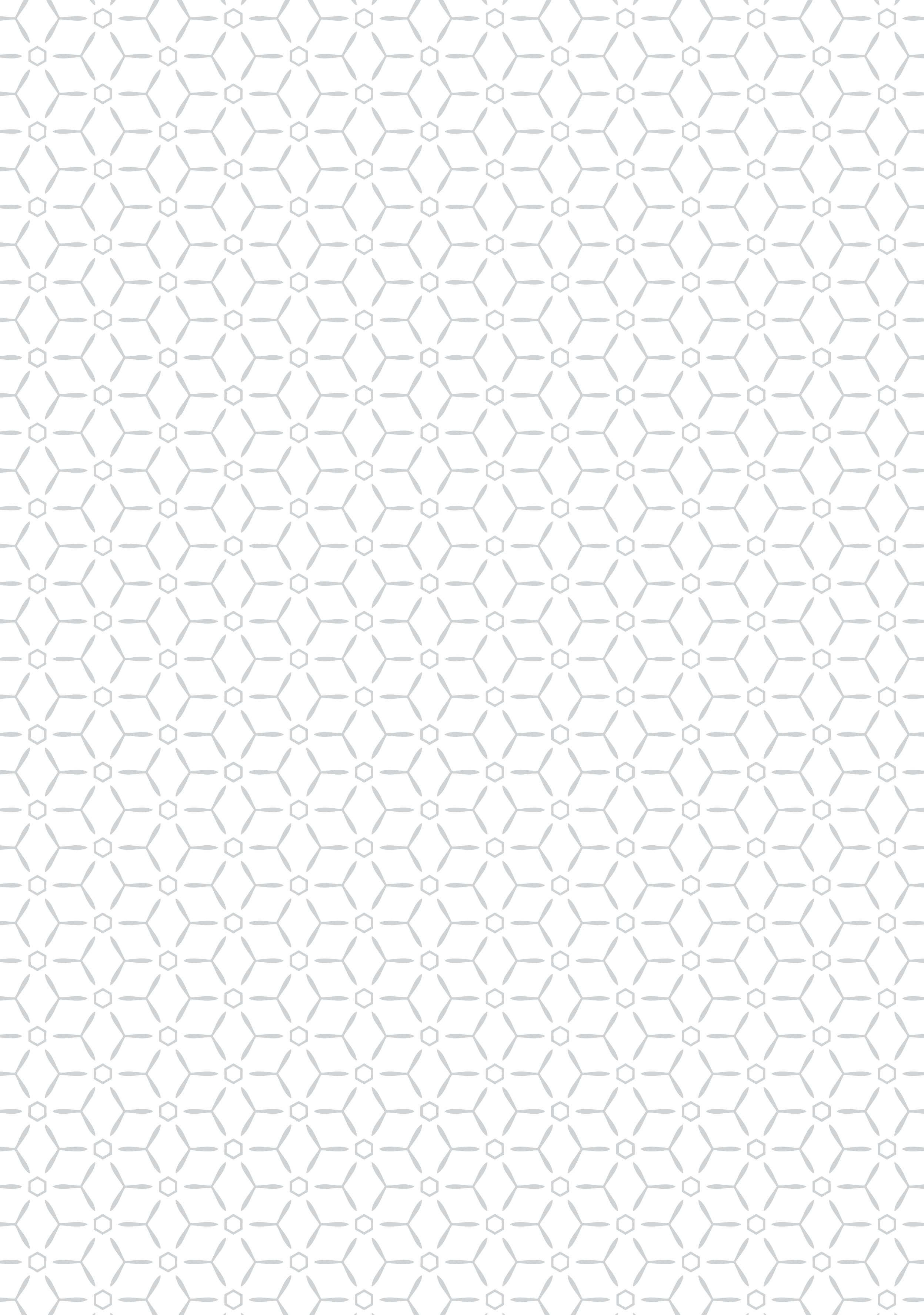
- من سرِّ نجاح الداعية في دعوته؛ قوَّة إيمانه بربِّه وتوكُّله عليه بيقين، والصدع بالحقِّ في الأزمات: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾[الملك:٢٩].

-العزم والتصميم على التطبيق العملي للمتدبِّر.

فقد تضمَّنت السورة علماً عظيماً، وبياناً لعظمة الله وملكه، وقوته ورحمته، وفضله ولطفه، وعدله وحكمته، كلَّ ذلك بتدبُّره في الآيات يورث الخشية والإنابة إلى الله سبحانه، ثمَّ يورث ذلك عملاً صالحاً، يكون سبباً في رضا الربِّ تعالى عن عبده.

نسأل الله بفضله ومنته أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن، ويجعله شفيعنا يوم نلقاه، وهو راضٍ عنا غير غضبان.





الخاتمة

نسأل الله حسن الختام

بعد هذه الرحلة العلمية الماتعة التي عشتها بضع سنين، مع القرآن الكريم وتدبُّره، في هذه الأطروحة؛ محاولاً فيها التنقيب جاهداً عن شيء من كنوز القرآن وأسراره التدبُّرية، تمثَّلت في بيان حثِّ الشارع على التدبُّر، ومفهومه وحكمه وأهميته، وأركانه وواجباته وسننه، وأحوال السلف مع التدبُّر، وعلامات التدبُّر ومقاصده، وعلاقته بالقلوب والأبدان، وآثاره الفردية والجماعية على المتدبِّرين، وعواقب هجره، وأحكامه، وأنواعه، ودرجاته، ثمَّ وسائله وموانعه، ثمَّ التأصيل لنحو ستين ضابطاً من الضوابط المعينة على التدبُّر، والمساعدة عليه، وما هي إلا أمثلة ونماذج لما يمكن أن تستفيض فيه الدراسة بتوسُّع بعد ذلك، وليست استقصاءً شاملاً لجميع الضوابط النافعة في التدبُّر، ويكفي من القلادة ما أحاط بالعنق.

ثمَّ تناول البحث الأدوات المهمَّة للتدبُّر، والمنهج الأمثل المقترح الذي يسير عليه طالب التدبُّر، إذ به يكون التطبيق والعمل، وهو الثمرة والخلاصة المرجوة من العمل.

وقد انتهى البحث بجملة من النتائج، أستخلص أهمها فيما يلي:

١- الذي يظهر أن يكون تعريفاً مختاراً للتدبُّر اصطلاحاً من خلال فهم لمعناه القرآني؛ أنه التدبُّر هو: التأمُّل والتفكُّر والنظر في الآيات، للاهتداء بما دلَّت عليه علماً وعملاً.

٢- تدبُّر القرآن هو الطريق إلى تفسيره، وفهم معانيه طريق لتدبُّره، وكل من سلك طريقاً وعمِل عملاً، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح ويصل به إلى غايته، وكلما عظُم المطلوب تأكَّد ذلك.

٣- مَن تدبَّر القرآن تدبُّراً تامَّا تبينَ له اشتمالُه على بيان الأحكام، وأنَّ فيه من العلم مالا يُدرِكه أكثرُ الناس، وهو إلهامات وفتوحات يفتحها الله تعالى على من يشاء من عباده.

٤- إنَّ إدراك ووعي الناس لآيات القرآن يتفاوت تفاوتاً كبيراً؛ مع أنَّ الآية هي الآية يقرؤها هذا ويقرؤها هذا؛ وبينهما في عمق فهم الآية أو الجملة كما بين المشرقين.

٥- القرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، إذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقبول تام، واعتقاد جازم، لم يقاومه الداء أبداً.

٦- إنَّ المعنى المتدبَّر هو الثمرة التي إذا صحَّت كانت محلاً للقبول والعمل، وصحَّته مرهونة بالسلامة من العوارض التي تقدح فيه وتبطله.

٧- القول بأنَّ تدبر القرآن العظيم وتفهمه لا يجوز إلا للمجتهدين خاصة، قول لا مستند له من دليل شرعي، والحق الذي لا شك فيه أن كل من له قدرة من المسلمين على التعلم والتفهم، وإدراك معاني الكتاب والسنة؛ يجب عليه التدبُّر.

٨- للتدبُّر أنواع باعتبار العموم، وباعتبار النصِّ المتدبَّر، وباعتبار تنوع مطالب المتدبِّرين.

٩- شروط التدبُّر تختلف عن شروط التفسير والاستنباط، إنَّ التدبُّر يحتاج إلى فهم المعنى العام مع حسن القصد وصدق الطلب.

١٠- سماع آيات الله تعالى بتدبُّر وتفكُّر، وهو سماع النبيِّين والمؤمنين، وأهل العلم والمعرفة

١١- ينبغي لمن أراد الانتفاع بالقرآن أن يجعل القرآن خطاباً موجهاً إليه، وأن يقدِّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن.

١٢- لا يمكن الوقوف على كنوز القرآن إلا بسلوك طريق التدبُّر؛ فبقدر ما يمنُّ الله عليه من تدبُّر كتابه يكون وقوفه على كنوزه، وظفره بها، وأي كنوز أحقُّ من أن يُبذَل في نيلها نفيس أوقات العمر من كنوز القرآن.

١٣- من الآثار الإيجابية على الأمة لتدبُّر القرآن الكريم؛ النهوض الحضاري بها، ورجوعها إلى مركزها ومكانها الحقيقي بين الأمم، والارتقاء بها في كافة ميادين الحياة.

١٤- من الأمور العظيمة التي يحصل بها معرفة مقاصد الشريعة واستيعابها؛ تدبُّر القرآن الكريم، فالمقاصد تتضمن معنى معرفة مرامي الشريعة القريبة والبعيدة؛ ليتحقق الهدف من التشريع؛ وذلك يحتاج إلى حسن النظر في عواقب الأمور

١٥- الموانع أمور تحول بين المرء وقلبه وبين عبادة التدبُّر، وكلما ابتعد المسلم عن التدبُّر؛ قسى قلبه، وقلَّ علمه، وزاد جهله، وخرج من الدنيا ولم يتذوَّق طعم طاعة من أجلِّ الطاعات، وقربة من آكد القربات. إنَّ جميع الآثار السلبية المترتبة على هجر التدبُّر في حياة الفرد والأمة، هي من مخاطر الاستسلام للموانع، والوقوع فيها.

١٦- أن التّرغيب في قراءة القرآن، هو ترغيب في قراءة تدبّريّة واعية، لا يُقصد منها الحصول على الثّواب والأجر فحسب، وإن كان الأجر والثّواب مطلباً سامياً، لكنّه ليس الغاية، وهذا ما كان عليه سلف الأمة، فكانوا يتعلّمون العشر آيات لا يتجاوزونها حتّى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل.

١٧- تدبُّر القرآن هو أعظم سبيل لنيل بركة هذا الكتاب العظيم، وتطلُّب هداياته.

١٨- أنَّ جميع الناس: المؤمن والكافر مخاطبون بتدبر القرآن الكريم طلباً لهداياته.

١٩- أن منهج السلف الصالح في تعلم القرآن وأخذه هو المنهج الأمثل المحقق لمراد الله تعالى في هذا الباب، وإنَّ الخير الذي عاشه سلف هذه الأمة كان بسبب تمسُّكهم بالقرآن العظيم وتدبُّره والعمل به، ولن تصل هذه الأمة إلى العزِّ المجد المؤثَّل إلا بالسير على نهجهم، واقتفاء أثرهم بإحسان.

٢٠- التدبُّر يحمي من الوقوع في وهدة الخطأ؛ لأنه يعتمد على أسسٍ وقواعد وأصول وضوابط وشروط في كل علم وفن ومعرفة، ولا ينطلق من فراغ.

٢١- التدبُّر يحمي الأمة من التردي والسقوط، ويحمي شباب المسلمين من براثن الوقوع في الأفكار الضالة المضللة التي لا تتكئ على أسس لغوية وشرعية.

٢٢- التدبر يفتح مغاليق العلوم المختلفة، ويكشف عن أسرار الكون، وعن جميع الكائنات الصامتة والناطقة.

٢٣- التدبر العميق يحل الإشكالات بين كثير من المذاهب والأفكار المختلفة.

٢٤- فهم القرآن طريق وبوّابة للتّدبّر؛ إذ لا تدبّر دون فهم، ولا خَيْر في قِراءةٍ لَيْس فيها تَدَبُّرٌ، وهذا الفهم تسبقه تلاوة صحيحة، وتمعُّن ونظر في كتاب الله تعالى.

٢٥- أهم الوسائل الموصلة إلى التّدبّر هي: فهْم النّصّ القرآنيّ، كما أنّ عدم فهم النّصّ القرآنيّ من أهمّ الموانع الصّارفة عن التّدبّر.

٢٦- ثمرة التدبّر وغايته أن يتحوّل الفهم والتّدبّر إلى التّطبيق والعمل.

٢٧- تدبُّر القرآن ليس صعبًا- كما يُتوهّم- كما أنّه ليس مختصًّا بالمفسّرين، فيمكن للمسلم الّذي يقرأ القرآن أن يتدبَّره، وأن ينتفع بهداياته، والنّاس متفاوتون في ذلك.

٢٨- الإعراض عن فهمِ القرآن وتدبّرِه نوع من أنواع هجرانه.

٢٩- التّدبّر له آثار، أهمّها: زيادة العلم والإيمان، وحصول اليقين، والسّجود والبكاء من خشية الله، وزيادة الخشوع، والقشعريرة خوفًا من الله تعالى ثم غلبة الرّجاء والسّكينة، ومن آثاره أنّه من أسباب محبّة الله تعالى، وحياة القلب؛ إذ جعل مفتاح حياة القلب تدبّر القرآن.

٣٠- ضوابط التدبُّر هي أمور تعين على فهم القرآن وتدبُّره وتفتح آفاقاً للمتدبِّر تربطه بالقرآن فهماً وعملاً.

ومن أبرز **التوصيات** التي أوصي بها ختام البحث ما يلي:

١- لا يزال موضوع تدبر القرآن بحاجة إلى مزيد بحث ودراسة، وخاصة في المنهج الأمثل للتدبُّر، وطرقه وأساليبه، ليتحقق الانتفاع بالقرآن، والعمل به، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

٢- عمل موسوعة تتناول مراحل منهجية في تعلُّم التدبُّر، لتساهم في تحويل الفهم النظري إلى واقع عملي، مع إبراز دور التدبر في نهضة الأمة.

٣- مشاركة أهل العلم وطلبته المعتنين بالتدبُّر في القنوات الفضائية، ومواقع التواصل، ومجلات الدراسات القرآنية لمزيد نشر مشروع التدبُّر، ونقله من المعرفة والتنظير، إلى العمل والسلوك القويم.

٤- وضع مناهج تدبُّرية ميسرة للقرآن في حلقات تحفيظ القرآن، والمدارس النظامية، والنهوض بهذه المناهج لتشمل الحفظ والتدبُّر، وتواكب التّلاوة والحفظ.

٥- ضرورة إقامة المؤتمرات والملتقيات القرآنية عن التدبُّر وتأصيله وتيسيره لجميع فئات الناس، ودعم وتشجيع المتطوعين في دعم ذلك.

ثالثاً: إعداد خطة استراتيجية عملية؛ لتعزيز ثقافة تدبر القرآن في مجتمعات المسلمين على اختلاف لغاتهم.

٦- إنشاء قاعدة بيانات تجمع المؤسسات والأفراد المعنيين بتدبر القرآن الكريم.

٧- إنتاج برامج إعلامية ومجلة متخصصة بالتدبُّر ودعمها، والاهتمام بشكل أخص بمواقع التواصل الاجتماعي.

٨- وضع مناهج متخصصة في تدبر القرآن الكريم من قبل الجهات التعليمية الأكاديمية.

٩- تقريب ثقافة التدبر، ونشرها بكافة الأساليب والطرق، ودعم ذلك.

١٠- طبع ونشر الكتب والبحوث والرسائل العلمية المتخصصة بتدبر القرآن الكريم، وتبسيط نشرها لوصول مضمونها لكافة طبقات المجتمع.

وبعد.. فهذا جهد المقلِّ، وهو عمل يحتاج الكثير من التهذيب والتنقيح، وإعادة النظر والسبك، وقد بقي عملي فيه حتى آخر ساعة أتيحت لي في الكتابة والتحرير والبحث، وانتهيت

وكلِّي أمل أن ييسر الله وقتاً بعد مناقشته للمزيد من الضبط والاختصار والتحرير لمسائله، ولا يزال الموضوع -من وجهة نظري- بحاجة إلى دراسات تتناوله من زوايا قرآنية مختلفة.

وإنَّ من منن الله على عبده أن يسَّر له البحث والعيش مع هذا الموضوع القيِّم الثمين، ولئن قضيت العمر كله أشكر الله على هذه النعمة ما وفيته قدرها، ولا أديته واجبها، ولا أزعم أني حققت في الموضوع ما يجب، أو حصَّلت ما كنت آمل وأرجو، فما انتهيت إليه قطرة من بحر القرآن، أرجو بها الدخول في الخيرية، والشمول بالفضل الذي أخبر عنه الصادق المصدوق بقوله: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

فجئت بما سمح به الجهد، وما أمكن النفس على هنّاتها وزلاتها وتقصيرها أن تأتي به من بحر التدبُّر العميق، مما اقتدح من زند؛ لإنارة الفكر وإلهاب الهمة، وبما أرجو أن أكون قد وفِّقت فيه للإبانة عن مفاتيحه، وما كان لعمل بشري أن يصل إلى الكمال، فإنَّ هذا منال لا يبلغ العقل إلى تمامه، ومن رام ذلك فقد رام والجوزاء دون مرامه.

"وإنَّ كلام ربِّ الناس، حقيق بأن يُخدم سعياً على الرأس، وما أدى ربع هذا الحقَّ قلم يسعى على القرطاس، وإنَّ قلمي طالما استنَّ بشوط فسيح، وكم زجر عند الكلال والإعياء زجر المنيح، وإذ قد أتى على التمام فقد حقَّ له أن يستريح".

وكانت مدَّة العمل فيه نحواً من خمسة أعوام، وهي حقبة لم تخلُ من أشغال صارفة، وتشتت بال، وتطوُّر أحوال، مما لم تخل عن الشكاية منه الأجيال، ولا كفران لله فإنَّ نعمه أوفى، ومكاييل فضله عليَّ لا تطفَّف ولا تكفا[1].

وأستغفر الله تعالى من كل ما زلَّت به القدم، أو طغى به القلم، وأستغفره من الأقوال التي لا توافقها الأعمال، وأستغفره مما ادعيته وأظهرته من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه، وأستغفره من كل علم وعمل قُصد به وجهه الكريم ثم خالطه غيره، وأستغفره من كل وعد وعدت به من نفسي ثمَّ قصَّرت في الوفاء به، وأستغفره من كلِّ نعمة أنعم بها

---

(١) انظر: خاتمة الطاهر بن عاشور للتحرير والتنوير (٣٠/ ٦٣٦-٦٣٧).

عليَّ فاستعملتها في معصيته، وأستغفره من كلِّ تصريح وتعريض بنقصان ناقص، وتقصير مقصِّر كنت متّصفاً به.

وأستغفره من كلِّ ذنب وإثم، وأرجو نواله وإحسانه، فإن كرمه عميم، ورحمته واسعة، وجوده على أصناف الخلائق فائض، فأرجوه مغفرة على كلِّ تقصير، وأسأله ألا يعاملنا بما نستحقه، ويتفضَّل علينا بما هو أهله، بمنِّه وسعة جوده ورحمته[1].

اللهم كما مننت على من شئت من عبادك بلذة مناجاتك بتلاوة كتابك، فامنن علينا بمنك وكرمك، واجعلنا من أهل القرآن، الذين هم أهلك وخاصتك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين..

والحمد لله رب العالمين..

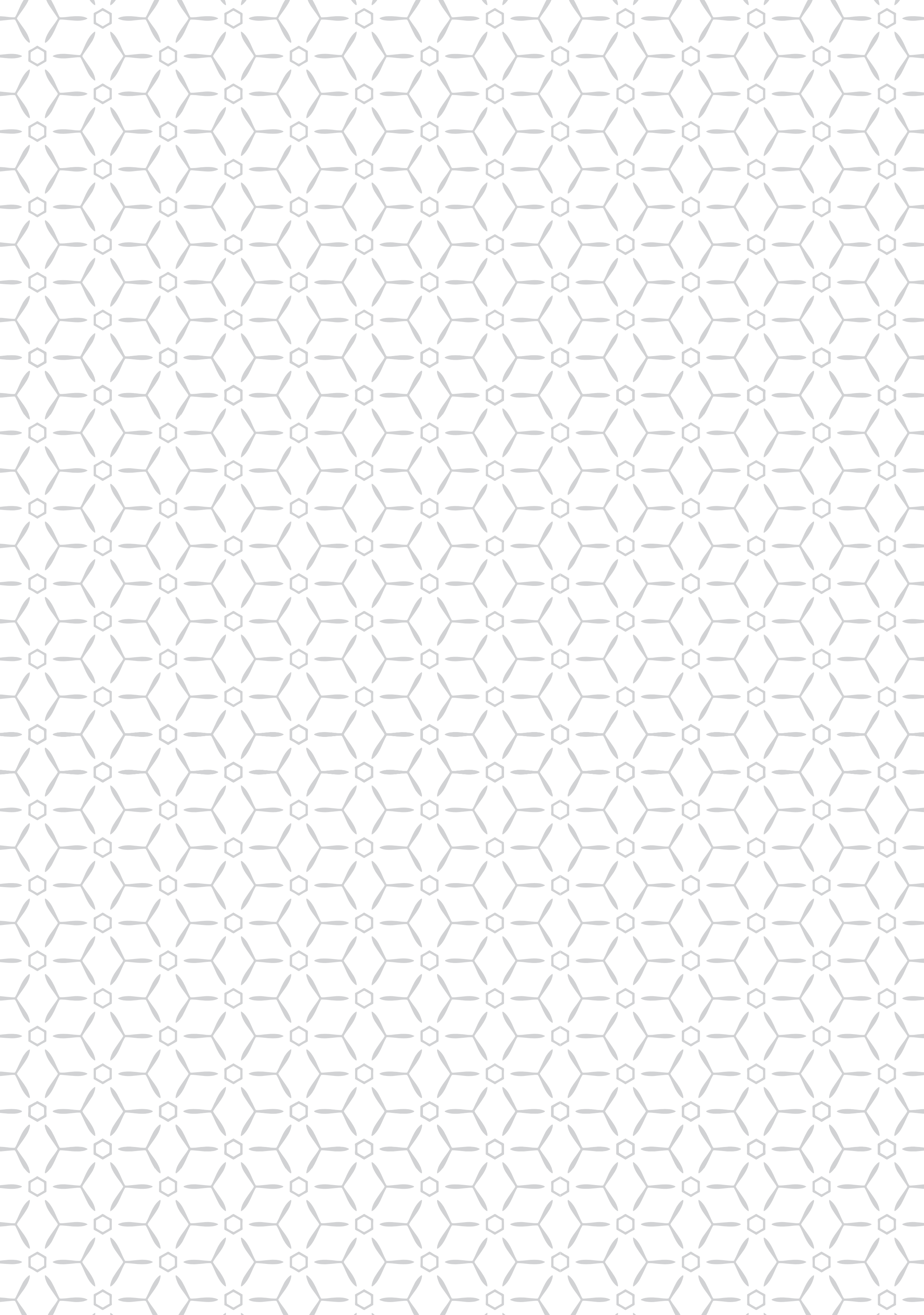
وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارِكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وصحبه أجمعين..

هذا آخر رسالة: تدبُّر القرآن الكريم دراسة تأصيلية، بعد خمسة أعوام من البحث
وكان الفراغ من كتابتها؛ على يد كاتبها وجامعها الفقير إلى عفو ربه:
محمد بن عبد الجواد بن محمد الصاوي
عفا الله عنه وغفر له وهداه، وعامله بلطفه ورحمته
ساكن مدينة جدة أصلحها الله وحفظها وغفر لأهلها
لسبع خلون من شهر ربيع الثاني
من عام ست وثلاثين وأربعمائة وألف
للهجرة النبوية المباركة
على صاحبها أفضل الصلاة
وأزكى السلام
والحمد لله رب
العالمين

تمت

---

[1] انظر للفائدة: خاتمة أبي حامد الغزالي لكتابه الإحياء (٤/ ٥٤٤).



فهرس المصادر والمراجع

* **المرجع الأول:** القرآن الكريم .

- الكتب المطبوعة:

١ - **الإبانة عن أصول الديانة-** علي بن إسماعيل بن أبي بشر، أبو الحسن الأشعري، تحقيق: د/ فوقية حسين محمود، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ .

٢- **الاتجاهات الحديثة في تخطيط المناهج الدراسية في ضوء التوجيهات الإسلامية** - محمود أحمد شوق، دار الفكر العربي، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م .

٣- **إتحاف القاري بوسائل تدبر كلام الباري-** عبدالرحمن الدهامي، مدار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م .

٤- **الإتقان في علوم القرآن** - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م .

٥- **الآثار** – أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري (١٨٢هـ)، تحقيق: أبو الوفا، دار الكتب العلمية – بيروت.

٦- **آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي** – محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي (١٣٨٥هـ)، جمع وتقديم: نجله الدكتور/ أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م.

٧- **اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية-** محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م .

٨- **الاجتهاد المقاصدي** – نور الدين بن مختار الخادمي، كتاب الأمة، قطر – ١٤١٩هـ .

٩- **إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام-** تقي الدين محمد بن علي بن وهب القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (٧٠٢هـ)، تحقيق: مصطفى شيخ ومدثر سندس، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٠- **أحكام الجنائز** – أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١١- **أحكام القرآن** - القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (٥٤٣هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة:

الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

١٢ -**أحكام القرآن**- أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.

١٣ -**أحكام القرآن**- محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق: عبدالغني عبدالخالق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠ هـ.

١٤ -**الإحكام في أصول الأحكام**- أبو الحسن، علي بن محمد الآمدي، تحقيق: د/ سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٥ -**الإحكام في أصول الأحكام**- علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، دار الحديث القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٦ -**إحياء علوم الدين** – محمد بن محمد الغزالي، أبو حامد (٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت.

١٧ -**أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز** – أبو بكر محمد بن الحسين الآجري (٣٦٠هـ)، تحقيق: د/ عبد الله عيلان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ.

١٨ -**أخبار أبي حنيفة وأصحابه** – الحسين بن علي الصَّيمري (٤٣٦هـ)، دار عالم الكتب، بيروت ١٤٠٥هـ.

١٩ -**أخبار أصبهان**- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م.

٢٠ - **أخبار القضاة** - أبوبكر محمد بن خلف بن حيان، وكيع البغدادي، تحقيق: عبدالعزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٦هـ-١٩٤٧م.

٢١ -**أخبار مكة** – محمد بن إسماعيل الفاكهي (٢٧٥هـ)، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، دار خضر، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

٢٢ -**أخلاق النبي وآدابه** - أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (٣٦٩هـ)، تحقيق: صالح بن محمد الونيان، دار المسلم للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م.

٢٣ -**أخلاق أهل القرآن** – أبو بكر محمد بن الحسين الآجري (٣٦٠هـ)، تحقيق: محمد عمرو عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالة ١٤٢٤هـ.

٢٤ -**أخلاق أهل القرآن** - أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (٣٦٠هـ)، حققه وخرج

أحاديثه: الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف، بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

٢٥- **آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه** – جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي (٥٩٧هـ)، تحقيق: سليمان الحرش، دار النواد، دمشق، يروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٩هـ.

٢٦- **آداب الشافعي ومناقبه** - أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (٣٢٧هـ)، قدم له وحقق أصله وعلق عليه: عبد الغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

٢٧- **الآداب الشرعية** –عبد الله بن محمد بن مفلح المقدسي (٧٦٣هـ) ، دار عالم الكتب- الرياض.

٢٨- **آداب النفوس** – الحرث بن أسد المحاسبي (٢٤٣هـ) ، تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا، دار الجيل، بيروت.

٢٩- **أدب الدنيا والدين** - الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م .

٣٠- **أدب القاضي** - أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٤٥٠هـ)، تحقيق: يحي هلال السرحان، مطبوعات رئاسة ديوان الأوقاف بالجمهورية العراقية، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٣٩١هـ .

٣١- **الأدب المفرد**- محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

٣٢- **الأذكار للنووي** - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م .

٣٣- **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**- محمد بن محمد العمادي، أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٣٤- **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول** - محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (١٢٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣٥- **إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد** - محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف بالأمير (١١٨٢هـ)، تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد، الدار السلفية – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣٦- **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**- محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

٣٧-**أساس البلاغة** - أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م .

٣٨-**الاستبصار في عجائب الأمصار** - كاتب مراكشي (ق ٦هـ)، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦م.

٣٩- **الاستذكار**- يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري، تحقيق: سالم محمد عطا ومحمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م .

٤٠-**الاستيعاب في بيان الأسباب**- أول موسوعة علمية حديثية محققة في أسباب النزول- تأليف: سليم الهلالي، ومحمد آل نصر- دار ابن الجوزي، الدمام- الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ .

٤١-**الاستيعاب في معرفة الأصحاب** - يوسف بن عبد البر النمري القرطبي (٤٦٣هـ) ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، دار الجيل ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٢هـ .

٤٢-**أسد الغابة** - أبو الحسن علي بن أبي الكرم ابن الاثير (٦٣٠هـ) ، دار الفكر، بيروت ١٤٠٩هـ.

٤٣- **أسرار البلاغة** - أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي، الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة .

٤٤-**أسرار التكرار في القرآن** (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان) - محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (نحو ٥٠٥هـ)، المحقق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة.

٤٥- **الإسلام على مفترق الطرق** - محمد أسد، ترجمة: د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين .

٤٦-**الأسماء والصفات**- أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبدالله محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الأولى .

٤٧-**الأشباه والنظائر** - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (٧٧١هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤١١هـ- ١٩٩١م .

٤٨-**الأشباه والنظائر** - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م .

٤٩-**الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة النعمان**- زين الدين بن إبراهيم بن نجيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م .

٥٠-**الإصابة في تمييز الصحابة** - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ) ، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٥١ – **أصل صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم** – محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠ هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦ م.

٥٢ – **أصول الدعوة** – عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة: التاسعة ١٤٢١ هـ–٢٠٠١م.

٥٣ – **أصول في التفسير** – محمد بن صالح العثيمين (١٤٢١ هـ)، دار ابن القيم للتوزيع والنشر ، الدمام، ط١ ، ١٤٠٩ هـ .

٥٤ – **أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية (عرض ونقد)** – ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ .

٥٥ – **أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة** – سعود بن عبد العزيز الخلف، ١٤٢٠ هـ–١٤٢١ هـ.

٥٦ – **الأصول من علم الأصول** – محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١ هـ)، دار ابن الجوزي، طبعة عام ١٤٢٦ هـ .

٥٧ – **أضواء البيان** – محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي(١٣٩٣ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ، ١٤١٥ هـ .

٥٨ – **إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين** (هو حاشية على فتح المعين بشرح قرة العين بمهمات الدين) – أبو بكر (المشهور بالبكري) بن محمد شطا الدمياطي (بعد ١٣٠٢ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوريع، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م .

٥٩ – **الاعتصام** – إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م .

٦٠ – **اعتقاد أئمة الحديث** – أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني (٣٧١هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار العاصمة – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ .

٦١ – **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث** – أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ .

٦٢ – **الإعجاز البلاغي** – دراسة تحليلية لتراث أهل العلم – أ.د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة – القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ.

٦٣ – **إعجاز القرآن** – محمد بن الطيب بن محمد بن القاسم، الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة

٦٤ – **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** – مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (١٣٥٦ هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثامنة – ١٤٢٥ هـ .

٦٥- **إعراب القرآن** - أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (٣٣٨هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٦- **إعراب القرآن وبيانه** - محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (١٤٠٣ هـ)، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية ، (دار اليمامة - دمشق - بيروت) ، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ .

٦٧- **الأعلام** - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر - ٢٠٠٢ م .

٦٨- **إعلام الموقعين عن رب العالمين**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م .

٦٩- **إغاثة اللهفان** – شمس الدين محمد بن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق : محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف - الرياض .

٧٠- **الأغاني**- أبو الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية .

٧١- **أفلا يتدبرون القرآن** – أ.د/ طه العلواني، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م .

٧٢- **أفلا يتدبرون القرآن** – أ.د/ ناصر العمر، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م .

٧٣- **أفلا يتدبرون القرآن** - د/ أسماء الرويشد، كتيبات دار الوطن للنشر، الرياض.

٧٤- **اقتضاء الصراط المستقيم** – تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، تحقيق: د/ ناصر العقل، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة السابعة ١٤١٩هـ.

٧٥- **اقتضاء العلم العمل**- أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغدادي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م .

٧٦- **آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان** - إسحاق بن الحسين المنجم (ق ٤ هـ)، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ .

٧٧- **الإكليل في استنباط التنزيل** - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٠١هـ- ١٩٨١ م .

٧٨- **إكمال المعلم بفوائد مسلم** – القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (٥٤٤هـ)، تحقيق: د/ يحي

إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٧٩-**الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والألقاب** – سعد الملك أبو نصر بن ماكولا (٤٧٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٨٠-**الأم** – أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس القرشي المكي الشافعي (٢٠٤هـ)، دار المعرفة ، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٨١-**الإمام في بيان أدلة الأحكام** – عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (٦٦٠هـ)، تحقيق: رضوان مختار بن غربية، دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٨٢-**إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع** – أحمد بن علي بن عبد القادرالحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (٨٤٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.

٨٣-**الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله** – عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٨٤-**الأمثال في القرآن** – د/ محمد جابر الفياض، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

٨٥-**الأمثال في القرآن الكريم**– محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٨٦-**أمثال ونماذج بشرية من القرآن العظيم** – أحمد محمد طاحون، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٨٧-**الأمن النفسي**– د/ محمد موسى الشريف، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ، دار الأندلس الخضراء – جدة ، المملكة العربية السعودية.

٨٨-**الأموال** – أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني، المعروف بابن زنجويه (٢٥١هـ)، تحقيق الدكتور: شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.

٨٩-**إنباه الرواة على أنباه النحاة** – جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (المتوفى: ٦٤٦هـ)، المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ.

٩٠-**الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار** – أبو الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني

الشافعي (٥٥٨هـ)، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

٩١- **الأنجم الزاهرات على حل ألفاظ الورقات في أصول الفقه** - شمس الدين محمد بن عثمان بن علي المارديني الشافعي (٨٧١هـ)، تحقيق: عبد الكريم بن علي النملة، مكتبة الرشد- الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م

٩٢- **أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل** - زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (٦٦٦هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م.

٩٣- **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** - ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٨هـ.

٩٤- **الأنوار الساطعات لآيات جامعات أو البرهان المحكم في أنَّ القرآن يهدي للتي هي أقوم** - عبدالعزيز محمد السلمان.

٩٥- **الأهوال** - أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا (٢٨١هـ)، تحقيق: مجدي فتحي السيد، مكتبة آل ياسر، مصر ١٤١٣هـ.

٩٦- **إيجاز البيان عن معاني القرآن** - محمود بن أبى الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (نحو ٥٥٠هـ)، تحقيق: د/ حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ.

٩٧- **إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله** - أبو بكر محمد بن القاسم بن الأنباري (٣٢٨هـ) تحقيق: محي الدين عبد الرحمن رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩١هـ.

٩٨- **الإيضاح في علوم البلاغة**- جلال الدين محمد بن سعد بن عمر القزويني، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨م.

٩٩- **الإيمان** - أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، عمان، الأردن، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

١٠٠- الإيمان بين السلف والمتكلمين - أحمد بن عطية بن علي الغامدي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ/ ٢٠٠٢م.

١٠١- **الإيمان لابن منده** – أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده العبدي (٣٩٥هـ)، تحقيق: د/ علي الفقيهي، مؤسسة الرسالة ، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ .

١٠٢- **بحر العلوم** - أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (٣٧٣هـ) .

١٠٣- **البحر المحيط في أصول الفقه** - أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (٧٩٤هـ)، دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

١٠٤- **البحر المحيط في التفسير** - أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ .

١٠٥- **البحر المديد في تفسير القرآن المجيد**- أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني (١٢٢٤هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: د/ حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة ١٤١٩هـ .

١٠٦- **بحوث في أصول التفسير ومناهجه** – أ.د/ فهد الرومي، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٩هـ.

١٠٧- **بداية المجتهد ونهاية المقتصد** - أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الشهير بابن رشد الحفيد (٥٩٥هـ)، دار الحديث – القاهرة، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤ م .

١٠٨- **البداية والنهاية** - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعةالأولى ١٤٠٨، هـ - ١٩٨٨ م .

١٠٩- **بدائع الفوائد**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: هشام عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م .

١١٠- **البدع والنهي عنها** - أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي (٢٨٦هـ)، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة- مصر، مكتبة العلم، جدة – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ .

١١١- **البرهان في علوم القرآن** – محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي (٧٩٤هـ) ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعرفة ، بيروت ، ط: ١٣٩١هـ .

١١٢- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** - مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة .

١١٣- **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** - أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي (المتوفى: ٥٩٩هـ)، دار الكاتب العربي – القاهرة١٩٦٧ م .

١١٤- **بهجة المجالس وأنس الجالس**- أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي – تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الثانية.

١١٥- **البيان العربي** - د.بدوي طبانة، مكتبة الانجلو المصرية، مطبعة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٣٧٧هـ.

١١٦- **بيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب** - محمود بن عبد الرحمن (أبي القاسم) ابن أحمد بن محمد، أبو الثناء، شمس الدين الأصفهاني (٧٤٩هـ)، تحقيق: محمد مظهر بقا، دار المدني، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

١١٧- **بيان فضل علم السلف على علم الخلف** – الحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.

١١٨- **بيان كلمة التوحيد والرد على الكشميري عبد المحمود (مطبوع ضمن الرسائل والمسائل النجدية، الجزء الرابع، القسم الأول)** - عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (١٢٨٥هـ)، دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، مصر، ١٣٤٩هـ، النشرة الثالثة، ١٤١٢هـ.

١١٩- **البيان والتبيين**- أبو عثمان، عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

١٢٠- **تاج العروس من جواهر القاموس** - محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية.

١٢١- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام** – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ)، تحقيق: د/ عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ.

١٢٢- **التاريخ الأوسط** - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (٢٥٦هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي ؛ مكتبة دار التراث - حلب ؛ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧ – ١٩٧٧.

١٢٣- **تاريخ الرسل والملوك**- أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٢٤- **التاريخ الكبير** – محمد بن عبد الله بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.

١٢٥- **التاريخ الكبير المعروف بتاريخ ابن أبي خيثمة (السفر الثالث)** - أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة (٢٧٩هـ)، تحقيق: صلاح بن فتحي هلال، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.

١٢٦- **تاريخ المدينة لابن شبة** - عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، أبو زيد (٢٦٢هـ)، حققه: فهيم محمد شلتوت .

١٢٧- **تاريخ بغداد** – أحمد بن علي أبو بكر، الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت، دراسة وتحقيق/ مصصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

١٢٨- **تاريخ خليفة بن خياط**- خليفة بن خياط الليثي العصفري، تحقيق: د/ أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ .

١٢٩- **تاريخ مدينة دمشق** – أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله ابن عساكر الشافعي (٥٧١هـ) ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر ، بيروت ، ط: ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م .

١٣٠- **تاريخ مولد العلماء ووفياتهم** – أبو سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد الربعي (٣٧٩هـ)، تحقيق: د/ عبد الله أحمد سليمان الحمد، دار العاصمة – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

١٣١- **تاريخية الفكر العربي والإسلامي** – محمد أركون، المركز الثقافي العربي، مركز الإنماء القومي، ترجمة: هاشم صالح، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

١٣٢- **تأويل مشكل القرآن** - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان .

١٣٣- **تأويلات أهل السنة (تفسير الماتريدي)** - محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ)، تحقيق: د/ مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

١٣٤- **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**- د. مصطفى خالدي، ود. عمر فروخ، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٧٣هـ .

١٣٥- **التبصرة** - جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (٥٩٧هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

١٣٦- **التبيان في آداب حملة القرآن** -أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، تحقيق/ محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت . الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ.

١٣٧- **التبيان في إعراب القرآن**- أبو البقاء، عبدالله بن أبي عبدالله الحسين العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية .

١٣٨- **التبيان في أقسام القرآن** - محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت .

١٣٩- **التبيان في أمثال القرآن** - محمد صلاح الشوادفي، دار الكتب العلمية، بيروت،٢٠١٢م.

١٤٠- **التبيان في تفسير غريب القرآن**- أحمد بن محمد الهائم المصري، الجياني، تحقيق: د/ فتحي أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م .

١٤١- **التحبير شرح التحرير في أصول الفقه** - علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان المرداوي الدمشقي الصالحي الحنبلي (٨٨٥هـ)، تحقيق: د/ عبد الرحمن الجبرين، د. عوض القرني، د. أحمد السراح، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

١٤٢- **تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد**- محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة .

١٤٣- **التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)** - محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ .

١٤٤- **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**- محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت .

١٤٥- **تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل** - أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (٨٢٦هـ)، تحقيق: عبد الله نوارة، مكتبة الرشد - الرياض .

١٤٦- **تحفة الطالب والجليس في كشف شبه داود بن جرجيس** - عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ (١٢٩٣هـ)، تحقيق: عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم، دار العصمة، الطبعة: الثانية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م .

١٤٧- **تحقيق الوصال بين القلب والقرآن** - مجدي الهلالي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

١٤٨- **تخريج أحاديث الإحياء** - العِراقي (٨٠٦ هـ)، ابن السبكى (٧٧١ هـ)، الزبيدي (١٢٠٥ هـ)، استِخرَاج: أبي عبد اللهَّ مَحمُود بِن مُحَمّد الحَدّاد، دار العاصمة للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ .

١٤٩- **تخريج أحاديث مشكلة الفقر، وكيف عالجها الإسلام** - محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م.

١٥٠- **التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار** - زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ)، تحقيق: بشير محمد عيون، مكتبة المؤيد - الطائف، دار البيان - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ

١٥١- **تدبر القرآن الكريم** - سلمان بن عمر السنيدي، سلسلة تصدر عن مجلة البيان، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

١٥٢- **تدبر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق** – د/ رقية طه العلواني، من إصدارات جمعية النور للبر، مملكة البحرين، ٢٠٠٢م .

١٥٣- **تدبر القرآن الكريم وقفات ولفتات** – عبدالله بن ضيف الله الرحيلي، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م .

١٥٤- **التدبر حقيقته وعلاقته بمصطلحات التأويل والاستنباط والفهم والتفسير** – أ.د. عبدالله عبدالغني سرحان، الرياض، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م .

١٥٥- **التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع** – تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الدمشقي (٧٢٨هـ)، تحقيق: د. محمد بن عودة السعوي، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة: السادسة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

١٥٦- **التذكار في أفضل الأذكار** - ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ .

١٥٧- **تذكرة الحفاظ** - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (٧٤٨هـ)، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م .

١٥٨- **تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم** – بدر الدين محمد بن جماعة الشافعي (٧٣٣هـ)، تحقيق/ عبد السلام عمر علي، مكتبة ابن عباس، ودار الآثار – مصر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

١٥٩- **ترتيب المدارك وتقريب المسالك** – أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (٥٤٤هـ)، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، وآخرون- مطبعة فضالة - المحمدية، المغرب، الطبعة الأولى.

١٦٠- **التسهيل لعلوم التنزيل** - أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (٧٤١هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ.

١٦١- **تشنيف المسامع بجمع الجوامع** – أبو عبدالله بدر الدين محمد بن عبدالله بن بهادر الزركشي (٧٩٤هـ)، تحقيق: د.سيد عبدالعزيز و د.عبدالله ربيع، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، توزيع المكتبة المكية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ .

١٦٢- **التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرَّفت معانيه** – يحيى بن سلام بن ثعلبة التيمي (٢٠٠هـ)، تحقيق: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٩م .

١٦٣- **تصويبات في فهم بعض الآيات** – د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم – دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م .

١٦٤- **التصوير الفني في يالقرآن** - سيد قطب، دار الشروق، مصر، الطبعة السادسة عشر، ١٤٢٣هـ.

١٦٥- **التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية** - علي علي صبح، المكتبة الأزهرية للتراث .

١٦٦- **التطور الدلالي بين لغة الشعر ولغة القرآن** – تأليف/ عودة خليل أبو عودة

١٦٧- **التعريف والإعلام فيما أُبهِمَ في القرآنِ من الأسماءِ الأعلام**: عبدالرحمن السُّهيليِّ ~ (٥٨١هـ)

١٦٨- **التعريفات**- علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

١٦٩- **تعظيم قدر الصلاة**- محمد بن نصر بن الحجاج المروزي، تحقيق: د/ عبدالرحمن عبدالجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٧٠- **التعليق على القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن** - محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

١٧١- **تفسير ابن فورك (من أول سورة المؤمنون - آخر سورة السجدة)** - محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (٤٠٦هـ)، دراسة وتحقيق: علال عبد القادر بندويش (ماجستير)، جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠ - ٢٠٠٩ م.

١٧٢- **تفسير الإمام ابن عرفة** - محمد بن محمد ابن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبو عبد الله (٨٠٣هـ)، تحقيق: د. حسن المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦ م.

١٧٣- **تفسير الإمام الشافعي** - أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان القرشي المكي الشافعي (٢٠٤هـ)، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان (رسالة دكتوراة)، دار التدمرية - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٢٧ - ٢٠٠٦ م .

١٧٤- **تفسير الإيجي (جامع البيان في تفسير القرآن)** - محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإِيجي الشافعيّ (٩٠٥هـ)، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

١٧٥- **تفسير الجلالين**- جلال الدين محمد بن أحمد المحلي وجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى .

١٧٦- **تفسير الحجرات والحديد** – محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

١٧٧- **تفسير الراغب الأصفهاني (المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة)** - أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف

بالراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني

١٧٨- **تفسير الصنعاني**- عبدالرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: د/ مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١٧٩- **تفسير الفاتحة والبقرة** - محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ .

١٨٠- **تفسير القرآن** - أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (٦٦٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م .

١٨١- **تفسير القرآن** - أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (٤٨٩هـ)، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض – السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م .

١٨٢- **تفسير القرآن** - أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (٣١٩هـ)، حققه وعلق عليه الدكتور: سعد بن محمد السعد، دار المآثر – المدينة النبوية، الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م

١٨٣- **تفسير القرآن أصوله وضوابطه** – أ.د/ علي بن سليمان العبيد ، مكتبة التوبة ، الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ.

١٨٤- **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)** - محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م .

١٨٥- **تفسير القرآن العزيز** - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (٣٩٩هـ)، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة ، مصر/ القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م .

١٨٦- **تفسير القرآن العظيم** - أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة - ١٤١٩ هـ .

١٨٧- **تفسير القرآن العظيم** – لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري، دار الحرم للتراث- القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

١٨٨- **تفسير القرآن العظيم**- أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ .

١٨٩- **التفسير القيم** - محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٠ هـ.

١٩٠- **تفسير المراغي** - أحمد بن مصطفى المراغي (١٣٧١هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

١٩١- **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج** - د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ.

١٩٢- **التفسير الميسر** - نخبة من أساتذة التفسير، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩ م.

١٩٣- **التفسير الوسيط للقرآن الكريم** - مجموعة من العلماء من إشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.

١٩٤- **تفسير جزء عم** - محمد صالح العثيمين، دار الثريا للنشر، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

١٩٥- **تفسير سفيان الثوري** - سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

١٩٦- **تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم** - محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي الحميدي، تحقيق: د/ زبيدة محمد سعيد، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٩٧- **تفسير مجاهد** - مجاهد بن جبر المخزومي، تحقيق: عبدالرحمن الطاهر محمد، المنشورات العلمية، بيروت.

١٩٨- **تفسير مقاتل بن سليمان** - أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (١٥٠هـ)، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ

١٩٩- **التفسير من سنن سعيد بن منصور** - أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (٢٢٧هـ)، دراسة وتحقيق: د/ سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض - الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٠٠- **التفسير والمفسرون** - د/ محمد السيد حسين الذهبي (١٣٩٨هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة.

٢٠١- **تفسير يحي بن سلام** - يحي بن سلام بن أبي ثعلبة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (٢٠٠هـ)، تقديم وتحقيق: الدكتورة هند شلبي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

٢٠٢- **التقرير والتحبير** - أبو عبد الله، شمس الدين محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن أمير حاج ويقال له

ابن الموقت الحنفي (٨٧٩هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٢٠٣- **تقييد العلم**- أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغدادي، تحقيق: يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م .

٢٠٤- **التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام**: محمد بن علي الغساني- ابن عسكر (٦٣٦هـ)

٢٠٥- **تكوين المفكر خطوات عملية** – أ.د. عبد الكريم بكار، دار السلام، مصر، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ .

٢٠٦- **تلبيس إبليس**- عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، تحقيق: د/ السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

٢٠٧- **التَّلخِيص في مَعرفَةِ أسمَاءِ الأشياء** – أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (نحو ٣٩٥هـ)، عني بتَحقيقِه: الدكتور عزة حسن، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٩٩٦م .

٢٠٨- **التمهيد في علم التجويد** – شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (٨٣٣هـ)، تحقيق: الدكتور/ على حسين البواب، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٢٠٩- **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**- يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد عبدالكبير البكري، مؤسسة قرطبة .

٢١٠- **تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل**- لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق: علي العمران، محمد عزيز شمس، إشراف الشيخ/ بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي- جدة.

٢١١- **تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين**- أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (٣٧٣هـ)، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٢١٢- **تنبيه الغافلين وإرشاد الجاهلين عما يقع لهم من الخطأ حال تلاوتهم لكتاب الله المبين** - علي بن محمد بن سالم، أبو الحسن النوري الصفاقسي (١١١٨هـ)، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله .

٢١٣- **التنبيه والإشراف** - أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (٣٤٦هـ)، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي – القاهرة .

٢١٤- **تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء** - أبو الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي المعروف بـ «ابن

خمير» (٦١٤هـ)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٢١٥- **تنزيه السنة والقرآن عن أن يكونا من أصول الضلال والكفران** - أحمد بن حجر آل بو طامي، دار الصميعي، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

٢١٦- **تهذيب الأسماء واللغات** - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٢١٧- **تهذيب التهذيب** – أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ.

٢١٨- **تهذيب الكمال** – يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي (٧٤٢هـ)، تحقيق: د/ بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ.

٢١٩- **تهذيب اللغة** - محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، (٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

٢٢٠- **التوابين**- عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: عبدالقادر الأنؤوط، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٢١- **التوراة والإنجيل بمقايس العلم الحديث**- موريس بوكاي، ترجمة: علي الجوهري، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦م.

٢٢٢- **التوضيح والبيان لشجرة الإيمان** - أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (١٣٧٦هـ).

٢٢٣- **التوقيف على مهمات التعاريف** - زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (١٠٣١هـ)، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٢٢٤- **تيسير التحرير** - محمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه الحنفي (٩٧٢هـ)، دار الفكر - بيروت.

٢٢٥- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**- عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٢٦- **تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن** - أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (١٣٧٦هـ)، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٧- **التيسير في قواعد التفسير** – محيي الدين محمد بن سليمان الكافيجي (٨٧٩هـ)، تحقيق: د.مصطفى الذهبي، مكتبة القدسي للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٢٨- **الثقات** – محمد بن حبَّان بن أحمد، أبو حاتم البستي (٣٥٤هـ)، طبع بإعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: د/ محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية، الناشر: دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، الطبعة: الأولى ١٣٩٣ هـ= ١٩٧٣م.

٢٢٩- **الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة** - أبو الفداء زين الدين قاسم بن قُطْلُوْبَغَا السُّوْدُوْنِي الجمالي الحنفي (المتوفى: ٨٧٩هـ)، دراسة وتحقيق: شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة صنعاء، اليمن، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ- ٢٠١١م.

٢٣٠- **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن** - للرماني والخطابي والجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام- دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة. (مصورة من ضمن منهج الاختبار الشامل).

٢٣١- **الجامع (جامع معمر بن راشد)** - معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري (المتوفى: ١٥٣هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)، المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢٣٢- **جامع الأصول في أحاديث الرسول** - مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (٦٠٦هـ)، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط - التتمة تحقيق بشير عيون، مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان، الطبعة: الأولى، ١٣٨٩هـ.

٢٣٣- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** – لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت- الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠م.

٢٣٤- **جامع البيان في القراءات السبع** - عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (٤٤٤هـ)، جامعة الشارقة – الإمارات، (أصل الكتاب رسائل ماجستير من جامعة أم القرى وتم التنسيق بين الرسائل وطباعتها بجامعة الشارقة)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ- ٢٠٠٧م.

٢٣٥- **جامع البيان في تأويل القرآن**- محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢٣٦- **جامع الرسائل** - أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ)، تحقيق : د. محمد رشاد سالم، دار العطاء – الرياض، الطبعة : الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

٢٣٧- **الجامع الصغير وزيادته** - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، مع الكتاب: أحكام محمد ناصر الدين الألباني .

٢٣٨- **جامع العلوم والحكم**- عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ .

٢٣٩- **جامع المسائل لابن تيمية** - أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ)، تحقيق : محمد عزير شمس، إشراف : بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة : الأولى ، ١٤٢٢ هـ .

٢٤٠- **جامع بيان العلم وفضله** – أبو عمر يوسف بن عبد البرّ النمري (٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م .

٢٤١- **الجامع لأحكام القرآن** – محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م .

٢٤٢- **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع** - أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (٤٦٣هـ)، تحقيق: د/ محمود الطحان، مكتبة المعارف – الرياض .

٢٤٣- **الجرح والتعديل** – عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي (٣٢٧هـ)، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن – الهند، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٢٧١ هـ ١٩٥٢م .

٢٤٤- **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط وشعيب الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .

٢٤٥- **جمال القراء وكمال الإقراء** - علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، علم الدين السخاوي (٦٤٣هـ)، تحقيق: د/ مروان العطيَّة - د. محسن خرابة، دار المأمون للتراث، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ- ١٩٩٧ م .

٢٤٦- **جمل من أنساب الأشراف** - أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البَلَاذُري (٢٧٩هـ)، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر – بيروت، الطبعةالأولى، ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦ م .

٢٤٧- **جمهرة اللغة** - أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار

العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م

٢٤٨- **الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه**- عبد الرزاق بن طاهر بن أحمد معاش- دار الوطن للنشر والتوزيع- الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٢٤٩- **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**- أحمد بن عبدالحليم الحراني، ابن تيمية، تحقيق: د/ عبدالعزيز العسكر وآخرون، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٢٥٠- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** – محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، دار المعرفة – المغرب، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٥١- **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)** – محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد أحمد النشيري، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولين ١٤٢٩هـ.

٢٥٢- **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب** – أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (١٣٦٢هـ)، أشرفت على تحقيقه وتصحيحه: لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت.

٢٥٣- **جواهر الأفكار ومعادن الأسرار المستخرجة من كلام العزيز الجبار** – عبد القادر بن أحمد بن بدران، تحقيق: زهير الشاويش- المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٢٥٤- **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع** – أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.

٢٥٥- **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**- عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٢٥٦- **الجواهر المضية** – محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ)، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى بمصر، ١٣٤٩هـ، النشرة الثالثة، ١٤١٢هـ.

٢٥٧- **الجوع** – أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢٥٨- **الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة** – محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التِّلمساني

المعروف بالبُرِّي (المتوفى: بعد ٦٤٥هـ)، نقحها وعلق عليها: د محمد التونجي، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م .

٢٥٩ – **حاجات البشرية في رسالة النبي محمّد ﷺ** – إعداد: د. عادل الشدي، و د. عبد الرزاق معاش، ضمن كتيبات البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ.

٢٦٠ – **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح** – محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢٦١ – **حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، المُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايَةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي** – شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (١٠٦٩هـ)، دار صادر، بيروت.

٢٦٢ – **حاشية الشيخ أحمد الصاوي المالكي على تفسير الجلالين**، طبع بالمطبعة الأزهرية بمصر، على نفقة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٤٥هـ .

٢٦٣ – **الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير** – عدنان محمد زرزور، (أصل الكتاب رسالة ماجستير – كلية دار العلوم بجامعة القاهرة بإشراف الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله)، مؤسسة الرسالة ، بيروت .

٢٦٤ – **حجة القراءات** – أبو زرعة، عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ–١٩٨٢م .

٢٦٥ – **الحجة في القراءات السبع** – الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: د/ عبدالعال سالم مكرم، دار الشروق، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ .

٢٦٦ – **الحق المر** – محمد الغزالي، دار الشروق .

٢٦٧ – **حقائق التفسير** – أبو عبد الرحمن السلمي .

٢٦٨ – **حلية الأولياء** – أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٤٣٠هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤ ، ١٤٠٥هـ .

٢٦٩ – **خريدة العجائب وفريدة الغرائب** – سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر بن الوردي، البكري القرشي، المعري ثم الحلبي (٨٥٢هـ)، المنسوب خطأ : للقاضي زين الدين عمر بن الوردي البكري القرشي، تحقيق : أنور محمود زناتي، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، الطبعة : الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٨ م.

٢٧٠ – **الخصائص** – أبو الفتح، عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، عالم الكتب، بيروت .

٢٧١ – **خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام** – أبو زكريا، يحي بن شرف بن مري النووي الشافعي، تحقيق: حسين إسماعيل الجمل، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ–١٩٩٧م.

٢٧٢- **خلاصة التأصيل لعلم الجرح والتعديل**- د.حاتم العوني، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٢٧٣- خلق أفعال العباد - محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (٢٥٦هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار المعارف السعودية – الرياض .

٢٧٤- **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون** - أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (٧٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور/ أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق .

٢٧٥- **الدر المنثور**- عبدالرحمن بن الكمال، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م .

٢٧٦- **درء تعارض العقل والنقل** - أحمد بن عبدالحليم الحراني، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، دار الكنوز الأدبية، الرياض، ١٣٩١هـ.

٢٧٧- **دراسات في علوم القرآن الكريم** - أ.د/ فهد بن عبدالرحمن الرومي، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م .

٢٧٨- **الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي**- عبد الرحمن بن ناصر السعدي، طبع ونشر: الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء – الطبعة الخامسة ١٤٣٢هـ.

٢٧٩- **دَرْجُ الدُّرر في تَفسيرِ الآيِ والسُّوَر** - أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (٤٧١هـ)، محقق القسم الأول: طلعت صلاح الفرحان، محقق القسم الثاني: محمد أديب شكور أمرير، دار الفكر ، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩ م.

٢٨٠- **دستور العلماء (جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)** - القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (ق ١٢هـ)، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، لبنان ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م .

٢٨١- **الدعوة إلى التمسك بالقرآن الكريم وأثره في حياة المسلمين** - د. عبد الرحيم بن محمد المغذوي، بحث مقدَّم لندوة عناية المملكة العربية السعودية بالقرآن وعلومه، تحت رعاية وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية، (بحث مصور).

٢٨٢- **دعوة إلى تدبُّر القرآن الكريم (كيف ولماذا؟)**- مختار شاكر كمال، دار البشير، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢٨٣- **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب** - محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (١٣٩٣هـ)، مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، توزيع : مكتبة الخراز، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ- ١٩٩٦ م.

٢٨٤- **دلائل الإعجاز**- عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني، تحقيق: د/ محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م .

٢٨٥- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** – أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ) ، وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: د/ عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دار الريان للتراث، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٨هـ.

٢٨٦- **دليل الحيران على مورد الظمآن** – أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن سليمان المارغني التونسي المالكي (١٣٤٩هـ)، دار الحديث- القاهرة .

٢٨٧- **ديوان ابن مقبل** – تميم بن مقبل بن عجلان، تحقيق: د/ عزة حسن، دار الشرق العربي، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٢٨٨- **ديوان أبي الطيب المتنبي** – دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ .

٢٨٩- **ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)**- شرح وتعليق: د/ م. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، مصر .

٢٩٠- **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** - عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

٢٩١- **ديوان المتلمس الضبعي** – تحقيق: حسن كامل صيرفي، جامعة الدول العربية، معهد المخطوطات العربية، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ.

٢٩٢- **ديوان الهذليين** – الدار القومية للطباعة والنشر- ١٣٨٥هـ الجمهورية العربية المتحدة – الثقافة والإرشاد القومي.

٢٩٣- **ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي** - شرح: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢٩٤- **ديوان جرير بن عطية الخطفي**- دار بيروت للطباعة والنشر:١٤٠٦ – ١٩٨٦م .

٢٩٥- **ديوان قيس بن الخطيم** – تحقيق د/ ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت.

٢٩٦- **ديوان كعب بن زهير** – مصور، تحقيق د/ درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٢٩هـ .

٢٩٧- **ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد**- محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (٨٣٢هـ)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة

الأولى١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢٩٨- **ذيل طبقات الحنابلة** - زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، تحقيق: د عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان ، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م .

٢٩٩- **رجال صحيح مسلم** - أحمد بن علي بن منجويه الأصبهاني (٤٢٨هـ)، تحقيق: عبد الله الليثي، دار المعرفة، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ .

٣٠٠- **رد المحتار على الدر المختار** - ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ)، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

٣٠١- **الرد على المنطقيين** - أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان .

٣٠٢- **الرسالة** - أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان المطلبي القرشي المكي الشافعي (٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م .

٣٠٣- **الرسالة التبوكية زاد المهاجر إلى ربه** - محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: د/ محمد جميل غازي، مكتبة المدني، جدة .

٣٠٤- **الرسالة القشيرية** - عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٤٦٥هـ)، تحقيق: الإمام الدكتور/ عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة .

٣٠٥- **رسالتان في النحو لابن الأنباري: الإغراب في جدل الإعراب، ولمع الأدلة في أصول النحو**- قدَّم لهما واعتنى بتحقيقهما: سعيد الأفغاني- مطبعة الجامعة السورية ١٣٧٧هـ.

٣٠٦- **الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة**- مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د/ أحمد فرحات ، دار عمار ، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ .

٣٠٧- **الرقة والبكاء**- أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا (٢٨١هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم بيروت، سنة ١٤١٦هـ.

٣٠٨- **روائع البيان تفسير آيات الأحكام** - محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي - دمشق، مؤسسة مناهل العرفان- بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

٣٠٩- **روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)** - زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، الحنبلي (٧٩٥هـ)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار

العاصمة ، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م .

٣١٠- **روح البيان** - إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي المولى أبو الفداء (١١٢٧هـ)، دار الفكر - بيروت .

٣١١- **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني** - شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

٣١٢- **الروح**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م .

٣١٣- **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام** - أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (٥٨١هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

٣١٤- **الروض المِعطار في خبر الأقطار** - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى (٩٠٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة ، بيروت ، طبع على مطابع دار السراج، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

٣١٥- **روضة الطالبين وعمدة المفتين** - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- عمان، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

٣١٦- **روضة الناظر وجنة المناظر** - عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: د/ عبدالعزيز عبدالرحمن السعيد، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ .

٣١٧- **زاد المسير في علم التفسير**- عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ .

٣١٨- **زاد المعاد**-ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، حققه وخرج أحاديثه: شعيب الأرنؤوط ، عبد القادر الأرنؤوط ،مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار، الكويت ، ط٢٧ ، ١٤١٥هـ .

٣١٩- **الزاهر في معاني كلمات الناس**- أبوبكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: د/ حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م .

٣٢٠- **الزهد** - أبو سفيان وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن رؤاس الرؤاسي (١٩٧هـ)، حققه وقدم له وخرج أحاديثه وآثاره: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م .

٣٢١- **الزهد** - أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (٢٤١هـ)، وضع حواشيه: محمد

عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٣٢٢- **الزهد**– عبد الله بن المبارك بن واضح المروزي (١٨١ هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت .

٣٢٣- **الزهد** – لأبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (٢٧٥هـ)، تحقيق: ياسر بن ابراهيم بن محمد، غنيم بن عباس بن غنيم وقدم له وراجعه: فضيلة الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف، دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .

٣٢٤- **الزهد**- هناد بن السري الكوفي، تحقيق: عبدالرحمن عبدالجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ .

٣٢٥- **زهرة التفاسير** – محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (١٣٩٤ هـ)، دار الفكر العربي.

٣٢٦- **السبعة في القراءات** – أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي، تحقيق: د/ شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ .

٣٢٧- **سر الفصاحة** – أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م .

٣٢٨- **السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير** – شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (٩٧٧هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية) ، القاهرة، ١٢٨٥ هـ .

٣٢٩- **سطور من المنظور والمنثور عن بلاد التكرور** – محمد بن ناصر العبودي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ .

٣٣٠- **السلسلة الصحيحة**- محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض .

٣٣١- **السلسلة الضعيفة**- محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض .

٣٣٢- **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي** - أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (٤٨٧هـ)، نسخه وصححه ونقحه وحقق ما فيه واستخرجه من بطون دواوين العلم: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

٣٣٣- **السنة**- أحمد بن هارون بن يزيد الخلال، تحقيق: د/ عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ .

٣٣٤- **السنة**- عبدالله بن أحمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: د/ محمد سعيد القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ .

٣٣٥- **سنن ابن ماجة** – محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ) ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء الكتب

العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

٣٣٦- **سنن أبي داود**- سليمان بن الأشعث السجستاني، **دار الكتاب العربي، بيروت** .

٣٣٧- **سنن الترمذي** – محمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩هـ)، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.

٣٣٨- **سنن الدارقطني**- أبو الحسن، علي بن عمر الدارقطني البغدادي، تحقيق: السيد هاشم عبدالله يماني المدني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م .

٣٣٩- **سنن الدارمي**- عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ .

٣٤٠- **السنن الكبرى**- أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، مجلس دائرة المعارف النظامية بالهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٤٤هـ .

٣٤١- **سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة** – د/ حسين شرفه، رسالة دكتوراة، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

٣٤٢- **سنن النسائي (المجتبى من السنن)** - أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلاميةن حلب، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م .

٣٤٣- **سنن النسائي الكبرى** – أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣هـ)، تحقيق: د/ عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ .

٣٤٤- **سنن سعيد بن منصور** - أبو عثمان سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني الجوزجاني (٢٢٧هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الدار السلفية – الهند، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م .

٣٤٥- **سير أعلام النبلاء** – محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ) ، أشرف على التحقيق وخرج أحاديثه : شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١١ ، ١٤٢٢هـ .

٣٤٦- **سير السلف الصالحين** - إسماعيل بن محمد الأصبهاني، أبو القاسم، قوام السنة (٥٣٥هـ)، تحقيق: د. كرم بن حلمي بن فرحات بن أحمد، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

٣٤٧- **السيرة النبوية** - عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.

٣٤٨- **السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير)** - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦ م .

٣٤٩- **سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه** - عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، أبو محمد المصري (٢١٤هـ)، تحقيق/ أحمد عبيد، دار عالم الكتب - بيروت – لبنان، الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

٣٥٠- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** - عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (١٠٨٩هـ)، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م .

٣٥١- **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة** - أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (٤١٨هـ)، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، دار طيبة ، السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٥٢- **شرح الأصول الخمسة** – القاضي عبدالجبار بن أحمد، تعليق: الإمام أحمد بن الحسين، تحقيق: د/ عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، مصر .

٣٥٣- **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك** - محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م .

٣٥٤- **شرح الزركشي** - شمس الدين محمد بن عبد الله الزركشي المصري الحنبلي (٧٧٢هـ)، دار العبيكان، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

٣٥٥- **شرح السنة** – الحسين بن مسعود البغوي (٥١٦هـ) ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، محمد زهير الشاويش ، المكتب الإسلامي ، دمشق ، ط٢ ، ١٤٠٣هـ .

٣٥٦- **شرح السنة**- الحسن بن علي بن خلف البربهاري، تحقيق: د/ محمد سعيد القحطاني، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ .

٣٥٧- **شرح العقيدة الطحاوية**- علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ .

٣٥٨- **شرح العقيدة الواسطية** - محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ)، تحقيق: سعد فواز الصميل، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤١٩هـ .

٣٥٩- **شرح العمدة من كتاب الطهارة والحج**- أحمد بن عبدالحليم الحراني، ابن تيمية، تحقيق: د/ سعود صالح العطيشان، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ .

٣٦٠- **شرح الكافية الشافية في انتصار الفرقة الناجية لابن القيم**- محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ محمد صالح العثيمين الخيرية، عنيزة، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ .

٣٦١- **الشرح الممتع على زاد المستقنع** - محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ)، دار النشر: دار ابن الجوزي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ - ١٤٢٨ هـ .

٣٦٢- **شرح المنظومة الميمية في الوصايا والآداب العلمية للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي**- شرح: د.عبد الرزاق بن عبدالمحسن البدر .

٣٦٣- **شرح أم البراهين** - أبو عبدالله محمد بن محمد بن يوسف السنوسي، مطبعة الاستقامة، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ .

٣٦٤- **شرح ثلاثة الأصول** - محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ)، دار الثريا للنشر، الطبعة الرابعة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م .

٣٦٥- **شرح رياض الصالحين** - محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ)، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤٢٦ هـ .

٣٦٦- **شرح صحيح البخارى لابن بطال** - ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

٣٦٧- **شرح مختصر الروضة** - سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، نجم الدين (٧١٦هـ)، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

٣٦٨- **شرح مشكل الآثار** - أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤ م .

٣٦٩- **شرح معاني الآثار**- أبو جعفر، أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ .

٣٧٠- **شرح مقدمة التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية**- شرح الشيخ: محمد بن صالح العثيمين - قدم له وأعده: أد/ عبد الله بن محمد الطيار، دار الوطن - الرياض.

٣٧١- **الشريعة** - أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (٣٦٠هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الوطن ، الرياض ، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٣٧٢- **شعب الإيمان** – أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٤٥٨هـ) ، تحقيق د/ عبد العلي عبدالحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣٧٣- **الشعر والشعراء** - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.

٣٧٤- **الشفا بتعريف حقوق المصطفى** - عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (٥٤٤هـ)، دار الفيحاء – عمان، الطبعة: الثانية - ١٤٠٧ هـ.

٣٧٥- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل** - محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: محمد بدر الدين النعساني، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م .

٣٧٦- **شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم** - نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (٥٧٣هـ)، تحقيق: د. حسين بن عبد الله العمري - مطهر بن علي الإرياني – د. يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت - لبنان)، دار الفكر (دمشق - سورية)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٣٧٧- **الشمعة المضية بنشر قراءات السبعة المرضية** - أبو السعد زين الدين منصور بن أبي النصر بن محمد الطَّبَلاوي، (١٠١٤هـ)، تحقيق: د. علي سيد أحمد جعفر، مكتبة الرشد - السعودية - الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

٣٧٨- **الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها**- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين (٣٩٥هـ)، الناشر: محمد علي بيضون، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٣٧٩- **الصبح المنبي عن حيثية المتنبي** (مطبوع بهامش شرح العكبري) - يوسف البديعي الدمشقي (١٠٧٣هـ)، المطبعة العامرة الشرفية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٨ هـ.

٣٨٠- **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية** - أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

٣٨١- **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**- محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م .

٣٨٢- **صحيح ابن خزيمة**- محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمي النيسابوري، تحقيق: د/ محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م .

٣٨٣- **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري** – محمد ناصر الدين الألباني ، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ .

٣٨٤- **صحيح البخاري** – محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ)، اعتنى به: محمد زهير بن ناصر الناصر – دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٨٥- **صحيح الترغيب والترهيب** – محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الخامسة .

٣٨٦- **صحيح الجامع الصغير وزياداته**- أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح الألباني (١٤٢٠هـ)، المكتب الإسلامي.

٣٨٧- **صحيح سنن ابن ماجه** – محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ .

٣٨٨- **صحيح سنن أبي داوود** – محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ .

٣٨٩- **صحيح سنن الترمذي** – محمد ناصر الدين الألباني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، ط١، ١٤٠٩هـ.

٣٩٠- **صحيح سنن النسائي** – محمد ناصر الدين الألباني (١٤٢٠هـ)، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ .

٣٩١- **صحيح مسلم بشرح الإمام النووي** – محي الدين النووي (٦٥١هـ) ، تحقيق: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٤هـ .

٣٩٢- **صفة الصفوة** – عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (٥٩٧هـ) ، تحقيق : أحمد علي. دار الحديث، القاهرة ١٤٢١هـ .

٣٩٣- **صفة النار**- أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا (٢٨١هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف- دار ابن حزم – لبنان ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

٣٩٤- **صفوة التفاسير** – محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ .

٣٩٥- **الصناعتين (الكتابة والشعر)** - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العنصرية – بيروت، عام النشر: ١٤١٩ هـ.

٣٩٦- **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: د/ علي محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٣٩٧- **صيد الخاطر**- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ)، بعناية: حسن المساحي سويدان، دار القلم – دمشق- الطبعة الأولى.

٣٩٨- **ضعيف الترغيب والترهيب** - محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف – الرياض.

٣٩٩- **ضعيف الجامع الصغير وزيادته** - أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي.

٤٠٠- **ضعيف سنن ابن ماجه** - محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٠١- **ضعيف سنن الترمذي** - محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، أشرف على طباعته والتعليق عليه: زهير الشاويش، بتكليف: من مكتب التربية العربي لدول الخليج – الرياض، توزيع:المكتب الاسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

٤٠٢- **الطب النبوي** - أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، المحقق: مصطفى خضر دونمز التركي، دار ابن حزم، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٦ م.

٤٠٣- **طبقات الأولياء** - ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (٨٠٤هـ) ، بتحقيق: نور الدين شريبه من علماء الأزهر، مكتبة الخانجي، بالقاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.

٤٠٤- **طبقات الحنابلة** - أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (٥٢٦هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت.

٤٠٥- **طبقات الشافعية**- أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، تقي الدين ابن قاضي شهبة (٨٥١هـ)، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، دار عالم الكتب – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ.

٤٠٦- **طبقات الشافعية الكبرى** - تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (٧٧١هـ)، المحقق: د. محمود

محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ .

٤٠٧- **طبقات الصوفية**- محمد بن الحسين بن محمد النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي (٤١٢هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

٤٠٨- **طبقات الفقهاء** - أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (٤٧٦هـ) ، هذبهُ: محمد بن مكرم ابن منظور (المتوفى: ٧١١هـ) ، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٧٠ .

٤٠٩- **الطبقات الكبرى** – أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري (٢٣٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر ، بيروت – الطبعة: الأولى، ١٩٦٨ م.

٤١٠- **الطبقات الكبرى** (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار) - عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحَنَفي، الشَّعْراني (٩٧٣هـ)، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر، ١٣١٥ هـ .

٤١١- **طبقات فحول الشعراء** - محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (٢٣٢هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني ، جدة .

٤١٢- **الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** - يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي الملقب بالمؤيد باللهّ (٧٤٥هـ)، المكتبة العنصرية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ .

٤١٣- **طريق الهجرتين وباب السعادتين**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م .

٤١٤- **الطريق إلى القرآن** – إبراهيم بن عمر السكران، مركز الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

٤١٥- **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي** – لابن العربي المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

٤١٦- **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت .

٤١٧- **العدة في أصول الفقه** - القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (٤٥٨هـ)، حققه وعلق عليه وخرج نصه : د/ أحمد بن علي بن سير المباركي، الأستاذ المشارك في كلية الشريعة بالرياض - جامعة الملك محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة : الثانية ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م .

٤١٨- **العَذْبُ النَّمِيرُ مِنْ مَجَالِسِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي التَّفْسِيرِ** - محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (١٣٩٣هـ)، المحقق: خالد بن عثمان السبت، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ .

٤١٩- **العرش** - شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (٧٤٨هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٤٢٠- **العزفُ على أنوار الذِّكر** (معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنيّ في سياق السورة) - محمود توفيق سعد.

٤٢١- **العظمة** - لأبي الشيخ الأصبهاني (٣٦٩هـ) ، دراسة وتحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري ، دار العاصمة ، الرياض - الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٤٢٢- **العقد الفريد** - أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

٤٢٣- **العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**- محمد بن أحمد بن عبدالهادي بن قدامة المقدسي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤٢٤- **العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة** - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ)، المحقق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، أضواء السلف - الرياض، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٤٢٥- **العلل المتناهية في الأحاديث الواهية**- عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٤٢٦- **علم المقاصد الشرعية** - نور الدين بن مختار الخادمي، مكتبة العبيكان، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٤٢٧- **علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات** - محمد سالم أبو عاصي، دار البصائر - القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٤٢٨- **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ** - السمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود - دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٤٢٩- **عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه عز وجل ومعاشرته مع العباد** - أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الدِّيْنَوَريُّ، المعروف بـ «ابن السُّنِّي» (٣٦٤هـ)، تحقيق: كوثر البرني، دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت.

٤٣٠- **عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم** - محمد السيد جبريل، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٤٣١- **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته - محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: ١٣٢٩هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ.

٤٣٢- **عيون الأخبار** - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤١٨ هـ.

٤٣٣- **الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم** - د. عبد الراضي محمد عبد المحسن، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف .

٤٣٤- **الغارة على العالم الإسلامي** – ألفريد لوشات ليه (١٩٢٩هـ)، لخصها ونقلها للعربية: مساعد اليافي ومحب الدين الخطيب، منشورات العصر الحديث، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

٤٣٥- **غاية النهاية في طبقات القراء** - شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣هـ)، مكتبة ابن تيمية، عني بنشره لأول مرة عام ١٣٥١هـج. برجستراسر.

٤٣٦- **غاية الوصول في شرح لب الأصول** - زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي (المتوفى: ٩٢٦هـ)، دار الكتب العربية الكبرى، مصر، (أصحابها: مصطفى البابي الحلبي وأخويه) .

٤٣٧- **غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب** - شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى : ١١٨٨هـ)، مؤسسة قرطبة – مصر، الطبعة : الثانية ، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٣م .

٤٣٨- **غرائب التفسير وعجائب التأويل** - محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (نحو ٥٠٥هـ)، دار القبلة للثقافة الإسلامية - جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت .

٤٣٩- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان (تفسير النيسابوري)** - نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (٨٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ.

٤٤٠- **غريب الحديث** – أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (٢٢٤هـ)، تحقيق : د. محمد عبد المعيد خان، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن، الطبعة الأولى، ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٤م.

٤٤١- **غريب الحديث** –عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ) ، تحقيق : د/ عبد الله الجبوري ، مطبعة العاني ، بغداد ، ط١ ، ١٣٩٧هـ.

٤٤٢- **غريب الحديث**- حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، تحقيق: عبدالكريم إبراهيم العزباوي،

جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٢هـ .

٤٤٣- **غريب الحديث**- عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، تحقيق: د/ عبدالمعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م .

٤٤٤- **غريب الحديث**- عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: د/ عبدالله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ .

٤٤٥- **غريب القرآن** - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق: سعيد اللحام .

٤٤٦- **غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب** - محمد بن عُزير السجستاني، أبو بكر العُزيري (٣٣٠هـ)، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة – سوريا، الطبعة : الأولى ، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م .

٤٤٧- **الغيث الهامع شرح جمع الجوامع** – ولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبدالرحيم العراقي، تحقيق: محمد تامر حجازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ .

٤٤٨- **الفتاوى الكبرى** - أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

٤٤٩- **فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء في المملكة العربية السعودية**- جمع وترتيب: أحمد بن عبدالرزاق الدويش.

٤٥٠- **فتح الباري شرح صحيح البخاري** – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٧هـ) ، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي،قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز .

٤٥١- **فتحُ البيان في مقاصد القرآن** - أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (١٣٠٧هـ)، عني بطبعِهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

٤٥٢- **فتح الرحمن في بيان هجر القرآن** – محمد بن فتحي آل عبدالعزيز ومحمود بن محمد الملاح، الدار العالمية للنشر والتوزيع، الإسكندرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م .

٤٥٣- **فتح القدير** - محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (١٢٥٠هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ

٤٥٤- **الفرج بعد الشدة** - المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (المتوفى: ٣٨٤هـ)، تحقيق: عبود الشالجى، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٤٥٥- **الفَرْق بين الفِرَق** - أبو منصور، عبدالقاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت،

الطبعة الثانية، ١٩٧٧م .

٤٥٦- **فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها** - د. غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية للطباعة والنشر والتسويق، جدة، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م .

٤٥٧- **الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان** - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط- مكتبة دار البيان، دمشق، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .

٤٥٨- **الفروق** - أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (٦٨٤هـ)، عالم الكتب .

٤٥٩- **فصل الخطاب في شرح (مسائل الجاهلية، التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب رحمه الله)** - أبو المعالي محمود شكري بن عبد الله بن محمد بن أبي الثناء الألوسي (١٣٤٢هـ)، تقديم وتعليق: علي بن مصطفى مخلوف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .

٤٦٠- **الفصل في الملل والأهواء والنِّحل**- علي بن محمد بن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة .

٤٦١- **فصول في أصول التفسير** - أ.د/ مساعد الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ .

٤٦٢- **فضائل الصحابة**- أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (٢٤١هـ)، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣ – ١٩٨٣م .

٤٦٣- **فضائل القرآن** - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (٧٧٤هـ)، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى - ١٤١٦ هـ .

٤٦٤- **فضائل القرآن** - أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن الْمُسْتَفاض الفِرْيابِي (٣٠١هـ)، تحقيق وتخريج ودراسة: يوسف عثمان فضل الله جبريل، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

٤٦٥- **فضائل القرآن** - أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (٢٢٤هـ)، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير (دمشق - بيروت) الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

٤٦٦- **فضائل القرآن**- أَبو العَبَّاسِ جَعْفَرُ بنُ مُحَمَّدِ بنُ الْمُعْتَزِّ بنِ مُحَمَّدِ الْمُسْتَغْفِرِيُّ، النَّسَفِيُّ (٤٣٢هـ)، تحقيق: أحمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م .

٤٦٧- **فضائل القرآن**- أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (٢٢٤هـ)، تحقيق: مروان

العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين- دار ابن كثير (دمشق - بيروت) الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

٤٦٨- **فضائل القرآن وتلاوته** - أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن الرازي المقرىء (٤٥٤هـ)، تحقيق وتخريج: الدكتور عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .

٤٦٩- **فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة** - أبو عبد الله محمد بن أيوب بن يسار الضريس البجلي الرازي (٢٩٤هـ)، تحقيق: غزوة بدير، دار الفكر، دمشق – سورية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

٤٧٠- **فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه**- أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل (٢٩٠هـ)، دراسة وتحقيق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، دار ماجد عسيري، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م .

٤٧١- **فقه السيرة**- محمد الغزالي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار القلم، دمشق، الطبعة السابعة، ١٩٩٨م .

٤٧٢- **فهم القرآن مناهج وآفاق** – مجموعة من الباحثين، من منشورات جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان–الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م .

٤٧٣- **فهم القرآن ومعانيه** - الحارث بن أسد بن عبدالله المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ .

٤٧٤- **فوات الوفيات**- محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م .

٤٧٥- **الفوائد المشوِّق إلى علوم القرآن وعلم البيان** – لابن القيم الجوزية ، عالم الكتب ، بيروت – لبنان .

٤٧٦- **الفوائد**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م .

٤٧٧- **فوائد مستنبطة من قصة يوسف عليه السلام**- عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، اعتنى به وعلق عليه: أشرف عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٤٧٨- **في ظلال القرآن** – سيد قطب (١٣٨٥هـ) ، دار الشروق (بيروت ، القاهرة) الطبعة الشرعية السابعة عشر ١٤١٢هـ.

٤٧٩- **فيض القدير شرح الجامع الصغير** – زين الدين محمد عبدالرؤوف المناوي القاهري (١٠٣١هـ)، المكتبة

التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.

٤٨٠- **قادة الغرب يقولون «دَمِّرُوا الإِسْلاَمَ أَبِيدُوا أَهْلَهُ»** - جلال العالم، عبد الودود يوسف الدمشقي (١٤٠٣هـ)، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٤ م.

٤٨١- **قاعدة في فضائل القرآن** - لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: د/ سليمان بن صالح القرعاوي، الأحساء ١٤١٤هـ.

٤٨٢- **القاموس الفقهي** - سعدي أبو جيب، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٨٣- **القاموس المحيط** - مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٤٨٤- **القائد إلى تصحيح العقائد** (وهو القسم الرابع من كتاب «التنكيل بما تأنيب الكوثري من الأباطيل») - عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن محمد المعلمي العتمي اليماني (١٣٨٦هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

٤٨٥- **القصيدة اليتيمة برواية القاضي علي بن المحسن التنوخي** - نشرها: د/ صلاح الدين المنجد - دار الكتاب الجديد، بيروت - الطبعة الثالثة - ١٩٨٣م.

٤٨٦- **القطع والائتناف** - أبو جعفر النحاس، تحقيق: د/ عبدالرحمن المطرودي، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار عالم الكتب، الرياض.

٤٨٧- **قواعد الأحكام في مصالح الأنام** - عز الدين عبدالعزيز بن عبدالسلام السلمي الدمشقي (٦٦٠هـ)، تحقيق: محمود بن التلاميد الشنقيطي، دار المعارف، بيروت.

٤٨٨- **قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ** - عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٤٨٩- **قواعد الترجيح عند المفسرين** - حسين بن علي الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨ م.

٤٩٠- **قواعد التفسير** - د/ خالد بن عثمان السبت، دار ابن القيم، الرياض، دار ابن عفان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٤٩١- **القواعد الحسان لتفسير القرآن** - أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (١٣٧٦هـ)، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٤٩٢- **القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى** - محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ)، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م .

٤٩٣- **قواعد قرآنية** – د/ عمر بن عبدالله المقبل، مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٣٢هـ .

٤٩٤- **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد** - محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (٣٨٦هـ)، تحقيق: د/ عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان- الطبعة الثانية، ١٤٢٦ هـ-٢٠٠٥م .

٤٩٥- **الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها** - يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل بن سواده أبو القاسم الهُذَلي اليشكري المغربي (٤٦٥هـ)، تحقيق: جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، مؤسسة سما للتوزيع والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

٤٩٦- **الكامل في اللغة والأدب** - محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م .

٤٩٧- **الكامل في ضعفاء الرجال** – عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد الجرجاني (٣٦٥هـ) ، تحقيق : تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض، وشارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ١٩٩٧م.

٤٩٨- **كتاب الأفعال**- أبو القاسم، علي بن جعفر السعدي، ابن القطاع، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م .

٤٩٩- **كتاب العلم**- أبو خيثمة، زهير بن حرب النسائي، حققه وخرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض .

٥٠٠- **كتاب العين**- الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د/ مهدي المخزومي و د/ إبراهيم السامرائي، مكتبة الهلال .

٥٠١- **كتاب الفتن**- نعيم بن حماد المروزي، تحقيق: سمير أمين الزهيري، مكتبة التوحيد، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ .

٥٠٢- **كتاب اللمع في التصوف** - لابن السراج الطوسي، تحقيق: رنولد آلن نيكلسون، طبع في مطبعة بريل ، في مدينة ليدن سنة ١٩١٤م .

٥٠٣- **كتاب المحتضرين**- أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن أبي الدنيا (٢٨١هـ)، تحقيق: محمد خير رمضان

يوسف، دار ابن حزم – لبنان ، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م .

٥٠٤- **كتاب آمالي ابن الحاجب** – أبي عمرو عثمان بن الحاجب (٦٤٦هـ)، تحقيق: د/ فخر صالح قداره – دار الجيل، بيروت – دار عمار، الأردن ط ١٤٠٩هـ.

٥٠٥- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل** – أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

٥٠٦- **كشف المعانى فى المتشابه من المثانى** – أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي (٧٣٣هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، دار الوفاء ـ المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م .

٥٠٧- **الكشف والبيان عن تفسير القرآن** – أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ – ٢٠٠٢ م .

٥٠٨- **كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه** (حاشية السندي على سنن ابن ماجه) – محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (١١٣٨هـ)، دار الجيل – بيروت .

٥٠٩- **الكفاية في علم الرواية**– أحمد بن علي بن ثابت، الخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبدالله السورقي وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية، المدينة المنورة .

٥١٠- **الكليات للكفوي**– أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ–١٩٩٨م .

٥١١- **الكنى والأسماء** – أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي (٣١٠هـ) ، تحقيق : أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي ، دار ابن حزم ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .

٥١٢- **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة** – نجم الدين محمد بن محمد الغزي (١٠٦١هـ)، تحقيق:خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧ م

٥١٣- **الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية**، جمال الدين الإسنوي – دار عمار، الأردن– الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٥١٤- **كيف نتعامل مع القرآن** – محمد الغزالي، في مدارسة أجراها معه: عمر عبيد حسنة، دار نهضة مصر– الطبعة السابعة ٢٠٠٥م .

٥١٥- **لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن)** – علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي

أبو الحسن، المعروف بالخازن (٧٤١هـ)، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ.

٥١٦- **اللباب في علوم الكتاب** – أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (٧٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ-١٩٩٨م.

٥١٧- **لسان العرب** – محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

٥١٨- **لسان الميزان**- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: دائرة المعارف النظامية بالهند، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٥١٩- **لطائف الإشارات (تفسير القشيري)** – عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (٤٦٥هـ)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة: الثالثة.

٥٢٠- **لطائف المعارف فيما لمواسم من اللطائف** – عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي (٧٩٥هـ)، دار ابن حزم للطباعة والنشر، لبنان- الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٥٢١- **لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدَّم غيرهم**- الأمير شكيب أرسلان، مراجعة الشيخ: حسن تميم- منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية.

٥٢٢- **ليدَّبروا آياته** – تأملات أكثر من ١٢٠ عالم وطالب علم، المجموعة الأولى، مركز التدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

٥٢٣- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** – علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الندوي (١٤٢٠هـ)، مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر.

٥٢٤- **مباحث في إعجاز القرآن** – د. مصطفى مسلم، دار القلم – دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

٥٢٥- **مباحث في التفسير الموضوعي** – مصطفى مسلم، دار القلم، الطبعة: الرابعة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

٥٢٦- **مباحث في علوم القرآن** – صبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة والعشرون ٢٠٠٠م.

٥٢٧- **مباحث في علوم القرآن**- مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٥٢٨- **المتفق والمفترق** – أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد صادق آيدن الحامدي، دار القادري للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

٥٢٩- **المتمنين** - أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم - بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٥٣٠- **متن القصيدة النونية**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

٥٣١- **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**- ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، ابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٩٥م.

٥٣٢- **المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية ﷺ من صحيح الإمام البخاري** - شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفيري الشافعي (المتوفى: ٩٥٦هـ)، حققه وخرج أحاديثه: أحمد فتحي عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٥٣٣- **مجالس شهر رمضان**- محمد بن صالح العثيمين، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٥٣٤- **المجالسة وجواهر العلم** – أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري (٣٣٣هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية (البحرين - أم الحصم)، دار ابن حزم، بيروت – لبنان- الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٥٣٥- **المجروحين** – محمد بن حبان بن أبي حاتم البستي (٣٥٤هـ)، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط١، ١٣٩٦هـ.

٥٣٦- **مجمع الأمثال** - أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري (المتوفى: ٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة - بيروت، لبنان.

٥٣٧- **مجمع الزوائد** – علي بن أبي بكر الهيثمي (٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.

٥٣٨- **مجمل اللغة** – أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٥٣٩- **مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي** - زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (٧٩٥هـ)، تحقيق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ١٤٢٤هـ.

٥٤٠- **المجموع شرح المهذب** - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (٦٧٦هـ)، دار الفكر .

٥٤١- **مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله** - عبد العزيز بن عبد الله بن باز (١٤٢٠هـ)، أشرف على جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر .

٥٤٢- **مجموع فتاوى شيخ الإسلام** – أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (٧٢٨هـ) ، جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن القاسم . ط١ ، ١٤٢٣هـ .

٥٤٣- **مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين** - محمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٤٢١هـ)، جمع وترتيب : فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، دار الوطن - دار الثريا، الطبعة الأخيرة - ١٤١٣ هـ .

٥٤٤- **مجموعة رسائل ابن عابدين** – محمد أمين أفندي، المشهور بابن عابدين، طبعة قديمة مصورة.

٥٤٥- **محاسن التأويل** - محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (١٣٣٢هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ .

٥٤٦- **المحاسن والمساوئ** - إبراهيم بن محمد البيهقي ، دار صادر، بيروت.

٥٤٧- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء** - أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ)، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ .

٥٤٨- **محاضرات في علوم القرآن** – أبو عبد الله غانم بن قدوري بن حمد بن صالح، آل موسى فَرَج الناصري التكريتي، دار عمار ، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .

٥٤٩- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** - أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ .

٥٥٠- **المحرر في علوم القرآن** – د/ مساعد بن سليمان الطيار، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي بجدة، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م .

٥٥١- **المحصول في علم الأصول**- محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: طه جابر العلواني، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ .

٥٥٢- **المحكم والمحيط الأعظم** - أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (٤٥٨هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

٥٥٣- **المحلى بالآثار** – أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (٤٥٦هـ)، دار

الفكر – بيروت .

٥٥٤- **مختار الصحاح**- محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م .

٥٥٥- **مختصر [قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر]**- أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (٢٩٤هـ)، اختصرها: العلامة أحمد بن علي المقريزي، حديث أكادمي، فيصل اباد – باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م .

٥٥٦- **مختصر التحرير شرح الكوكب المنير** – تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي، المعروف بابن النجار الحنبلي (٩٧٢هـ)، المحقق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ – ١٩٩٧ م .

٥٥٧- **مختصر الشمائل المحمدية**- أبو عيسى، محمد بن سورة الترمذي، اختصره وحققه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان .

٥٥٨- **مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة** – مؤلف الأصل: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي (٧٧٤هـ)، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م .

٥٥٩- **المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**– علي بن محمد بن علي البعلي، ابن اللحام، تحقيق: د/ محمد مظهر بقا، جامعة الملك عبدالعزيز، مكة المكرمة .

٥٦٠- **مختصر قيام الليل وقيام رمضان وكتاب الوتر** – أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (٢٩٤هـ)، اختصرها: العلامة أحمد بن علي المقريزي، حديث أكادمي، فيصل اباد – باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٥٦١- **مختصر منهاج القاصدين** – أبو العباس أحمد بن عبدالرحمن المقدسي (٦٨٩هـ)، قدم له: محمد أحمد دهمان، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٣٩٨هـ .

٥٦٢- **المخصص** – أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (٤٥٨هـ)، المحقق: خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ـ١٩٩٦م .

٥٦٣- **المخلصيات وأجزاء أخرى** – محمد بن عبد الرحمن بن العباس بن عبد الرحمن بن زكريا البغدادي المخَلِّص (٣٩٣هـ)، المحقق: نبيل سعد الدين جرار، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لدولة قطر،

الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م .

٥٦٤- **مدارج الحفظ والتدبُّر** - أ.د/ ناصر العمر، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م .

٥٦٥- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** - محمد ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ) ، تحقيق : محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت- الطبعة الثالثة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.

٥٦٦- **مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)** - أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م .

٥٦٧- **المدخل إلى الدراسات القرآنية (مبادئ تدبر القرآن والانتفاع به)**- أبو الحسن الندوي ،دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٣١هـ.

٥٦٨- **المدخل إلى السنن الكبرى** - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت .

٥٦٩- **المدخل إلى مقاصد القرآن** -الدكتور عبد الكريم حامدي - دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٥٧٠- **المدخل لدراسة القرآن الكريم** - محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (١٤٠٣هـ)، مكتبه السنة - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م .

٥٧١- **المدهش**- جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (٥٩٧هـ)، تحقيق: د/ مروان قباني، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٥٧٢- **المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز** - أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة (٦٦٥هـ)، تحقيق: طيار آلتي قولاج، دار صادر - بيروت، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م .

٥٧٣- **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح** ، علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (١٠١٤هـ)، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م .

٥٧٤- **المسالك والممالك** - أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (٤٨٧هـ)، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢ م .

٥٧٥- **المستخرج** - أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (٣١٦هـ)، تحقيق: أيمن

بن عارف الدمشقي، دار المعرفة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م .

٥٧٦- **المستدرك على الصحيحين** – أبو عبدالله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤١١هـ.

٥٧٧- **المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام** - تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (٧٢٨هـ)، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ .

٥٧٨- **مسند ابن الجعد**- علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي (٢٣٠هـ)، تحقيق: عامر أحمد حيدر- مؤسسة نادر – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ – ١٩٩٠م .

٥٧٩- **مسند أبي يعلى**- أحمد بن علي بن المثنى، أبو يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م .

٥٨٠- **مسند إسحاق بن راهويه**- إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن راهويه الحنظلي، تحقيق: د/ عبدالغفور بن عبدالحق البلوشي، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩١م .

٥٨١- **مسند الإمام أحمد بن حنبل** –أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ) ، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .

٥٨٢- **مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار**- أبو بكر أحمد بن عمرو العتكي المعروف بالبزار (٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرون، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

٥٨٣- **مسند الحميدي**- عبدالله بن الزبير أبوبكر الحميدي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت .

٥٨٤- **مسند الروياني** - أبو بكر محمد بن هارون الرُّوياني (٣٠٧هـ)، تحقيق: أيمن علي أبو يماني، مؤسسة قرطبة – القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ .

٥٨٥- **مسند الشافعي**- محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت .

٥٨٦- **مسند الشاميين**- سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٤م .

٥٨٧- **مسند الطيالسي**- سليمان بن داود الفارسي البصري، أبو داود الطيالسي، دار المعرفة، بيروت.

٥٨٨- **مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقواله على أبواب العلم**- أبو الفداء

إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (٧٧٤هـ)، تحقيق: عبد المعطي قلعجي – دار الوفاء – المنصورة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

٥٨٩- **المسند للشاشي** – أبو سعيد الهيثم بن كليب الشاشي (٣٣٥هـ)، تحقيق: د/ محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٥٩٠- **المسودة في أصول الفقه** – آل تيمية (بدأ بتصنيفها الجدّ: مجد الدين عبد السلام بن تيمية (٦٥٢هـ)، وأضاف إليها الأب: عبد الحليم بن تيمية (٦٨٢هـ)، ثم أكملها الابن الحفيد: أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي.

٥٩١- **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار** – محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، الدارمي، البُستي (٣٥٤هـ)، حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق على ابراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة، الطبعة: الأولى ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

٥٩٢- **مشكاة المصابيح** – محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله التبريزي (٧٤١هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي – بيروت – الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.

٥٩٣- **مشكل إعراب القرآن** – مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: د/ حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٥٩٤- **مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ** – إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (٨٨٥هـ)، مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧م.

٥٩٥- **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه** – أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي (٨٤٠هـ)، تحقيق: محمد المنتقى الكشناوي، دار العربية – بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٥٩٦- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير** – أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٥٩٧- **مصنف عبد الرزاق** – أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٥٩٨- **المصنف في الأحاديث والآثار** – عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٥٩٩- **المطلع على ألفاظ المقنع** – محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي، تحقيق: محمد بشير الأدلبي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٦٠٠- **المعارف** - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٩٩٢ م .

٦٠١- **معالم التنزيل** - محيي السنة، الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: عثمان جمعة ضميرية وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ-١٩٩٧م .

٦٠٢- **معالم في الطريق** – سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٣٩٩ هـ .

٦٠٣- **معاني القراءات** - محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (٣٧٠هـ)، مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م .

٦٠٤- **معاني القرآن** - أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (٢٠٧هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي و محمد علي النجار و عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر، الطبعة: الأولى .

٦٠٥- **معاني القرآن الكريم**- أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ .

٦٠٦- **معاني القرآن وإعرابه** - إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٦٠٧- **المعاني الكبير في أبيات المعاني** - أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق: المستشرق د. سالم الكرنكوي وعبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن بالهند [الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ، ١٩٤٩م]، ثم صورتها: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان [الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م] .

٦٠٨- **المعتمد في أصول الفقه**- محمد بن علي بن الطيب البصري، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ .

٦٠٩- **المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة** - أحمد عمر أبو شوفة، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ٢٠٠٣م .

٦١٠- **معجم الأدباء**- أبو عبدالله، ياقوت بن عبدالله الحموي، دار الفكر، بيروت .

٦١١- **المعجم الأوسط**- سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق عوض الله محمد وعبدالمحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ .

٦١٢- **معجم البلدان** – ياقوت بن عبد الله الحموي (٦٢٦هـ) ، دار الفكر ، بيروت .

٦١٣- **معجم الشعراء** - للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (٣٨٤ هـ)، بتصحيح وتعليق : الأستاذ

الدكتور ف . كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة : الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٦١٤- **معجم الشيوخ** – أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر (٥٧١هـ)، تحقيق: د/ وفاء تقي الدين، دار البشائر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

٦١٥- **معجم الصحابة** - أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المَرْزُبان بن سابور بن شاهنشاه البغوي (٣١٧هـ)، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان – الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

٦١٦- **معجم الفروق اللغوية** - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (نحو ٣٩٥هـ)، تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ«قم»، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ .

٦١٧- **المعجم الكبير** – سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (٣٦٠هـ) ، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي ، مكتبة الزهراء ، الموصل ، ط٢ ، ١٤٠٤هـ .

٦١٨- **معجم المؤلفين** - عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشق (١٤٠٨هـ)، مكتبة المثنى - بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٦١٩- **المعجم الوسيط** - مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى و أحمد الزيات و حامد عبد القادر و محمد النجار، دار الدعوة .

٦٢٠- **معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ** - محمد محمد محمد سالم محيسن (١٤٢٢هـ)، دار الجيل – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م .

٦٢١- **معجم ديوان الأدب** - أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، (٣٥٠هـ)، تحقيق: دكتور أحمد مختار عمر، مراجعة: دكتور إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

٦٢٢- **المعجم لابن المقرئ** - أبو بكر محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم بن زاذان الأصبهاني الخازن، المشهور بابن المقرئ (٣٨١هـ)، تحقيق: أبي عبد الحمن عادل بن سعد، مكتبة الرشد، الرياض، شركة الرياض للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٦٢٣- **معجم لغة الفقهاء** - محمد رواس قلعجي و حامد صادق قنيبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

٦٢٤- **معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم** - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، تحقيق: أ. د محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤ م .

٦٢٥- **معجم مقاييس اللغة**- أبو الحسين، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .

٦٢٦- **معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم**- أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي (٢٦١هـ)، تحقيق/ عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة – السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ – ١٩٨٥ .

٦٢٧- **معرفة السنن والآثار** - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ)، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية (كراتشي - باكستان)، دار قتيبة (دمشق -بيروت)، دار الوعي (حلب - دمشق)، دار الوفاء (المنصورة - القاهرة)، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م .

٦٢٨- **معرفة الصحابة** - أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي (٣٩٥هـ)، حققه وقدم له وعلق عليه: الأستاذ الدكتور/ عامر حسن صبري، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

٦٢٩- **معرفة الصحابة**- أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (٤٣٠هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٦٣٠- **معرفة القراء الكبار** – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ) ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧م .

٦٣١- **المعين على تدبر الكتاب المبين** – مجد بن أحمد مكي، دار نور المكتبات للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م .

٦٣٢- **المغرب في ترتيب المعرب**- ناصر الدين بن عبدالسيد بن علي المطرزي، تحقيق: محمود فاخوري وعبدالحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م .

٦٣٣- **المغني** - أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ)، مكتبة القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

٦٣٤- **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**- جمال الدين عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري، تحقيق: د/ مازن المبارك ومحمد علي حمدالله، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م .

٦٣٥- **مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة** – د.خالد بن عبدالكريم اللاحم، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م.

٦٣٦- **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)** - أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

٦٣٧- **مفاتيح للتعامل مع القرآن** – د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي- دار القلم -دمشق ، دار البشير- جدة، الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ.

٦٣٨- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** – محمد بن قيم الجوزية (٧٥١هـ) ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:١٤١٩هـ.

٦٣٩- **مفحمات الأقران في مبهمات القرآن** - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (٩١١ هـ)، تحقيق: الدكتور مصطفى ديب البغا، مؤسسة علوم القرآن، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ.

٦٤٠- **المفردات في غريب القرآن** - أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية ، دمشق بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

٦٤١- **المفصل في صنعة الإعراب**- محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، تحقيق: د/ علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

٦٤٢- **المفضليات** - المفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (نحو ١٦٨هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون، دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السادسة.

٦٤٣- **مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر** – أ.د مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

٦٤٤- **مقاصد الشريعة الإسلامية تأصيلاً وتفعيلاً**- د/ محمد بكر حبيب، كتاب دعوة الحق، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٧هـ.

٦٤٥- **مقاصد الشريعة الإسلامية**- محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

٦٤٦- **مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير** – أ.د/ مساعد الطيار، دار المحدث، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٦٤٧- **مقدمة التفسير وحاشيته (المقدمة والحاشية كلاهما للشيخ ابن قاسم رحمه الله)** - عبد الرحمن بن محمد ابن قاسم العاصمي القحطاني الحنبلي النجدي (١٣٩٢هـ)، الطبعة: الثانية، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٦٤٨- **مقدمة في أصول التفسير** - أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (٧٢٨هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٤٩٠هـ- ١٩٨٠م .

٦٤٩- **المكتفى في الوقف والابتدا** - عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (٤٤٤هـ)، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، دار عمار، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١ م .

٦٥٠- **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل** - أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (٧٠٨هـ)، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

٦٥١- **الملل والنحل**- محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ .

٦٥٢- **منار الهدى في بيان الوقف والابتدا** - أحمد بن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الأشموني المصري الشافعي (نحو ١١٠٠هـ)، تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠٢ م .

٦٥٣- **منازل السائرين**- عبدالله الأنصاري الهروي، دار الكتب العليمة، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٦٥٤- **مناقب الأسد الغالب علي بن أبي طالب**- شمس الدين محمد بن محمد ابن الجزري، تحقيق: طارق الطنطاوي، مكتبة القرآن، القاهرة .

٦٥٥- **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**- لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، دار ابن خلدون، الاسكندرية.

٦٥٦- **مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها** - على أحمد مدكور، دار الفكر العربي، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٦٥٧- **مناهل العرفان في علوم القرآن**- محمد عبدالعظيم الزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة .

٦٥٨- **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك** - عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ .

٦٥٩- **المنتقى شرح الموطأ**- أبو الوليد سليمان بن خلف القرطبي الباجي الأندلسي (٤٧٤هـ)، مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر - الطبعة الأولى ١٣٣٢ هـ، (ثم صورتها دار الكتاب الإسلامي، القاهرة - الطبعة: الثانية، بدون تاريخ).

٦٦٠- **المنتقى من كتاب الطبقات** - أبو عروبة الحسين بن محمد بن أبي معشر مودود السُّلَمي الجَزَري الحَرَّاني

(٣١٨هـ)، عنى بتحقيقه: إبراهيم صالح، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م.

٦٦١- **المنثور في القواعد الفقهية**- محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، تحقيق: د/ تيسير فائق أحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٦٦٢- **منجد المقرئين ومرشد الطالبين** - شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (٨٣٣هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

٦٦٣- **منهاج السنة النبوية**- أحمد بن عبدالحليم الحراني، ابن تيمية، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى.

٦٦٤- **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج** - يحي بن شرف بن مري النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٦٦٥- **منهج الاستنباط من القرآن الكريم**- د/ فهد بن مبارك الوهبي، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي بجدة، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

٦٦٦- **منهج تدبر القرآن الكريم** - أ.د حكمت بشير ياسين، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

٦٦٧- **موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان** - عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (١٤٢٢هـ)، الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤هـ.

٦٦٨- **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** - أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (٨٤٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٦٩- **الموافقات في أصول الفقه**- إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبي، تحقيق: عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

٦٧٠- **المواهب الربانية من الآيات القرآنية** - عبدالرحمن ناصر السعدي، اعتنى به: عمر بن عبدالله المقبل، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٦٧١- **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية** - أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (٩٢٣هـ)، المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر.

٦٧٢- **المؤتَلِف والمختَلِف** - أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (٣٨٥هـ)، تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٦٧٣- **موسوعة الأعمال الكاملة**- للإمام محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها ابن أخيه المحامي/ علي الرضا الحسيني، دار النوادر (سوريا، لبنان، الكويت)، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ.

٦٧٤- **الموسوعة القرآنية المتخصصة** - مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢ م .

٦٧٥- **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**- الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د/ مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية .

٦٧٦- **موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم** - محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (بعد ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٩٩٦م .

٦٧٧- **الموطأ**- مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (١٧٩هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي- مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي – الإمارات، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤م .

٦٧٨- **ميزان الاعتدال في نقد الرجال** – شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (٧٤٨هـ) ، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٨٢ هـ- ١٩٦٣م .

٦٧٩- **الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم**- علي بن محمد بن حزم الأندلسي، تحقيق: د/ عبدالغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ .

٦٨٠- **الناسخ والمنسوخ**- هبة الله بن سلامة بن نصر المقري، تحقيق: زهير الشاويش ومحمد كنعان، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ .

٦٨١- **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم** - محمد بن عبد الله دراز (١٣٧٧هـ)ن اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م .

٦٨٢- **النبوات**- أحمد بن عبدالحليم الحراني، ابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٦هـ .

٦٨٣- **نتائج الأفكارفي تخريج أحاديث الأذكار**- ابن حجر العسقلاني (٨٥٢ هـ)، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، دار ابن كثير، الطبعة الثانية ١٤٢٩ هـ- ٢٠٠٨ م.

٦٨٤- **النحو الوافي** - عباس حسن (١٣٩٨هـ)، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة.

٦٨٥- **نزهة الأسماع في مسألة السماع**- عبدالرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: وليد عبدالرحمن الفريان، دار

طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م .

٦٨٦- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء** - عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (٥٧٧هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء – الأردن، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م .

٦٨٧- **نزهة المجالس ومنتخب النفائس** - عبد الرحمن بن عبد السلام الصفوري (٨٩٤هـ)، المطبعة الكاستلية – مصر ١٢٨٣هـ .

٦٨٨- **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**- محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي، المعروف بالشريف الادريسي (٥٦٠هـ)، عالم الكتب، بيروت- الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ .

٦٨٩- **النشر في القراءات العشر** - شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى : ٨٣٣ هـ)، تحقيق : علي محمد الضباع (١٣٨٠ هـ)، المطبعة التجارية الكبرى.

٦٩٠- **نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب** - ابن سعيد الأندلسي، المحقق: الدكتور نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان – الأردن .

٦٩١- **النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر** – د/ قطب الريسوني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ .

٦٩٢- **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ** - عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة : الرابعة .

٦٩٣- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** - إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

٦٩٤- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**- أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م .

٦٩٥- **النكت الدالة على البيان في أنواع العلوم والأحكام** - أحمد محمد بن علي بن محمد الكَرَجي القصَّاب (نحو ٣٦٠هـ)، تحقيق:الجزء ١ : علي بن غازي التويجري، الجزء ٢ - ٣: إبراهيم بن منصور الجنيدل، الجزء ٤ : شايع بن عبده بن شايع الأسمري، دار القيم - دار ابن عفان، الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

٦٩٦- **النكت والعيون (تفسير الماوردي)** - أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية- بيروت.

٦٩٧- **نهاية الأرب في فنون الأدب** - أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري،

شهاب الدين النويري (٧٣٣هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

٦٩٨- **النهاية في غريب الحديث والأثر**- أبو السعادات، المبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٦٩٩- **نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ** - محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي (نحو ٣٢٠هـ)، المحقق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل - بيروت.

٧٠٠- **النَّوادر والزِّيادات على مَا في المدَوَّنة من غيرها من الأُمهاتِ** - أبو محمد عبد الله بن (أبي زيد) عبد الرحمن النفزي، القيرواني، المالكي (٣٨٦هـ)، تحقيق: عبدالفتاح الحلو وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

٧٠١- **نواسخ القرآن**- عبدالرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٧٠٢- **نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار**- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تعليق: محمد منير الدمشقي، إدارة الطباعة المنيرية.

٧٠٣- **هجر القرآن العظيم**- د/ محمود بن أحمد الدوسري، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٧٠٤- **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٧٠٥- **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه** - أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (٤٣٧هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م.

٧٠٦- **الوابل الصيب من الكلم الطيب**- محمد بن أبي بكر الزرعي، ابن القيم، تحقيق: محمد عبدالرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٧٠٧- **الواضح في علوم القرآن** - مصطفى ديب البغا، محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، دار العلوم الانسانية - دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.

٧٠٨- **الوافي بالوفيات** - خليل بن أيبك صلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرنؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ط: ١٤٢٠هـ.

٧٠٩- **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز** - أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (٤٦٨هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٧١٠- **وحي القلم** - مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد الرافعي (١٣٥٦هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٧١١- **الوحي والقرآن والنبوة** – هشام جَعيط، دار الطليعة، بيروت. الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.

٧١٢- **الورقات** - عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (٤٧٨هـ)، تحقيق: د. عبد اللطيف محمد العبد.

٧١٣- **الوسيلة إلى كشف العقيلة**- لأبي الحسن علي بن محمد السخاوي، تحقيق: د/ مولاي محمد الإدريسي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٧١٤- **وصايا العلماء عند حضور الموت** - أبو سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة الربعي (٣٧٩هـ)، تحقيق: صلاح محمد الخيمي والشيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير - دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦–١٩٨٦.

٧١٥- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان** – أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان (٦٨١هـ)، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، لبنان.

المجلات والدوريات:

١- مجلة البحوث والدراسات القرآنية–العدد الرابع.

٢- مجلة البيان عدد: (٢٧٩) ذو القعدة ١٤٣١هـ.

٣- المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، عدد: (١).

٤- مجلة معهد الإمام الشاطبي – العدد الرابع.

٥- مجلة مجمع الفقه الإسلامي العدد الخامس.

الأبحاث غير المطبوعة:

١- أبحاث المؤتمر العالمي الأول لتدبر القرآن في الدوحة ١٤٣٤هـ، الذي نظمته الهيئة العالمية للتدبر.

٢- أبحاث ملتقى تدبُّر الثاني بالرياض ١٤٣١هـ.

رسائل جامعية:

١ – حفظ العقل عند ابن عاشور في تفسيره للباحث: محمود باي، من كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية قسم الشريعة، في جامعة الحاج لخضر بباتنة بالجزائر.

٢ – إقامة الحدود في الشريعة الإسلامية لحفظ المال وحفظ العقل وأثرها في إصلاح المجتمع، (رسالة علمية) من كلية الشريعة والقانون جامعة الأزهر بالقاهرة.

٣– التطور الدلالي للألفاظ في النص القرآني – للباحثة/ جنان منصور الجبوري، أطروحة دكتوراه في كلية التربية بجامعة بغداد

٤ – أثر اختلاف الإعراب في تفسير القرآن الكريم (من التوبة إلى يوسف)– رسالة ماجستير للطالب/ أمجد وفيق أبو مطر، الجامعة الإسلامية بغزة.

٥ – المكي والمدني وما قيل فيه– الباحثان د/ عبد الرزاق حسين أحمد، ود/ عمر بن عبد العزيز الفالح، في رسالتي دكتوراه بالجامعة الإسلامية، مطبوعتان.

٦ – الآيات التي قيل لا اعتبار بمفهومها– دراسة نقدية، عمر سليمان، رسالة دكتوراه في الجامعة الإسلامية.

المقالات والأبحاث المنشورة على الشبكة العنكبوتية (الانترنت):

١ – مقال بعنوان : (تدبُّر القرآن فريضة، على موقع المسلم)، للشيخ أ.د/ ناصر العمر، على الانترنت:
. http://www.almoslim.net/node/١١٦٦٧٤

٢ – مقال بعنوان: (العلاج النفسي الذاتي بالقرآن)، للدكتور رامز طه، على صفحته على شبكة الانترنت:
www. rameztaha. net

٣– بحث بعنوان: (منهج القرآن والسنة في بناء العقلية العلمية)، الباحث: جمال عبدالناصر، الموضوع:
. http: //www. alukah. net/sharia/٠/٤٢٣٥٧/#ixzz٢mIU٧wycL

٤ – مقال بعنوان: (حضارة المسلمين وأثر القرآن في تنمية القوى الإنسانية)، للشيخ/ أحمد السائح – من علماء الأزهر– مقال من موقع طريق الإسلام:
. http: //ar. islamway. net/article/٥٢٣٢

٥ – بحث بعنوان: (الحاجة إلى فهم المقاصد)، الباحث: أ/ حنافي عبد الجواد، على الرابط التالي:
.http: //www. alukah. net/sharia/٠/٣٥٧١١

٦ –مقال: (الهزيمة النفسية)– د/ عبدالله الصبيح منشور على شبكة الانترنت:
.(http: //islamtoday. net/nawafeth/artshow-٤٣-١١٤٨٥. htm)

٧– مقال بعنوان: (تدبر لا تفسير) للدكتور/ عمر المقبل، بموقع الإسلام اليوم على شبكة الانترنت:
. http://www.islamtoday.net/bohooth/artshow-٨٦-٦٣٣٥.htm

٨- مقال بعنوان: (الاستفادة من التفسير الإشاري في تدبر القرآن) أ.د/ مساعد الطيار على موقعه على شبكة الانترنت:

http://www.attyyar.net/container.php?fun=artview&id=٣٧٤.

٩- بحث: (القول المؤثر في بيان أنواع التدبر)، لمرشد الحيالي، منشور على شبكة الانترنت:

. http://www.alukah.net/sharia/٠/٧٣٤٠

١٠- قواعد في تدبر القرآن الكريم – محمود العشري، نشر في شبكة الألوكة الشرعية على شبكة الانترنت على الرابط:

http://www.alukah.net/sharia/٠/٦٤٢٦٠/#ixzz٣IyIElRNf.

١١- مقال بعنوان: (تدبُّر في التدبُّر)، للزميل الدكتور/ نايف الزهراني، منشور على شبكة الانترنت في ملتقى أهل التفسير على الرابط التالي:

. http://vb.tafsir.net/tafsir١٢٢٢٤/#.VIGhDfl_tpA

١٢- بحث بعنوان: (طريقة القرآن في تقرير المعاد)، أ.د/ عبدالستار فتح الله سعيد، على شبكة الانترنت بموقع منارات

http://www.manaratweb.com . /

١٣- بحث بعنوان: (خلْق حاستي السمع والبصر) للدكتور/ زغلول النجار، على شبكة الانترنت على الرابط التالي:

https://www.facebook.com/zaghloulanajjar/posts/٢٠٣٤١١٥٦٩٨٣٧٧٥٠.

مواقع الانترنت:

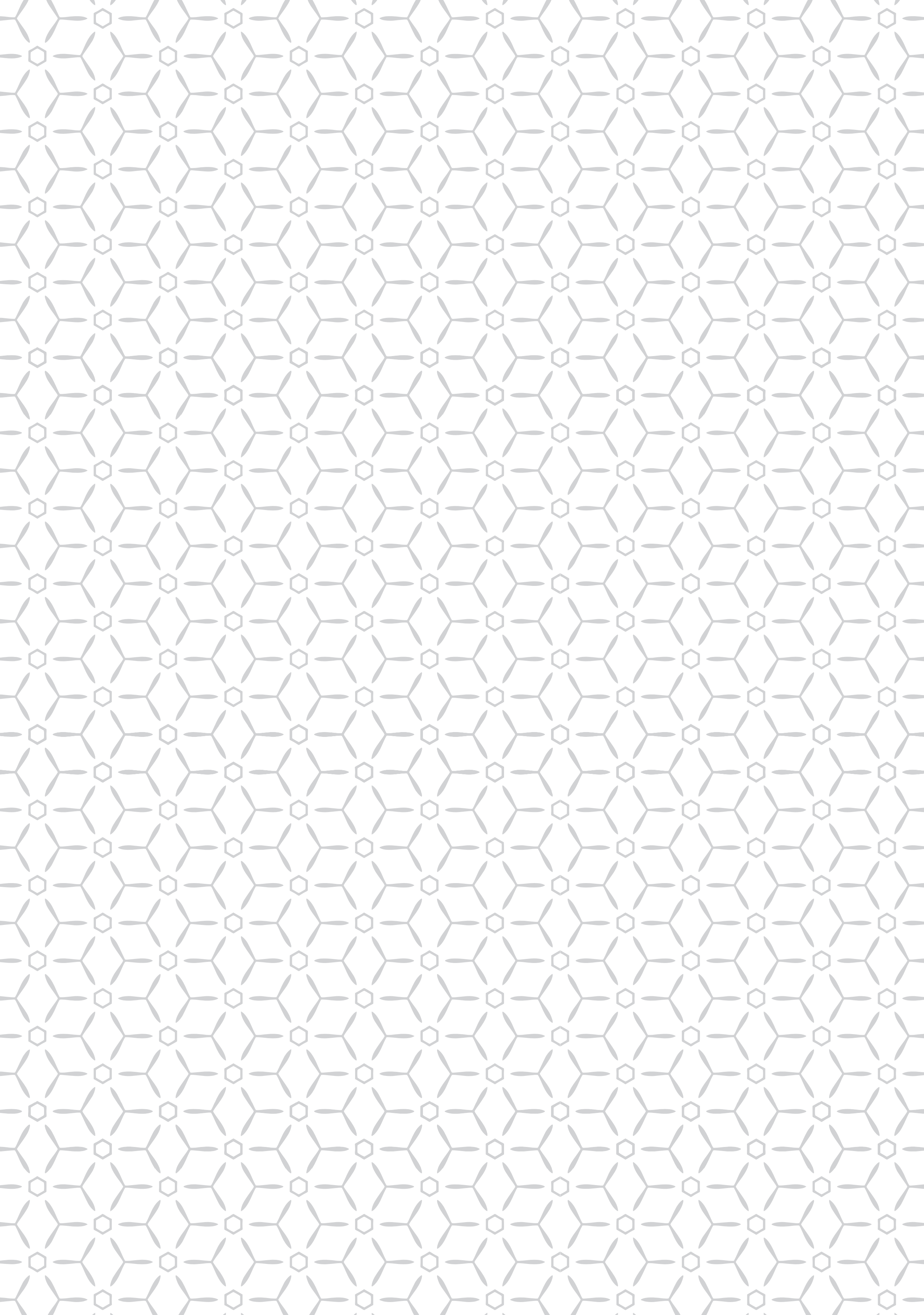
١- موسوعة ويكيبيديا على شبكة الانترنت:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D٨٪B٣٪D٩٪٨٨٪D٩٪٨A%D٨٪AF%D٨٪A٧٪D٨٪A١ .

٢- موقع المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية (إسلام ست): www. islamset. com/Arabic .

٣- موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة:

.(http: //www. eajaz. org)



فهرس المحتويات

الباب الثاني: وسائل التدبُّر وشروطه وموانع حصوله ٥

الفصل الأول: وسائل التدبُّر وشروطه ٧

- المطلب الأول: أسباب تعين على تدبُّر القرآن قبل تلاوته:................. ٨

- المطلب الثاني: أسباب تعين على تدبُّر القرآن أثناء تلاوته: ٢٥

- المطلب الثالث: أسباب عامة تعين على تدبُّر القرآن الكريم:............... ٣١

المبحث الثاني: أثر فهم اللغة في تحقيق التدبُّر الصحي ٤٥

- المطلب الأول: حكم تعلُّم اللغة العربية.: ٤٧

- المطلب الثاني: أهمية اللغة العربية وخطر الجهل بها على تدبُّر القرآن الكريم: ٤٩

- المطلب الثالث: مجالات اللغة العربية المعينة على تدبُّر القرآن الكريم: ٥٦

المبحث الثالث: أثر فهم التفسير في تحقيق التدبُّر الصحيح ٩٠

- المطلب الأول: أهمية التفسير للمتدبّر: ٩٠

- المطلب الثاني: طرق التفسير وأثرها على التدبُّر: ٩٦

- المطلب الثالث: أساليب التفسير وأثرها على التدبُّر: ١٠٦

المبحث الرابع: أثر علوم القرآن في تحقيق التدبُّر الصحيح ١٠٨

المبحث الخامس: شروط التدبُّر...................................١٢٨

مدخل: ١٢٨

- المطلب الأول: شروط التدبُّر بحسب المتدبِّر: ١٣٠

- المطلب الثاني: شروط التدبُّر من حيث المعنى المتدبَّر: ١٣٨

الفصل الثاني: موانع حصول التدبر وخطورتها ١٤٨

المبحث الأول: أنواع الموانع الحائلة عن التدبُّر..١٤٩

- المطلب الأول: الموانع الاعتقادية: ١٥٠

- المطلب الثاني: موانع سلوكية: ١٧٣

المبحث الثاني: خطورة الموانع الحائلة دون التدبُّر ٢٠٤

الباب الثالث: ضوابط التدبر الصحيح للقرآن الكريم وطريقته........................ ٢١١

الفصل الأول: ضوابط التدبر الصحيح لكتاب الله الكريم ٢١٧

المبحث الأول: الضوابط المتعلِّقة بنزول القرآن المعينة على التدبُّر ٢١٨

- المطلب الأول: أسباب النزول موقوفة على النَّقل الصحيح والنصِّ الصريح، وإذا صحَّ سبب النزول؛ وجب الاعتماد عليه في تدبُّر الآية:....................٢١٨

- المطلب الثاني: قد يكون سبب النزول واحداً ... .٢٢٢

- المطلب الثالث: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: ٢٢٥

- المطلب الرابع: معرفة المكي والمدني أصل في تدبُّر القرآن الكريم: ٢٣١

- المطلب الخامس: ينزَّل المدني في الفهْم على المكّي، وكذا المكي بعضه مع بعض على حسب ترتيبه في التنزيل: ٢٣٦

❖ **المبحث الثاني**: ضوابط علوم القرآن المعينة على التدبُّر. ٢٤٠

- المطلب الأول: استعراض موضوعات السورة جزء من تدبرها.............٢٤٠

- المطلب الثاني: يراعى في التدبُّر النَّظر إلى سياق الآية؛ سباقها ولحاقها: ٢٤٥

- المطلب الثالث: الأصل حمل النصوص في تدبرها ... .٢٤٧

- المطلب الرابع: الأصل في تدبُّر الأمر اعتبار الوجوب، ... .٢٥١

- المطلب الخامس: إذا أثبت الله شيئاً في كتابه امتنع نفيه:.................. ٢٦٠
- المطلب السادس: لا يكون القسَم في القرآن إلا بأمرٍ ظاهرٍ معظَّم:........ ٢٦٣
- المطلب السابع: القراءات يبيِّن بعضها بعضاً، ٢٦٦
- المطلب الثامن: النسخ لا يقع إلا في الأمر والنهي، ٢٦٩
- المطلب التاسع: علم المبهمات موقوف على النقل فقط ٢٧٣
- المطلب العاشر: كلُّ حكاية ذُكرت في القرآن وقارنها ردٌّ لها فهي باطلة:... ٢٧٧
المبحث الثالث: الضوابط اللغوية المعينة على التدبُّر........................... ٢٨١
- المطلب الأول: الجملة الاسمية تدلُّ على الدوام والثبوت، ٢٨١
- المطلب الثاني: زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى وقوة اللفظ ٢٨٣
- المطلب الثالث: بعض ألفاظ القرآن المتقاربة في المعنى؛ ٢٨٧
- المطلب الرابع: تقديم القرآن لشيء يدلُّ غالباً على الاهتمام والعناية به:....... ٢٩١
- المطلب الخامس: كلما عظُم الاهتمام كثر التأكيد:......................... ٢٩٣
- المطلب السادس: الأصل عند تعاقب الضمائر أن يتَّحد مرجعها:......... ٢٩٦
- المطلب السابع: قد يرد الشيء منكَّراً في القرآن تعظيماً له:................ ٢٩٨
- المطلب الثامن: حذف جواب الشرط يدلُّ على تعظيم الأمر ٣٠٠
- المطلب التاسع: الأصل في صفات المدح أن ينتقل فيها من الأدنى ٣٠١
- المطلب العاشر: حذف المتعلَّق المعمول فيه؛ يفيد تعميم المعنى المناسب له: ٣٠٢
- المطلب الحادي عشر: الحكم إذا علِّق على وصف؛ ٣٠٥
- المطلب الثاني عشر: المفرد المضاف يفيد العموم كما يفيد ذلك اسم الجمع: ٣٠٧
- المطلب الثالث عشر: ذكر الأوصاف المتقابلات ٣٠٩

- المطلب الرابع عشر: التعجُّب في القرآن يدلُّ على محبَّة الله للفعل، أو بغضه، أو امتناعه وعدم حسنه، أو يدلُّ على حسن المنع منه وأنه لا يليق به فعله: ٣١١

- المطلب الخامس عشر: يفهم من التكرار معنى عند التدبُّر ... .٣١٣

المبحث الرابع: ضوابط الاستنباط المعينة على التدبُّر ٣١٨

- المطلب الأول: يجب فهم النصّ القرآني من النص القرآني نفسه: ٣١٨

- المطلب الثاني: يقدَّم الفهم الذي تؤيده آية أو خبر صحيح على غيره: ٣٢١

- المطلب الثالث: يجري القرآن في إرشاداته مع الزمان والمكان ... .٣٢٢

- المطلب الرابع: الاقتران في النظم لا يستلزم الاقتران في الحكم: ٣٢٦

- المطلب الخامس: الآيات التي تضمَّنت قيوداً؛ لا تثبت أحكامها ... .٣٢٩

- المطلب السادس: تجب مراعاة ما دلَّت عليه ألفاظ القرآن مطابقة ... .٣٣٣

- المطلب السابع: الختم بالأسماء الحسنى، يدلُّ على أنَّ الحكم له ... .٣٣٩

المبحث الخامس: ضوابط عامة تعين على التدبُّر. وفيه مطالب:................٣٤٥

- المطلب الأول: يجب التحرُّز عند التدبُّر من القول في الأمور الغيبية ٣٤٥

- المطلب الثاني: متى علَّق الله علمه بالأمور بعد وجودها، كان المراد ٣٤٦

- المطلب الثالث: الأدلة الشرعية لا تنافي القضايا العقلية.....................٣٤٨

- المطلب الرابع: إذا وضح الحقُّ وبان، لم يبق للمعارضة العلمية، ... .٣٥٣

- المطلب الخامس: تعريف القرآن بالأحكام أكثره كلي لا جزئي. ٣٥٥

- المطلب السادس: ما ورد في القرآن حكاية عن غير أهل اللسان ... .٣٥٩

- المطلب السابع: المحترزات في القرآن تقع في كل المواضع في أشدّ ... .٣٦٣

المبحث السادس: مفاهيم وقواعد عامة تعين على التدبُّر ٣٦٦

- المطلب الأول: جاء القرآن بالهداية للتي هي أقوم، وبيان كل شيء: ٣٦٦
- المطلب الثاني: جاء القرآن الكريم بتقرير الأصول التي اتفقت ٣٧٢
- المطلب الثالث: تأتي في القرآن غالباً مقارنة الترغيب والترهيب، ٣٨٣
- المطلب الرابع: جاء القرآن بأمر المؤمنين بالأحكام الشرعية، ٣٨٨
- المطلب الخامس: جاء القرآن بدعوة الكفار، ومجادلة المبطلين ٣٩٢
- المطلب السادس: إذا أراد الله إظهار الكمال قرنه بضدّه:................. ٣٩٩
- المطلب السابع: حثَّ القرآن على التوسُّط والاعتدال، وذمَّ الغلو ٤٠٥
- المطلب الثامن: جعل الله أسباب المطالب العالية مبشرات؛ ٤٠٨
- المطلب التاسع: يبيّن القرآن كثيراً أنَّ الأجر على قدر المشقة في ٤١١
- المطلب العاشر: إذا منع الله عباده شيئاً تتعلق به إرادتهم، فتح لهم ٤١٣
- المطلب الحادي عشر: دلَّ القرآن في عدة آيات أنَّ من ترك ما ينفعه ٤١٧
الفصل الثاني: أدوات التدبر الصحيح لكتاب الله الكريم وطريقته ٤١٩
المبحث الأول: الأدوات المهمَّة للمتدبِّر ٤٢٠
- المطلب الأول: القلب: ٤٢٢
- المطلب الثاني: السمع:.. ٤٣١
- المطلب الثالث: البصر:.. ٤٣٨
- المطلب الرابع: اللسان:.. ٤٤٤
المبحث الثاني: المنهج الأمثل للتدبُّر ٤٤٧
* مدخل:... ٤٤٧
- المطلب الأول: تدبُّر اسم السورة: ٤٤٩

- المطلب الثاني: معرفة المحور الذي تدور حوله السورة: ٤٥١
- المطلب الثالث: تدبُّر مطلع السورة وفاتحتها: ٤٥٢
- المطلب الرابع: تدبُّر خاتمة السورة والمقاطع: ٤٥٦
- المطلب الخامس: تدبر الفروق البيانية بين المعاني الكلية في السور: ٤٥٧
- المطلب السادس: تدبُّر المعاني الكلية الخاصّة: ٤٥٨
- المطلب السابع: تدبُّر الفروق البيانية بين المعاني الجزئية ٤٥٩
- المطلب الثامن: تحليل السُّورة إلى أقسام ومعاقِد كلّية: ٤٦٢
- المطلب التاسع: التَّحْليل البياني لكلمات وجمل وآيات السورة: ٤٦٦
- المطلب العاشر: استخراج الفوائد التدبُّرية: ٤٨٥
- المطلب الحادي عشر: العزم والتصميم على التطبيق العملي للمتدبَّر: ٤٨٥
- المطلب الثاني عشر: نموذج تطبيقي للمنهج (تدبر سورة الملك). ٤٨٧

الخاتمة ٥٠٧

فهرس المصادر والمراجع ٥١٥

- الكتب المطبوعة: ٥١٥

المجلات والدوريات: ٥٧٣

الأبحاث غير المطبوعة: ٥٧٣

رسائل جامعية: ٥٧٤

المقالات والأبحاث المنشورة على الشبكة العنكبوتية (الانترنت): ٥٧٤

مواقع الانترنت: ٥٧٥

فهرس المحتويات ٥٧٧